فن الوصف

في مدرسة عبيد الشعر

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَنُّ الوَصْفِ

فِي مَدرَسَةِ عَبِيدِ الشِّعْرِ

تأليف
الدكتور محمّد بن لطفي الصّباغ

المكتب الإسلامي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

المكتب الاسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلامياً
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد

فإنّ موضوع هذه الدراسة هو (الوصف عند عبيد الشعر) والوصف هو تصوير مظاهر الطبيعة الحية وتتمثل في الانسان والحيوان سواء أكانت هذه المظاهر أعضاء أم أحاسيس وعواطف ، وتصوير مظاهر الطبيعة الساكنة من منظر خلاب أو طريق موحش أو أدوات تستعمل في الحرب أو في السلم وما يتصل بذلك . ورغبة في أن تكون هذه الدراسة مستقصية مؤدية بعض النتائج قصرت البحث على أعضاء مدرسة عبيد الشعر في الجاهلية وصدر الإسلام فدرست دواوين الشعراء الخمسة : طفيل الغنوى ، وأوس بن حجر ، وزهير بن أبي سُلمى ، وكعب بن زهير ، والخطيئة .

وقد أمضيت حقبة غير قليلة في استعراض شعرهم بيتاً بيتاً ، ولم أدع في دواوينهم مقطوعة ولا قصيدة دون أن أقرأها وأحيا في ظلالها ، وأشهد أني قد استمتعت بقراءة هذا الشعر ، وبالعيش في هاتيك الأجواء التي كادت تمحي من مجتمعاتنا ، وإن كنت أعترف بأنني لاقيت صعوبة غير يسيرة في المضي في هذه القراءة

على الرغم من أنني سلخت عشرين عاماً من عمري بعد حصولي على إجازة الآداب دارساً للأدب ومدرساً .

وإنني لأرجو أن أقدم شيئاً نافعاً ، فإن أنا نجحت فهذا من فضل الله وإن كانت الأخرى فحسبي أنني بذلت جهدي . وإنني عظيم الايمان بالصلة الوثيقة التي تربط بين العربية والإسلام وبأن التفريط في اللغة العربية : نحوها وأدبها تفريط في فهم مصدري الاسلام الرئيسيين : الكتاب والسنة . وإننا لنرى في حياتنا نتائج هذا التفريط لدى نفر من أدعياء العلم زعموا أنهم تخصصوا في الشريعة ولكن أحدهم لا يستطيع أن يقيم لسانه في قراءة آية أو حديث ، ولا يقوى على أن يصل إلى الفهم السديد السليم . ومن هنا نستطيع أن نفسر تلك الهجمة الشرسة والحرب الضارية التي يشنُّها نفرٌ من أعداء الاسلام على اللغة العربية . . . وما المقصود في الحقيقة إلاّ الإسلام . . ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ويحفظ دينه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون والحمدلله رب العالمين .

تمهيد

من هم عبيد الشعر :

إن عبيد الشعر هم أولئك الشعراء الذي كانوا يتخذون الشعر صناعة لهم ، ينصرفون إليها مهذِّبين ومنقِّحين ، يدافعون طبعهم ويتأنون في نظم الشعر. وسيمر بنا من أخبارهم ما يؤكد هذا المعنى أعظم التأكيد .

والشعر صناعة من أجود الصناعات عند العرب ، ذكر الجاحظ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

« خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته ».[1] فالشعر في تصور العرب ـ كما يدل على ذلك قول عمر هذا ـ صناعة من الصناعات ، والصناعة لا بدّ فيها من بذل الجهد ، والنظر فيما تنتجه والعناية به .

إنه صناعة لها قواعد محددة ، وشأنه شأن الصناعات الأخرى التي تقوم في حياة الناس .

وليس من شك في أن الشعراء عامة ، وشعراء مدرستنا خاصة ، كانوا يترسمون خطوات شعراء تقدموهم ، ويلتزمون بعض الأعراف والقواعد ، بل يكررون بعض المعاني حتى بدا لكعب أنه لا يقول إلاّ مكرورا من القول ، قال كعب :

ما أرانا نقول إلاّ رجيعاً ومُعاداً من قولنا مكروراً[2]

(١) « البيان والتبيين » ٢ / ١٠١

(٢) « ديوان كعب » ١٠٤ .

زمن مدرسة عبيد الشعر :

قلت : إنني سأقتصر في دراستي لهذه المدرسة على العصر الجاهلي وصدر الإسلام إذ سأقف عند الحطيئة ، ولا أجاوزه إلى من بعده من الشعراء الذين يكملون هذه السلسلة .

أما الحقبة التي كان فيها هؤلاء الشعراء فقريبة العهد من الإسلام كما يدل على ذلك شعرهم من حيث أسلوبه ولغته ومضمونه ومن حيث قائلوه .

أما لغته فإنها لغة قريش التي نجدها في القرآن الكريم .

وأما قائلوه فيكفينا لنقرر قرب عصرهم من الإسلام أن نذكر أن كعبا صحابي وأن الحطيئة مخضرم أسلم وعاصر عمر ومدحه .

وكذلك فإننا نجد في أشعارهم أسماء ناس أسلموا فيما بعد وذكروا في عداد الصحابة كقيس بن عاصم المنقري[1] الذي ذكره أوس بن حجر في ديوانه .[2] وهذا الذي وقفنا عليه يؤيد ما قرره الباحثون في القديم والجديد من أن عمر الشعر الجاهلي لا يتجاوز المائة والخمسين سنة قبل الإسلام . قال الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥) :

(أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة ، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام) .[3]

عبيد الشعر :

كان هؤلاء الشعراء قد جمعوا إلى الموهبة الشعرية العظيمة التي أوتوها العناية بما ينظمون من شعر والنظر فيه وتثقيفه . قال الجاحظ يذكرهم :

---

(١) انظر ترجمته في (الإصابة) لابن حجر ٣ / ٢٤٢ .
(٢) انظر (ديوان أوس بن حجر) صفحة ٤٩ .
(٣) انظر (الحيوان) ١ / ٧٤ .

(من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا[1] وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته .

وكانوا يسمون تلك القصائد « الحوليات » و « المقلدات » و « المنقحات » و « المحكمات » ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً) .[2]

كانوا يأخذون أنفسهم بذلك ، ويربون أولادهم على هذا النهج ، فقد ذكر ثعلب أن زهيراً كان ينهى كعباً عن قول الشعر مخافة أن يكون لم يستحكم شعره فيروى له ما لا خير فيه، فكان يضربه في ذلك ، فعل ذلك به مراراً فغلبه ، فطال ذلك عليه ، فأخذه فحبسه ثم قال : والذي أحلف به لا تتكلم ببيت شعر إلاّ ضربتك ضرباً ينكلك عن ذلك . حتى إذا تمكن من الشعر ودانت له الموهبة ونضج شعره واستوى ، ونجح في امتحان أجراه له أباح له أن يقول الشعر .[3]

وكذلك فقد قرّر ابن قتيبة أيضاً هذه الصفة ، صفة التقويم والتهذيب لشعر هذه الطائفة من الشعراء، وهم عبيد الشعر، فقال:

(ومن الشعراء المتكلّف والمطبوع . فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة) .[4]

وقد أصاب ابن قتيبة عندما نسب لزهير والحطيئة عادة التثقيف والتنقيح وطول التفتيش ، ولكنه أخطأ عندما جعل ذلك مقابلاً للمطبوعين .

إنّ زهيراً والحطيئة من المطبوعين الموهوبين ، ولا يخرج التثقيف والنظر في الشعر المطبوع عن طبعه . بل إنه ليس هناك شاعر لا يستعدّ للشعر ولا يبذل في ذلك جهداً . ولو أنّ ابن قتيبة قابل هؤلاء المثقفين بالمرتجلين لكان أقرب إلى الصواب . بل

(١) أي كاملاً .
(٢) « البيان والتبيين » ٢ / ٩ .
(٣) « شرح ديوان كعب » صفحة (ف).
(٤) مقدمة « الشعر والشعراء » ١ / ٢٣ تحقيق أحمد شاكر طبعة (١) .

إنّ الدكتور شوقي ضيف ذهب إلى أن الشعراء جميعاً متكلفون وقد بلغ التكلف عند شعراء هذه المدرسة أعلى الدرجات . وهذا حق . ويقول : (. . . فإن هؤلاء المطبوعين لم يكونوا يلغون التكلف إلغاء ، كما أنّ هؤلاء المتكلفين لم يكونوا يلغون الطبع إلغاء ، ولذلك كنا نرى أن نعمم التكلف في الشعر القديم ، ونجعله على درجات ، يبلغ أعلاها عند زهير وأصحابه ، الذين كانوا يعملون شعرهم عملاً ، ويأخذونه بالتفكير الدقيق ، والبحث والتحقيق) .[1] ومضى ابن قتيبة يعدد أوصاف الشعر المتكلَّف ذاكراً أنه ليس به خفاء على أهل العلم فقال :

(والمتكلف من الشعر ، وإن كان جيداً محكماً فليس به خفاء على ذوي العلم لتبينُّهم ما نزل بصاحبه من طول التفكر وشدّة العناء ، ورشح الجبين وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه) .[2]

وقال :

(والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر ، واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ، ووشي الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر) .[3]

أقول : وكلامه عن الشعر المتكلف ليس بسديد ، إذ لا تجتمع الجودة والإحكام مع التكلف الذي تكثر فيه الضرورات ، ويحذف منه من المعاني ما يحتاج إليه الكلام ، ويكون فيه حشو يستغنى عنه . ولو قال : إن المتكلف مهما بذل صاحبه فيه من جهد ، ومهما لاقى من عناء لا يخفى على أهل العلم بالشعر ، لكان أقرب إلى الصواب هذه واحدة . والثانية : إذا كان هذا حال الشعر المتكلف فكيف يسوغ أن نضع شعر زهير والحطيئة في عداده ، وستبيِّن هذه الدراسة إن شاء الله مدى إحكام شعر الرجلين وجودته ، وسيمر بنا قول الأصمعي ، وهو من هو بصرا بالشعر وإدراكاً لجيده :

---

(١) « الفن ومذاهبه » صفحة (٢١) طبعة (٧) .
(٢) « الشعر والشعراء » ١ / ٣٤ .
(٣) « الشعر والشعراء » ١ / ٣٥ - ٣٦

(وما تشاء أن تقول في شعر شاعر من عيب إلاّ وجدته ، وقلّما تجد ذلك في شعر الحطيئة) [1] .

إنّ المتكلّف ـ إن لم يكن موهوباً ـ لا يستطيع أن يأتي بشيء مهما أطال التفكير وعانى الصعوبات .

وأما كلامه عن المطبوع فسائغ مقبول ، وإن كنا نقول : إن المطبوع الموصوف بما ذكر يزداد شعره حسناً على حسن لو أنه نظر فيه بعد نظمه ونقحه وهذّبه وأعاد التأمل فيه مرّة بعد مرّة .

ويبدو أنّ ابن قتيبة خلط بين التكلف والتهذيب والتنقيح .

والحق أن التكلف هو أن يحاول المرء ليس بمطبوع ولا موهوب قول الشعر فيأتي بنظم عديم الروح ، فاسد المعنى ، مهلهل النسج ، ضعيف الرواء ، ليس له من الشعر إلا الوزن والقافية .

وقد كان ابن رشيق أدق قولاً ، وأعمق نظراً ، وأصدق لهجة عندما نفى عن شعرهم صفة التكلف الذي عرف في المولدين فقال :

(والمصنوع ، وإن وقع عليه هذا الاسم ، فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل ، لكن بطباع القوم عفواً فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل بعد أن عرفوا وجه امتيازه على غيره ، حتى صنع زهير « الحوليات » على وجه التنقيح والتثقيف ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب ، بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك) . [2]

يقول الدكتور محمد زغلول سلام :

(وقد وقع ابن قتيبة في هذا الوهم والخلط الكبير حين قرن بين الصنعة

---

(١) « الأغاني » ٢ / ١٦٣ .
(٢) « العمدة » ١ / ١٠٨ .

والتكلف في مقدمة « الشعر والشعراء » لكن ابن رشيق فرّق بينهما تفريق الناقد البصير ، ورأى في الصنعة جمالاً وحسناً ، وفي التكلف قبحاً ، وجمال الصنعة راجع للقدرة والحذق ، وقبح التكلف راجع للقصور والكذب ، والتقليد ، وفي الأول يكون التلاؤم والتآلف ، وفي الثانية يكون الاختلاف والتفاوت) .[1] ونقل عن الفارابي رأياً سديداً في هذا الموضوع من كتابه « صنعة الشعراء » .

وخلاصة القول ، إن هؤلاء الشعراء ليسوا متكلفين وإنما هم أصحاب صنعة وتثقيف .

عبيد الشعر عند المتقدمين :

يبدو أن أول من أطلق عليهم هذه التسمية الأصمعي المتوفى سنة ٢١٦ هـ وجاء الباحثون من بعد يؤكدون وجود هذه الجماعة . وهذا الجاحظ يقرر ذلك بوضوح فيقول :

(كان زهير بن أبي سلمى يسمي كبار قصائده « الحوليات » ولذلك قال الحطيئة : خير الشعر الحولي المحكّك .

وقال الأصمعي : زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر . وكذلك كل من جود في جميع شعره ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة .

وكان يقال :

لولا أن الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب المتكلفين وأصحاب الصنعة ، ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذي تأتيهم المعاني سهوا ورهوا ، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً) .[2]

---

(١) « تاريخ النقد العربي » ١ / ٥٣ - ٥٤ .
(٢) « البيان والتبيين » ٢ / ١٣ .

وقد تبعه ابن قتيبة يسمي هؤلاء الشعراء عبيداً للشعر فيقول :

(وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . وكان الحطيئة يقول :

خير الشعر الحوليّ المنقح المحكك . وكان زهير يسمي كبرى قصائده « الحوليات » وقال سويد بن كراع[1] يذكر تنقيحه شعره :

أبيتُ بأبوابِ القوافي كأنما ... أُصادي بها سِرباً من الوحش نُزَّعا
أكالئها حتى أعرس بعد ما ... يكون سُحَيْراً أو بعيدا فأهجعا
إذا خفتُ أن تُروى عليّ رددتُها ... وراء التراقي خشية أن تطلعا

وقال عديُّ بن الرقاع :[2]

وقصيدة قد بتّ أجمع بيتها ... حتى أُقوِّم ميلها وسنادَها
نظر المثقف في كعوبِ قَناته ... حتَّى يقيمَ ثقافه منآدها)[3]

وينقل ابن رشيق كلمة الأصمعي، وفيها النابغة عوضاً عن الحطيئة.

ويضيف ابن رشيق إلى هذه الزمرة التي كانت تعنى بالتنقيح والتثقيف والتحكيك طفيلا الغنوي والحطيئة والنمر بن تولب[4] فيقول :

(وكان الأصمعي يقول : « زهير والنابغة من عبيد الشعر » يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ، ويشغلان به حواسهما وخواطرهما ، ومن أصحابهما في التنقيح وفي التثقيف والتحكيم طفيل الغنوي. وقد قيل :

---

(١) هو سويد بن كراع العكلي ، شاعر فارس ، كان في العصر الأموي . توفي نحو ١٠٥ هـ (انظر ترجمته في « الأغاني » ١١ / ١٢٣) .
(٢) هو عدي بن الرقاع العاملي ، شاعر من أهل دمشق ، كان معاصراً لجرير مهاجياً له ، توفي نحو ٩٥ هـ (انظر « الأغاني » ٨ / ١٧٢) .
(٣) « الشعر والشعراء » ١ / ٢٣ - ٢٤ .
(٤) النمر بن تولب العكلي شاعر مخضرم وصحابي كريم . توفي نحو ١٤ هـ ، (انظر « الإصابة » ٣ / ٥٤٢) .

إن زهيرا روى له ، وكان يسمى محبّرا لحسن شعره ، ومنهم الحطيئة والنمر بن تولب وكان يسميه أبو عمرو بن العلاء الكَيس)[1]

عبيد الشعر عند المحدثين :

أشار إلى هذه المدرسة عدد من الباحثين ،وكان الدكتور طه حسين من أوائل من درس هذه المدرسة دراسة جيدة موجزة في كتابه « في الأدب الجاهلي » فقد ذكر أنّ هذه المدرسة تعمد الأناة والروية ، وتقاوم الطبع والاندفاع في قول الشعر مع السجية ، فكثر عندها التشبيه والمجاز والاستعارة ، وكانت تعتمد على التصوير الحسي اعتماداً كبيراً . قال :

(. . والذي يعنينا أن نقف عنده من شعر أوس ، لأنه الخاصة المشتركة بينه وبين تلاميذه ، إنما هو قبل كل شيء مذهبه الشعري في الوصف) [2] .

ثم قال :

(. . . ذلك أن أوسا شاعر حسّي مادي ـ إن صحّ هذا التعبير ـ كأنه يشعر بحسّه ، كأنه يشعر بعينيه وأذنيه ويديه ، أو قل : كأنّ ملكة الخيال لم تودع منه حيث أودعت من الآخرين من وراء الحواس ، وإنما أودعت الحواس نفسها .

أو قل ـ إن لم يكن بدّ من التدقيق العلمي ـ : إنّ ملكة الخيال عند أوس كانت شديدة الاتصال بحسّه المادي ، قليلة الاستقلال عن هذا الحس حتى كأنها لم تكن تعمل شيئاً وحدها : لم تكن تخضع الصور التي ينقلها الحس إليها إلى شيء من التجويد والتصفية والتنقيح ثم التأليف ، إنما كانت تتخذ الحواسّ نفسها وسيلة إلى هذا التأليف .

ومن هذا كان الوصف في شعر أوس ـ كما قدمنا ـ حسياً مادياً ، وكان أشبه

---

(١) « العمدة » ١ / ١١٢ .
(٢) « في الأدب الجاهلي » صفحة ٢٧٠ .

بالتصوير منه بأي شيء آخر ، كان حكاية صادقة أو كالصادقة لمظاهر الطبيعة)[1]
(. . . وإنما كان أوس قوي الحسّ ، شديد اتصال الخيال بالحواس شديد الاعتماد على حواسه فيما يؤلف من الصور الشعرية ، ولكنه ـ وهنا ميزة أخرى له ولتلاميذه ـ كان يؤلف هذه الصورة تأليفاً ، ويعمل في هذا التأليف ، ويجد مشقة وعناء فهو إذن يمتاز بميزتين :

إحداهما : أن خياله كان مادياً شديد التأثر بالحس .

والثانية : أنه كان فناناً يتخذ الشعر حرفة وصناعة ، وفناً يدرس ويتعلم ، وينشئه صاحبه إنشاء ، ويفكر فيه تفكيراً ، ويقضي في إنشائه والتفكير فيه الوقت غير القصير . . . فأنت ترى أن هاتين الميزتين اللتين يمتاز بهما شاعرنا مختلفتان فيما بينهما اختلافاً ظاهراً .

إحداهما فطرية يردها الشاعر ولم يتكلفها أول الأمر وإنما جبل عليها ونشأت معه ، وهي هذا الاتصال الشديد بين خياله وحسّه .

وأما الميزة الأخرى فإرادية تعمدها الشاعر وقصد إليها ، واتخذها قاعدة أساسية لفنه الشعري ، وهي مقاومة الطبع ، وعدم الاندفاع في قوله الشعر مع السجية التي ترسل إرسالاً فتفيض بالشعر كما يفيض الينبوع بالماء) .[1]

ثم قال :

(ومن هاتين الخصلتين اللتين رأيناهما عند أوس استفاد الفن البياني الخالص عند هؤلاء الشعراء جميعاً ، فكثر عندهم التشبيه والمجاز والاستعارة والافتنان فيها) .[2]

***

(١) « في الأدب الجاهلي » صفحة ٢٧١ .
(٢) « في الأدب الجاهلي » صفحة ٢٧٢ .

ـ ومن المحدثين الذين تنبهوا لوجود هذه المدرسة الدكتور محمد مندور الذي ذكرهم في مواضع من كتابه « النقد المنهجي عند العرب » .

فقد ذكر في موضع ما يدل على أنّه يرى أشعار زهير والحطيئة تندرج تحت (تذوق الصناعة في الشعر) أو (تذوق الخيال الحسي) .[1]

ـ أي أن الدكتور مندور يضيف عنصر التذوق إلى عملية الصناعة أو إلى خاصة الخيال الحسِّي التي رأينا الدكتور طه حسين يلح على وجودها في شعر هؤلاء الشعراء .

وعاد الدكتور محمد مندور مرة أخرى يذكر هذه المدرسة قائلاً :

(فثمة مدرسة زهير والحطيئة ، ومدرسة مسلم وأبي تمام ، ومدرسة عمر بن أبي ربيعة والعرجي ، ومدرسة جميل وكثير) .[2]

ـ ومن المحدثين الذين ذكروا هذه المدرسة ولفتوا أنظار الباحثين إليها الدكتور شوقي ضيف الذي ذكر هذه المدرسة في كتابه « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » .[3]
ونقل كلام الدكتور طه فيها . وذكرها في كتابه « العصر الجاهلي » فقال :

(. . . نحن بإزاء مدرسة يتضح فيها زهير وتلميذاه كعب والحطيئة ، وإذا أردنا أن نبحث لزهير عن أستاذ حقيقي تأثر في شعره . . وجدنا أقربهم إلى شعره أوس بن حجر زوج أمه ، فإنه يتأثره في جميع جوانب فنه ، يتأثره في الموضوعات التي عالجها وفي طريقة معالجته لها ، وفيما يصوغه من معان وصور) .[4]

***

(١) انظر « النقد المنهجي عند العرب » صفحة ٥ .
(٢) انظر « النقد المنهجي عند العرب » صفحة ١٥ .
(٣) انظر « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » صفحة .
(٤) « العصر الجاهلي » صفحة ٣٠٦ .

أنسابهم وأماكنهم :

إن أنساب هؤلاء الشعراء الخمسة تنتهي جميعاً إلى مضر :

- فطفيل غنوي . وغني هو ابن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر .

- وأوس بن حجر تميمي. وتميم هو ابن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر.

- وزهير وكعب مزنيان . ومزينة قبيلة من مضر . ومزينة هي أم عمرو بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر .

- والحطيئة عبسي . وعبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان ابن مضر.[1]

وهكذا يتبين أنهم جميعاً تجتمع أنسابهم في مضر .

أما أماكن سكناهم فمن الصعب تحديدها بدقة ، ولكنني انتهيت بعد الدراسة لشعرهم والنظر في الكتب القليلة المؤلفة في مواضع الجزيرة ،[2] إلى أن الأماكن التي عاشوا فيها في نجد وما حولها . . وقد يبلغون البحرين والحيرة .

- فبلاد غني في نجد وتقع بين بلاد بني كلاب والضباب ، وكل ما كان شرقي جبل النير فهو لغني ، وما كان لغربيه فهو لغاضرة .[3] ومن جبالهم نضاد[3] ومتالع .[4]

- أما منازل تميم فكانت موزعة بين نجد واليمامة والبحرين ، ومن أسماء بلادها

---

(١) انظر « الأغاني » في مواضع ترجمته لهم وسنذكر صفحاتها عندما نتحدث عنهم ، وانظر « سبائك الذهب » .

(٢) من هذه الكتب كتاب « بلاد العرب » للحسن بن عبد الله الأصفهاني ، وقد حققه العلامة الشيخ حمد الجاسر ونشره بالرياض سنة ١٩٦٨ م ، ومنها كتاب « معجم ما استعجم » للبكري المتوفى ٤٨٧ ، وقد حققه الأستاذ مصطفى السقا ونشره بالقاهرة سنة ١٩٤٥ م وكتاب « الجبال والأمكنة والمياه » للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ ، وقد حققه الدكتور إبراهيم السامرائي ونشره ببغداد سنة ١٩٦٨ م ، ومنها كتاب « معجم البلدان » لياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ ، ومنها كتاب « صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار » لابن بليهد .

(٣) « الجبال والأمكنة والمياه » صفحة ٢١٢ .

(٤) « معجم ما استعجم » ٤ / ١١٨١ .

الشهيرة الجواء والدهناء والدو وفلج وفليج والحزن[1] والوشم والمروت ومن قرى الوشم المعروفة حتى اليوم شقراء وأشيقر وثرمداء ومراة .

وهي منازل مترامية الأطراف تبلغ البحرين من جهة وتبلغ مشارف الشام من جهة .

- أما منازل غطفان التي نشأ فيها زهير وابنه كعب فهي مجاورة لمنازل عبس في القصيم متصلة ببلادهم . ومن وديانهم المشهورة ذو العشيرة ، ونقل ابن بليهد عن معجم البلدان أنه في وادي الرمة[2] ومن مياههم الحاجر وقد أصبح فيما بعد قرية وسوقاً لبني زهير بن أبي سلمى .[3]

ومنازل مزينة كانت في الحجاز وتهامة ، غير أن زهيراً وابنه المزنيين لم ينزلا فيها كما سيتضح من دراسة حياتهما .

- ومنازل عبس كانت في القصيم ، وهي كثيرة النخل ، ومن مياههم الغبارة ، قال ياقوت : ماء لبني عبس ببطن الرمة قرب أبانين في موضع يقال له الخمة . قال ابن بليهد : أعرف موضعها كما حددها ياقوت ، ولكن الاسم مختلف برمته ، فالذي أعرفه في هذا العهد ويعرفه أهل نجد منهل ماء في مكان الغبارة يقال له (العجاجة) .[4]

وهكذا يبدو لنا أن البيئة التي نشأوا فيها وتقلبوا في ربوعها كانت في نجد وما حولها .

تشابه شعرهم وخصائص مدرستهم :

إنّ مما يقوى نظم هؤلاء الشعراء في مدرسة واحدة ما رأيته خلال دراسة دواوينهم من تشابه، حتى بلغ الأمر بالرواة إلى إدخال شعر بعضهم في شعر بعض

(١) « بلاد العرب » صفحة ٢٧٤ .
(٢) « صحيح الأخبار » ١ / ٢١٨ و ٥ / ٦٩ .
(٣) « بلاد العرب » صفحة ٢٤٣ .
(٤) « صحيح الأخبار » ٤ / ٢٤٠ .

إنه تداخل ما كان ليقع لولا التشابه الشديد الذي يسود شعرهم ، فقصيدة واحدة تراها في ديوان كعب وأبيه زهير وهي :

أبــتْ ذِكَرٌ من حُبّ ليلــى تَعودُني عِيَادَ أخي الحُمَّى إذا قلتُ أَقْصَرَا[1]

بل هنا ما هو أشدّ دلالة على هذا المعنى وهو تلك القصيدة العينية لكعب ومطلعها :

رحلــتُ إلــى قومــي لأدعــوَ جُلَّهم إلــى أمــرِ حزمٍ أحكمتــهُ الجوامعُ
لِيُوفُــوا بمــا كانــوا عليه تَعَاقَدُوا بِخَيْف مِنًــى ، واللهُ راءٍ وسامعُ

وفيها يقول :

سأَدعوهُم جهدي إلى البرِّ والتُّقَــى وأمرِ العُــلا ما شايعتنــي الأصابعُ[2]

فقد ذكر الأصمعي أن هذه القصيدة لأوس بن حجر ، وأوس جاهلي وبعض معانيها إسلامية واضحة .[3]

ليس من شك عندي في أن الذي سوّغ نسبة هذه القصيدة إلى ذينك الشاعرين إنما هو تقارب نسجهما واتحاد خصائصهما الفنية .

وهناك احتمال آخر قد يرد لتفسير مثل هذا التداخل وهو أن بعض هؤلاء الشعراء كان راوية لصاحبه وتلميذاً له في الشعر ، وهذا الاحتمال يدل على ما ذكرناه من اتحاد المذهب الفني في الأسلوب والنظم ويصدق هذا على أوس وزهير ، وزهير وكعب ، وزهير والحطيئة .

يقول الدكتور طه حسين بحق يصف أعضاء هذه المدرسة :

(على أنهم لم يكتفوا بتقليد أوس واقتفاء أثره ، بل استعاروا منه طائفة من

---

(١) انظر « ديوان زهير » صفحة ٢٦٠ و « ديوان كعب » صفحة ١٢٢ .
(٢) انظر « ديوان كعب » صفحة ١١٢ .
(٣) انظر « ديوان أوس » صفحة ١٣٣ .

المعاني والألفاظ استعارة ظاهرة لا تحتمل شكا ، وحتى لكأن هذا المعاني والألفاظ كانت قد أصبحت حظاً شائعاً للمدرسة كلها) .[1]

وأستطيع أن أجمل فيما يأتي خصائص هذه المدرسة أو - قل إن شئت - الخصائص التي كثرت في شعر أعضاء هذه المدرسة وإن كان بعضها موجوداً في الشعر الجاهلي بعامة :

١) اتخاذ الشعر حرفة وصناعة وفناً يدرس ويتعلم .

٢) انعام النظر فيما ينظمون والتفكير فيه وقضاء وقت طويل في تهذيبه ومدافعة الطبع بالروية والأناة .

٣) كثرة الصور البيانية التي تعتمد على خيال شديد التأثر بالحس .

٤) العناية بالوصف وإيثار الألفاظ الضخمة الغريبة .

٥) الإكثار من أسماء الأمكنة ، وهذه ظاهرة أكثر ما تكون وضوحاً في شعر أوس ، إذ لا تكاد تخلو منها قصيدة في ديوانه .[2]

وسنعرف بكل منهم تعريفاً موجزاً لبيان صلتهم الفنية بهذه المدرسة :

---

(١) « في الأدب الجاهلي » صفحة ٢٨١ .
(٢) والخاصتان الأخيرتان عامتان في الشعر الجاهلي .

- ١ -

- طفيل الغنوي -

هو طفيل بن عوف بن كعب بن خلف بن ضبيس بن خليف بن مالك بن سعد بن عوف بن كعب بن غنم بن غنّي بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان بن مضر .

قيل : إنه أقدم شعراء قيس[١] وكان طفيل أكبر من النابغة وليس في قيس فحل أقدم منه .[٢] وقدّر محقق الديوان محمد عبد القادر أحمد عصره الذي كان يعيش فيه من مطلع النصف الثاني من القرن السادس حتى نهايته وقال : (ورجحت أنه توفي قبل بدء الدعوة الإسلامية بقليل) .[٣]

ولقبه المحبّر ، وقال الأصمعي : كان أهل الجاهلية يسمون طفيلاً « المحبّر » لحسن وصفه الخيل .[٤] وله لقب آخر وهو : طفيل الخيل ، قال محمد بن حبيب : كان طفيل يسمّى « طفيل الخيل » لكثرة وصفه إياها .

هذا وإن لقب المحبّر ليتصل اتصالاً وثيقاً بمدرسة عبيد الشعر الذين وصفوا بأنهم كانوا يقضون الزمن الطويل في تحسين أشعارهم وتزيينها وتثقيفها .

---

(١) « الأغاني » ١٥ / ٣٤٩ .
(٢) « الأغاني » ١٥ / ٣٥٠ .
(٣) مقدمة الديوان : ٧ ـ ٨ .
(٤) « الأغاني » ١٥ / ٣٥٠ .

قال أبو الفرج : وهو من أوصف العرب للخيل ، ونقل عن أبي عبيدة قوله : طفيل الغنوي والنابغة الجعدي وأبو دؤاد الإيادي[1] أعلم العرب بالخيل وأوصفهم لها[2] بل إن الناس لكثرة ما أعجبهم وصف طفيل للخيل ولما يتضمنه من الدقة في عرض أوضاع الخيل واقفة وراكضة ذهبوا إلى أن رواية شعر طفيل أمر أساسي في تعلم ركوب الخيل ، فقد نقل محقق الديوان أن عبد الملك بن مروان قال : « من أراد أن يتعلم ركوب الخيل فليرو شعر طفيل » .[3]

كان طفيل رأساً من رؤوس مدرسة عبيد الشعر التي ألمنا بها وبخصائصها في مطلع هذا التمهيد . وصلته بهذه المدرسة واضحة من وجهين :

١) أولهما شعره الذي بين أيدينا طائفة صالحة منه ، وآراء العلماء والنقاد في هذا الشعر .

٢) وثانيهما صلته الشخصية والعلمية بزهير وهو من أئمة عبيد الشعر المشهورين .

قال ابن رشيق :

(ومن أصحابها (أي زهير والحطيئة) في التنقيح وفي التثقيف والتحكيك طفيل الغنوي ، وقد قيل : إن زهيرا روى له ، وكان يسمّى محبراً لحسن شعره) .[4]

وإذا صحّ ما ذكره بروكلمان من أنّ أوسا كان راوية الطفيل الغنوي وتلميذه[5] فإنه يكون عندئذٍ إمام مدرسة عبيد الشعر دون منازع .

وديوانه الذي وصل إلينا من رواية أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي[6] وقد طبع الديوان في أوروبا بعناية المستشرق كرنكو في سنة ١٩٢٧ في لندن ضمن سلسلة جيب التذكارية .

---

(١) اسم ابي دؤاد يزيد بن معاوية بن عمرو بن قيس بن عبيد بن رؤاس (انظر « طبقات ابن سلام » صفحة ٥٨٣) .
(٢) « الأغاني » ١٥ / ٣٤٩ - ٣٥٠ .
(٣) مقدمة الديوان صفحة ١١ .
(٤) « العمدة » ١ / ١١٢ .
(٥) « بروكلمان » ١ / ٩٥ .
(٦) « الديوان » صفحة ١٧ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم عمد محمد عبد القادر أحمد فنشره نشرة سيئة تكثر فيها السقطات والغلطات وليس المجال مجال نقد هاتيك النشرة ، ولكنّها هي المتوفرة في السوق .
ولقد أثنى الناس قديماً على شعر طفيل ثناء كبيراً ، فمن ذلك قول معاوية رضي الله عنه :

« خلّوا لي طفيلاً ، وقولوا ما شئتم في غيره من الشعراء »[1] وقول عبد الملك ابن مروان :

« أكرم بيت وضعته العرب بيت طفيل الذي يقول فيه : »[2]

وبيت تهبُّ الريحُ في حُجراتِهِ ... بأرض فضاءٍ ، بابُهُ لم يُحَجَّبِ
سماوتُه أسمالُ بُرْدٍ مُحبَّرٍ ... وصهوتُه من أتحميٍّ معصّبِ[3]
وأطنابُه أرسانُ جُرْدٍ كأنَّها ... صدورُ القَنا من بادىءٍ ومعقبِ[4]
نصبتُ على قومٍ تدرُّ رماحُهُمْ ... عروقَ الأعادي من غريرٍ وأشيبِ[5]

وبلغ شعره مبلغاً جعل الناس يتمثلون به لشهرته وحسن تعبيره عماً في نفوسهم فمن ذلك ما ذكر الحصري[6] من أن سيدنا أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه تمثل بشعره عند ذكر الأنصار فقال : « ما مثلنا ومثلكم إلاّ كما قال طفيل :

جزى اللهُ عنّا جعفراً حين أزْلَقَتْ ... بنا نعلنا في الواطئين فزلّتِ
أبوا أن يَملونا ، ولو أنَّ أُمَّنا ... تُلاقي الذي لاقوه منّا لمَلَّتِ
هُمُ أسكنونا في ظلالِ بيوتِهِمْ ... ظلال بيوتٍ أدفأتْ وأظلّتِ[7]

---

(١) « الأغاني » ١٥ / ٣٥٠ .
(٢) « الأغاني » ١٥ / ٣٥٣ ، وانظر « الديوان » صفحة ١٩ .
(٣) سماوة كل شيء : أعلاه ، وصهوته : ظهره . الأتحميّ : ضرب من البرود . والمعصب : كأنه مأخوذ من العصب وهو ضرب من برود اليمن يعصب غزله ويشد ثم يصبغ .
(٤) البادىء : الذي غزا أول غزوة . والمعقب : الذي غزا غزوة بعد غزوة.
(٥) الغرير : الشاب الذي لا تجربة له .
(٦) « زهر الآداب » ١ / ٣٣ طبعة البجاوي . ← وفي طبعة زكي مبارك ١ / ٧٠ - ٧١ د. محمد محيي الدين عبد الحميد
(٧) « ديوان طفيل » صفحة ٩٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يجد قارىء الديوان الأغراض التي كان الشعر الجاهلي يخوض فيها ، وإذا استثنينا الوصف كان شعره في الفخر أكثر الأغراض وروداً .

وفي ديوانه ـ على صغره ـ غزل جيد من حيث كميته ودلالته ، ويبدو أن غزله تقليدي كان يأتي به لتستوفي القصيدة عناصرها الأساسية وربما دل على ذلك عدم اشتهاره بالغزل وتعدد اسماء اللائي تغزل بهن .

ولم يكن مدحه للتكسب ولا لينال حظوة عند أصحاب الجاه .

ولا يخلو ديوانه من الرثاء ، فهناك نصّ بكى فيه الشاعر بكاء حاراً قتلى غني عندما أوقعت طيء وعبس فيهم .(١)

أما أسلوبه في هذه الأغراض فلم يكن يخرج عن أسلوب هذه المدرسة الأسلوب المحبّر المنمّق المفعم بالصور البيانية الرائعة المعتمدة على الحسّ ، وأخيراً فإن النظر في شعر طفيل ينتهي بنا إلى تقرير أمرين لا ريب فيهما ، وهما :

ـ هذا الشعر ممثل للعصر الجاهلي في تصوراته وعاداته وأحوال الناس فيه .

ـ وهو في الوقت ذاته ممثل لمدرسة عبيد الشعر أتم التمثيل .

وهذه الدراسة سيكون من أهدافها بسط هذه الحقيقة وإثباتها بالشواهد الكافية من شعره .

***

(١) انظر « الأغاني » ١٥ / ٣٥٤ و « ديوان طفيل » صفحة ٣٧ .

- ٢ -

أوس بن حجر التميمي

هو أوس بن حجر بن عتاب بن عبد الله بن خلف بن نمير بن أسد بن عمرو ابن تميم .[١]

وللأصمعي قول آخر في نسبه يختلف عن هذا بعض الاختلاف .[٢] وكنيته أبو شريح . ولد بالبحرين[٣] ويقدر الأستاذ الزركلي أنّ مولده كان سنة ثمان وتسعين قبل الهجرة ، ويقدر وفاته بأنها كانت في نحو السنة الثانية قبل الهجرة ، فهو اذن من المعمرين .[٤]

وكان أوس كثير الأسفار ، عظيم الحركة ، طاف بشعره ومدائحه في نجد والعراق ونادم ملوك الحيرة التي أقام فيها طويلاً[٥] عند عمرو بن هند .

***

أما شعره فقد جمعه ابن السكيت ، ولكن لم تبق منه إلاّ بقية ،[٦] وقد أخرج

---

(١) « الأغاني » ١١ / ٧٠ و « مختار الأغاني » ١ / ٢٦٧ .
(٢) « الأغاني » ١١ / ٧٠ .
(٣) بروكلمان ١ / ١١٢ .
(٤) « الأعلام » ١ / ٣٧٤ .
(٥) بروكلمان ١ / ١١٢ .
(٦) بروكلمان ١ / ١١٢ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ديوانه رودلف جاير وطبعه في فيينا سنة ١٨٩٢م، وقد انتقد هذه الطبعة المستشرقان (بارت) و (فيشر) انتقاداً شديداً في مجلة المستشرقين الألمان، ثم نشره الدكتور محمد يوسف نجم سنة ١٩٦٠م، وأعاد طبعه في بيروت سنة ١٩٦٧م (١٣٨٧هـ) وقد اعتمد الدكتور نجم على طبعة أوروبا وزاد عليها زيادات كثيرة وهي التي سنرجع إليها في بحثنا هذا.

وهناك في كتاب « الأغاني » وغيره أقوال عدة من أئمة اللغة والأدب في الثناء على شعره، فمن ذلك قول ابن حبيب: أوس بن حجر من شعراء الجاهلية وفحولها.[١]

وقول أبي عمرو: .. فهو شاعر تميم في الجاهلية غير مدافع.[١]

ونالت أشعاره شهرة في وصف الصيد والسلاح[٢] وهو صاحب أجمل مرثية وصاحب أحلى مطلع في مرثية:

أيّتها النفس أجْملي جَزَعا ... إنَّ الذي تَحْذرينَ قَدْ وقَعَا[٣]

وقد انتبه بعض المتقدمين إلى اختلاط شعره بشعر غيره، فقد كان الجاحظ يقول: إن أشعار أوس اختلطت بأشعار ابنه شريح،[٤] وقول الجاحظ هذا ينبيء عن ظاهرة استمرار الشعر في عقبه وستبدو هذه الظاهرة أكثر وضوحاً عند زهير.

واختلط شعره بشعر عبيد، وكان الأصمعي يقول عن القصيدة الحائية:

وَدِّعْ لميسَ وداعَ الصارمِ اللاحي ... إذ فَنَّكَتْ في فساد بَعْدَ إصلاحِ[٥]

يقول: (تميم تروى هذه القصيدة لعبيد، وذلك غلط. ومن الناس من يخلطها بقصيدته التي على وزنها ورويها لتشابههما).[٦]

(١) « الأغاني » ١١ / ٧٠ و « مختار الأغاني » ١ / ٢٦٧.
(٢) بروكلمان ١ / ١١٢.
(٣) « ديوان أوس » صفحة ٥٣.
(٤) « الحيوان » ٦ / ٢٧٩ وانظر بروكلمان ١ / ١١٢.
(٥) « ديوان أوس » صفحة ١٣.
(٦) « طبقات ابن سلام » ١ / ٩٢ و « الأغاني » ١١ / ٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ونسب إليه شعر نازعه فيه آخرون نذكر منهم النابغة وعمرو بن معد يكرب وزهيرا وطرفة وكعبا .[1]

وأوس من أهم أعضاء مدرسة عبيد الشعر فقد رأينا فيما سبق كيف أن الدكتور طه حسين دعا هذه المدرسة بالمدرسة الأوسية ، وذلك يدل على عظيم مكانته فيهم ، وذكرت المصادر أن أوسا كان زوج أم زهير ، وأن زهيرا لم يكن ربيبه فقط بل كان راويته أيضاً .[2] وذكر ابن رشيق أن زهيرا كان يتوكأ على أوس في كثير من شعره .[3]

وذكر بروكلمان أن أوسا كان راوية الطفيل الغنوي وتلميذه .[4]

***

(١) انظر « ديوان أوس » ١٣٣ - ١٤١ .
(٢) « الوساطة » ١٢ و « العمدة » ١ / ٧١ وبروكلمان ١ / ١١٢ .
(٣) « العمدة » ١ / ٨١ .
(٤) بروكلمان ١ / ٩٥ .

- ٣ -

زهير بن أبي سلمى المزني

هناك دراسات وافيات عني بها الباحثون والأدباء بهذا الرجل في القديم والحديث ، وأنه في مدرسة عبيد الشعر علم مهم حتى كانت هذه المدرسة لا تذكر إلاّ مقرونة به على نحو ما رأينا في كلمة الأصمعي التي قدمناها في مطلع هذه الدراسة .

ولن أستطيع دراسة هذه القمة الشامخة في هذه النبذة التي أود أن أقصرها على بيان صلة الشاعر بمدرسة عبيد الشعر .

ذكرنا آنفاً أن شعراء هذه المدرسة مضريون . . وهذا ما يتحقق في زهير فهو ابن أبي سلمى (واسمه ربيعة) بن رياح بن قرة بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هرمة بن الأصم بن عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر وقبيلة زهير مزينة ، ومزينة هي أم عمرو ابن أد ، وهي مزينة بنت كلب .

ويذكر الرواة أن أباه ربيعة لجأ إلى أخواله غطفان ، وأن زهيرا نشأ فيهم حتى دخل بسبب ذلك الوهم على ابن قتيبة فعدّه منهم في كتابه « الشعر والشعراء » .

ومما يلفت النظر ما رأيناه في أخباره من أنه انحدر من بيت عريق في الشعر فأبوه شاعر وأختاه سلمى والخنساء شاعرتان ، وخاله بشامة بن الغدير شاعر وزوج أمه أوس بن حجر شاعر وكذلك فقد كان الشعر في عقبه ، فابناه كعب وبجير شاعران ، وبنته وبرة شاعرة .

واستمر الشعر في سلالته ، فذكروا أن عقبة بن كعب المعروف بالمضرّب شاعر ، والعوام ابن عقبة شاعر . .[1] وهكذا . . قال ابن قتيبة : إنه لم يتصل الشعر في ولد أحد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير ، وفي الإسلام ما اتصل في ولد جرير .[2]

وشعر زهير ارتفع به حتى بلغ منزلة الفحول ، وأجمع النقاد في القديم ، والحديث على أنه من الشعراء المتقدمين ، ونقل ابن سلام عن عكرمة بن جرير أنه قال لأبيه جرير : من أشعر الناس ؟ قال جرير : أعن الجاهلية تسألني أم أهل الإسلام ؟ قلت : ما أردت إلاّ الإسلام ، فإذ ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلها . قال : زهير شاعرهم[3] وذكر أبو الفرج أن سيدنا عمر بن الخطاب سأل ابن عباس يوماً : هل تروى لشاعر الشعراء ؟ فقال ابن عباس : ومن هو ؟ قال عمر : الذي يقول :

وَلَوْ أَنَّ حمداً يخلدُ الناسَ أُخْلِدُوا ولكنَّ حمدَ الناسِ ليسَ بمخلدِ

قال ابن عباس : ذاك زهير . قال عمر : فذاك شاعر الشعراء . قال ابن عباس : وبم كان شاعر الشعراء ؟ فقال عمر : لأنه كان لا يعاظل[4] في الكلام ، وكان يتجنب وحشي[5] الشعر ولم يمتدح أحداً إلاّ بما فيه .[6]

وجاء في « شرح الديوان » أنه (لم يدرك حماد أحداً من أهل العلم من قريش يفضل على زهير من الناس أحداً في الشعر ، والعائب لشعره من قرنه مع النابغة) .[7]

وكان زهير ـ كما أسلفنا ـ راوية لأوس وطفيل ، وكان شديد الصلة بمدرسة

---

(١) ديوان زهير ـ المقدمة صفحة ٩ .
(٢) « الشعر والشعراء » ١/ ١٣٧ وانظر مقدمة الديوان صفحة ١٠ .
(٣) طبقات فحول الشعراء صفحة ٥٣ ـ ٥٤ الطبقة الأولى .
(٤) المعاظلة : أن يعقد الكلام ويوالي بعضه فوق بعض حتى يتداخل ويغمض .
(٥) وحشي الكلام : غريبة .
(٦) « الأغاني » ١٠ / ٢٨٩ وانظر الخبر في « طبقات فحول الشعراء » صفحة ٥٢ .
(٧) « شرح ديوان زهير » صفحة ٨٦ .

عبيد الشعر حتى كان أشهر أعلامها ، وقد امتاز زهير بأنه معلم يعلـم الموهوبـين صنعة الشعر كما يتضح ذلك من تصرفه مع ابنه كعب ، وامتاز زهير أيضاً بأنه يعنى بتحقيق صوره وهذا ما سنفصل القول فيه إن شاء الله في موضعه .

كان الشعر عند زهير هوايته ومهنته وحياته فما من غرض من الأغراض التي كان الشعراء يطرقونها إلاّ وفي ديوانه عدد من القصائد فيه ، ويبدو أنه من أشهر شعراء الجاهلية بالمديح حتى قيل : « أشعر العرب زهير إذا رغب » ويصدر في مدحه عن روح خيرّة مفعمة بالبر والرحمة والاتزان لا يقول إلاّ الحق ولا يصف المرء إلاّ بما هو فيه .

ونجد في شعره صورة صادقة لمعارفة وثقافته ونظرته إلى الأمور ويتجلى هذا بيّنا في حكمته ، وصور الحكمة من جملة التراث العربي في الأعراف والتقاليد والعقائد ، ويبدو أن عوامل متعددة أسهمت في نضج آرائه وعمقها وجمال حكمه وسيرورتها ، من هذه العوامل شاعريته الفذة وتجربته الغنية وعمره المديد وتأملاته التي أورثته إياها أناته وطول نظره .

***

- ٤ -

كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى ، وقدّمت نسب أبيه آنفاً ، وذكرت أن نسب مزينة ينتهي إلى مضر .

بدأ كعب بمعاناة الشعر صغيراً ، فكان أبوه زهير ينهاه مخافة أن يروى له شعر لم يستحكم بعد . . حتى كان يضربه في ذلك ، وكان كلما ضربه زاد مضياً في قول الشعر . . فطال عليه ذلك فأخذه وحبسه وقال : « والذي أحلف به لا تتكلم ببيت شعر إلاّ ضربتك ضرباً ينكلك عن ذلك » وتزعم الرواية أن كعباً مكث محبوساً عدة أيام ، ثم أخبر أنه يتكلم به ، فدعاه وضربه ضرباً شديداً حتى داخله الملل فأطلقه وسرّحه في بهمة فانطلق يرعاها ويرتجز ويقول الشعر . ثم خرج إليه زهير يمتحنه فقال :

إنِّي لتعديني على الهمِّ جَسْرَةٌ تَخُبُّ بوَصّالٍ صَرُومٍ وتُعْنِقُ

ثم ضرب كعبا وقال : أجز يا لكع . فقال كعب :

كبنيانةِ القَرْنِيِّ موضعُ رَحْلِها وآثارُ نِسْعَيْها من الدَّفِّ أبلقُ

وهكذا مضى زهير يقول بيتاً ثم ينادى ابنه : أجز يا لكع . . وكان كعب يوفّق في النظم . . فأخذ زهير بيد ابنه كعب ثم قال له : « أذنت لك في الشعر يا بني».[1]

(١) انظر مقدمة « ديوان كعب » الصفحات (ف ص ق) .

وذكر الشريف المرتضى قصة أخرى فحواها أن زهيراً قال بيتاً ثم أكدى ، ومرّ به النابغة فطلب منه أن يجيز فأكدى ، وأقبل كعب وهو غلام ، فاستطاع أن يتمم البيت الذي عجز عن اتمامه زهير والنابغة فقال زهير : « أنت والله ابني » .[1] ومهما يكن نصيب هذه الأقاصيص من الصحة فإنها تدل على أن عناية زهير الفنية بابنه عناية كبيرة وعلى أن نبوغ كعب كان مبكراً .

شعره :

تذكر المصادر الأدبية أن الحطيئة قال لكعب : « قد علمتم روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ثم تذكرني بعدك ، فإن الناس أروى لأشعاركم » فقال كعب :

فَمَنْ للقوافِي ؟ شانَها مَنْ يَحوكُها ... إذا ما مضى كعب وفوّز جرولُ
كَفيتُكَ لا تلقى من الناس واحداً ... تنخّلَ منها مثل ما يتنخلُ
يثقفُها حتّى تلينَ كعوبُهَا ... فيقصُرُ عنها من يُسيء ويعملُ[2]

وهذا الخبر يؤكد ذيوع شعر كعب وسيرورته وعلو باعه في الشعر وهو شهادة كبيرة من الحطيئة .

وقد أجمع نقدة الشعر وأهل العلم به على الثناء على شعر كعب :

قال ابن قتيبة : « كان كعب فحلاً مجيداً » .[3]

وذكر ابن قتيبة أن خلفاً الأحمر سئل : زهير أشعر أم ابنه كعب ؟

فقال : لولا أبيات لزهير أكبرها الناس لقلت : إن كعبا أشعر منه[4] .

(١) « أمالي المرتضى » ١ / ٩٧ - ٩٨ و « الاصابة » ٣ / ٢٧٩ .
و « المزهر » ٢ / ٤٩٣ وبين روايات هذه المصادر للقصة اختلاف .

(٢) « الأغاني » ١٥ / ١٤٠ « الخزانة » ١ / ٤١١ « طبقات ابن سلام » ٨٨ « الشعر والشعراء » ١ / ١٥٦ .

(٣) « الشعر والشعراء » ١ / ١٥٤ .

(٤) « الشعر والشعراء » ٨٨ و « الاصابة » ٣ / ٢٨١ .

ويقول أبو عمر بن عبد البر : كان كعب بن زهير شاعراً مجوداً كثير الشعر مقدماً في طبقته .[1]

وذكر الجاحظ بأنه من الذين ينمقون أشعارهم ولا يلتفت إلى رخيصه والغث منه ولا يقبل من شيطانه كل ما يقوله له .[2]

***

(١) « الاستيعاب » ٣ / ٢٨١ .
(٢) « البيان والتبين » ١ / ٢١٣ .

- ٥ -

الحطيئة

هو جرول بن أوس بن جؤية بن مخزوم بن مالك بن غالبة بن قطيعة بن عيسى ابن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر .

وقال الأصمعي : قدم الحطيئة الكوفة فنزل في بني عوف بن عامر بن ذهل يسألهم وكان يزعم أنه منهم وقال في ذلك أبياتاً .[١] وذكر أبو الفرج أن الحطيئة كان إذا غضب على عبس يقول :

أنا من بني ذهل ، وإذا غضب علي بني ذهل قال : أنا من بني عبس .[٢]

وقال ابن الكلبي : كان الحطيئة مغموز النسب وكان من أولاد الزنا الذين شرفوا .[٣]

أمّا شعره فقد أشاد به نَقَدة الشعر وأثنوا عليه عظيم الثناء ، وقد سبق أن ذكرنا أن الرواة كانوا يوردون الحطيئة على أنه من أشعر عبيد الشعر .

قال القاضي الجرجاني : (وقد كانت العرب تروى وتحفظ ويعرف بعضها برواية شعر بعض ، كما قيل : إن زهيرا راوية أوس ، وإن الحطيئة راوية زهير) .[٤]

---

(١) انظر الخبر والأبيات في « الأغاني » ٢ / ١٥٨ .
(٢) « الأغاني » ٢ / ١٥٨ .
(٣) « الأغاني » ٢ / ١٥٨ .
(٤) « الوساطة » ١٢ .

وقال الأصمعي : (وما تشاء أن تقول في شعر شاعر من عيب إلا وجدته وقلما تجد ذلك في شعر الحطيئة) .[1]

ولم يدع فناً من فنون الشعر دون أن يقول فيه ويحسن القول حتى صدق فيه ما قرره أبو الفرج إذ قال :

(وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم ، متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيد في ذلك أجمع) .[2]

***

(١) « الأغاني » ٢ / ١٦٣ .
(٢) « الأغاني » ٢ / ١٥٧ .

البَابُ الأوّلُ

وَصفُ مَظاهِرِ الطبيعَة الحيَة

سأتحدث عن وصف الشعراء الخمسة الذين ذكرتهم لمظاهر الطبيعة الحية ، وتتمثل في وصف الإنسان والحيوان ، وكنت أريد أن أتحدث عن وصف النبات غير أنني لم أجد هؤلاء يذكرون النبات إلاّ ذكراً مقتضباً غير مقصود وهو إلى الاشارة أقرب ، ولم أقف على نصوص وصفية في هذا لدراستها . وقد يكون ذلك نتيجة البيئة الصعبة التي كانت تغلب على ربوع هؤلاء الشعراء البداة .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفصل الأول

وصف الإنسان

عني العرب ـ على الرغم من بداوتهم وتخلفهم في مضمار الحضارة ـ عنوا بالإنسان عناية ملأت جوانب حياتهم .

فإكرام الضيف ، وإجارة المستجير ، وإغاثة الملهوف مظاهر تدل على مدى اهتمام العربي في الجاهلية بالإنسان من حيث هو إنسان .

وصحيح أن النزعة القبلية كانت هي السائدة ، ولكن صدر القبيلة كان يتسع لوجود عدد من الغرباء يدخلون في حلفها وولائها فتصبح حقوقهم حقوق القبيلة . بل إننا لنقرأ في كتب السيرة أن بطون قريش تداعت لحلف الفضول الذي عقد في دار عبد الله بن جدعان . تحالفوا وتعاقدوا ألاّ يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلاّ قاموا معه حتى ترد مظلمته .[1]

وإن الإباء والآنفة من الشيم العربية الخالدة التي تغلغلت في أعماق النفس في المجتمع العربي الجاهلي يعبر عنها أدق تعبير ذو الإصبع العدواني وهو حرثان بن الحارث ـ في قوله :

إنّي أبي أبيٌّ ذُو محافظةٍ ... وابنُ أبيّ أبيٍ من أُبيّينِ
لا يُخْرِجُ القسرُ مني غير مأبيةٍ ... ولا ألينُ لِمَنْ لا يَبْتغِي ليني

(١) « عيون الأثر » لابن سيد الناس ١ / ٤٦ ـ ٤٧ و « البداية والنهاية » لابن كثير ٢ / ٢٩٠ ـ ٢٩٣ و « الروض الأنف » ١ / ١٥٥ ـ ١٦٠ « نهاية الأرب » ١٦ / ٩٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

واللهِ لو كَرِهَـتْ كفـي مُضَاجَعَتي لقلتُ إذْ كَرِهَـتْ قُرْبـي لهـا : بيني[1]

فلا غرو ـ إذا كان ذلك كذلك ـ في أن يحظى الإنسـان بالنصيب الأوفى من الوصف في مدرسة عبيد الشعر .

لقد وصفوه من الناحية الظاهرية وصفاً دقيقاً ، ووصفوه من الناحية الداخلية النفسية وصفاً عميقاً .

وأود في مطلع هذا الفصل أن ننظر : أوصف عبيد الشعر الإنسان من حيث هو في طبيعته وواقعه أم وصفوه على أنه نموذج ومثل أعلى ؟

لدى دراسة هذه النصوص التي جمعتها من دواوين هؤلاء الشعراء تبين أن وصفهم كان وصفاً واقعياً أميناً، وأنهم كانوا يصفون الإنسان من حيث هو في طبيعته، وأنهم كانوا يأبون المبالغات الممقوتة التي عرفها الشعر العربي في العصور المتأخرة والتي نجد أمثلة لها عند المتنبي وابن الفارض وغيرهما . [2]

ولننظر في نصّين من شعر هذه المدرسة في وصف الممدوح لنرى تحقق ما ذكرنا فيهما :

هذا زهير بن أبي سلمى يمدح صاحبه بالشجاعة فيقول : [3]

إذا الخيلُ جالتْ في القنـا وتكشَّفَتْ عَـوابِسَ لا يُسْـأَلْنَ غَيْرَ طِعَانِ
وكَّرتْ جميعـاً ، ثم فُرِّقَ بينَها سَقَـى رُمْحَـهُ منهـا بأحمـرَ آنِ
فَتَـى لا يُلاقـي القِـرْنَ إلا بصدرِهِ إذا أُرعشَـتْ أحشـاءُ كُلِّ جبانِ[4]

يقرر زهير أن ممدوحه في الموقف العصيب الرهيب يتقدم الصفوف يسقي رمحه بالدم الحار ويقابل قرنه بصدره . يقرر هذا من خلال عرضه صورة ذات دلالة كبيرة

(١) « المفضليات » ١٦٣ ـ ١٦٤ و « الأغاني » ٣ / ١٠٤ ـ ١٠٦
(٢) من مثل قول ابن الفارض يصف هزال المحب (الديوان : ٣ـ٤) :
قل تركت الصب فيكم شبحا مالـه مما براه الشوق فيّ
كهـلال الشك ، لولا أنه أنّ عيني عينه لم تتأي
(٣) «ديوان زهير» ٣٦٥ .
(٤) القنا : الرماح . تكشفت : انهزمت . عوابس : كوالح . آن : حار . والقرن : الكفوء في الشجاعة .

على شجاعة ممدوحه وإقدامه ورباطة جأشه وثباته ، ولكنها تبقى في إطار الواقع . . إنه يصور رهبة الوضع وصعوبته بأن ذكر الخيل المنهزمة التي تجول ومعها القنا ، عوابس لما رأت من الهول والهزيمة ، لا يسألن غير الطعان ، وأحشاء الجبان ترتعش . إنها صورة بالغة الشدة والإيحاء . . ولكنها لم تخرج عن حدود الواقع المألوف .

وهذا الحطيئة يقول[1] في وصف ممدوحه :

لَعَمْرِي لَنِعْمَ المرءُ لا واهنُ القُوى ... ولا هُوَ للمولى على الدهرِ خاذلُ
لَعَمْرِي لَنِعْمَ المرءُ إن عيَّ قائلٌ ... عن القيلِ أو دنَّى عن الفعلِ فاعلُ
تَكادُ يداهُ تُسلمانِ رِدَاءَهُ ... من الجودِ لمَّا استقبلتهُ الشمائلُ[2]

لا يضفي الشاعرَ على ممدوحه صفات مثالية تمليها عليه المبالغة الزائدة ولا يبتغي من وراء قوله هذا أن يعرض علينا الإنسان النموذج الفذّ الذي لا وجود له في الواقع ولكنه يقول :

ما أحسن هذا الإنسان ! ويقسم أنه يستحق المدح لأنه رجل قوي ، لا يخذل قريبه ، وهو يحسن الكلام إن أصاب الناس العيّ ، ويفعل المكرمات إن ضعف الناس عنها ، ويمدحه بالكرم الذي يبلغ مرحلة الإيثار ، وكأنه يخشى أن يكون في قوله مبالغة ، فيسارع إلى التحفظ مستعملاً فعل المقاربة (كاد) فيقول : يكاد هذا المرء يجود بردائه الذي يلبسه إن لم يجد ما يعطي . وهي صورة دالة على الكرم المؤثر .

لقد كان الشاعر واقعياً عندما تريث في إطلاق الحكم ولم ينسق في تيار الخيال والمبالغة .

***

(١) « ديوان الحطيئة » ٢٤ .
(٢) المولى : ابن العم .

وأود أن ننظر في وصف عبيد الشعر للإنسان :

هل اقتصر وصفهم على ظواهر الخلقة ، وعناصر الشكل ولم يجاوزوا ذلك إلى التعمق في وصف نفس الإنسان ووصف ما يتفاعل فيها من عواطف وأحاسيس ؟ أستطيع أن أقول بعد دراسة شعر هؤلاء الشعراء : إن هناك لوحات وصفية رائعة عنيت بالأمرين معاً ، إذ حددت الظاهر تحديداً دقيقاً وعنيت بالأعماق فصورت المشاعر والأحاسيس ورقيق العواطف . وسنرى من النصوص ما يؤكد ذلك .

ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى يحدثنا عن حصين :[1]

لَعَمْري ، لَنِعْمَ الحيُّ جرَّ عليهمُ ... بما لا يُواتيهم حُصَيْنُ بن ضَمْضَمِ
وكانَ طَوى كَشْحاً على مُستكِنَّةٍ ... فَلاَ هو أَبْداها ، ولم يَتَقَدَّمِ
وقالَ : سأَقضي حاجتي ثُمَّ أَتَّقي ... عَدوى ، بأَلفٍ ، مِنْ وارئي مُلْجِمِ
فَشَدَّ ـ ولم يُفْزِعْ بُيوتاً كثيرةً ـ ... لَدى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَها أُمُّ قَشْعَمِ[2]

إن الشاعر ههنا ـ كما ترى ـ يجاوز الوصف الخارجي إلى الوصف الداخلي الذي حدثنا فيه عن دخيلة نفسه ، ويذكر لنا من دقائق المعاني وأحاديث النفس ما يجعل صورة موصوفة في أذهاننا صورة متكاملة .

وأخيراً ، أرى أن ننظر بأناة في مقطوعة حافلة بالوصف الظاهري والوصف الباطني . . إنها قصة رجل فقير ليس عنده من الزاد شيء ينزل عليه ضيف ، يقول الحطيئة .[3]

وطاوي ثلاثٍ ، عاصبِ البطنِ ، مُرْمِلٍ ... بِبَيْدَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بها ساكنٌ رَسْمَا

---

(١) « ديوان زهير » ٢١ ـ ٢٢ .
(٢) جرّ عليهم : أي جنى عليهم . وحصين بن ضمضم : من بني مرة كان أبى أن يدخل معهم في الصلح ، فلما أرادوا أن يصطلحوا عدا على رجل منهم فقتله . الكشح : الجنب أو الخصر ، وطوى كشحا : أي انطوى على أمر لم يظهره . المستكنة : الخطة . سأقضي حاجتي : سأدرك ثأري . بألف : أي بألف فارس ، وإنما يريد الفرسان .
فشد : أي حمل على ذلك الرجل . وأم قشعم : الحرب أو المنية .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٩٦ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أخي جفوةٍ ، فيه من الأنسِ وحشةٌ ... يَرَى البؤسَ فيها من شراستِهِ نُعْمَى
وأفردَ في شِعْبٍ عجوزاً ، إزاءَها ... ثلاثةُ أشباحٍ تخالهمُ بَهْمَا
حفاةٌ ، عراةٌ ، ما اغتذوا خبزَ مَلّةٍ ... ولا عَرَفُوا للبُرِّمُذْ خُلِقُوا طَعْمَا[1]

وصف ظاهري دقيق ، هذا أعرابي كاد الجوع يقتله ، مضت عليه ثلاث ليال لم يذق فيها الطعام ، فعصب بطنه ، وقد يكون عصبه على حجر ، وهو في بيداء لم ينزل بها أحد وليس فيها رسم لساكن ، وهو رجل غليظ الطبع شديد الجفاء ، إذا رأى انساناً استوحش وفزع ، وإنه لألفته هذه الجفوة يرى البؤس والشقاء ، والوحدة والعناء ، يرى ذلك نعمى . . أجل إنه راض بواقعه آلف هذه المعيشة الضنك .

وفي شعب من شعاب هذه البيداء الموحشة اتخذ مسكناً لنفسه ، أفرد فيه زوجته العجوز الفانية وأولاداً ثلاثة لم يبق الجوع منهم إلاّ اشباحاً حتى يحسبهم المرء بهما لهزالهم وانحنائهم وتداعي أجسامهم . . إنهم حفاة لم ينتعلوا بنعل ، عراة لم يلبسوا شيئاً ، جياع محرومون ، ما ذاقوا خبز البر منذ أن خلقوا .

مشهد أسرة جائعة ، منقطعة عن الحياة ، رضيت بحياتها المترعة بالقسوة والشظف ، تتجرع ويلاتها وآلامها .

بعد عرض هذا المشهد الخارجي شرع الشاعر يتصدى للوصف الداخلي الذي نفذ فيه إلى الأعماق . يقول :[2]

رأى شبَحاً وَسْطَ الظلامِ فَرَاعَهُ ... فلَمَّا بدا ضيفاً تَسوَّر واهتما
فقال ابنُه ، لَمَّا رآهُ بِحَيْرةٍ : ... أيا أبتِ ! اذبحْنِي ويسرلَهُ طُعْمَا
ولاَ تَعْتَذِرْ بالعُدْمِ عَلَّ الذي طَرَا ... يظنُّ لَنا مالاً فَيُوسِعَنَا ذمَّا
فَروَّى قليلاً ، ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً ... وإنْ هُوَ لم يذبحْ فتاةُ فَقَد هَمَّا
وقالَ : هَيَا ربَّاه ! ضيفٌ ولا قِرىً ... بِحقِّكَ لا تَحْرِمْهُ تالليلةَ اللحمَا[3]

(١) الطاوي : الجائع . المرمل : المحتاج . الجفوة : غلظ الطبع . البؤس : الشدة . الشعب : الطريق في الجبل . البهم : ولد الضأن والماعز . الملة : الرماد الحار .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٣٩٦ ـ ٣٩٧ .
(٣) تسور : بمعنى اقبل عليه وهجم . واهتم : اغتم . العدم : الفقر . طرأ : نزل بنا . روّى : فكر .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إنه يصور لنا بهذا الوصف الباطني أحاسيس هذا البدوي الفقير. . إنه روّع في بادىء الأمر خشية أن يكون هذا الطارىء عدوا ، ولكنه ما إن عرف أنه ضيف حتى اغتم واستعد . . ولكن بماذا يستعد وهو لا يملك شيئاً ؟؟

وكست الحيرة القاتلة وجهه قناعاً أسود ، وبدا ذلك عليه جليا ، وأدرك ولده هذا الوضع الحرج الذي أصاب أباه ، فقال له : أيا أبت اذبحني ويسرّ له طعماً ، ولا تعتذر إليه بالعدم ، فلعل هذا الضيف يظنّ لنا مالاً ، فيوسعنا ذماً لبخلنا ولأننا لم نقم بحقه .

عندما سمع الأب الحنون كلام ولده لم يستبعد هذا الحل ، بل رآه صالحاً للمناقشة فروى قليلاً تتنازعه عاطفتان متأججتان : عاطفة حب الولد والحفاظ عليه ، والرغبة في إكرام الضيف والقيام بحقه . . وأحجم برهة عن التنفيذ ، ولكنه هم بذبح ولده وإن كان لم يفعل . . ثم حمله هذا التردد بين أمرين ، أحلاهما مرّ ، على الدعاء ، فخاطب ربه خطابا مؤثراً يكشف عن مدى وطء هذه الأزمة التي أصابته في هذا اليوم :

وقال : هيا رباه ! ضيف ولا قرى ؟ بحقك لا تحرمه تالليلة اللحما .

إنه وصف لما يعتور نفس هذا الأعرابي من الاضطراب الذي كاد يبلغ مرحلة الاختناق: كيف يصنع؟.

وإذا كان لنا أن نطلق بعض مصطلحات القصة على هذا النص ، فإننا نقول : إن العقدة هنا تنتظر الحل . . وها هو ذا الشاعر يورد ذلك الحل فيقول :(١)

فينا هُما عَنَّتْ على البعدِ عانَةٌ ... قد انتظمتْ مِنْ خلفِ مِسحَلِها نَظْمَا
ظِماءٌ تريدُ الماءَ ، فانسابَ نحوَها ... على أنه منها إلى دمِها أظمَا
فأمهلَها حتَّى تروتْ عِطَاشُها ... فأرسلَ فيها من كِنانتِه سَهْمَا
فَخَرَّتْ نَحُوصٌ ، ذاتُ جحشٍ ، فتيَّةٌ ... قد اكتنزتْ لحماً وقد طبقَّتْ شَحْمَا

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٣٩٧ .

فيابشـره إذْ جرَّهـا نَحْـوَ أهلِهِ ويابِشْرَهُـمْ لمَّـا رَأَوا كَلْمَهـا يَدْمَى[1]

نعم . . مر قطيع يريد الماء ، ويسير صفاً منتظماً خلف الحمار القائد . . إنها عطشى ولكن صاحبنا أظمأ إلى دمها منها إلى الماء . ويصيد أتانا اكتنزت لحماً وطبقت شحماً . ما أعظم بشره عندما رجع يجرها لأهله ليقضوا حق الضيف .

وهـكذا نرى الـوصف الـداخلي في هذا النص ، يصـور عواطف الرجـل وانفعالاته أتم تصوير .

***

نود ـ بعد أن عرفنـا أن شعـراء هذه المدرسـة قد عنـوا بالـوصف الظاهـري والداخلي ـ نود أن ندرس نصوصاً اهتمت بموصوفات معنوية وأحـاسيس تتـردد في أعماق الإنسان .

وقد رأيت أن أبدأ باستعراض **النصوص التي تتحدث عن موصوفات معنوية محمودة** تتمثل في المثل الكريمة والصفات المثلى ، وإضفائهـا على البطـل أو رئيس القبيلة ، ويبدو أن هناك في وجـدان الشاعـر مثـالاً للبطـل ، أو للرجـل العربـي المطلوب ، يحاول أن ينتقل بموضوفه إليه ، والشيء الجميل أن هذا الوصف يبقى في إطار الواقع الذي تسمح به الحياة العربية في العصر الجاهلي .

ثم أسـتعـرض النصوص التي **تتحدث عن موصوفات معنوية مذمومة** تتمثل في الأخلاق المنكرة والعيوب المستهجنة كالبخل والود الكاذب وما إلى ذلك.

***

(١) عنّت : عرضت . العانة : القطيع من حمر الوحش . المسحل : الحمار الوحشي . النحوص : الأتان الوحشية . اكتنزت : امتلأت .

الأوصاف الداخلية المحمودة :

ـ قال أوس بن حجر يرثي فضالة :[1]

أيتُهـا النفسُ أجملـي جزعَـا ... إنَّ الـذي تحـذرينَ قد وقَعَا
إن الـذي جمَّـع السمـاحـةَ والنـ ... ـجـدة والحـزم والقـوى جُمَعَا
الألمعـيّ الـذي يظنُّ لك الظـ ... ـن كأن قد رأى وقـد سمعا
والمخلف المتلف المـرّزأ لم ... يمتـع بضـعف ولـم يمـت طَبَعَا
والحافـظ النـاس في تَحـوطَ إذا ... لـم يرسلـوا تحـت عائـذ رُبَعَا
أوْدَى وهـل تنفـع الإشاحـة من ... شـيء لمـن قد يحـاول البدعا[2]

إن فضالة ـ كما يبدو من قراءة هذا النص ـ قد جمع صفات طيبة ، ومثلاً عليا كريمة ، فهو قد جمع السماحة والنجدة والحزم . . وهو ألمعي يظن الظن فإذا هو كأنه قد رآه وسمعه ، وهو مخلف لما يذهب من ماله ومتلف له من جديد ، لا يقيم بضعف ، ولا يميته الطمع . . وإنما هو كسوب وهوب ، مرزأ كلما سئل أعطى ، فما أكثر الرزايا التي في ماله .

وهذا المعنى ورد في شعر زهير راوية أوس ، وفي شعر الحطيئة تلميذ زهير . يقول الحطيئة :[3]

كسـوبٌ ومتـلافٌ إذا ما سألتَه ... تهلّل واهتـزَّ اهتـزَاز المهنَّدِ

وقد وقف أوس أمام معنى الكرم وقفة طويلة ، فقد ذكر أن مرثيَّه فضالة يحفظ الناس في سنة القحط ، وأطنب في ذكر ما يدل عليه .

وأحب أن أشير إلى أن البيت الثالث في وصف الألمعي من الأبيات الرائعة

---

(١) « ديوان أوس » ٥٣ .

(٢) الإمتاع : الإقامة . والطبع : أسوأ الطمع ، وأصل معناه مادي ، إذ يطلق على السيف عندما يعلوه الصدأ . والمرزأ : الكثير العطاء كلما سئل . تحوط : سنة القحط . والعائذ : الناقة الحديثة النتاج . والربع : الذي ينتج في الربيع ، ومن شأنهم في سنة الجدب أن ينحروا الفصال لئلا ترضع فتضر بالأمهات .

(٣)« ديوان الحطيئة » ١٦١ .

الذائعة وقد وفق الشاعر فيه أيما توفيق ، فهو بيت واضح محكم عميق يصعب الإتيان بمثله . . إنه من السهل الممتنع ، يصف فيه فضالة بأنه رجل صحيح النظرة ثاقبها ، قوى الفراسة ، حسن الاستنباط والوعي ، يظن لك الظن كأن قد رأى ما يظن وسمعه .

وهكذا نرى أن الشاعر وصف صاحبه وصفا معنوياً شاملاً ونسب إليه أخلاقاً كريمة عدة .

ـ قال زهير بن أبي سلمى : [1]

سيروا إلى خيرِ قيسٍ كُلُّها حَسَباً ... ومُنْتهى من يريدُ المجدَ أو يَفِدُ
فاستمطروا الخيرَ من كفيهِ إنَّهما ... بسيبِه يتروَّى منهما البُعُدُ
مباركُ البيتِ ، ميمونٌ نَقِيبَتُهُ ... جَزْلُ المواهبِ ، من يُعطي كَمَنْ يَعِد
فالناس : فوجانِ في معروفه شَرَعٌ : ... فمنهُم صادرٌ ، أو قاربٌ يَرِدُ
رَحْبُ الفِنَاءِ ، لو ان الناسَ كُلَّهمُ ... حلُّوا إليه إلى أن ينقضي الأبدُ
ما زالَ في سيبِه سجلٌ يعمهمُ ... ما دامَ في الأرضِ من أوتادِ هاوتدُ
في الناسِ للناسِ أندادٌ وليسَ لَهُ ... فيهم شبيهٌ ولا عِدْلٌ ولا ندُّ [2]

يرسم زهير في هذا النَّص لوحة رائعة للرجل الكريم ، وفي ديوان زهير عدد كبير من أمثال هذه القطعة التي تمثل لنا شعر المدرسة في وصف المعاني ، فلقد جمعت إلى الفن في الصور الموسيقى الموفقة والسهولة البالغة في الكلمات والتراكيب ، والتسلسل في الفكرة .

إن الممدوح ههنا ذو حسب عريق . . إنه خير قيس كلها حسباً ، وهو منتهى من يريد المجد . . ومن أجل ذلك كان أهلاً لدعوة الناس إلى قصده لينالهم عطاؤه :

فاستمطروا الخيرَ من كفيه إنَّهما ... بسيبه يتروى منهما البُعُدُ

---

(١) « ديوان زهير » ٢٨١ .
(٢) السيب : العطاء . والبعد : البعيد . شرع : سواء . الصادر : المنصرف عن الماء : القارب : طالب الماء . السجل : الدلو . العدل : المثل والنظير . والند : الشبيه والمثيل .

وهذه الصورة كثيرة الورود عند شعراء هذه المدرسة ، فللكفين مطر،والشاعر يدعو الناس فيستمطروا منهما الخير . . وكيف لا يفعل ذلك والبعيد يتروى من عطائهما ؟ وإنه ليلح على اتصاف ممدوحه بالكرم فيذكر أمرين يدلان على ذلك :

أما أولهما فإن مواهبه جزيلة . وأما ثانيهما فهو صدق وعده ، فمن يعطيه كمن يعده ، ولا عجب في أن يكون منه ذلك فهو مبارك البيت ، ميمون النقيبة .

ويعود ليقرر كرمه فيذكر أن الناس في فوزهم بعطاياه سواء . من قابله أو من سيقابله . فلا يأس المقبل عليه إن رأى كثرة العائدين من بابه . . ليطمئن وليعلم أنه سيكون مثلهم في الغنيمة .

ثم يتابع حديثه ليستوفي جوانب هذا المعنى فيقول : إن ساحة داره واسعة فلو أن الناس المعاصرين ومن سيأتي بعدهم من الناس إلى الأبد لو أن هؤلاء جميعاً حلوا في جواره ، وأقبلوا عليه راغبين في عطائه لعمهم بمنحه ولاستمر في ذلك ما دام في الأرض حياة ، إنه لا شبيه له بين الناس في كرمه .

ـ قال كعب يمدح الأنصار :[1]

تَزِنُ الجبالَ ، رزانَة ، أحلامُهُمْ ... وأكفُّهم خَلَفٌ من الأمطارِ
المُكرِهينَ السمهريَّ ، بأذرُعٍ ... كصواقلِ الهنديِّ غيرِ قصارِ
والناظرينَ بأعينٍ محمرَّةٍ ... كالجمرِ غيرِ كليلة الابصارِ
والذائدينَ الناسَ عن أديانِهِمْ ... بالمشرفيِّ وبالقَنا الخطَّارِ
والباذلينَ نفوسَهُم لنبيِّهم ... يوم الهِيَاجِ وسطوةِ الجبَّارِ
وَهُمُ إذا خوتِ النجومُ فإنَّهم ... للطائفينَ السائلينَ مَقَاري
وهُمُ إذا انقلبوا كأنَّ ثيابَهُمْ ... منها تَضَوع فأرةِ العطارِ
والمطعمونَ الضيفَ حين ينوبُهم ... من لحمِ كومٍ كالهضابِ عِشَارِ
والمُنعِمُونَ المُفضِلُون إذا شَتَوْا ... والضاربونَ عِلاوةَ الحَبّارِ[2]

(١) « ديوان كعب » ٢٦ ـ ٢٩ .
(٢) السمهري : الرمح الشديد . خوت النجوم وأخوت : إذا لم يكن لها مطر . المقاري : الذين يقرون الضيفان . الكوماء : العظيمة السنام . والعشار : جمع عشراء وهي الناقة التي أتت عليها عشرة

يمدحهم كعب برجاحة العقل وبالكرم وبالقوة وبالشدة على الأعداء وبالدعوة إلى الدين وببذل نفوسهم للنبيّ .

هذه المعاني وأمثالها من المعاني الكريمة هي المثل العليا للمجتمع العربي أيام الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن الواضح الجلي ظهور الأثر الإسلامي في شعر كعب هذا .

ونستطيع أن نعد هـذا الوصف من الوصف الداخلي للإنسان ، وأود أن أشير إلى أن شعراء هذه المدرسة حريصون على تصوير هذه الأمور بالصور الحسية ، التي تجعل الفكرة المجردة مشهـداً حسياً واقعياً فعقولهـم تزن الجبال . . وإذا انقطعـت الأمطار وشحت السماء بالغيث فإن أكفهم خلف من الأمطار يجد الناس بعطائها الطعام والكساء والسعادة والسرور .

ويورد مشهداً حسياً آخر ليقرر كرمهم فيقول : إذا عم المحل وقـل الـكرام وجدت هؤلاء القوم مقرين للجياع الطائفين السائلين .

ويعود مرة ثالثة يعرض كرمهم بصورة جديدة فيذكر أنهم يطعمـون الضيف أكرم ما عندهم ، إذ يذبحون الناقة العظيمة السنام التي كادت في ارتفاع سنامهـا وقامتها تكون كالهضبة ، أو الناقة العشراء التي هي من أعز أموالهم عليهم .

ومرة أخرى يعبر عن كرمهم بصورة جديدة . . إنهم ينعمون ويتفضلون في الشتاء حيث يقل الخير والزاد .

وهم قوم شجعان أشداء أقوياء ويعبر عن هذا المعنى بالصـورة الآتية : إن أذرعهم القوية الشديدة كالسيوف يكرهون بها رماح الأعداء على الاستسلام ويعبر عن هذا المعنى بصورة أخرى وهي أنهم يضربون عنق الجبار .

وهذه القوة العظيمة يسخرونها للخير والحق ، فهم يذودون بها عن دينهـم

= أشهر من حملها ، وهي عزيزة عليهم ، لأنها إذا نحرت نحر اثنان : هي وولدها .
العلاوة : هنا ـ العنق .

ويبذلون نفوسهم رخيصة لنبيهم يوم الحرب الهائجة ، لا يبالون بسطوة عدوهم مهما كان جباراً .

ـ قال الحطيئة يمدح ابن شماس :[1]

يَرى البخلَ لا يُبقي على المرءِ مالَهُ ... ويَعلمُ أنَّ الشحَّ غيرُ مخلِّدِ
متى تأتِهِ تعشو إلى ضوءِ نارِهِ ... تجدْ خيرَ نارٍ عندَها خيرُ موقِدِ
تزورُ امرءاً إنْ يَعطِكَ اليومَ نائلاً ... بكفيهِ لا يمنعْكَ من نائلِ الغدِ[2]

يصف الشاعر ابن شماس بالكرم ، ويعبر عن ذلك بالمناقشة الفكرية المقنعة يقول : إنه يبذل ماله عن قناعة تامة بأن تصرفه هو العمل الصحيح لأن البخل لا يبقي على المرء ماله ، ولا يجلب له الخلود . وهذه المناقشة السليمة أوضح مثال على أن مدرسة عبيد الشعر لا تقف في الوصف عند الظاهر .

ثم أتى بصورة حسية شائعة عند عرب الجاهلية : إنها إيقاد النيران التي تدل الضيفان في سواد الليل وتهدى الضالين ، ولكنه فاق من تقدمه حتى قالوا : إن بيت الحطيئة (متى تأته . .) أسقط بيت الأعشى . وقالوا : هذا أجود بيت قيل في هذا المعنى[3] وذكروا أن عبد الله بن عمر سمع رجلاً ينشد هذا البيت فقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

ـ وقال الحطيئة[4] أيضاً في علقمة :

لقد غادرتْ حزماً وبراً ونائلاً ... ولباً أصيلاً خالفته المجاهلُ
وقدراً إذا ما أنفضَ القومُ أوفضتْ ... إلى نارها ، مشياً إليها الأراملُ
لعمري لنعمَ المرءُ لا متهاونٌ ... عن السورةِ العُليا ولا متخاذلُ
يداكَ خليجُ البحرِ : إحداهما دمٌ ... وإحداهما جودٌ يفيض ونائلُ

---

(١) « ديوان الحطيئة » ١٦١ .
(٢) تعشو : أي تستدل على النار ببصر ضعيف ، لقوة هذه النيران .
(٣) « ديوان الحطيئة » ١٦٢ .
(٤)« ديوان الحطيئة » ٢٤ .

فإنْ تحيَ لا أُمْلَلْ حياتــي وإن تَمُتْ فما في حياتي بعدَ موتِكَ طائلُ[1]

يصف الحطيئة علقمة بأوصاف كريمة فيصفه بالحزم والجود والعقل والقوة وأفاض في وصف الكرم شأنه في ذلك شأن الشعراء جميعاً ، فذكر قدره العظمى التي تشب تحتها النار ، فتسرع نحوها الأرامل في سنوات القحط وفي الأزمات أيام الضيق وقلة الزاد ، وصورة الجفان المملوءة والقدور المترعة بالطعام من الصور التي نجدها في الشعر دلالة على الكرم ، ومن ملأ الجفان ودعا إليها الضيفان كان من الكرام الممدوحين . وفي ذلك يقول الحطيئة :[2]

أبــى لابنِ أَرْوَى خَلَّتانِ اصطفاهما قتــالٌ إذا يَلْقَــى العَــدُوَّ ونائِلُه
فَتَــى يمــلأ الشيزَى ، ويَرْوَى بكفِّه سنــانُ الرُّدَيْنــيِّ الأصــمِّ وعامِلُه[3]

ويداه خليج البحر : أما إحداهما فجود يفيض على السائلين والمحتاجين وأما الأخرى فدم على الأعداء وبطش فيهم .

***

الأوصاف الداخلية المذمومة :

كانت الأوصاف السابقة مثلاً عليا وخصالاً كريمة محمودة . . وهناك أوصاف داخلية ولكنها مذمومة . وسنورد نماذج منها :

ـ قال كعب بن زهير يصف العدو :[4]

كمْ دُونَهــا من عدوٍ ذي مكاشحةٍ بَــادي الشــوارة يُبــدي وجهُــهُ حَنَقَا

(١) خالفته المجاهل : خالف الشيء : ضاده . والمجاهل : جمع مجهل وهو المفازة لا أعلام فيها ولا يهتدى فيها . انفض القوم : إذا ذهب زادهم . أوفضت : أسرعت . لا متهاون : أي لا متقاصر . السورة : المنزلة والشرف .

(٢) « ديوان الحطيئة » ٢٣٩ .

(٣) الشيزي : جفان سود ، سوّدها الشحم والدسم . والرديني : نسبة إلى ردينة وهي امرأة كانت تقوم الرماح وقيل : بلد شهرت بالرماح . والعامل في الرمح : دون السنان بذراع . والأصم : الذي لا جوف له .

(٤) « ديوان كعب » ٢٣٨ .

ذِي نَيْرَبٍ نَزِعٍ ، لوقَـدْ نصبـتُ لهُ وَجْهي لَقَدْ قالَ كنـت الحائـنَ الحَمِقَا
كالكلبِ لا يَسـأم الكلـبُ الهـريرَ ولَوْ لاقيتَ بالكلـبِ ليثـاً مُخِـدراً ذَرِقَا[1]

إنه عدو لدود ذو معاداة يحول بين الشاعر وبين هند التي يذكرها قبل هذه الأبيات ذكر الواهين المتيمين فيقول :

يا ليتَ شِعْري ، وليتَ الـطيرَ تُخْبِرَني أَمِثْـلَ عِشقـي يُلاقـي كُلٌّ من عَشِقَا
إذَا سَمِعْـتُ بذكرِ الحُـبِّ ذكرّني هِنْـداً ، فقـد عَلِـقَ الأحشـاءَ ما عَلِقَا

مـا أبغض هذا العـدو إلى النفس . . إنـه يبـدي زينتـه ويبـدي هذا الغيظ الشديد . . ولقد اجتمعت فيه صفات فاسدة فهو نمام مسارع إلى الشر . . مخاصم عذول . . مجترىء عليّ . . لو تعرضت له لقال لي : إنك أحمق هالك . ما أشبهه بالكلب الذي لا يمل من النباح المستمر ولا يستأسد إلا إذا كان وحده . . أما إذا وقف أمام ليث مخدر لا يعرف إلاّ أجمته فإنه ليسلح فرقاً منه .

قال الحطيئة يصف البخيل : [2]

كدحتُ بأظْفَـاري ، وأعملـتُ مِعْولي فصادفـتُ جُلْمـوداً من الصخـرِ أملسا
تشاغـلَ لمَّـا جئـتُ في وجـهِ حاجتي وأطـرقَ، حتَّى قلتُ :قد ماتَ أَوعَسَى

وأجمعـتُ أنْ أنعـاهُ حينَ رأيتُهُ يفـوقُ فَوَاقَ المـوتِ ، حتـى تنفَّسَا
فقلـتُ له : لا بأسَ لسـتُ بعائدٍ !! فأَفْـرَخَ تَعْلُـوهُ السمـاديرُ مُبْلسَا[3]

صورة ساخرة مؤثرة ، حاول الشاعر أن يستثير في الرجل كل دواعي الإحسان

---

(١) المكاشحة : المعاداة . الشوارة : الزينة . والحنق : شدة الغيظ . والنيرب : النميمة والعداوة والشر . النزع : المتسرع إلى الشر . الحائن : من الحين وهو الهلاك . والهرير : صوت الكلب . وذرق : سلح . وأخدر الليث : لزم خدره وهو أجمته ومأواه .

(٢) « ديوان الحطيئة » ٢٨٢ وانظر « نقد الشعر » لقدامة طبعة كمال مصطفى صفحة ١١٠ .

(٣) فواق الموت : ما يأخذه عند النزع من ترجيع الشهقة العالية .
أفرخ : ذهب روعه وهدأت نفسه . السماديد : شيء يتراءى للإنسان من ضعف بصره عند السكر . أبلس في أمره : تحيّر .

وعوامل العطاء فلم ينجح . كدح بأظفاره وأعمل معوله فلم يحرز أي تقدم في ذلك لأنه صادف جلموداً أملس من الصخر لا تنفع فيه المحاولة .

والبخيل قاسي القلب ، فكأنه لا يحمل بين جوانحه قلباً ينبض بالحياة والمعاني الخيرة ، وإنما يحمل صخراً أملس لا يتحرك فيه إحساس ولا يتأثر بشيء . إن الحرث والزرع يفيد في الأرض التي تساعد طبيعتها على ما يراد منها . أما الصخر الأملس فماذا عسى ينفع فيه الحرث والفلاحة ؟

ولما جاء مقبلاً عليه تشاغل عنه وأطرق ولم يعد يتحرك حتى ظن أنه قد مات أو قارب الموت . . لقد علاه شحوب الموت ، وسيطر عليه سكونه ، وجحظت عيناه . . وشرع يفوق فواق الموت ويشهق شهيقاً عالياً . . فأجمع عندئذٍ أن ينعاه ويخبر الناس بموته . . حتى تنفس فعرف أن هذا قد حصل بسبب مجيئه . . فأشفق عليه من الهلاك وقال له : مهلا يا هذا . . لا بأس عليك . . اطمئن . . أنا ذاهب الآن ولست بعائد !!

لقد ردت هذه الكلمات الحياة إليه من جديد . . فذهب روعه ، وخف رعبه ، وهدأت نفسه ، وهزّه الفرح هزة السكران حتى زاغت منه النظرات وعلته السمادير .

وقال الحطيئة[1] يصف أمه بأنها لا تحفظ السر :

أَغِرْبالاً إذا استودعت سرّاً وكانوناً على المتحدِّثينا

فهي كالغربال لا يحفظ ما يودع فيه ، وهي كالكانون تؤذي المتحدثين وتلسعهم .

وقال الحطيئة[2] يصف الودّ الكاذب :

فَلَنْ تُحيُّوا لنا خيراً ، وودُّكمُ لنا يبيسٌ عَلَتْهُ النارُ ، فاضطرمَا

(١) « ديوان الحطيئة » ٢٧٧ .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٣١٦ .

لا وُدَّ في آلِ عمـرٍو ، إنْ أطفـتَ بهمْ خرانـقٌ تنفُضُ الأعـرافَ واللِّمَما[1]

يرسم الشاعر بموهبته الفذة صورة الود الكاذب ، فيقرر أن ود هؤلاء القوم لهم يبيس علته النار ، فلا بد أن يلتهب ويضطرم .

ثم أردف قائلاً إن آل عمرو لا ودّ فيهم ، لأنهم أولاد الأرانب ، ومعروف أن الأرانب مطبوعة على الجفوة والنفرة من الناس فكيف بأولادها الصغار إنها أشد نفوراً وبعداً عن الود .

ومن الملاحظ أن الشاعر كان موفقاً في اختيار الكلمات للدلالة على العداوة والود الكاذب من مثل : اليبوسة ، والنار ، والخرانق .

وصف الطفولة :

استلفت نظرهم في الإنسان وصف هذه المرحلة من عمره ، والطفولة مرحلة خصبة الإيحاء للوالد . . تفجر في الموهوب كل طاقات الإبداع والخلق الفني العظيم . . فما بالنا إذا كان هذا الموهوب من نوابغ عبيد الشعر الذين يتخذون الشعر هواية وصنعة ؟

قال الحطيئة يستعطف :[2]

ماذا تقـولُ لأفـراخٍ بِذي مَرَخٍ زُغـبِ الحواصـلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
غيبَّـتَ كاسبَهُـمْ في قعـرِ مُظْلِمةٍ فاغفـرْ ، عليكَ سلام اللهِ يا عمرُ
فامنن على صبيةٍ ، بالرمـلِ مسكنُهمْ بينَ الأباطـحِ تغشاهُـمْ بهـا القِرَرُ
أهلـي فداؤك كَمْ بينـي وبينهمُ مِنْ عرضِ داويةٍ تَعْمَى بها الخُبُرُ[3]

(١) الخرانق : أولاد الأرانب .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٢٠٨ و « الأغاني » ٢ / ١٨٨ .
(٣) ذو مرخ : واد يقع في الجهة الشمالية الشرقية من الزلفي ، وبين المدينة وفدك واد عظيم آخر يقال له : مرخ .
قال ابن بليهد : وظني أن هذا الوادي الحجازي هو الذي عناه الحطيئة ، لأنه سجن في المدينة ، وربما كانت فراخه قريبة منه !! أقول :والذي يغلب على ظني أن الموضع الذي عناه الحطيئة إنما هو =

هذه لوحة فنية نرى فيها الأطفال أفراخاً حمر الحواصل . وهي في هذه المرحلة ضعيفة لا تقوى على الانتقال ولا الطعام إلا بمعونة ذويها ، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها . . إنها أفراخ لم ينبت الريش على حواصلها سوى زغب قصير لا يستر لحمها .

وإنما يريد الشاعر بهذا الوصف المؤثر أن يستدر عطف الخليفة الغاضب الذي أودعه السجن عقوبة له على طول لسانه. فهو يخاطب أمير المؤمنين قائلاً :

ماذا تقول لأطفالي الصغار الضعفاء المنفردين . . النائين . . لا ماء لديهم ، ولا شجر يأكلون من ثمره ويستظلون بظله . . وكاسبهم الذي يطعمهم ويسقيهم ملقى في قعر البئر المظلمة التي غيبته فيها . . فاغفر زلتي يا عمر ، عليك سلام الله . ومضى يستثير شفقة الخليفة بذكر سكناهم الصعبة وإقامتهم الشديدة فامنن على هؤلاء الصبية الذين يسكنون بين الأباطح يتعرضون للبرد القارس ، تحول بيني وبينهم الصحارى التي يعمى فيها الخبراء .

ويبدو أن تشبيه الأطفال بأفراخ الطيور شائع . . وكان الحطيئة يكثر منه ، فهو مثلاً يقول في قصيدة يمدح بها الوليد بن عقبة :[1]

وإنِّي لأرجوهُ ، وإن كانَ نائياً ... رجاءَ الربيعِ أنبتَ البقلَ وابلُه
لزغبٍ ، كأولادِ القَطَا ، راثَ خلقُها ... على عاجزاتِ النهضِ ، حمرٍ حواصلُه[2]

إن كان وصفه لأطفاله في النص السابق للاستعطاف ، فوصفه ههنا للمدح

= الوادي النجدي ، لأن مساكن الحطيئة في نجد ، ولأنه يقرر في هذه الأبيات أن ذا مرخ بعيد عن مكان سجنه . (انظر « صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار » ٢ / ٨٨) .
الأفراخ : صغار الطير شبه بها أولاده . زغب الحواصل : أي حمر الحواصل لم تكس الريش بعد ولم ينبت على حواصلها سوى زغب قصير حتى إن لحمهم باد ، وهذا كناية عن صغرهم وعدم قدرتهم على الطيران . القرر : جمع قرة وهي البرد . داوية : الفلاة الواسعة . الخبر : الخبراء .

(١) « ديوان الحطيئة » ٢٣٩ .

(٢) الوابل : المطر الشديد الوقع . راث خلقها : أي تأخر نموها ، وأبطأ شبابها لسوء غذائها وشظف عيشها وشدة فقرها .

والرجاء . . يقول : إنني أرجوه رجاء محققاً ، كما يرجو الناس الربيع إذا بدأت أمطاره تنبت البقل . وهو هنا يشبههم مرة أخرى بالأفراخ الزغب الحواصل ، ولكنه يزيد أمراً آخر وهو : تأخر نموهم وشدة هزالهم . . إنهم من زمن بعيد كأولاد القطا ، لا يكادون يكبرون ، أبطأشبابهم وتأخر نموهم لسوء التغذية التي يتلقونها . . إنهم يعجزون عن النهوض من ضعف قوائمهم .

***

وصف الشيخوخة :

يرعى العرب تقدم السن ما لم يبلغ أرذل العمر ، فإذا بلغ هذه المنزلة ضاقوا به ذرعاً ولاسيما البدو منهم .

ومرحلة الشيخوخة الطاعنة التي تقعد صاحبها ولا تجعله يعلم من بعد علم شيئاً ، هذه المرحلة عبء ثقيل على الرجل الهرم وقبيلته ، إذ لا يستطيع أن يدفع عن نفسه بقوته ولا برأيه ، ويحتاج إلى من يدافع عنه ويخدمه ويصرف شؤونه .

قال كعب بن زهير :[1]

وما زلتُ أرجو نَفْعَ سُعْدى وَوُدَّهَا ... وتُبعِدُ ، حتى ابيَضَّ مني المسائحُ
وحتى رأيتُ الشخصَ يزدادُ مثلَهُ ... إليه ، وحتى نصفُ رأسيَ واضحُ
عَلا حاجبيّ الشيبُ حتَّى كأنَّهُ ... ظِباءٌ جَرَتْ منها سنيحٌ وبارحُ
فأصبحتُ لا أبتاعُ إلا مؤامراً ... وما بيعَ من يبتاعُ مثليَ رابحُ[2]

يصف كعب شيخوخته بوصفين هما : الشيب ، وضعف البصر .

---

(١) « ديوان كعب » ٢٤٠ ، و « أمالي المرتضى » ١ / ٤٥٨ وقد نسبها لابنه عقبة .
(٢) المسائح : جمع مسيحة وهي الذؤابة ، أي شعر جوانب الرأس . وقد آثرت رواية المرتضى التي وردت بصيغة المتلكم على رواية الديوان التي جاءت بصيغة المخاطب . السانح والسنيح : ما أتاك عن يمينك من طائر أو ظبي . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك .

لقد ابيضت منه ضفائر الرأس حتى بلغ الشيب نصف رأسه ، وأكاد أفهم من البيت أن شعر رأسه قد شاب نصفه والنصف الآخر قد سقط .[1]

ولم يقف الشيب عند هذا الحد ، بل جاوز ذلك حتى أتى إلى الحاجبين فعلاهما . . إنها شيخوخة متقدمة ، لأن شعر الحاجبين عادة آخر شعر الإنسان شيباً .

ويلفت نظرنا صورة الشيب في الحاجبين كما أحب أن يعرضها علينا الشاعر إنها ظباء بيضاء ، بعضها يسير نحو اليمين ، وبعضها يسير نحو اليسار فاتجاه شعر الحاجبين مختلف .

وكذلك فقد ضعف بصره ، حتى صار يرى الشخص شخصين من أجل ذلك فأنا لا أستطيع شراء شيء إلاّ من بعد مشورة ، لأن اعتمادي على نفسي مبدد لأموالي .

وقال الحطيئة :[2]

لعمركَ ما رأيتُ المرءَ تبقى ... طريقتُهُ ، وإنْ طالَ البقاءُ
إذا ذهبَ الشبابُ ، فبانَ منهُ ... فليسَ لِمَا مَضَى منه لقاءُ
يَصَبُّ إلى الحياةِ ويَشتهيها ... وفي طُولِ الحياةِ له عَنَاءُ
فمنها أن يُقادَ به بعيرٌ ... ذلولٌ حين يهترش الضراءُ
ومنها أن ينوءَ على يديهِ ... ويظهَر في تراقيه انحناءُ
ويأخذَهُ الهُداجُ إذا هداهُ ... وليدُ الحي ، في يدِهِ الرداءُ
وينظرُ حوله فيرى بنيهِ ... حِواء من ورائهم حواء
ويحلفُ حلفةً لبني بنيهِ ... لأمسوا مُعْطشين وهُمْ رِوَاءُ
ويأمرُ بالجمال فلا تعشَّى ... إذا أمسى وإنْ قَرُبَ العَشَاءُ
تقولُ له الظعينةُ : أغنِ عنِّي ... بعيرَكَ ، حتَّى ليسَ بهِ غناءُ[3]

---

(١) فقد ذكر كعب ـ في قصيدة أخرى ـ ذلك فقال (الديوان ١٩٠) :
نفى شعر الرأس القديم حوالقه ... ولاح بشيب في السواد مفارقة

(٢) « ديوان الحطيئة » ١٠٩

(٣) بان : بعد . يصب : يشتاق . اهترشت : اختصمت وتناوشت ، وتحرش بعضها ببعض =

إنها قطعة وصفية رائعة . . تصور لنا مظهر الشيخ الهرم وتصرفاته وتعكس لنا نظرة المجتمع البدوي له . ويمتزج هذا الوصف بالحكمة العميقة التي أملتها تأملات واعية ، فهو يقول : إن المرء لا تبقى طريقته على ما كانت عليه ، فلا شبابه يبقى ولا نشاطه ولا غناه . . لا يبقى شيء من ذلك على تقلبات الزمان .

إذا ذهب الشباب وولى بعيداً فليس هناك أمل أبداً في أن يلقاه صاحبه مرة أخرى من جديد . . لا . . لن يعود الشباب بعد ارتحاله والعجيب أن الإنسان الهرم المتهدّم يشتاق إلى الحياة ويشتهيها وليس له في طول الحياة إلاّ المشقة والعناء والألم والشقاء ، كما قال النابغة الجعدي :

والمـــرءُ يفـــرحُ بالبقا ء وطولُ عيشٍ قد يضرُّه

بل إننا لنرى أنه كلما ازداد تقدماً في السن ازداد حباً للحياة وتعلقاً بها مع ما يلقى من صنوف المشقة المبرحة ، وها هو ذا الشاعر يفصل لنا أنواع المشقة التي يتعرض لها من بلغ من الكبر عتيا :

فمن ذلك أن أهله يحملونه على البعير الذلول الذي لا ينفر إذا اهترشت الكلاب ، وذلك لما صار إليه من الضعف وعدم القدرة على الاستقرار على ظهر البعير ، فيخشون عليه السقوط . وهذا البعير الذلول يقاد ، لأنه غير قادر على ضبطه ورياضته وقيادته بنفسه وفي هذا التصوير ما فيه من الضعف والانهيار .

وهناك رواية أخرى للبيت :

فمنهـــا أن يقـــاد به بعير نفـــور حين يهتـــرش الضراء

ومعنى البيت عندئذٍ : إن أهله لا يبالون به ، وليسوا حريصين أبداً على حياته . . إذ يختارون له البعير النفور الذي ينفر عند تهارش الكلاب ، ولا يسؤوهم أن يسقط ويتخلصوا منه .

= والضراء : الكلاب . الهداج : مشية فيها تقارب الخطو . الحواء : الأخبية المجتمعة ، يريد أن أولاده كثروا . معطشين : أي إبلهم عطاش . ويريد بقوله : ويأمر بالجمال . . إنه قد خلّط من كبره وهذى .

ومن ذلك أنه إذا أراد القيام نهض على يديه لضعفه . . وليبالغ في تقرير صفة الضعف ذكر أن الانحناء يظهر في تراقيه ، وذلك غاية ما يتصور المرء من الانحناء . . فانحناء الظهر أمارة الشيخوة وقد يعترى ذلك بعض الكهول ، أما أن تنحني التراقي وهي في مقدمة الإنسان فمعنَى ذلك أنه بلغ من الشيخوخة ذروتها .

وهو من أجل ذلك لا يستطيع أن يمشي سريعاً ولا منفرداً . . بل لا بدّ من أن يكون متقارب الخطوات ، يدله على الطريق وليد صغير السن ، وهذا الوليد يحمل عنه كل ما ينوء به ويثقل خطواته . . حتى إنه ليحمل عنه رداءه في يده !!

ويرى أن أولاده قد كثروا وملأوا الأخبية من حوله . ثم يتحدث الشاعر عن هذيانه وتخليطه . . فهو يحلف أن إبلهم عطشى وهي رواء ، وينهى أن تعشى إبله وقت العشاء . إنه خرف وأصبح يهذى . وقد عرفه أقرباؤه بهذا فهم لا يلتفتون إلى كلامه أبداً .

لقد وصفه وصفاً ظاهرياً وباطنياً ، واستخدم في ذلك الصور البيانية والكنايات الجميلة .

***

وإن مما يتصل بالشيخوخة الشيب ، وكعب من الشعراء الذين أكثروا من ذكر الشيب ، وقد يكون من الحلقة الأولى في سلسلة المكثرين من ذكره . فهو مغرم بذكر الشيب وأثره في إفساد علاقته بزوجته .

يقول كعب :[1]

ألا بكَرَتْ عِرْسي تلومُ وتَعذِلُ ... وغيرُ الذي قالتْ أعفُّ وأجملُ
ولمَّا رأتْ رأسي تبدَّلَ لونُهُ ... بياضاً عن اللونِ الذي كانَ أولُ
أرنَّتْ من الشيبِ العجيبِ الذي رأتْ ... وهل أنتِ ويبَ غيرِك أمثلُ

(١) « ديوان كعب » ٤١ .

كِلانـــا عَلَتْـــهَ كَبْـــرةٌ فكأنَّما رَمَتْـــهُ سِهـــامٌ في المفـــارقِ نُصَّلُ[1]

يشكو كعب ازورار زوجته عنه بسبب شيبه وصياحها ، إذ يقول تبدل لون رأسه فأصبح أبيض ، وهو يرد عليها بأنها هي أيضاً قد علتها كبرة . ويذكر الشيب في موضع آخر فيقول :[2]

فأصبحتُ قد أنـــكرتُ منهـــا شمائلاً فما شئتَ من بخلٍ ومن منعِ نائلِ
ومـــا ذاكَ من شيءٍ أكونُ اجترمتُه سوى أنَّ شيباً في المفارقِ شاملي[3]

ينكر كعب أخلاق زوجته من البخل وغيره وما ذاك من ذنب ارتكبه إلا هذا الشيب الذي شمل مفارقه .

ونختم الكلام عن الشيب بهذه القطعة الجميلة لكعب التي يقول فيها :[4]

بانَ الشبابُ ، وأمسى الشيبُ قد أزِفَا ولا أرى لشبـــابٍ ذاهـــبٍ خلفا
عادَ الســـواد بياضـــاً في مفارقه لا مرحباً هابذا اللـــونِ الـــذي رَدِفَا
في كلِّ يومٍ أرى منـــه مبيّنةً تـــكادُ تسقـــطُ منـــي منَّـــةً أسَفَا
ليتَ الشبـــابَ حليفٌ لا يزايلُنا بـــلْ ليتَـــهُ ارتـــدَّ منـــه بعضُ ما سَلَفَا
ما شرُّهـــا بعدَمـــا ابيّضـــتْ مسائِحُها لا الـــودُّ أعرفُـــه منهـــا ولا اللطَفَا[5]

وهذا مطلع قصيدة جميلة لكعب ، يرسل البيت الأول حسرة ممزوجة بالحكمة ذهب الشباب ولن يعود وجاء الشيب . . نعم إن السواد الذي كان في

---

(١) العرس : الزوج . أرنت : صوتت وأظهرت من ذلك جزعاً . ويب : بمعنى ويل ، وويح ، قال الأستاذ عباس حسن في « النحو الوافي » ٢ / ١٨٨ الطبعة الثانية : (ويح - ويل - ويس - ويب . . وأمثالها من الألفاظ التي كانت بحسب أصلها كنايات عن العذاب والهلاك وتقال عند الشتم والتوبيخ ، ثم كثر استعمالها حتى صارت كالتعجب يقولها الإنسان لمن يحب ومن يكره ، ثم غلب استعمال (ويس) و (ويح) في الترحم وإظهار الشفقة كما غلب استعمال (ويل) و (ويب) في العذاب) النّصل : جمع ناصل ، وهو السهم إذا خرج نصله .

(٢) « ديوان كعب » ٩٢ .

(٣) الشمائل : الخلائق ، الواحد شمال . اجترم الذنب : ارتكبه .

(٤) « ديوان كعب » ٧٠ .

(٥) في مفارقه : أي مفارق الرأس . ها بذا : بهذا . ردفا : أي جاء بعد أن لم يكن . المنة : القوة . والأسف : الحزن .

مفارق رأسي قد صار بياضاً ، فلا مرحبا بهذا اللون الذي جاء بعد أن لم يكن .

وأود أن ننعم النظر في هذه الصورة الموفقة للشيب التي توحي بها كلمة (ردف) فلقد جعل كعب الشعر الأسود الراكب الأصلي الذي يعلو الرأس ، وجعل الشيب الأبيض رادفاً . . بئس الوافد الجديد . . إنه ضيف ثقيل لا يستحق الترحيب . . في كل يوم يرى منه طعنة مبينة تذهب قواه وتسقط قدرته على الاحتمال حزناً وأسفاً .

وقاده ألمه إلى أن يتمنى المستحيل . . يتمنى أن يعود الشباب وأن يكون حليفاً لا يزايله ، وهو نفسه قد قرر أنه لا يرى لشباب ذاهب خلفاً . ثم ربط بين هذا الشيب الكريه وحال زوجه المتمردة التي لا تريه شيئاً من الود ولا اللطف .

***

وصف أعضاء من الإنسان

سنورد تحت هذا العنوان وصف عبيد الشعر للعين واللسان ولدينا مجموعة وافرة من النصوص وصف فيها هؤلاء الشعراء عدداً كبيراً من أعضاء الإنسان سنستعرضها عندما نتحدث عن وصفهم للمرأة .

وصف العين

وصفوها بأنها عين مريضة أمرضها النعاس بسبب متابعة المسير ، ووصفوها بحدَّة البصر وبالحمرة .

فكعب بن زهير يقول :[1]

ومريضةٍ مرضَ النعاسِ ذعرتُها بادرتُ علةَ نومها بِغِرَارِ[2]

(١) « ديوان كعب » ٣٥ .
(٢) ذعرتها : أي أفزعتها ، أي لم أخلها والنوم . الغرار : قلة النوم .

سهر كثيراً حتى مرضت عينه بسبب النعاس ، وعندما أرادت أن تخلد للنوم أفزعها وبادر الرحيل وحمى عينه النوم . ولا يخفى جمال التشخيص الذي يضفي على العين صفات الأحياء من مرض وذعر .

وكعب يقول ـ :[1]

والناظـريـنَ بأعيُنٍ محمَّـرةٍ كالجمـرِ ، غيرِ كليلـةِ الإبصار[2]

يصف الأنصار بثباتهم في الحروب ، لا تزيغ أبصارهم في الحرب وإنما ينظرون بأعين محمرة ، كأنها الجمر ، ووصفهم العين بالحمرة ليدلوا على الغيظ الشديد وشهوة البطش بالخصوم ، وقوله غير كليلة الإبصار ، استدراك جميل لكي يبعد إيهام المرض .

والحطيئة يقول في مدح طريف بن دفاع الحنفي :[3]

كأنَّ طـرفَ قطامـيٍّ بمقلتِهِ إذا يَحـارُ هُداةُ النـاسِ لم يَحرِ[4]

فهو يصف عينه بحدة البصر ، وقد عبر عن ذلك بأن قال : إن هذا الرجل كأنه ينظر بعين صقر ، ولذلك فهو متثبت مما يرى ، ويبصر النهج الذي ينبغي سلوكه ، فإذا وقع هداة الناس في حيرة ، وجدته عارفاً قصده ماضياً في سبيله ، لا يتردد ولا يحار .

وصف اللسان

وهذا الحطيئة أيضاً يصف اللسان وهو يهجو أمه فيقول :[5]

لسانُـكِ مبـردٌ لم يُبـقِ شَيْئاً وَدرُّكِ دَرُّ جـاذبـةِ دهينِ[6]

(١) « ديوان كعب » ٢٦ .
(٢) الكليلة : الضعيفة النظر من علة أو غير علة .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٧٠ .
(٤) القطامي : الصقر .
(٥)« ديوان الحطيئة » ٢٧٨ .
(٦)الجاذبة : التي قل لبنها . وكذلك الدهين من أوصاف الناقة إذا قل لبنها .

شبّه لسانها بالمبرد في أنه لا يدع شيئاً يتعرض له إلا يأتي عليه . والمبرد الذي يأكل الحديد يكون أثره في الأجسام والأعراض أشد إيلاماً وايذاء .

واتبع هذا التشبيه بأن ذكر أن لبنها قليل يريد أن خيرها قليل فلا ينتفع منها رضيعها شيئاً .

***

وصف الحالات :

سنعرض في الصفحات التالية إلى وصف ما يعترى الإنسان حالة السكر ، ووصف نديم الشراب ووصف الصياد .

أما وصف السكارى والنديم فلم نجد في ذلك نصوصاً كثيرة ، وقد يكون ما غلب على شعراء هذه المدرسة من الرزانة والجد تعليلاً لهذه الظاهرة . وهم كشعراء الجاهلية يذكرون شرب الخمر ليقرروا كرمهم وغناهم ، يقول زهير :[1]

وَقَدْ أَغْدُو على شَرْبٍ كرامٍ ... نَشَاوَى واجدينَ لما نَشَاءُ
لهم راحٌ وراووقٌ ومسكٌ ... تُعَلُّ بهِ جَلودُهُمُ وماءُ
أُمشِّي بينَ قَتْلى قَدْ أُصيبتْ ... نُفوسُهُم ولم تَقْطُر دِمَاءُ
يَجُرُّونَ البُرودَ وَقَدْ تمشتْ ... حُمَيَّا الكأسِ فيهم والغِناءُ[2]

قد أغدو على قوم كرام شربوا الخمر حتى انتشوا ، وإنهم موسرون ، فهم واجدون لما نشاء . ولهم الخمر وآنيته ، ولهم مسك تطيب به جلودهم مرة بعد مرة ، وما زالوا يشربون حتى صرعتهم الخمر دون أن تسيل منهم قطرة من دم . ويلبسون البرود الفاخرة يجرونها عندما يتبخترون وقد تمشت في أوصالهم سورة السكر . . ويغنون .

---

(١) « ديوان زهير » ٧٢ .
(٢) الشرب : الشاربون . الراووق : الذي يروق فيه ويصفى . وتعلّ : أي تطيب بالمسك مرة بعد مرة ، وهو من العلل : وهو الشرب الثاني . ولم تقطر دماء : أي هم قتلى الخمر والسكر ولم تسل دماؤهم . حميا الكأس : سورتها .

ويقول زهير[1] أيضاً :

ذاكَ وقـد أصبَـحُ الخليلَ بصهـ ـبـاءَ كُمَيْـتٍ صافٍ جوانِبُهـا
مثـلِ دمِ الشـادِنِ الـذبيح إذا أتـأَقَ منهـا الـراوُوقَ شارِبُهـا
دَبَّـتْ دبيبـاً حتـى تَخوَّنَهُ منهـا حُمَّيـا وكَفٌ صالِيُها
عمَّـا تراهُ يكُفُّ مَنطِقَهُ أجمـعَ في النفسِ مـا يُغالِيُها
عمَّـا قليلٍ رأيتَـهُ رَبِـذَ الـ ـمنطِقِ واستعجلـتْ عَجَـائِبُهـا[2]

وزهير يصف الخمر وشاربها وصفاً دقيقاً فيقول : إنها صافية ليس فيها قذى وهي حمراء بين الصهباء والكميت ، ولكنها على أية حال مثل دم الغزال إذا كانت في الراووق الذي يملؤه عادة شاربها .

هذه الخمر فلننظر صفة أثرها :

إنها مشت في عروقه شيئاً فشيئاً حتى ذهبت بقوته وعقله ، وقد عانى من شدتها أول الشرب ما أورثه الصداع ، ولكنه عندما انتشى وثمل ذهب عنه ذاك الأمر المكروه . . وشرع يهذي ولم يعد قادراً على ضبط لسانه وظهرت آثار السكر .

وليس هناك جديد عند شعرائنا في وصف الخمر وشاربها . وها نحن أولاء نرى وصف نديم الشراب :

قال كعب يصف نديم السكر :[3]

وقـد أشهـدُ الـكأسَ الـرويَّةَ لاهياً أُعَـلُّ قبيلَ الصبـحِ منهـا وأُنْهَلُ
يُنازِعُنيهـا لَيِّنٌ غيرُ فاحشٍ مُبـادِرُ غاياتِ التجـارِ مُعَذَّلُ

(١) « ديوان زهير » ٢٦٧ .
(٢) أصبح الخليل : أسقيه الصبوح من الخمر . الصهباء : الحمراء إلى بياض . والكميت : الحمراء إلى سواد . وصاف جوانبها : أي ليس فيها قذى . الشادن : الغزال حين يقوى . أتأق : ملأ . دبت : مشت في عروقه . تخونه : أي تنقصه وتذهب بقوته وعقله . وصالبها : أي صداعها وشدتها وذلك أن المرء عندما يشرب الخمر ينتفض لها ، حتى إذا ثمل ذهب ذلك عنه فيسكن . عما تراه : يريد بينما تراه . ربذ المنطق : خفيف الكلام ، سريع المنطق . والضمير في (عجائبها) يعود على النفس أو الخمر .
(٣) « ديوان كعب » ٤٢ .

إذا غلبتـه الـكأسُ لامتعبِّسٌ ... حَصُـورٌ ، ولا من دونهـا يَتَبسَّلُ
وليسَ خليلـي بالمَلُـولِ ، ولا الذي ... يلـومُ علـى البخـلِ البخيلَ ويبخلُ
لنـا حاجـةٌ في صرحـةِ الحـيِّ بعدَما ... بَـدَا لهـمُ أن يَظعَنـوا فتحمَّلُوا
نَشَـاوَى ، نديمُ الـكأسِ منـا مرنَّحٌ ... وعيسٌ مُنَاخـاتٌ عليهـنّ أرحُلُ
وَجحْـلٌ سليمٌ ، قد كشفنـا جِلالَهُ ... وآخَـرُ في أنضـا مِسْـحٍ مُسَرْبَلُ[1]

ليلة حمراء . . استمرّ فيها شرب الخمر إلى ما قبيل الفجر ينهل من الخمر ويعل مرة بعد مرة ، ويعاطيه هذه الكؤوس ويجاذبه إياها رجل لين العريكة دمث الخلق ، يسابق الناس إلى الخمارين ، ليكون هو أول من يصطفي ما جاء به هؤلاء التجار . وفي هذا النص تسجيل لعادة اجتماعية ذكرها غير واحد من شعراء الجاهلية ، وهي أن الخمّار عندما يأتي كان ينصب راية تدل عليه .

وأصبح هذا النديم بسبب مبالغته في شراء الخمر وتناوله معذلاً ملوماً ، وهو ـ إذا سكر ـ ضاحك متلاف كريم ، لا يعبس ولا يعربد ولا يبخل ولا يلوم أحداً على بخله ، وفي ساحة الحيّ المزدحمة بالإبل المناخة عليها الأرحل فيها النشاوى المصرّعون ودنان الخمر المترعة : منها ما فتح ومنها ما يزال في أوعيته .

***

وصف الصياد :

من الموصوفات الإنسانية التي عني بها شعراء هذه المدرسة أيما عناية وصف الصياد ، وليس خاصاً بها بل نجد عدداً من الشعراء في الجاهلية يعنون بوصفه .[2]

---

(١) الكأس : الإناء ما دام فيه شراب ، فإن لم يكن فيها شارب فهي قدح . وقال الأصمعي : الكأس : الشراب . والعلل : الشرب الثاني . والنهل : الشرب الأول . المنازعة : المجاذبة والمعاطاة . غير فاحش : أي دمث الخلق . غايات التجار : رايات يعرف بها أصحاب الخمر . المعذّل : الملوم . الحصور هنا : البخيل الذي لا ينفق . يتبسّل : يتشجع يريد لا يعربد . الملول : الضجر . صرحة الحيّ : ساحته . الجحل : الزق . السليم : الذي لم يفض ختامه . الجلال : جمع جلّ وهو الغطاء . الأنضاء : جمع نضو وهو الثوب الخلق البالي . المسح : كساء من شعر . سربله : ألبسه السربال وهو القميص .

(٢) كالنابغة وامرىء القيس وكعدد من شعراء المفضليات مثل سويد اليشكري وربيعة بن مقروم وعبدة بن الطبيب ومتمم بن نويرة وغيرهم .

ووصف الصياد عند هؤلاء الشعراء جميعاً إنما يأتي ـ غالباً ـ في خلال وصف الناقة . . إنها تكاد تكون قاعدة مطردة . . يشبه الشاعر ناقته بحمار الوحش أو ثوره ، ثم يصف حمار الوحش ومطاردته من قبل الصياد .

إذن وصف الصياد قطعة من مشهد جميل . . ولذلك فإننا إذا قرأنا نصاً واحداً لشاعر ثم نظرنا في نصوص أخرى ألفينا فيها تكراراً ولا نكاد نجد جديداً . . فحمار الوحش يخشى الصيادين ، والقانصون يختفون في قترة ، والصياد ماهر .

ويبدأ الشاعر يصف منه ما يتصل بموضوع الصيد . . إنه حذر دقيق الأطراف ، يلصق بالأرض لا يكاد يراه من كان قريباً منه . . وقد ينجح في رميته وكثيراً ما يرمي ويخطىء هدفه فيندم ويتألم ويلهف أمه ، وقد لفت الجاحظ النظر إلى أن نهاية الثور في قصائد المديح النجاة ، وفي الرثاء تكون نتيجته القتل . قال الجاحظ : (ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش . وإذا كان الشعر مديحاً . . أن تكون الكلاب هي المقتولة . .) .[1]

ولننظر في نماذج ثلاثة من وصف الصياد :

قال أوس بن حجر :[2]

حتَّى أُتيحَ له أخو قنصٍ ... شهمٌ يُطِرُّ ضواريا كُثُبَا
يُنحي الدماءَ على ترائبِهَا ... والقِدُّ معقوداً ومنقضيَا
فَذَأَوْنَهُ شَرَفاً وكُنَّ لَهُ ... حتى تُفاضِلَ بينَها جَلَبَا
حتَّى إذا الكلاَّب قالَ لَها ... كاليومِ مطلوباً ولا طلباً
ذَكَرَ القتالَ لها فراجَعَها ... عن نفسِهِ ونفوسَهَا نَدَبَا
فَنَحا بِشِرَّتِهِ لِسابِقِهَا ... حتَّى إذا ما رَوْقُهُ اختَضَبَا
كرهتْ ضواريها اللحاقَ بهِ ... متباعداً منها ومقتربَا

(١) « الحيوان » ٢ / ٢٠
(٢) « ديوان أوس » ٣ .

وانقضَّ كالـدريءِ يتبعُـهُ نقـعٌ يثـورُ تخالُـهُ طُنُبَـا
يَخْفَـى وأحيانـاً يلـوحُ كَمَـا رفـع المنيـرُ بكفِّـهِ لَهَبَـا[1]

هذا الوصف للصياد ورد عند أوس خلال وصفه للثور الوحشي الذي شبه به ناقته ، وقد تبع هذه السنة كل شعراء مدرسة عبيد الشعر الذين وصفوا الصياد ، وقلنا آنفاً : إن هذا ليس خاصابهم .

يذكر أوس أن هذا الثور أتيح له أخو قنص ، أتقن الصيد ، وهو ذكي الفؤاد . . عظيم النشاط ومعه كلابه المعلمة المجتمعة حوله . . وأنه ما زال يقبل عليها بالسوط مدرباً ومعلماً حتى مهرت في هذه المهنة . نعم أقبل عليها والدماء في ترائبها يسوقها ، وهي معتمدة على خبرتها وحسن رؤيتها ، وحدة حاسة الشم فيها ، وقد قادته إلى مكان عال مشرف يستطيع بالوقوف عليه أن يفاضل بين أفراد القطيع المقبل ، ويختار منه الأنسب والأسمن ، إنه مكان تتاح له فيه رؤية طريدته بوضوح . ويتمكن فيه منها أفضل تمكن .

ومرّ قطيع بقر الوحش ، فراعه المنظر ، واستعد للصيد وقال للبقر والكلاب جميعاً : لم أر كاليوم مطلوباً ولا طالباً .

أما الثور الوحشي فقد ذكر القتال ، وراجع ما معه من البقر وندبها للدفاع عن نفسه . . وانقضّ كالكوكب الساقط وكأنه فسطاط مضروب ، وثار الغبار من حلوه .

---

(١) أخو قنص : الصياد . ويطر : يسوق كلابه ويدفعها أمامه . الضواري : ج ضار وضارية ، وهو من : ضرا الكلب بالصيد ، إذا تعوده وأولع به ، الضواري : الكلاب . كثباً : مجتمعة متقاربة . وقوله أتيح له : يعود الضمير على الثور الوحشي ، وأنحى له السلاح وأنحى عليه بالسيف: أقبل عليه به وضربه به . والقدّ : السوط الذي قد من جلد . والترائب : ج تريبة وهي موضع القلادة من العنق . وذأى : طرد وساق ومضارعها على وزن يدعو ويسعى . شرفا : مكاناً مشرفاً مرتفعاً . الكلاّب : صاحب الكلاب والذي يعلمها الصيد ، وفي البيت الرابع حذف ، وتقديره : لم أر كاليوم مطلوباً ولا طلباً ، والضمير في (لها) يعود إلى البقر والكلاب . وقوله (ذكر القتال) يعود إلى الثور . وندبها : طلبها ليصدها عن نفسه . الشرة : النشاط الشديد . الروق : القرن . الدرىء : الكوكب المنقض . والنقع : الغبار الساطع . وتخاله طنبا : أي تخاله فسطاطا مضروباً .

وكان على البعد يخفى حيناً ويلوح أحياناً ، كما يحصل لمن يرفع لهباً في مهب الريح يروح ضوؤه ويأتي .

ويقول زهير : [1]

وعلى الشريعةِ رابئٌ متحلِّسٌ ... رامٍ بعينيهِ الحظيرةَ شيزبُ
معه مُتابعة ، إذا هو شدَّها ... بالشرْعِ يستشزِي له وَتحدَّبُ
ملساءُ ، مُحْدَلةٌ ، كأنَّ عِتادَها ... نوَّاحةٌ ، نَعَتِ الكرامَ ، مُثَبِّبُ
قنواءُ حصّاءُ المقوّسِ نَبْعَةٌ ... مثلُ السبيكةِ إذْ تُمِلُّ وتُشْسَبُ
عرشٌ كحاشيةِ الازارِ شريجةٌ ... صفراءُ ، لا سدرٌ ، ولا هي تألبُ
ومثقفٌ مما برَى متمالكٌ ... بالسيرِ ذو أُطُرٍ عليه ومنكِبُ
فرَمى ، فأخطأهُ ، وجالَ كأنه ... أَلِمٌ على بَرْزِ الأماعزِ يَلْحَبُ [2]

وسنرى هذا النص في وصف القوس والسهام ، ولكننا هنا نقرر أن الصياد مترقب ينظر الموضع الذي تجمع فيه حمر الوحش ، وهو ضامر متيبس ، ومعه قوسه وسهامه ، ورمى ، ولكنه أخطأ ، فتألم لذلك ، ومضى ينهب الأرض عدواً .

وأما كعب فهو ممن أكثروا من وصف الصيَّاد ، حتى غدا هذا الوصف عنده جزءاً مهماً من وصف الناقة . وقد استعار كثيراً مما ورد عند أبيه ، ولو أجرينا موازنة بين نص زهير الماضي وهذا النص الآتي لكعب لوجدنا استفادة الأخير كبيرة . يقول كعب : [3]

---

(١) « ديوان زهير » ٣٧٦ ، و « شعر زهير » للشنتمري ٢٠٩ .

(٢) الشريعة : ماء يورد . الرابىء : الحارس الراقب ، وهو هنا الصياد يرقب الحمير . المتحلس : المقيم المترقب . الحظيرة : مأوى الماشية ، ويعني الشاعر بها هنا الماء . الشيزب : اليابس الضامر . المتابعة : القوس المنقادة . الشرع : ج شرعة وهي الوتر . يستشزي : يرتفع ويتحدب ـ أي الوتر ـ . الملساء : التي لا شق فيها ولا نتوء . المحدلة : التي أعلاها أوسع من أسفلها ، أي فيها ميل . العتاد : صوت وتر القوس إذا رمي عنها . المثبب : نائحة تشب الحزن وتؤرثه . القنواء : المحدودبة الحصاء : الجرداء . والمقوس : موضع التقوس ، يريد أن موضع تقوسها قد أصبح أملس لكثرة صقلها . النبعة : مصنوعة من شجر النبع . تملّ : تعالج بالنار . تشسب : تيبس . عرش : طويلة . شريجة : فلقة العود ، إذا شق فلقتين متساويتين . والسدر والتألب : شجران ضعيفان . المثقف : السهم المقوم . برى : اي براه الصياد . المتمالك : الشديد المتماسك . الألم : المتألم . البرز : البارز المرتفع . الأماعز : ما صلب من الأرض وعلاه حصى سود . يلحب : يقطع الأرض بالعدو .

(٣) « ديوان كعب » ١٨٢ ـ ١٨٤ .

ويخافـــان عامـــراً عامـــرَ الخُضْـ ـرِ وكانَ الذِّنَّـــابُ منـــه مصيراً
رامياً أخشـــنَ المنـــاكبِ لا يُشْـ ـخصُ ، قد هرَّه الهـــوادي هَريرا
ثاوياً ماثـــلاً يقلّـــبُ زرقاً رمَّهـــا القينُ بالعيونِ حُشُورا
شَرِقَـــاتٍ بالسُّـــمِّ من صُلْبِيٍّ وَرَكُوضـــاً من السَّـــراء طَحُورا
ذاتَ حنـــوٍ ملســـاءَ تسمـــعُ منها تحـــتَ ما تنبضُ الشمـــالُ زفيرا
لاصـــقٌ يكـــلأُ الشـــريعـــةَ لا يغـ ـفـــي فُـــواقـــاً مُدمِّـــراً تدميراً[1]

فالصياد عامر الخضر أخشن المناكب لاصق بالأرض ، يراقب الماء ، وكعب في هذا النص يصف لنا السهام والقوس على نحو قريب مما مرّ معنا عند زهير . ويصف كعب في نص آخر الصياد بأنه رجل جائع يبيت على الطوى مما يحمله على ألا يفرط بأية طريدة تعن له . . ويعمل حواسه جميعاً في تعقب حمر الوحش وبقره ، فهو يتسمع وينظر ، ويحبس أنفاسه ويتلفت يمنة ويسرة ، وهو خفيف الحركة ، ضئيل الجسم ، دقيق الأطراف إذا مشى مشى برفق ولطف . . ويصوره بأنه شديد الحاجة إلى الصيد حتى هزل جسمه . . وإذا عاين الصيد أصابته الرعدة كما تصيب المحموم ولا يطمئن له بال حتى يوقع الموت بفريق من حمر الوحش .[2]

ويصفه كعب في نصّ آخر بأنه ذو حنق على الصيد ، ولحرصه على الاختفاء فهو لاصق بالأرض ، وساعده على ذلك ما فطره الله عليه من ضآلة في الجسم ، انظر اليه وهو مختبىء ملتصق بالأرض كالقراد ، وهو قصير دقيق الأطراف ولكنه كله يقظة وحذر وانتظار يقول كعب :[3]

---

(١) عامر الخضر : قانص مشهور بالرمي والصيد . والذناب : اسم موضع . والمصير : المكان الذي يأوي إليه . أشخص الرامي السهم : إذا رمي فارتفع سهمه عن الغرض . الهوادي : أوائل الوحش . وهره : كرهه . الماثل : هنا كما قال الأصمعي اللاطىء بالأرض . والثاوي : المقيم . ورمّها : أصلحها . القين : الحداد . والحشر : الملصق الريش . شرقات بالسم : أي كثر السم فيها . والصلبي : حجارة المسن يسن عليها . والركوض : القوس . وطحور : أي هي دفوع لسهمها . والسراء : شجر تتخذ منه القسي . الحنو : الجانب . ولاصق : صفة الصائد ، ولعله رفع على القطع . لا يغفي : لا ينام . الفواق : ما بين الحلبتين .

(٢) انظر النص في « ديوان كعب » ١٤٥ ـ ١٥٠

(٣) « ديوان كعب » ١٠٦ ـ ١١٠ .

فصادفـنَ ذا حَنَـقٍ لاصقاً لُصـوقَ البُـرامِ ، يَظـنُّ الظنونَا
قصيرَ البنـانِ ، دقيقَ الشـوَى يقـولُ : أيأتينَ أم لا يجينـا[1]

فعندما جاءت الأتن وشربت ، حبس أنفاسه ، وأمسك قليلاً حتى تروت ، وعمد إلى القوس ، فأرسل منها سهماً ، فأخطأ رميته ، فلهف أمه وولت الأتن مسرعة يقول :

فجئـنَ فأوجسـنَ من خشيةٍ ولـم يعتـرفنَ لِنَفْـرٍ يقينـا
فأمسـكَ ينـظـرُ حتـى إذا دنـونَ مـن الـريِّ أو قـد روينا
فأرسـلَ سهمـاً علـى فُقْرةٍ وهـنَّ شوارعٍ مـا يتَّقينَـا
فلهفَ مـن حسـرةٍ أمَّـهُ وولّينَ من رَهَـجٍ يكتسينـا[2]

بعد دراسة النصوص التي جمعناها في وصف الصياد تبين أننا أمام مشهد حيّ يعرض علينا ، في هذا المشهد حمر الوحش وبقره ، وكلاب الصيد وأسلحته ، ووصف الطبيعة والماء وبرودته ، وحديث عمّا يعتري هذه الحيوانات التي كانت آمنة من الفزع فأصابها ما أصابها . نعم لقد وجدنا وصف الصياد جزءاً من هذا المشهد وليس وصفاً مستقلاً لانسان يقوم بعمل معين فحسب . ووجدنا أن الشاعر يتمهل في عرض هذه المعاني تمهلا يأتي خلاله بلوحات تصويرية يصب فيها كل إمكاناته الفنية .

وصف المرأة :

شغل وصف المرأة حيزاً كبيراً في شعر أعضاء هذه المدرسة ، شأنهم في ذلك شأن شعراء العربية عامة ، والجاهلية خاصة . وذلك أمر طبيعي يتجاوب مع الفطرة ، لأن النساء شقائق الرجال . وإنك لتجد في وصفهم للمرأة كل ما يخطر بالبال من

---

(١) البرام : القراد . الشوى : أطراف الجسم .
(٢) النفر هنا : الارتياع والذعر . وافقرة : الإمكان ، يقال : أفقرك الصيد : إذا أمكنك من فقاره . الرهج : الغبار .

الحديث عنها . لقد لفت نظرهم فيها : مظهرها الخارجي ومشاعرها الداخلية . وأخلاقها الاجتماعية .

فوصفوا ملابسها وحليها وقامتها ووجهها وفمها وريقها وأسنانها وخدّها وشعرها وعنقها وصدرها وخصرها ولونها .

كما عرضوا لنا مشاعرها وانفعالاتها .

كما وصفوا حديثها وأخلاقها .

صوروا ذلك كله بأسلوبهم الجميل . وكانوا إذا ذكروا تشبيهاً أطنبوا في ذكر المشبه به إطناباً قد يبعد القارىء عن جو وصف المرأة بعداً كبيراً أو صغيراً ، وكأن هؤلاء الشعراء يودون أن يظهروا براعتهم الفنية ، وقدرتهم على تصريف جوانب القول فيما يريدون .

وصف عام :

وإليك هذا الوصف العام للنساء لطفيل ، لا يذكر فيه امرأة بعينها ، وإنما يتحدث عن النساء عامة . يقول :[1]

إن النساء كأشجار نبتن معاً ... منها المرار ، وبعض المرّ مأكول
إن النساء متى ينهين عن خلق ... فإنه واجب ـ لا بد ـ مفعول
لا ينثنين لرشد إن دعين[2] له ... وهن ـ بعد ـ ملومات مخاذيل[3]

يبدأ طفيل كلامه عن النساء هذا التشبيه ، إن النساء كأشجار نبتت معاً ، تسقى بماء واحد ، ويختلف طعمها فيما بينها اختلافاً كبيراً ، فمنها الحلو والحامض والمر ، وبعض المر مأكول . والحياة تشهد لصحة هذه الحكمة ، فكم من الرجال البائسين رماهم الدهر ، ونكبهم الحظ العاثر بنساء شريرات متعبات فيهن المرارة كلها !!

(١) « ديوان طفيل » ٦٠ ـ ٦١ .
(٢) هذه رواية ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » ١ / ٤٢٣ . وفي « الديوان » منين .
(٣) المرار (بالضم) : بقل بري مر ، وتسمية العامة المرير .

ومن أخلاق النساء التي يشير إليها الشاعر أنهن مولعات بما ينهين عنه ، وليس هذا الخلق في النساء فحسب ، بل هو موجود في الرجال أيضاً ، ولعل الذي سوّغ للشاعر أن يجعله من صفات النساء كثرة وجوده فيهن لضعف إرادتهن عن إرادة الرجال .

ثم قرر الشاعر بجزم أمراً لا يسلم له وهو أن النساء لا يستجبن للرشد إن دعين له ، وليس هذا عاماً في النساء ، وإننا لنجد مثل هذا العناد والإصرار على طريق الغواية في طائفة من الرجال المنحرفين الذين لا يستجيبون لداعي النصح والإرشاد ، ولا يستبينون بأنفسهم الصراط السوي .

وقد يكون مما جعل الشاعر يطلق هذا الحكم على النساء أنه وجد المرأة تستهويها المظاهر البارقة ، وتأخذ بلبها الأوضاع الخلابة فلا يكون لديها استعداد لتغيير ما هي فيه لاسيما إذا كانت في مستوى متدن لا يتيح لها استبانة الرشد .

إذن نحن أمام حكمة تلخص لنا رأي الشاعر في المرأة ، ولكن هذه الحكمة ينقصها الاستقصاء والاحتراس والتحفظ ومن هنا لم يكن قوله صحيحاً ، مستقيماً ولا مطرداً يشمل النساء جميعاً ، ولكنه يمثل إلى حدّ بعيد رأي عصر الجاهلية في المرأة الذي كان رأياً سيئاً جداً ، نلمس معالمه في الآيات الكريمة التي كانت تنكر على العرب موقفهم من المرأة إذ كانت تؤكل حقوقها وتحرم إرثها ، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه[1] وتورث كما يورث المتاع والدابة ،[2] ويؤخذ مهرها وتمسك ضراراً للاعتداء ،[3] وتلاقي من بعلها إعراضاً وتترك أحياناً كالمعلقة .[4]

ولعل الشاعر كان يتكلم من خلال تجربة معينة قاسية عاناها ، غير أنه لم يذكر ما يدل على ذلك ، بل ساق كلامه عاماً شاملاً .

---

(١) انظر الآية (٢٣٢) من سورة البقرة .
(٢) انظر الآية (١٩) من سورة النساء .
(٣) انظر الآية (٢٣١) من سورة البقرة .
(٤) انظر الآية (١٣٩) من سورة النساء . وانظر أيضاً كتاب « بلوغ الأرب » للألوسي .

وهذا أوس بن حجر يتحدث عن النسوة حديثاً عاماً ، لكن النسوة ههنا معينات ، وسلك الحديث عنهن سبيل الوصف لا سبيل الحكمة كما رأينا آنفاً عند الطفيل ، يتحدث لرفاقه في الرحلة فيقول :[1]

غُرٌّ غرائرُ أبكارٌ نشأنَ معاً ... حُسْنَ الخلائقِ ، عما يُتَّقَى نُورُ
لبسنَ رَيْطاً وديباجاً وأكسيةً ... شَتَّى بها اللونُ ، إلاَّ أنها فُورُ
ليس الحديثُ بنُهْبَى يَنتهِبْنَ ولا ... سرٌّ يحدِّثْنَهُ في الحيِّ منثورُ[2]

إنهن بيض اللون ، غريرات لم يجربن الحياة ، ولم يتعلمن المكر والخداع أبكار صبايا ، نشأن معاً ، أخلاقهنّ حسنة ، بعيدات عن الريبة وعن كل ما يتقى ، وهن ـ في جمال العيون وخفة الحركة ـ ظباء ، ولم يكن لبسهنّ الريط والديباج وأكسية الخز الفاخرة ليخرجهن عن كونهنّ ظباء ساحرات ، والحديث الذي تسره اليهن يبقى مكنوناً في مستودعات صدورهن ، ولا يبحن به ولا يذعنه في الحيّ .

وهذا الوصف يناظر ذاك الوصف الذي رأيناه عند طفيل . . إنه يحاول أن يعطي المرأة صفات تجعلها محترمة من الخلق الحسن ، والترفع عماّ لا يليق ، والاحتفاظ بالأنوثة الساحرة ، على الرغم ممّا يلبسن من ملابس الزهو والافتخار ، وكتمان الحديث والرزانة في التصرف .

وقد يكون الذي جعله يورد مثل هذا الوصف أنه يتحدث عن نساء معينات ، وقد يدعي بأنهنّ استطعن بهذه الصفات العظيمة أن يفقن النساء ويتميزن عنهنّ بخصائص تجعلهن كأنهن لسن من النساء .

***

---

(١) « ديوان أوس » ٤٠ .
(٢) الغر : ج غراء وهي البيضاء الشريفة . الغرائر : جمع غريرة ، وهي الشابة الحديثة السن التي لم تجرب الأمور . والنور : ج نوار ، وهي الفتاة التي تفر من الريبة . الريط : ج ريطة ، وهي الملاءة إذا لم تشقّ إلى لفقين . الفور (بالضم) : الظباء لا واحد لها من لفظها . النهبى : اسم النهب .

إن دراسة النصوص الوصفية التي اخترناها مما يتعلق بوصف محاسن المرأة تنتهي بنا إلى ما يؤكد النزعة الحسية عند رجال هذه المدرسة ، وأحسب أن هذه النزعة ليست مقصورة عليهم ، بل تصبغ الشعر الجاهلي كله ، وهذا أمر طبيعي في قوم تغلب عليهم البداوة ، ولم يتح لهم قدر كاف من ألوان الحياة المدنية .

لقد وجدنا أنّ النزعة الحسية تغلب على معظم النصوص إلاّ قليلاً ، تتحدث في بعض المعاني والأحوال من مثل إخلاف المواعيد من قبل المرأة والصبر الجميل من قبل الرجل ، وصدودها وعدم إقبالها عليه إلاّ وهي خيال مروع ، وتغير أحوالها المستمر .

وهذه المعاني متداولة دون أن تحس بتجديد مهم واضح يضيفه المتأخر إلى ما جاء به المتقدم .

فالإخلاف في الموعد نراه عند زهير بن أبي سلمى وابنه كعب . يقول زهير :[1] :

إنَّ الخليطَ أجدَّ البينَ فانفرقَا ... وعُلِّقَ القلبُ من أسماءَ ما عَلِقَا
وفارَقَتْكَ برَهْنٍ لا فِكَاكَ لَهُ ... يوم الوَدَاعِ فأمسى رهنُها غَلِقَا
وأخلفتْكَ ابنةُ البكريّ ما وعدَتْ ... فأصبحَ الحبلُ منها واهياً خَلَقَا[2]

فارقته أسماء بعد أن تعلق القلب بها أيما تعلق ، فارقته برهن لا فكاك له ووعدته وأخلفت ، حتى أصبح حبل ودها واهياً جداً .

ويقول كعب :[3]

لكنها خُلَّة قد سيطَ من دَمِها ... فجعٌ وولعٌ وإخلافٌ وتبديلُ

(١) « ديوان زهير » ٣٣ .
(٢) الخليط : المخالط في الدار . انفرق : انقطع . الرهن ههنا : القلب قد غلق أي لا فكاك له : لا يقدر أن يفكه أبداً . قال الأعلم : (كان أهل الجاهلية إذا ارتهن الرجل منهم رهناً إلى أجل فأتى الأجل ولم يفك الرهن صاحبه استوجبه المرتهن عوضاً من حقه ، ولم يكن لصاحبه أن يفكه أبداً ، فلذلك ضرب به زهير المثل) والحبل : العهد . الواهي : الضعيف .
(٣) « ديوان كعب » ٨ ـ ٩ .

فمـا تدومُ علـى حالٍ تكونُ بها ... كمـا تَلـوَّنُ في أثوابِهـا الغُولُ
ومـا تَمسَّكُ بالوصـلِ الـذي زَعَمَتْ ... إلاّ كمـا تُمْسِـكُ المـاءَ الغرابيلُ
كانـت مواعيدُ عرقـوبٍ لهـا مثلاً ... ومـا مواعيـدُهـا إلا الأباطيلُ
أرجـو وآمـلُ أن تدنـو مودتُها ... ومـا إخـالُ لدينـا منـكِ تنويلُ
فلا يغرنـكَ ما منّـتْ ومـا وعدتْ ... إنّ الأمانـيَّ والأحـلامَ تضليلُ[1]

كأن كعبا يفلسف موضوع إخلاف الوعد فيقول : إن سعاداً قد خلط في دمها الفجع والولع والإخلاف والتبديل ، فلا تستطيع أن تكون إلا على هذه الحال من التغيير ، فما تدوم على حال تكون بها أبداً ، وإنما هي في تغير وتلون كما تتلون الغول التي فطرت على التلون .

وسعاد من هنا لا تستطيع أن تتمسك بالوصل الذي تزعمه إلا كما تمسك الغرابيل الماء ، وكذلك لا تستطيع أن تفي بموعد لأنه قد خلط في دمها الإخلاف ، فمواعيد عرقوب المعروف مثل لها .

وهكذا يمضي كعب يتحدث في أمور معنوية تتصل بأخلاق المحبوبة وأحوالها معتمداً على الصورة في ذلك اعتماداً كبيراً . .

ويعترف بأنه متنازع بين اليأس والرجاء ، فهو يرجو أن ينال مودتها ويغلب على ظنه أن ذلك لا يكون . وأخيراً يقرر بأن الأماني تضليل فلا ينبغي له أن يغرّ بوعدها أبداً .

ويلم الخطيئة بأوصاف للمحبوبة تدخل في باب الوصف المعنوي من نحو قوله ، إن السعيد هو الذي يعاشرها ، أما غيره ممّن لا يحظى بها فيكفيه أن ينظر إليها كما ينظر الفقير إلى الغني . يقول الخطيئة :[2]

---

(١) الخلة : الخليلة ، يقال للذكر والأنثى . سيط : خلط . الغول : السعلاة وهي حيوان موهوم يزعم العرب أنها تتراءى لهم في الفلوات وتتلون بألوان شتى وتضلهم عن الطريق . عرقوب : رجل جاهلي يضرب به المثل في إخلاف المواعيد ، واختلف في اسمه وفي قبيلته (انظر « الأعلام » للزركلي والمراجع التي أحال اليها ، وانظر خبره في شرح ديوان كعب) .

(٢) « ديوان الخطيئة » ٣٥ .

يعاشرُهـا السـعيدُ ، ولا تَرَاهَا يعاشـرُ مثلَهـا جـدٌّ . الشقيِّ
فمـالَكَ غيرُ تنـظـارٍ إليها كمـا نَظَـرَ الفقيرُ إلـى الغنيِّ[1]

ومن نحو قوله في الصبر : [2]

فتبـادرتْ عينـاكَ إذْ فارقتَها يومـاً ، وأنـتَ علـى الفـراقِ صبورُ
يا طولَ ليلِكَ ، لا يكادُ يُنيرُ جَزَعـاً ، وليلُك بالجُـرَيْب قصيرُ[3]

ومن الوصف المعنوي الذي نقف عليه في وصف المرأة ما ذكره الحطيئة من أن محبوبته كريمة الأصل ، لا تسارع إلى الزاد ، بل لا تطعمه إلا أن تدعى إليه وتحمل عليه ، وشبّه حالها في تعففها عن الطعام وإبائها الأكل بحال الطاعم المتخم الشبعان ، الذي يدارى ويرجى ليتناول شيئاً من الطعام ، ويذكر صفة ينزهها عنها ، يبدو أنها كانت موجودة في بعض النساء في تلك البيئة الفقيرة التي تشح فيها موارد الطعام ، فيقول : إنها لا تقيم ترصد ما علق في القدر لتأكل منه ، وإنها امرأة شريفة عزيزة ، لها من يخدمها فلا تستيقظ إلا في الضحى ولا تقوم تنتطق للعمل في الفجر . يقول : [4]

لا تطعـم الـزادَ إلا أن تُهَـبَّ لَهُ كمـا يُصَـادَى عليهِ الطاعـمُ السَّنِقُ
ولا تَأَرَّى لمـا في القـدرِ تَرْصُدُهُ ولا تقـومُ بأعلـى الفجـرِ تنتطقُ[5]

ويصف الحطيئة في موضع آخر حياء المحبوبة فيقول : [6]

ولمـا رأتْ مَنْ في الرحالِ تعرّضتْ حياءً ، وصـدّت تتقـي القـومَ باليدِ

---

(١) الجد : الحظ . والتنظار : النظر .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٣٧٦ .
(٣) تبادرت : سالت بالدموع . والجريب : واد بنجد ، ذكر الأستاذ حمد الجاسر في تعليقه على كتاب « بلاد العرب » صفحة ٧٩ أنه يعرف الآن باسم (الجرير) أو (وادي المياه) وهو من أعظم أودية عالية نجد . وذكر الأصفهاني أنه واد لبني كلاب ، به الحموض والاكلاء .
(٤) « ديوان الحطيئة » ٣٨٤ .
(٥) السنق : الشبعان المتخم ، وأكثر ما تستعمل للحيوان ، وتأرى الشيء : تحراه .
(٦) « ديوان الحطيئة » ١٤٧ .

يقول : لما رأت أصدقاء زوجها تعرضت حياء ، وقامت بالحركة التي تفعلها المرأة عندما يغلبها الحياء ، وهي أن تغطي وجهها باليد .

أما الوصف الحسّي للمحبوبة فهو الذي وجدت منه الكثير في شعر أعضاء هذه المدرسة ، والوصف الماديّ هذا وصف يحمل تصورات جمالية في أطر فنية ، وليس وصفاً مرتبطاً بالمتعة .

ولم أجد من الوصف الحسي المرتبط بالمتعة إلا نصاً واحداً للحطيئة يذكرنا بما نجد عند مثل امرىء القيس . وأستحسن أن أورده في مطلع هذه الدراسة لأنني بعد ذلك سأورد الموصوفات الجزئية عند شعراء هذه المدرسة .

قال الحطيئة :[1]

آثرتُ إدلاجي على ليلِ حرةٍ ... هضيمِ الحشا حسّانةِ المتجرّدِ
إذا النومُ ألهاها عن الزادِ خلتَها ... بُعيْدَ الكرى باتتْ على طيٍّ مُجْسِدِ
إذا ارتفقت فوقَ الفراشِ حسبتَها ... تَخافُ انبتاتَ الخصرِ مالم تَشدّدِ
وتُضحي غضيضَ الطرفِ دوني كأنّما ... تَضمّنَ عينيها قذًى غيرُ مفسدِ
إذا شئتُ بعد النوم ألقيتُ ساعدي ... على كَفَلٍ ريّانَ لم يتخدَّدِ
لها طيبُ ريّا إن نأتني ، وإن دنتْ ... دنتْ عبلةً فوقَ الفراشِ الممهّدِ
خميصةُ ما تحتَ النطاقِ كأنّها ... عسيبٌ نما في ناضرٍ لم يخضّدِ[2]

إنه مزج الأمور الجمالية بكلام يتصل بالمتعة ، مثل حسنها وهي متجردة وكيف يلقي ساعده بعد النوم على كفلها الريان وما إلى ذلك .

***

(١) « ديوان الحطيئة » ١٤٧ .
(٢) الإدلاج : سير الليل ، هضيم الحشا : ضامرة البطن . حسّانة : حسنة ، المتجرد : التجرد . المجسد : الزعفران . ومعنى البيت الثاني : إذا غلبها النوم فلم تأكل خلتها بعده في طيب رائحة فمها باتت على برد قد أشبع بالزعفران .
ارتفقت : اتكأت على مرفقها . الانبتات : الانقطاع . غضيض الطرف : فاترة الطرف . الكفل : العجيزة . الريان : الممتلىء من اللحم . لم تخدد : لم يهزل . العبلة : الفخمة . الممهد : المفروش . النطاق : ما تشد به المرأة وسطها ، ويريد بما تحت النطاق عجيزتها . العسيب : من سعف النخل هو ما عليه الخوص . الناضر : النبت الحسن . لم يخضد : لم يقطع .

وسأورد فيما يأتي الأوصاف الجزئية المتصلة بمحاسن المرأة ـ كما جاءت في مدرسة عبيد الشعر ـ وأحب أن أشير إلى أمر في غاية الوضوح وهو أن هؤلاء الشعراء كانوا يعرضون إلى وصف المحبوبة وصفاً متكاملاً فلم يكونوا يجزئون الكلام كما سنفعل هنا ، رغبة منا في التحليل والوقوف على مدى الالتحام فيما بين أعضاء هذه المدرسة ، وعلى نظرتهم إلى الجمال واشتراكهم في الصدور عن مقاييس واحدة لجمال النساء .

وقد يذكر الشاعر جمال المرأة بكلمة عامة ، ثم يأتي بتفصيل ذلك ، وغالباً ما يستعمل كلمة واحدة تدل على ذلك فيها شيء من غرابة ككلمة (بهكنة) وهي البضة الناعمة ، أو كلمة (خود) وهي الحسنة الخلق .

يقول زهير :[1]

خَوْدٌ منعمةٌ ، أنيقٌ عيشُها فيها لعينيكَ مكلأٌ وبهاءُ[2]

ويقول الحطيئة :[3]

وفي الظعائنِ ـ لو ألممتَ ـ بهكنةٌ بالزعفرانِ ، لعوبٌ ، جيبُها شَرِقُ

العنق :

ورد وصف العنق في نصوص خمسة ، ثلاثة منها لزهير ، واثنان للحطيئة ، وليس في هذه النصوص إلا معنى واحد وهو أن عنق المحبوبة طويل ، رائع الحسن يشبه عنق الظبية الأدماء ، وهي ظبية ليست خالصة البياض ، تكون عادة طويلة العنق والقوائم ، بيضاء البطن سمراء الظهر ، وهذه الظبية خذول ، أي تنفرد عن صواحبها وتقيم على ولدها وتراعيه ، وقد يفهم من هذا وصفها بالحنان .

---

(١) « ديوان زهير » ٣٣٩ .
(٢) أنيق : معجب يروع حسنه . المكلأ : المنظر . بهاء : حسن وروعة .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٨٤ .

يقول زهير :[1]

بجيدِ مُغْزِلـةٍ أدمـاءَ خاذلةٍ مـن الظبـاءِ تراعـي شادنـاً خَرِقَا[2]

ويقول أيضاً :[3]

تَنَازَعَهـا الـمَـهَا شـبَهاً ودرٌّ البحورِ وشَاكَهَتْ فيهـا الظباءُ
فأمَّـا ما فُويْقَ العقـدِ منها فمـن أَدْمـاءَ مَرْتعُهَـا الخلاءُ[4]

وهنا نجد تأنقاً بالغاً في التصوير سنذكر تفصيله في موضعه من هذه الرسالة ، إذ لا يعبّر عن الجيد إلا بكناية فيقول : (ما فويق العقـد) ، وبـدلاً من أن يذكر الوصف الذي مرّ في النصّ السابق وهو (خاذلة) ، يقول هنا : (مرتعها الخلاء) وهو الموضع الذي ليس فيه أحد ، أي ليس هناك أحد ينازعها ما هي فيه فهو أحسن لها إذا كانت وحدها . فعنقها عنق ظبية أدماء منفردة ، وهذا هو الذي رأيناه في النصّ الأول .

ويكرر زهير المعنى نفسه عندما يتحدث عن سلمى فيقول :[5]

إذ تسـتبيكَ بجيدِ آدمَ عاقدٍ يقـرو طلـوحَ الأنعمَين فَثَهْمَدِ[6]

إن سلمى تسبي قلبك بجيد ظبي آدم عاقد يتتبع شجر العضاه في أماكن معينة يذكرها . والذي يلفت النظر في هذا الوصف كلمة (عاقد) التي شرحها الشراح بأنه يلوي عنقه ، وإنها لكلمة تحمل صورة رائعة إذ بلغ من طول عنق هذا الظبي أنها يمكن أن تعقد فأضحى عاقداً .

---

(١) « ديوان زهير » ٣٥ .
(٢) الشادن : الذي قد اشتد لحمه . والخرق : الذي لا يقدر أن يتحرك ، ولا يدري كيف يأخذ من ضعفه وصغره .
(٣) « ديوان زهير » ٦١ - ٦٢ .
(٤) شاكهت : شابهت . المها : بقر الوحش .
(٥) « ديوان زهير » ٢٦٩ .
(٦) يقرو : يتتبع . الطلح : شجر العضاة . والانعمان وثهمد: موضعان .

أما الحطيئة فإنه في وصف العنق عالة على زهير لم يأت بجديد فيه فهو يردد ما سبق أن ذكرناه من أن لمحبوبته جيد أدماء خذول فيقول :[1]

مبتّلة يشفي السقيم كلامها لها جيد أدماء العشيّ خذول[2]

بل إننا لنكاد نجد الألفاظ ذاتها في وصف الجيد : إنه جيد ظبية أدماء خذول انفردت من صواحبها وأقامت على ولدها يحملها على ذلك الحنان .

ويقول أيضاً :[3]

كنانية دارها غربة تجدّ وصالا وتبلي وصالا
كعاطية من ظباء السليل حسّانة الجيد ، تزجي غزالا
تعاطي العضاه إذا طالها وتقرو من النبت أرطى وضالا[4]

هذه المحبوبة الكنانية البعيدة الدار تشبه في جيدها الظبية الطويلة العنق ، وهي ذات غزال تسوقه أمامها وتزجيه ، ويضيف إلى ذلك أنها تتعاطى العضاه إذا طالها ، وهي لا تستطيع أن تفعل ذلك إلاّ إذا كانت طويلة الجيد ، ثم هي تتبع الأنواع الأخرى من النبات كالأرطى والضال . . وما إلى ذلك من أشجار الصحراء التي تميل الظباء إلى أكلها .

وهكذا فإننا نرى المعنى واحداً . . وإن كانت هناك محاولات يسيرة من التجديد فيه أو في بعضه .

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٥ .
(٢) المبتلة : جاء في شرح الديوان : الحسنة الخلق التي كل خلقها يشبه بعضه بعضاً . وقوله أدماء العشي : يريد أن لونها يحسن بالعشي أو لأنها ترعى في أول النهار فإذا كان آخره نظرت لها ممتلئة حسنة .
(٣) ديوان الحطيئة « ٢١٤ .
(٤) عاطية من الظباء : الغزالة الطويلة العنق التي ترفع رأسها إلى الشجر وتتناول ما تشاء . السليل : مكان . تقرو : تتبع .

العيون :

وصف العين والتغزل بها أمر أساسي في ذكر محاسن المرأة . والحق أن جمال العين يفوق تأثيره وسحره ما سواه من نواحي الحسن .

وقد أحصيت سبعة نصوص في وصف العين تدور حول تشبيه المحبوبة بالمهاة والظبية ، وتذكر الحور وفتور الطرف وكحله .

وهذه المعاني عند هؤلاء الشعراء متداولة ، بل إنها هي التي نجدها في شعر غيرهم أيضاً من شعراء الجاهلية .

فأوس بن حجر يذكر لميس ، ويعجب بمحاسنها وبجمال عيونها فيشبهها بالريم فيقول :(١)

وقد لهوتُ بمثلِ الريمِ آنسةٍ تُصبي الحليمَ عروبٍ غيرِ مكلاحِ(٢)

ويشبه زهير حسناءه بالمهاة تارة وبالظبية تارة أخرى ، وكلتاهما مشهورة بجمال العين . قال يشبهها بالمها :(٣)

وأما المقلتانِ فمن مهاةٍ وللدرِّ الملاحةُ والصفاءُ

وذكر سلمى فشبهها بالعيناء ، وهي الظبية واسعة العين طويلة العنق فقال :(٤)

وأذكرُ سلمى في الزمانِ الذي مضى كعيناءَ ترتادُ الأسرَةَ عوهجِ(٥)

ثم ذهب زهير يسرف في وصف المشبه به فذكر متنيها وحركتها في منتصف النهار ، والأماكن التي توجد فيها . . على عادة هؤلاء الشعراء في ذكر المشبه به ثم الإفاضة في ذكر أوصافه وأحواله .

---

(١) « ديوان أوس » ١٣ .
(٢) العروب المتحببة إلى زوجها . المكلاح : شديدة العبوس .
(٣) « ديوان زهير » ٦١ .
(٤) « ديوان زهير » ٣٢١ .
(٥) الأسرة : بطون الأرض . والعوهج : الطويلة العنق .

أما كعب فنجد عنده هذا المعنى السابق مع إضافات ، فهو في لاميته المشهورة يشبه سعاد بالغزال ، ويضيف له ثلاثة أوصاف وهي : (صغره ، وفتور طرفه ، وكحله) وهذا مما يجعل جمال العين أكثر وضوحاً وتألقاً فقال :[1]

وما سعادُ غداةَ البين إذ رحلُوا ... إلا أغنُّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ[2]

ويكرر كعب هذا التشبيه بهذه الزيادات فيقول :[3]

أرى أم شدّادٍ بها شبهَ ظَبْيَةٍ ... تُطيفُ بمكحولِ المدامعِ خاذلِ
أغنَّ غضيضِ الطرفِ رخصٍ ظلوفُه ... ترودُ بمعتّمٍ منَ الرملِ هائلِ

غير أن هذه الزيادات جعلها في هذا النص لولد الظبية الذي تطيف به أمه ، وقد ذكر ههنا وصفاً آخر يدل على صغره وهو (رخص ظلوفه) أي أنّ ظلوفه لم تشتدّ ولم تقو ، وهي كناية جميلة .

وكأن كعبا بعد أن انتهى من هذا التشبيه الذي أورده ليقرر جمال عيني أم شداد رأى أنه لم يعرف لهاتين العينين حقهما فأردف قائلاً :[4]

وترنُو بعينيْ نعجةٍ أمِّ فرقدٍ ... تظلُّ بوادي روضةٍ وخمائلِ

إن أم شداد ترنو بعيني بقرة وحشية مقيمة في واد ممتع ذي رياض وخمائل .

ويذكر كعب جمال عيون محبوبته مرة أخرى فيشبهها بالظبية الطويلة العنق الحوراء المكحولة ، وهي لشدة جمالها لو أنها تعرضت لوعل متمنع في حرزه الأشم المنيف لراعه ذاك الجمال ، ولنزل يهرول نحوها مسرعاً . فإذا كان هذا حال الحيوان الأعجم . . فما بالك بالإنسان المحب ذي الشعور المرهف . يقول كعب :[5]

---

(١) « ديوان كعب » ٦ .
(٢) الأغن : الغزال الصغير الذي في صوته غنة . غضيض الطرف : فاتر الطرف . الكحل : سواد يعلو جفون العين من غير اكتحال .
(٣) « ديوان كعب » ٨٩ .
(٤) « ديوان كعب » ٩٠
(٥) « ديوان كعب » ١١٥ .

ولــو أنَّهــا جادتْ لأعصَــم ، حرزُه متمنــعٌ ، دون السمــاءِ منيف
لاستنزلتــه عَيْطَــلٌ ، مكحولةٌ حــوراءُ جادَ لهــا النجــادُ خريفُ[1]

وهذه المعاني الرئيسية تعاورها الشعراء في الجاهلية وما بعدها ، ولـكنّ كل شاعر يعرضها ـ كما رأينا ـ عرضاً فيه بعض الإضافة حتى تبدو كأنها جديدة .

وهذا الحطيئة يصف فتور نظرات محبوبته فيستعمل اللفظ الذي رأيناه عند كعب (غضيض الطرف) ولكنه يأتي بتشبيه هذا الفتور بما يصيب العين من القذى ، فيقول :[2]

وتضحي غضيض الطرف دوني ،كأنمــا تضمَّنَ عينيها قذىً غيرُ مفسدِ

يقول : وتضحي فاترة الطرف كأنما أصاب عينيها قذى ولكنّ هذا القذى لم يصنع إلا هذا الفتور ، ولم يكن مفسداً .

***

الفم والأسنان :

وجدت في شعر هذه المدرسة نصوصاً خمسة في وصف الفم والأسنان ، وكان هذا الوصف الجميل تسجيلاً دقيقاً لمقاييس جمال الفم عند العرب .

فزهير يذكر أن سلمى تسبي قلبك بجيدها وثغرها الرائع المحزز الأسنان ويصف اللثة الجميلة بأنها دقيقة قليلة اللحم ، مائلة إلى السواد فيقول :[3]

إذ تســتبيكَ بجيدِ آدمَ عاقدٍ يقــرو طلــوحَ الأنعَمَيْنِ فثَهْمَدِ
ومُؤشَّــرٍ حُمْشِ اللِّثَــاتِ كأنّما شَــرِكَتْ منابتُــه رضيضَ الإثمدِ[4]

(١) الأعصم : الوعل . الحرز : المكان الذي يحرزه ، يعني جبلاً . والعيطل : الطويلة العنق في حسن جسم ، أو كل ما طال عنقه من البهائم .
(٢) « ديوان الحطيئة » ١٤٧ .
(٣) « ديوان زهير » ٢٦٩ .
(٤) مؤشر : محزز . حمش اللثات : دقيقة حسنة قليلة اللحم . والإثمد : الكحل . شركت : خالطت . رضيض : ما رضّ منه ودقّ .

ويأخذ الحطيئة هذا المعنى . . بل يأتي بالألفاظ ذاتها فيقول :[1]

إذ تستبيكَ بمَصْقُولٍ عوارضُه حُمْشِ اللثاتِ ، ترى في غَرْبِهِ شَنَبا[2]

يقول : إنها تسبي عقلك بثغر مصقولة أسنانه ، قليل لحم اللثات ، ترى في حده عذوبة للأسنان وبردا .

ونلاحظ أنّ الحطيئة قد اقتبس من زهير المعنى واللفظ مثل قوله : (إذ تستبيك) وقوله (حمش اللثات) .

وطفيل يصف الفم والثنايا بالبرودة فيقول :[3]

أسيلةُ مجرى الدمعِ خمصانةُ الحَشَا بَرودُ الثنايا ذاتُ خَلْقٍ مُشْرَعبِ[4]

وفي بيت للحطيئة سندرسه عندما نتحدث عن وصف الريق بعد قليل نجد أنه يضيف إلى هذه الأوصاف المتعاورة وصفاً مهماً وهو الابتسام فيقول :[5]

وتَبْسِمُ عن عذبٍ مجاج كأنه نطافةُ مزنٍ صفقتْ بشمولِ

والحق أن الابتسام يزيد الوجه جمالا وإشراقاً ، والفم أداة الابتسام فبه يزدان ويحلو .

ويقول كعب :[6]

وتفتُّر عن غُرِّ الثنايا كأنَّها أقاحٍ تُرَوَّى من عروقٍ غَلاَغِلِ

وهكذا بعد النظر في هذ الأبيات نستطيع أن نتبين وصف هؤلاء الشعراء للفم والأسنان .

***

(١) « ديوان الحطيئة » ١٢١ .
(٢) العوارض : الأسنان . غربه : حده . الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة في الأسنان . وانظر اختلاف علماء اللغة في تفسيره في « تاج العروس » .
(٣) « ديوان طفيل » ١٨ .
(٤) المشرعب : الجسيم الطويل .
(٥) « ديوان الحطيئة » ٥ .
(٦) « ديوان كعب » ٩١ .

الريق :

وصف الريق مما تعاوره الشعراء في الغزل ، وقد وجدت شعراء هذه المدرسة يتفقون على تشبيهه بالخمر الذي خلط بالماء الصافي العذب البارد .

وذكر بعض شعراء هذه المدرسة أن ريق المحبوبة كذلك بعد أن تقوم من النوم أي في الوقت الذي تتغير فيه رائحة الفم ، فإذا كان ذلك كذلك فليس من شك في أن طعم الريق في الأوقات الأخرى أعذب وأحلى ورائحته أزكى وأطيب .

يقول أوس بن حجر :[1]

كأنَّ ريقتَهـا بعـدَ الـكَرى اغتبقتْ ... من ماء أصهـبَ في الحانـوتِ نَضَّاحِ
أو من مُعَتَّقَةٍ وِرهـاءَ نشوتُها ... أو من أنـابيب رمـانٍ وتفّاحِ[2]

كأنّ ريقها من العذوبة والنشوة اعتبق خمرا حمراء تروي الشاربين أو كأن هذا الريق اغتبق من خمر نشوتها شديدة التأثير ، أو كأنه اغتبق من الرمان والتفاح . فريقها يترك في النفس نشوة دونها نشوة الخمر ، وله رائحة تذكر برائحة التفاح والرمان .

ويأتي زهير فيكرر المعنى على طريقته ، ويستعير من أوس شطر بيت فيقول :[3]

كأنّ ريقتَهـا بعـدَ الـكَرى اغتَبَقَتْ ... مـن طيِّبِ الـراحِ لمـا يعـدُ أن عَتَقَا
شجَّ السقـاةُ علـى ناجودِهـا شَبَماً ... مـن ماءِ لينـةَ لا طَرْقـاً ولا رَنَقَا[4]

يقول : كأن ريقتها اغتبقت من طيب الراح لرقتها وطيبها ، وهو يريد أن يقرر

---

(١) « ديوان أوس » ١٤ .
(٢) اغتبقت : شربت الغبوق ، وهو شراب العشي ، والأصهب ، الأحمر أو الأشقر . والصهباء : الخمر ، الحانوت : دكان الخمر . النضاح : يروى الشاربين . روهاء : حمقاء ، أي شديدة قوية . أنابيب الرمان : الطرائق التي في الرمان .
(٣) « ديوان زهير » ٣٥ - ٣٦ .
(٤) الناجود : كل إناء يجعل فيه الخمر ، أو هو صفرة الخمر وأولها . الشبم : الماء البارد . لينة : بئر عذبة بطريق مكة . الطرق : ما بولت فيه الإبل . الرنق : الكدر . وشج السقاة : أي صبوا على الخمر هذا الماء البارد وعلوها به ، أي مزجوها به .

أن ماء فمها طيب بعد الكرى في ذلك الوقت الذي تتغير فيه الأفواه عادة . وهو يطنب على عادة الشعراء في ذكر تفاصيل المشبه به . فهذه الراح خلطت بماء عذب بارد ، لا كدر ولا يشوبه شيء من القذى والأبوال . من ماء لينة المشهورة بعذوبتها .

ويصف كعب ريق المحبوبة ويكرر المعنى والتشبيه نفسه ، ويستعير من أبيه زهير كلمتي (شج) و (شبم) فيقول :[1]

تجلو عوارضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ ... كأنه مُنْهَلٌ بالراح معلولُ
شُجَّتْ بذي شبمٍ من ماءِ مَحْنِيَةٍ ... صافٍ بأبطحَ أضحى وهو مشمولُ
تجلو الرياحُ القَذى عنه وأفرطَهُ ... من صوبِ ساريةٍ بيضٌ يعاليلُ[2]

إذا ابتسمت سعاد جلت العوارض التي يتخللها الظلم ، وهذا الظلم كأنه معلول بالخمر منهل . . وهذه الخمر مزجت بماء بارد صاف ، ليس فيه قذى ، لأن الرياح تجلو القذى عنه ، ولأن مروره من خلال الحصى والمنحنيات صفاه ونقاه ، وقد أمدت السحب الغزيرة هذا الماء بمياه صافية أيضاً .

وتبدو بوضوح ـ في هذا الوصف ـ زيادة الإطناب في ذكر الماء الذي مزجت به الخمر ، أما الحطيئة فإننا نجد له الوصف ذاته وقد أوجزه في بيت فقال :[3]

وتبسم عن عذب مجاج كأنه ... نطافة مزن صفقت بشمول[4]

يقول : إذا ابتسمت بدا فم عذب ، ريقه معسول كأنه خمر مزج بماء .

---

(١) « ديوان كعب » ٧ .
(٢) تجلو : تكشف . العوارض : الأسنان . الظلم : ماء الأسنان وبريقها . منهل : (على صيغة اسم المفعول) أي قد أنهل بالخمر . والنهل : هو الشرب الأول . والراح الخمر . معلول : من العلل وهو الشرب الثاني . وشجت : عوليت وهو مجاز ، كما يقول الزمخشري في « أساس البلاغة » . الشبم : البارد . المحنية : ما انحنى من الوادي فيه رمل وحصى صغار ، وقد خصّه لأنّ ماءه أصفى وأبرد الأبطح : مسيل فيه دقاق الحصى . المشمول : الذي ضربته ريح الشمال حتى برد . أفرطه : سبق إليه وملأه . الصوب : المطر . السارية : السحابة تسرى بالليل . اليعاليل : الغدران ، يريد أن موضع الماء البارد ملأته مياه بيض كأنها غدران .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٥ .
(٤) العذب : أي الثغر العذب . المجاج : العسل . النطافة : الماء الصافي قل أو كثر . المزنة : السحابة . صفقت : مزجت . الشمول : الخمر ، سميت شمولاً لأنها تشمل القوم بريحها .

رائحتها :

من الموصوفات الحسية وصف رائحة المرأة عامة ، ورائحة فمها خاصة ، وقد وجدت الحطيئة أكثرهم إيراداً له .

ومعروف أن مما توصف به المرأة الممدوحة طيب رائحتها ، ومن أقبح ما توصف به سوء رائحتها ، وأبيات ابن الرومي الهجائية في شنطف المغنية ذائعة مشهورة ، فقد بلغ من سوء رائحتها أنها تصرع ندماءها وتقتلهم .

وفي نص أسرف فيه الحطيئة من الحسية يقول :[1]

إذا النومُ ألهاها عن الزادِ خلتُها ... بُعَيْدَ الكرَى باتت على طيّ مُجْسَدِ
لها طيبُ ريّا إن نَأَتْني ، وإنْ دنتْ ... دَنَتْ عبلةً فوقَ الفراشِ الممهدِ
تضوّعُ ريَّاها إذا جئتَ طارقاً ... كريحِ الخُزامى في نباتِ الخلى الندِيّ[2]

إن رائحة فمها طيبة جداً حتى عندما تكون قد باتت دون طعام إذا ألهاها النوم عن تناول الزاد ثم قامت في صباح اليوم بعيد الكرى ، حتى لتحسبها أنها باتت على فراش أشبع بالزعفران ، ويقول :

إني لأحسّ برائحتها الطيبة إن بعدت عني ، وإن هذه الرائحة الزكية لتضوع إذا جئت دارها ليلاً كريح الخزامى عندما يكون في النبات الطري المبتل .

ويقول الحطيئة :[3]

يظل ضجيعُها أرجاً ، عليه ... مفارقُها من المسكِ الذكيِّ[4]

---

(١) « ديوان الحطيئة » ١٤٧ ، وليست الأبيات المذكورة أعلاه متوالية في الديوان ، بل تفصل بينها أبيات ، وقد ذكر المحقق أن أبيات القصيدة في الأصول التي اعتمدها تختلف في عدد الأبيات وترتيبها .
(٢) المجسد : البرد أو الفراش الذي أشبع بالزعفران . والجساد ـ بوزن كتاب ـ : الزعفران . والريا : الرائحة الطيبة . والعبلة : الضخمة السمينة . والممهد : المفروش . وتضوع : تفوح وتنتشر . الطارق : الآتي ليلا . الخزامى : نبت زهره من أطيب الأزهر . الخلى : الحشيش الرطب . والندي : المبتل .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٥ .
(٤) الأرج : الذي تفوح منه الرائحة الطيبة . المسك الذكي : الذي سطعت رائحته .

يعرض في هذا البيت رائحة المحبوبة فيقرر أن رائحتها تشبه عبق المسك ، حتى إن ضجيعها ليكتسب من طيبها ما يجعله أرجا . حقاً إن مَفارقها من المسك الذي سطعت رائحته .

ويقول الحطيئة أيضاً :[1]

لأسيلةِ الخدّين خرعبةٌ ، لَهَا مسكٌ يعلُّ بجيبِها وعبيرُ[2]

وهذا البيت كأنه جواب لسؤال الشاعر الذي قَدّمهُ في مطلع القصيدة حيث تساءل عند وقوفه على الأطلال قائلاً :

لمنِ الديارُ ، كأنهنَّ سطورُ بِلوى زرودَ سَفَى عليها المورُ

فقال هنا : لأسيلة الخدين . . .

وهو يصفها بطيب الرائحة ، لها مسك يضمخ قميصها مرة بعد مرة ولها عبير .

ويقول أيضاً :[3]

وفي الظعائن ـ لو ألممتَ ـ بهكنةٌ بالزعفرانِ ، لعوبٌ ، جيبها شرقُ[4]

الخد :

وصفوا الخدّ بأنه أسيل وأبيض ، والأسيل كلمة تدّل على الليونة والاستواء والطول ، وقد أورد مثل هذا الوصف كل من الطفيل والحطيئة .

يقول طفيل :[5]

كريمةُ حرِّ الوجهِ لم تَدْعُ هالكاً من القومِ هُلْكاً في غدٍ غير معقب

(١) « ديوان الحطيئة » ٣٧٦ .
(٢) أسيلة الخدين : طويلة الخدين . خرعبة : ناعمة الخلق . الجيب : طوق القميص .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٨٤ .
(٤) البهكنة : الحسنة الخلق الغضة . وشرق بالزعفران : امتلأ .
(٥) « ديوان طفيل » ١٨ .

أسيلةُ مجرى الدمعِ خمصانةُ الحشا بَـرودُ الثنـايا ذاتُ خلْـقٍ مشرعبِ
ترى العين ما تهـوى وفيهـا زيادة من اليمن، إذ تبدو، وملهى لملعب[1]

فقد كنى عن الخد بأنه مجرى المدمع ووصفه بأنه أسيل .

ورأينا آنفاً أن الحطيئة قال : (لأسيلة الخدين)[2] وقال يصف الخد بالبياض :[3]

تنـادَوا فحثُّـوا للترحّـلِ عِيرهم فبانُوا ببيضاءِ الخدودِ قتولِ[4]

الشعر :

وصفوا الشعر بأنه كثيف ، وبأنه طويل مسترسل ليس جعداً ، وبأنه ناعم ليس خشناً . ووصفوا حالات من تصفيفه ، قال طفيل :[5]

ووحفٌ يغـادى بالدهـانِ كأنه مديدٌ ـ غداه السيلُ ـ من نبتِ عنصلِ
تضـلُّ المـداري في ضفائرِهـا العُلى إذا أُرسِلـتْ ، أو هكَذا غير مرسلِ[6]

يصف شعرها بأنه شعر طويل ، تتعهده صاحبته بالدهان ، كأنه نبات مكتمل طويل تام من البصل البري باكره السيل . . إنه شعر غزير كثيف تضل الأمشاط فيه ، سواء أكان مضفراً أم مرسلاً .

وقال الحطيئة :[7]

تُفَـرِّقُ بالمِـدْرَى أثيثـاً نباته على واضحِ الذِّفرَى أسيل المقلّدِ[8]

---

(١) لم تدع هالكا : لم تندب هالكاً . ومجرى الدمع : الخد . المشرعب : الجسم الطويل .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٣٧٦ .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٥ .
(٤) يقول : تنادوا مسرعين للرحيل وبانوا بمحبوبته الرائعة في الحسن والتي هي بيضاء الخدود قتول .
(٥) « ديوان طفيل » ٦٥ .
(٦) وحف : شعر طويل وافر . يغادى بالدهان : يباكر به . المديد : التام . العنصل : البصل البري . المدرى : المشط . غير المرسل : يعني المضفر.
(٧) « ديوان الحطيئة » ١٤٧ .
(٨) أثيث : كثيف كثير . الذفرى : عظم شاخص خلف الأذن . ومسترسل : غير جعد .

يقول : إن هذه الحسناء تفرق شعرها الكثيف الغزير بالمشط ، وتأتي بشعرها الطويل المسترسل الناعم إلى عنقها من وراء أذنها .

اللون :

وصفوا المحبوبة بأنها بيضاء اللون كما رأينا في بيت الحطيئة الذي قال بأنها (بيضاء الخدود)[1] وقد يشبهونها بالغزال الأبيض الخالص البياض كما قال الحطيئة :[2]

من البيضِ كالغزلانِ ، والغُرّ كالدُّمى حسانٌ عليهنَّ المعاطفُ والأُزُرْ

ونرى طفيلاً يصفها بالحوة فيقول :[3]

إذْ هي أَحْوى من الربعيِّ حاجبُهُ والعينُ بالإثمدِ الحاريّ مكحولُ[4]

***

نعومتها :

ووصفوا المرأة بالنعومة والليونة .

وقد عبّر زهير عن هذا المعنى بصورتين انتزعهما من البيئة العربية ، فهو يذكر أن بنان المحبوبة يوم الرحيل بدا مزيناً بالحناء ، فأثار هذا المشهد في نفسه الرغبة في الحديث عن جمالها ، فذهب يقرر نعومتها بتشبيهها تشبيهين : فشبهها بالبردية ، وهي نوع من النبات ناعم وطري ، وبالبيضة عندما تكون تحت كنفي النعامة : صدرها وريشها الناعم فقال :[5]

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٥ .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٣٠٠ .
(٣) « ديوان طفيل » ٥٥ .
(٤) الحوة : حمرة إلى السواد . الربعي : ما نتج في الربيع .
(٥) « ديوان زهير » ٣٣٩ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكأنهـا يومَ الـرحيلِ ، وقـد بَدَا منهـا البنـانُ ، يزينـه الحنَّاءُ
بَرْدِيَّةٌ في الغيلِ يغـذو أصلَها ظـلٌّ إذا تَلَـعَ النهـارُ وماءُ
أو بيضـةُ الأدحـيّ باتَ شعارُها كنفا النعامة : جؤجؤ وعفاءُ[1]

وقال الحطيئة :[2]

طربـتَ إلـى من لا يواتيكَ ذكرُهُ ومـن هو ناءٍ ، والصبابـةُ قد تضرّ
إلـى طفلـةِ الأطـرافِ زيّنَ جيدَها ـ مَعَ الحلي والطيب ـ المجاسدُ والخَمر[3]

وإذا كانت أطرافها لينة ناعمة كان ذلك دليلاً على نعومتها ولين ملمسها .

***

حديثها :

والحديث الحلو من سمات الجمال ، ويدخل فيه رنة الصوت العذبة ، وطريقة الإلقاء الآسرة ، وما فيه من معان ، بل لعل الحديث الحلو من أهم سمات الجمال ، فكم من ذوي الجمال والحسن سواء أكانوا رجالاً أم نساء . . كم ترى منهم ناساً ينقص جمالهم إذا تكلموا . ولذلك فلا عجب أن نجد في شعر هؤلاء الشعراء ذكراً لحديث المحبوبة خلال حديثهم عن محاسن المحبوبة .

وصف زهير محبوبته بذلك فقال : إن الرجل العاقل الحليم الذي يتجمل أمام الناس ويحرص على الظهور بمظهر الوقار ليشوقه حديثها ويستميله ويصبيه ، قال :[4]

وتُصبـي الحليمَ بالحـديثِ يلذُّه وأصـواتِ حلـيٍ أو تحـركِ دُمْلُجِ

---

(١) البردية : نوع من النبات طري وناعم . الغيل : الأجمة . تلع : طلع . الأدحي : موضع بيض النعامة . الشعار : الغطاء . الجؤجؤ : الصدر . العفاء : صغار الريش .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٣٠٠ .
(٣) الطفلة : الناعمة اللينة .
(٤) « ديوان زهير » ٣٢٢ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وذكر الحطيئة أن حديثها الحلو يشفي السقيم ، فقال :[1]

مبتلّـةٍ يَشفـي السـقيمَ كلامُها لهـا جيدُ أدمـاءِ العشـيِّ خذولِ

***

القوام :

وصف طفيل قوام المحبوبة ـ في بيت سبق أن ذكرناه ـ فقال إنها (خمصانة الحشا) أي دقيقة الخصر ، و (ذات خلق مشرعب)[2] أي طويل جسيم .

وقال كعب في لاميته المشهورة :[3]

هيفـاءُ مقبلـةً ، عجـزاءُ مدبرةً لا يُشتـكى قصـرٌ منهـا ولا طولُ

إنها ذات بطن ضامر ، وخصر دقيق إذا أقبلت . وكبيرة العجز إذا أدبرت وهي متوسطة الطول ، لا هي بالطويلة ولا بالقصيرة .

ويضيف الحطيئة وصف الصدر وتزيينه ببروز الأثداء ، وقد عبّر عن ذلك بكلمة واحدة وهي (كعاب) .[4]

ويصف الحطيئة القوام في موضع آخر بأنه قوام حسن فيقول :[5]

طافـت أمامـةُ بالركبـانِ آونةً يا حُسْنَـهُ من قوامٍ ما ومُنْتَقَبَا

وهذا كلام عام ، ولكنه يتحدث عنه في قصيدة داليَّة حديثاً مفصلاً ، فيصف المحبوبة بأنها (هضيم الحشا) أي ضامرة البطن ، ويذكر هذا المعنى مرة أخرى فيقول :

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٥ .
(٢) « ديوان طفيل » ١٨ .
(٣) « ديوان كعب » ٦ و « جمهرة أشعار العرب » و « سيرة ابن هشام » ٤ / ١٠٩ .
(٤) « ديوان الحطيئة » ٢٥٦ .
(٥) « ديوان الحطيئة » ١٢١ .

(خميصة ما تحت النطاق) ، ويصف الكفل بالامتلاء ، والخصر بالدقة ويبالغ بوصفه بذلك حتى يقول : (تخاف انبتات الخصر ما لم تشدد) تخاف أن ينقطع ما لم تشدّه بشيء .

ثم يصفه بأنه لين كأنه عسيب غض نما في نبات ناضر ، فيقول : (١)

آثرتُ إدلاجي على ليلِ حرةٍ ... هضيمِ الحشا حُسَّانةِ المتجرَّدِ
إذا ارتفقت فوقَ الفراشِ حسبتَها ... تخافُ انبتاتَ الخصرِ ما لم تشدَّدِ
إذا شئتُ بَعْدَ النومِ ألقيتُ ساعدي ... على كَفَلٍ رَيَّانَ لم يتخدّدِ
خميصة ما تحتَ النطاقِ كأنَّها ... عسيبٌ نما في ناضرٍ لم يخضّدِ (٢)

وهكذا . . فإننا نستطيع أن نجد في وصف طفيل وكعب والحطيئة مقاييس الجمال للقوام عند العرب ، وهي قد تختلف عما يرى المعاصرون ، هذا وقد تهكم أبو العلاء في « رسالة الغفران » تهكماً لاذعاً على الذوق الذي يستحسن في المرأة كبر العجيزة .

الرجلان :

شبه كعب رجلي المرأة الحسناء التي وصف عدداً من أعضائها ببرديتين ، والبردية نبات مشهور بالنعومة والبياض والصفاء . وفصل في ذكر المشبه به فقال : إن هاتين البرديتين غذتهما أمطار رعدية ليلية ، وأمطار العشي ، ومطر الرعد ، كل ذلك يكون عادة غزيراً هاطلاً . يقول : (٣)

وتَخْطُو على بَرْديتَّينِ غَذَاهُما ... أهاضيبُ رجّافِ العشيَّاتِ هاطلِ

***

(١) « ديوان الحطيئة » ١٤٧ .
(٢) هضيم الحشا : أي ضامرة البطن . وحسّانة : أي حسنة . والريان : الممتلىء باللحم . لم يتخدد : لم يهزل . خميصة : ضامرة . ما تحت النطاق : البطن . العسيب : جريدة النخل . لم يخضد : لم يقطع .
(٣) « ديوان كعب » ٩٠ .

مشيتها :

يقول الحطيئة :[1]

حَصـــانٌ لهـــا في البيت زيٌّ وبهجةٌ ومشيٌ كمـا تمشـي القطـاةُ كتيفُ[2]

إنها إذا مشت مشت بأناة وتمهل . . إن مشيها كتيف . . أي متأن ونشيط يشبه القفز ، كما تمشي القطاة .

***

ضحكها :

ذكروا التبسم عند وصفهم أسنانها فقالوا : إنها عندما تبتسم تبدو أسنانها البيض . وذكروا أنّ الضحك صفة حسنة في المرأة تزيد في جمالها . قال أوس بن حجر :[3]

وقـد لهـوتُ بمثـلِ الرئـمِ آنسةٍ تُصبـي الحليمَ عروبٍ غيرِ مكلاحِ

فهي ضاحكة لا تعرف العبوس .

الحلي والملابس :

قال طفيل :[4]

كأنّ الرعـاثَ والسلـوسَ تصلصلتْ على خَشَشاوى جأبـةِ القـرنِ مُغْزِلِ[5]

(١) « ديوان الحطيئة » ٢٥٦ .
(٢) جاء في « القاموس » : يتـكتف في مشيه : ينـزو ، وكتف : مشى رويداً أو محـركاً كتفيه . إذن فالكتيف : المشي المتأني والذي فيه حركة مملوءة بالحيوية والنشاط .
(٣) « ديوان أوس » ١٣ .
(٤) « ديوان الطفيل » ٦٣ .
(٥) الرعاث : جمع رعثة وهي القرط . والسلس : الخيط الذي ينظم به الخرز أو اللؤلؤ . والخششاء : العظم الذي خلف الأذن . الجأب : الغليظ . المغزل : التي معها غزالها .

يتحدث عن الرعاث والعقد وعن صوتها الذي أحدث صلصلة ، وينتقل مباشرة إلى تشبيه المرأة بالظبية ذات القرن الغليظ والتي معها غزالها يقول : كأن هذه الأنواع من الحلي تصلصلت على ظبية من أوصافها كذا وكذا .

ويرى زهير لهذه الصلصلة والأصوات سحراً وجمالاً يصبي الحليم الوقور ويخرجه عن اتزانه ، ويقرن زهير صلصلة الحلي بحديثها اللذيذ فيقول : (١)

وتصبي الحليمَ بالحديثِ يلذُّهُ ... وأصواتِ حليٍ أو تحركِ دُمْلُجِ (٢)

ثم قال الطفيل : (٣)

يَزينَ مرادَ العينِ - من بين جيبها ... ولبّاتِها - أجوازُ جَزْعٍ مفصّلِ
كجمرِ غضاً هبَّتْ له - وهو ثاقبٌ ... بمروحةٍ لم تستترْ - ريحُ شمألِ (٤)

هذا وصف للعقد . . إنه يروق العين ، ويزين موضع نظرها ذاك العقد من الخرز المقسم من بين عنقها وصدرها ، ويبدو أنّ هذا العقد أحمر اللون ، وقد شبهه بجمر الغضا المشتعل في أرض كثيرة الريح وقد هبت عليه ريح الشمال الشديدة .

وذكر الحطيئة المرأة الفاتنة التي تأسر الرجل وتحاول أن تثني همه عن المغادرة ومقارعة الأنداد ، وقرر أنّ عليها اللؤلؤ والشنوف فقال : (٥)

إذَا هَمَّ بالأعداءِ لم تثنِ هَمَّهُ ... كَعَابٌ عليها لؤلؤٌ وشنوفُ (٦)

---

(١) « ديوان زهير » ٣٢١ .
(٢) الدملج : حلية تحيط بالعضد .
(٣) « ديوان الطفيل » ٦٤ - ٦٥ .
(٤) مراد العين : نظرها حيث تنظر . الجيب : طوق القميص ، والصدر . اللبة : مجمع العنق . الأجواز : الأوساط (ويريد بها الحلي الذي يتوسط العنق) المفصل : المقسّم . المروحة : المكان كثير الريح . الثاقب : المتوقد .
(٥) « ديوان الحطيئة » ٢٥٦ .
(٦) الشنوف : جمع شنف وهوالقرط ، وقد يخصص الشنف بما يعلّق في أعلى الاذن ، والقرط بما يعلق في أسفلها .

وهكذا !! فقد ذكروا من الحلي : العقود والأقراط والشنوف واللؤلؤ والخرز والدملج ، وربطوا بينها وبين المرأة بأنه أداة زينة تزيد في جمالها وإغرائها .

***

وذكر الحطيئة أيضاً الحلي والملابس فقال :[1]

أفيما خلا من سالفِ العيشِ تذكرْ ... أحاديثَ، لا يُنسيكها الشيبُ والعُمُرْ ؟
طربتَ إلى من لا يُؤاتيكَ ذكرُهُ ؟ ... ومن هو ناءٍ ، والصبابةُ قد تضرْ
إلى طفلةِ الأطرافِ ، زيَّنَ جيدَها ... ـ مع الحليِ والطيبِ ـ المجاسدُ والخُمُرْ
من البيضِ كالغزلانِ ، والغرِّ كالدُّمَى ... حسانٌ عليهنَّ المعاطفُ والأُزُرْ
ترى الزعفرانَ الوَرْدَ فيهنَّ شاملاً ... وإنْ شئنَ مسكاً خالصاً لونُه ذَفِرْ
عليلاً على لبّاتِ بيضٍ كأنَّها ... بناتُ المَلا منها المقاليتُ والنُّزُرْ[2]

يتذكر أيامه الخوالي الحلوة معها ، ويورد الكثير من صفاتها ، ويذكر أن مما أسهم بإبراز فتنتها ، وزيادة جمالها : حليها ، وطيبها ، وثيابها خمارها ومعاطفها وأزرها .

إنك لترى الزعفران الأحمر شاملاً هذه الثياب ، وتشم منها رائحة المسك الساطعة ، وهذا المسك خالص اللون .

ويشير الشاعر إلى أن الثوب كان وسيلة زينة وكذا الطيب ، بالإضافة إلى الحلي . ويبدو أنّ الزعفران والإكثار منه على الجسم والثوب كان يعد من الزينة أيضاً .

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٣٠٠ .
(٢) المجاسد : الثوب أشبع من الزعفران. الخمر : جمع خمار . الورد : الزعفران والأحمر منه . الذفر : الزكي الريح . العليل : علت به مرة بعد مرة ، أي طليت به . بنات الملا : البقر الوحشية . المقاليت : التي لا يعيش لها ولد . النزر : القليلات الولد .

وقد مرّ معنا وصف الحطيئة جيب المحبوبة بأنه لكثرة ما ضمخ بالزعفران أضحى شرقاً به .[1]

وصف الظعائن :

وصف أملاه الواقع البدوي الذي يقوم على الارتحال وانتجاع الكلأ ، ويقتضي ذلك ارتحال المحبوبة ، وقد صوّر لنا ذلك كعب فقرر أنهن عندما رأين أن الكلأ الرطب ودّع أهله ، وأن الحر بدأ يشتد ويتفاقم أمره ، حتى توقدت من لهبه الحجارة ، عزمن رحيلاً على مضض لمفارقتهن المكان الجميل الذي كنّ فيه ، يقول :[2]

فلما رأينَ الجَزْءَ ودَّعَ أهلَهُ ... وحرَّقَ نيرانَ الصفيحِ ودائقُه
عَزَمْنَ رحيلاً وانتجعنَ على هوىً ... وخفنَ العراقَ أن تجيش بوائقه[3]

وما إن يصادفن مكاناً فيه ماء حتى يخيمن فيه كما قال زهير :[4]

فلمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جمامُه ... وضعْنَ عِصِيَّ الحاضرِ المتخيِّمِ[5]

ففي حياة الشاعر محبوبة تعلق قلبه بها ، وكانت مضارب قومها قريبة من منزله فكان يتاح له أن يختلس النظرة بعد النظرة ، ويلقاها أحياناً فيدور بينهما حديث ، وقد تواعده وتخلفه ما وعدت ، وتبدي صدوداً وتطمعه باللقاء بآن . . . هذه الأحداث وأمثالها تشغل حيزاً من حياة الشاعر ونفسه ، فإذا ارتحل أهلها وارتحلت معهم ، قام يبكي ذكرياته وأيامه بكاء حاراً ، ويخفف عن نفسه بوصف ارتحالها مع صواحبها . وهذا هو وصف الظعائن .

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٣٨٤ .
(٢) « ديوان كعب » ١٩٢ .
(٣) الجزء : الرطب من الكلأ الذي يجزىء عن الماء . الودائق : جمع وديقة وهي الهاجرة . تجيش : تفور . البوائق : الشدائد من الشر .
(٤) « ديوان زهير » ١٣ .
(٥) وضعن عصي الحاضر : أي أقمن . المتخيم : المقيم . الجمام : ما اجتمع من الماء . زرقاً : أي صافياً لم يسبق أن ورده أحد .

وقد أفردته بالحديث لما له من دلالة اجتماعية وتاريخية تتصل بحياة البادية المتنقلة المنتجعة .

والملاحظ أن هذه النصوص الوصفية التي تتعرض لوصف الظعائن كلها يخُاطَب بها خليل ، وقد قيل في تعليل هذه الظاهرة : إن البكاء قد شغل الشاعر فقال لصاحبه : تبصرً أنت .[1]

ومن أجل ذلك تكرر الشطر الآتي في شعر هؤلاء الشعراء وهو :

تبصرً خليلي هل ترى من ظعائن .[2]

وقد تأتي كلمة (تبيّن) محل كلمة (تبصَّر) كما جاء في شعر زهير[3]

تبيَّن خليلي هل ترى من ظعائن

وكذلك تكرر جزء من شطر بيت وهو : (أشاقتك أظعان) . قال طفيل :[4]

أشاقتــك أظعــانٌ بجفــن يَبَنْبَمِ نَعَـمْ بُكُراً مثـلَ الفسيلِ المكمكمِ[5]

وقال الحطيئة :[6]

أشاقتــكَ أظعــانٌ لِلَيْلَي يوم ناظــرةٍ بواكرْ[7]

ويلاحظ أيضاً أن أوصاف هؤلاء الشعراء للظعائن مزدحمة بأسماء الأمكنة فلقد ذكر زهير : جرثم ، والعلياء ، ووادي الرسّ ، والقنان ، والسوبان والدهناء ، ومنعرج الوادي ، وأبان ، والأشراف ، وقطن .

(١) انظر حاشية ص ٢٩٤ من شرح « ديوان زهير » .
(٢) انظر : ديوان زهير » ٨ و ٢٩٤ و « ديوان كعب » ١٩١ و « ديوان طفيل » ٨٢ .
(٣) انظر « ديوان زهير » ٣٥٨ .
(٤) انظر : « ديوان الطفيل » ٧٢ .
(٥) جفـن يبنيم : اسـم كان . بكرا : ابتكارا . الفسيل المكمكم : جذع النخل المغطى وكانوا يغطونه من الجراد ومن الحر والقر .
(٦) انظر « ديوان الحطيئة » ١٦٥ .
(٧) شاقتك : أورثتك الشوق . ناظرة : اسم موضع . بواكر : مبكرات .

وذكر طفيل : جفن ينبنم ، والال (وهو جبل بعرفه)، وعكاش ، والهبابيد والأحفى ، ودمخ ، والبردى .

وذكر كعب : الحزن ، وليه ، وسيحان ، والأخاديد ، واللوى .

وذكر الحطيئة : وجرة ، وناظرة .

وإن ذكر هذه الأسماء لينبىء بأن وصف هذه الظعائن حقيقي ، أو متخيل في بيئة معينة حتى بدا كأنه واقعي .

ونجد في هذه الأوصاف أيضاً تشابهاً في الصورة والمعنى :

فمن ذلك ما نراه في النصوص التي وقفنا عليها من تشبيه الظعائن وهو ادجها بالنخيل أو بالسفن أو بهما معاً . قال طفيل :[1]

أشاقتكَ أظعانٌ بجفنِ يَنَبْنَم نَعَمْ ، بُكُراً ، مثل الفسيلِ المكمكمِ

والفسيل المكمكم هو جذع النخل المغطى حتى لا يفسده الجراد ولا البرد ولا الحر ، وإنها لصورة موفقة في الدلالة على الهودج ، وزاد في توفيقها كلمة (المكمكم) إذا اشترك المشبه والمشبه به في الغطاء .

وقال زهير يشبه هذه الظعائن في حركتها في أثناء المسير بحركات النخلات الصغار تحركها الريح . ثم مضت الظعائن وقطعت أرض الدهناء ومرت على بعض الخمائل المختبئة بين الرمال يقول :[2]

تَبصَّرْ خليلي هل تَرَى من ظعائنٍ كما زالَ في الصبحِ الأَشاءُ الحواملُ
نشزنَ مِنَ الدهناءِ يَقطعْنَ وسطها شقائقَ رملٍ بينهنَّ خمائلُ[3]

---

(١) « ديوان الطفيل » ٧٢ .
(٢) « ديوان زهير » ٢٩٤ .
(٣) زال : تحرك . الأشاء : النخل الصغار . نشزن : ارتفعن الخميلة : رمل فيه شجر .

ويعمد زهير في نص آخر إلى تشبيه الظعائن بالسفن وبشجر الدوم وهو شجر يشبه النخل فيقول :[1]

يَقْطَعْـنَ أميالَ أجـواز الفـلاةِ كَمَا ... يَغْشَى النواتِي غمـار اللُّـجِ بالسُّفُنِ
يَخْفِضُهـا الآلُ طوراً ثم يرفعُها ... كالدَّوْمِ يَعْمِـدْنَ للأشـرافِ أو قَطَنِ[2]

يقول : إن هذه الظعائن تقطع أميال الفلاة كما يقطع الملاح بسفينته غمار اللجّ في البحر ، ولا تلبث أن تقع في السراب يخفضها حيناً ويرفعها حيناً فتبدو كشجر الدوم .

ويأتي كعب فيشبه الظعائن بهذين التشبيهين ويجمعهما ببيت واحد فيقول :[3]

تَبصَّـرْ خليلـي هَلْ تَرى من ظعائنٍ ... كنخلِ القُرى أو كالسفينِ حزائقُه[4]

ويستعمل الحطيئة التشبيه نفسه فيقول :[5]

في الآلِ ترفعهـا الحدا ... ة كأنهـا سُحُـقٌ مواقر[6]

ومن ذلك أيضاً حديث الشاعر عن السراب الذي يلتهم الظعائن فيرفعها حيناً ويخفضها حيناً آخر ، كما رأينا ذلك عند زهير والحطيئة .[7]

وهناك وجوه أخرى للتشابه في هذا الوصف . . .

---

(١) « ديوان زهير » ١١٨ .
(٢) الميل : القطعة من الأرض مد البصر . أجواز : أوساط . النواتي : الملاحون واحدها نوتى . واللج : معظم الماء لا ترى جانبيه . والآل : سراب يكون ضحوة النهار ، والسراب يكون نصف النهار . الدوم : شجر يشبه النخل . الأشراف وقطن : موضعان .
(٣) انظر « ديوان كعب » ص ١٩١١ .
(٤) الحزائق : الجماعات .
(٥) انظر « ديوان الحطيئة » ص ١٦٥ .
(٦) السحق : النخل الطوال . المواقر : الكثيرة الحمل .
(٧) انظر « ديوان زهير » ١١٨ و « ديوان الحطيئة » ١٦٥ .

ويبدو أن وجود التشابه في أوصاف هؤلاء الشعراء أمر طبيعي لأن المنظر واحد ، والحادثة واحدة ، والبيئة واحدة ، ولأن اشتراك هؤلاء الشعراء في اتجاه أدبي واحد لا بدّ أن يترك آثاره في شعرهم لاسيما وأن بعضهم كان راوية لبعض كما سبق أن ذكرنا .

وهذا التشابه يؤكد لنا الروابط العميقة التي تنتظم هؤلاء الشعراء في مدرسة واحدة .

هذا وقد يصف الشاعر ـ خلال حديثه عن الظعائن ـ مشاهد من الطبيعة كالسهول الخصبة التي سقتها الأمطار ، والصحارى والمرتفعات ، أو الحيوانات ، أو غدران المياه التي يلاقيها .

***

وأختتم هذه الكلمة عن وصف الظعائن بإيراد نصّ لكعب والنظر فيه يقول رحمه الله :[1]

تبصَّرْ خليلي هَلْ تَرى من ظَعَائِنٍ ... كنخلِ القُرى أو كالسفينِ حزائِقُهْ
تَرَبَّعْنَ روضَ الحَزْنِ ما بينَ ليَّةٍ ... وسَيْحَانَ مُستكاً لهن حدائقُهْ
فلمَّا رأينَ الجَزْءَ ودَّعَ أهلَهُ ... وحرَّقَ نيرانَ الصفيحِ وَدَائقُهْ
عَزَمْنَ رحيلاً وانتجعنَ على هَوَىً ... وخِفْنَ العراقَ أن تجيشَ بوائقُهْ
وَخُبِّرْنَ ما بين الأخاديدِ واللِّوى ... سَقَتْهُ الغَوادِي والسَّوارِي طوارِقُهْ
وباكرْنَ جَوْناً تَنْسِجُ الريحُ مَتْنَهُ ... تَنَاءَمُ تكليمَ المجوسِ غرانِقُهْ
إذا ما أتتْهُ الريحُ من شطرِ جانبٍ ... إلى جانبٍ حازَ الترابَ مهارِقُهْ
بحافَتِهِ مَنْ لا يصيحُ بمن سَرَى ... ولا يدَّعِي إلاّ بما هو صادِقُهْ
على كُلِّ مُعطٍ عِطْفَهُ مُتزيِّدٍ ... بفضلِ الزِّمامِ أو مَروحٍ تُواهِقُهْ[2]

(١) « ديوان كعب » ١٩١ ـ ١٩٦ .
(٢) الحزائق : الجماعات . تربعن : رعينه في الربيع . الحزن ولية وسيحان : مواضع . المستكّ : =

هذه الأبيات التي أوردتها هي معظم القصيدة كما وردت في الديوان، ولذلك فتكاد تكون هذه القصيدة وقفاً على وصف الظعائن ، حذفت منها ثلاثة أبيات وردت في مطلعها ذكر فيها شيبه وكبره ، وفي آخرها بيتان ذكر فيهما أن الجهل والطيش ربما ساوراه فيقوم لينبري لنساء مثل كرائم الإبل في جمال عيونهن ، حسان غريرات الكلام ، بينهن ناشز لا تحب زوجها وهو متعلق بها .

ويحكي لنا كعب قصة الظعن من أولها إلى نهايتها ، ويبدأ الوصف بسؤال صاحبه : هل يرى هؤلاء النساء على هوادجهن سائرات ؟ ما أشبههن بنخل القرى يحركها الهواء ، أو بكوكبة من السفن ضمّ بعضها إلى بعض . . . ولقد كنّ يقمن في روض الحزن ، وهو مكان بعينه ويقع بين لية وسيحان وهذا تحديد دقيق ، وعندما رجعت إلى المصادر التي تعرف بالأماكن عرفت أن موضع روض الحزن هذا في نواحي الطائف . فقد ذكر الأصفهاني[1] أن لية واد أعلاه لثقيف وأسفله لنصر ، وذكر المحقق العلامة الأستاذ حمد الجاسر في تعليقه عليه أنه من أشهر أودية الطائف وفيه قرى ، وذكر أنه يضرب بجودة رمانه المثل .

وسيحان ذكره الأستاذ عبد الله بن خميس[2] فقال : إنه يرى على يمين الطريق الحالي ، وذكر في موضع آخر من كتابه[3] أنه جبل ليس بالكبير وفيه أخاديد وأنفاق

= الملتف . الجزء : الرطب من الكلأ . الوديقة : الهاجرة . تجيش : تفور . البوائق : الشدائد من الشر . الأخاديد واللوى : موضعان . والغوادي : ما أمطر بالغداة . والسواري : ما أمطر بالليل . الطوارق : ما طرق ليلاً . الجون ـ هنا ـ : الماء . والأصل فيه الأبيض والأسود وهو من الأضداد . والنئيم : الصوت الخفي . والغرنوق : طائر مائي أبيض طويل الرجلين ، والمجوس إذا أكلوا أو شربوا تكلموا كلاماً خفياً لا يفهم وكان زمزمة .

المهارق ـ هنا ـ : المجاري يريد وصف الماء بالصفاء وعدم تأثره بالرمال إذ تصير إلى المجاري ولا يتعكر صفو الماء أبداً . وقوله (من لا يصيح) أي القطا . وصدقه أنه إذا صوت قال : قطا . قطا . العطف : الجانب . وقوله (معط عطفه) يريد الجمل الحسن الطواعية إذا أردت انعطافه انعطف معك كيف أردت .

وقوله (على كل معط) متصل بقوله (تبصر خليلي هل ترى من ظعائن) والمتزيد أي : في سيره . والمروح : الناقة المرحة النشيطة . تواهقه : تباريه في السير .

(١) « بلاد العرب » ص ٣٠ .

(٢) « المجاز » ص ١٦٧ .

(٣) « المجاز » ص ١٧٣ .

وآثار ، مما يدل على أن به معدناً ، وقد أشار إليه الأستاذ حمد الجاسر في بحثه « المعادن القديمة في بلاد العرب » .

وكان روض الحزن هذا لهن وحدهن على بعد ما بين الحدين المذكورين ، لا يجوس أرضه كائن ما ، وحدائقه ملتفة ، ثم جاء حين من الدهر ذهب الخير من هذه البقعة ، وودع الجزء أهله ، واشتدت شمس الهاجرة حتى توقدت الحجارة من شدة الحر ، وأقفر الربع . . . لما كان ذلك عزمن على الرحيل وغادرن ذلك المكان على حبّه . . . وخفن من العراق . . . من مرضه ووبائه . . .

وبينما هن على ذلك خبّرن بأن بين الأخاديد واللوى مكاناً مريعاً وأرضاً أريضة فسارعن إليها . . . وهناك وجدن ماء صافياً تتردد الريح على صفحته تملؤها بالتجاعيد . . وتنسج متنه نسجاً . . والطيور الغرانيق حوله تدندن بصوت خفي غير واضح ولا مفهوم كما يتكلم المجوس ويزمزمون ، والقطا على حافاته يصيح مردداً اسمه : (قطا . قطا) . . وكانت هؤلاء الظعائن على كل جمل ذلول أو ناقة نشيطة تباريه في السير .

ولدى النظر في نصوص شعراء هذه المدرسة التي تصدت لوصف الظعائن رأيت أن كعباً قد استفاد من طفيل الغنوي في قصيدته اللامية استفادة كبيرة ، وقد استعار معانيه ، وكثيراً من أشطاره من مثل :

تبصرّ خليلي هل ترى من ظعائن

ومثل :

فباكرن جونا للعلاجيم فوقه

ومثل :

إذا ما أتته الريح من شطر جانب

ويكفيني أن أورد نصّ الطفيل لنتبين مدى الاستفادة والاقتباس :

قال الطفيل : [1]

تَبصَّرْ خليلي هلْ تَرى من ظعائنٍ ... تحمَّلْنَ أمثالَ النعاجِ عقائلُهْ
ظعائنُ أبرقنَ الخريفَ وشِمْنَهُ ... وخفْنَ الهُمامَ أن تُقادَ قنابلُهْ
على إثْرِ حيٍّ لا يَرَى النجمَ طالعاً ... من الليلِ إلاّ وهو بادٍ منازلُهْ
شَرِبْنَ بِعُكَّاشِ الهَبَابيد شَرْبَةً ... وكانَ لها الأحفى خليطاً تُزَايِلُهْ
فلمَّا بدا دمخٌ وأعرضَ دونَهُ ... عوازبُ من رملٍ تَلوحُ شَواكِلُهْ
وقلنَ ألا البَرْدِيُّ أوَّلُ مَشْرَبٍ ... نَعَمْ جَيْرِ إنْ كانتْ رِواءً أسافِلُهْ[2]
تَحَاثَثْنَ واستعجلنَ كل مُوَاشِكٍ ... بِلُؤْمَتِهِ لم يَعْدُ أنْ شَقَّ بازِلُهْ
فباكَرْنَ جَوْناً للعَلاَجِيم فَوْقَهُ ... مَجَالِسُ غَرْقَى لا يُحَلَّأ ناهِلُهْ
إذا ما أتَتْهُ الريحُ من شطرِ جانبٍ ... إلى جانبٍ حازَ التُرابَ مجاوِلُهْ[3]

***

وصف ظواهر أخرى متعلقة بالإنسان :

أختم هذا الباب بذكر بعض الظواهر التي وجدت أن شعراء المدرسة الأوسية وصفوها ، وهي متعلقة بالإنسان . وهي : وصف الدموع والبكاء ، وطيف المحبوبة ، واللوم ، والخوف ، والمنية والوعيد ، والحظ العاثر ، وهي ظواهر متصلة بالإنسان .

---

(١) « ديوان الطفيل » ٨٢ ـ ٨٤ .

(٢) لكعب بيت مشابه لهذا البيت ولم أذكره في نص كعب ، لأنه لم يرد في صلب الديوان ، وإنما استدركه محقق الديوان وهو كما يأتي :

وَقَدْ قلنَ بالبَرْدِيِّ أول مشربٍ ... أَجَلْ جَيْرِ إنْ كانتْ سَقَتْهُ بوارِقُهْ

(٣) عقائله : كرائمه . أبرقن : رأين البرق . شمنه : أبصرنه . الخريف : أول ما يجيء المطر . والهمام : الملك . القنابل : الجماعات من الخيل . عكاش والهبابيد والأحفى : أسماء مواضع . ودمخ : اسم جبل . الشواكل : النواحي . البردي : اسم موضع . الرواء : الماء العذب . أسافله : مجمع مائه . الاستحثاث : الاستعجال . المواشك : السريع . بلؤمته : بجهازه . لا يحلأ ناهله : لا يرد عطشانه . المجاول : المجاري التي يجول فيها الماء .

وصف الدموع والبكاء :

وهذا موضوع طرقه الشعراء كثيراً حتى ألفت فيه المؤلفات ، من ذلك ما كتبه العلامة الصفدى في :

« تشنيف السمع بانسكاب الدمع »[1]

وقد رأيت أن المعاني التي طرقها شعراء المدرسة واحدة ، فزهير يذكر أن دموعه تتساقط من عينيه تساقط الماء من القرب أو الدلو أو تتساقط تساقط اللؤلؤ من عقد انقطع سلكه فقال :[2]

كَأنَّ عيني ، وقد سالَ السليلُ بِهِمْ ... وعَبْرةٌ ما همُ ، لو أنهم أَمَمُ
غربٌ على بكْرةٍ ، أو لؤلؤٌ قَلِقٌ ... في السلكِ خانَ بِهِ رَبَّاتِه النُّظُمُ[3]

يقول : بعد الأحبة وسال وادي السليل بهم فأثاروا دموعي ، وإنهم السبب في هذه الدموع . واحسرتاه . . . لو أنهم كانوا مقاربين لا طمأنت نفسي بقدرتها على زيارتهم لو أرادت . . . ولكنهم بعدوا . . . فكانت دموعي كأن عيني دلو ينحدر منها الماء أو لؤلؤ قلق انقطع نظامه فانحدرت حباته واحدة في إثر أخرى .

وكرر هذا المعنى في قوله :[4]

كأنَّ عَيْنيَّ في غَرْبَيْ مُقَتَّلةٍ ... من النواضِحِ تَسْقي جَنَّةً سُحُقَا

يقول : كأن عينيه لكثرة دموعها في دلوين عظيمتين على ناقة مقتلة ينضح عليها ، وإنما ذكر المقتلة لأنها ماهرة تخرج الغرب ملآن فيسيل من نواحيه أما الصعبة التي تنفر فتهريقه فلا يبقى منه إلاّ القليل .

---

(١) والكتاب مطبوع في مصر سنة ١٣٢١ هـ بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق ويقع في ١٢٦ صفحة .
(٢) « ديوان زهير » ١٤٨ .
(٣) السليل : واد . و (ما) زائدة ، أي هم لي عبرة ، أي هم سبب عبرتي . والأمم : القصد ، بين القريب والبعيد . وجواب (لو) محذوف تقديره : كنت أزورهم . والغرب : الدلو العظيمة . النظم : جمع نظام وهو الخيط .
(٤) « ديوان زهير » ٣٧ .

وقد استفاد الحطيئة المعنيين كليهما في شعره فقال :[1]

أمِـنْ رسـمِ دارٍ مَرْبَـعٌ ومَصيفُ ... لعينيكَ من ماءِ الشـؤونِ وكيفُ
رَشـاشٌ كغربـيْ هاجـريٍّ كلاهما ... لـه داجـنٌ بالـكَرَّتَيْنِ عليفُ
إذا كَرَّ غَرْبـاً بعـد غَرْبٍ أعاده ... على رغمـه ، وافي السِّبـالِ عنيفُ
تذكرتُ فيهـا الجهـلَ حتـى تبادرتْ ... دُمُوعـي ، وأصحابـي علـيَّ وقوفُ
يقولونَ : هل يبكي من الشوقِ حازمٌ ؟ ... تَخَلَّـى إلـى ذاتِ الإلـه حنيفُ[2]

والحطيئة هنا يوسع المعنى الأول ، وهو تشبيه الدموع بماء الدلو ، فيورد ذلك خلال وقوفه على الأطلال ، فيذكر أنه عندما رأى ما صنع مرّ الزمان من صيف وربيع انهمرت دموعه حتى كأنّ عينيه دلوا سقاء عنيف وافي السبال ـ ويبدو أن هذه الصفة تلازم الرجال الأشداء الذين يسوقون الإبل سوقاً شديداً ـ وهـذا السقّـاء حاذق ، ولكل غرب بعير معتاد للسقي إلى آخر ما مر في هذه الصورة .

ويأخذ الحطيئة المعنى الثاني ، وهو تشبيه دموعه بحبات العقد ، فيقول :[3]

تذكرتُهـا فارفضَّ دمعـي كأنَّهُ ... نثيرُ جمـانٍ بينهـنَّ فريدُ[4]

***

(١) « ديوان الحطيئة » ٢٥٣ .
(٢) الشؤون : مجاري الدمع . والمربع والمصيف : اسمان لزمان الربيع والصيف . ووكف الماء وكيفا : سال وقطر قليلاً قليلا . ويقال : وكفت العين الدمع وبالدمع . الرشاش : ما تفارق من الدمع . ارهاجري : البناء ، الحاذق بالسقي . والداجن : البعير المعتاد للسقي والكر في المنحاة ذاهباً وجائياً . العليف : المعلوف .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٦٣ .
(٤) ارفض : سال . الجمان : اللؤلؤ ، أو حب يصاغ من الفضة على شكل اللؤلؤ . الفريد : الدر إذا نظم وفصل بغيره ووحداته فريدة .

وصف الخيال والطيف :

ونريد بالخيال والطيف خيال المحبوبة وطيفها، إذ وجدت أن الشاعر يتخيل مجيء خيال المحبوبة إليه ، ويتحدث لنا عنه ، وقد يصفه وصفاً مفصلاً . وقد يصف لنا الطريق الصعبة التي قطعها، وغالباً ما يبدى استغرابه كيف استطاعت المحبوبة أن تهتدي إليه في جنح الظلام ، والصحارى الشاسعة تحول بينها وبينه .

يقول زهير :[1]

باءتْ بعاقبةٍ ، وكان نوالَها ... طيفٌ يَشُقُّ على المُبَاعَدِ مُنْصِبُ
في كلِّ مَثْوى ليلةٍ ، سارٍ ، لها ... هادٍ ، يَهيجُ بحُزْنِهِ مُتَأوبُ
أنَّى قطعتِ وأنتَ غيرُ رجيلةٍ ... عَرْضَ الفلاةِ ؟ وأينَ منكِ المطلبُ[2]

يتحدث الشاعر عن أميمة التي بعدت عنه ، ورجع خيالها ، وهو يشق عليه ويتعبه ، لأنه يذكره بالمحبوبة التي يتعذر وصالها ولقاؤها ، ومما يزيد في ألم الشاعر أن هذا الطيف يأتي في كل ليلة ، وأنه لبصير بالطرقات والسبل ، ثم يتحول الشاعر من الحديث عن الطيف إلى أميمة فيقول لها : كيف قطعت عرض الفلاة وأنت غير قوية على المشي ؟ ومع ذلك فأين منك المطلب ؟ إنك هناك . . بعيدة بعيدة ، ويقول كعب : [3]

أنَّى ألمَّ بك الخيالُ يطيفُ ... ومَطَافُه لكَ ذِكْرَةٌ وشُعُوفُ
يَسْرِي بحاجاتٍ إليَّ فَرُعْنَني ... من آلِ خولةَ ، كُلُّها معروفُ
فأبيتُ مُحْتَضِراً ، كأنيَ مُسْلَمٌ ... للجنِ ، رِيعَ فُؤادُهُ المخطوفُ
فعزفتُ عنها ، إنَّما هو أنْ أَرَى ... مالا أنالُ ، فإنَّني لعزوفُ[4]

(١) « ديوان زهير » ٣٦٩ .
(٢) العاقبة : يريد عاقبة أمرها ، أي آخر ما كان منها إلينا . ومنصب : متعب . والمتأوب : الطارق في الليل . الهادي : البصير بالسبل والطرقات . الساري : وصفٌ للطيف . والرجيلة : القوية على المشي .
(٣) « ديوان كعب » ١١٣ - ١١٤ .
(٤) الذكرة والذكرى نقيض النسيان . والشعوف : الولوع بالشيء حتى لا يعقل غيره . مسلم للجن : أي متروك قد يئس منه . فهو المخطوف عقله . عزفت : أي انصرفت .

يتحدث كعب عن خيال المحبوبة مستفيداً من حديث أبيه ، ومضيفاً إليه تفصيلا ، فيذكر أن هذا الخيال يؤلمه ويذكره بما كاد ينساه فهو ولوع به ، حتى لا يعقل غيره . ويقول : إن هذا الخيال يأتيني ليلاً بحاجات تروعني ، كلها معروف لديَّ ، ويبلغ به الأمر أنه يبيت كالمحتضر الذي أشفى على الموت ، أو كأن عقله قد خطف وأسلم إلى الجن .

ولا يتخلص من هذا الخيال إلا بالعزوف عن ذلك الخاطر ، وهذا من شأنه فإنه إذا رأى شيئاً تهفو إليه نفسه ولا يستطيع أن يناله عزف عنه فاستراح لذلك . وفي النص صورة الرجل المخطوف الفؤاد .

ويطرق الحطيئة هذا الموضوع ، ولا يأتي بجديد ، غير أنه يذكر بعض التفصيلات حول حاله وحال الإبل التي تحمله ، ويعبر عن وقت مجيئه بصور مشتقة من البيئة فيقول :[1]

وفي كُلِّ مُمْسى ليلةٍ أو مُعَرَّسٍ ... خيالٌ يُوافي الركبَ من أمِّ معبدِ
فحيَّاكِ ربي ، ما هداكَ لفتيةٍ ... وَخُوصٍ بأعلى ذِي طُوَالَةَ هُجَّدِ ؟
وأنَّى اهتدتْ والدوُّ بيني وبينها ؟ ... وما كانَ سارِي الدوِّ بالليلِ يَهْتدي
تَسَدَّيْتِنَا من بعد ما نامَ ظالعُ ... الكلاب وأخبى نارَهُ كُلُّ مُوقِدِ
بأرضٍ تَرَى شخصَ الحُبَارى كأنَّهُ ... بها راكبٌ عَالٍ على ظهرِ قَرْدَدِ[2]

يقول : في كل ليلة عندما نود أن نستريح من عناء سفرنا الطويل يوافي ركبنا خيال أم معبد أينما كنا . فحياك ربي ، من هداك لهؤلاء الفتية الهجد وللنوق التي أضناها السير والعطش فغارت عيونها ؟ كيف اهتديت إلينا وبيننا وبينك بيد لا يهتدي إليها العارفون ؟ . . . ثم يقول :

---

(١) انظر « ديوان الحطيئة » ١٤٧ .

(٢) المعرّس : الموضع الذي يعرسون فيه . الخوص : الإبل الغائرة العيون من العطش . وذو طوالة : موضع . الدو : الصحراء التي لا علم بها ولا أمارة بها ولا يهتدي إليها الناس . تسدّى : ركب وعلا . وظالع الكلاب : مثل تقوله العرب تدل به على التأخر في السهر تقول : لا أنام إلا إذا نام ظالع الكلاب . أي إلا إذا هدأت . واخبى : أي أطفأ . والقردد : ما ارتفع من الأرض .

إن خيالك قد ركبنا وعلانا في آخر الليل ، بعد أن نام ظالع الكلاب وأطفأ الناس نيرانهم . . . ووافانا هذا الخيال في أرض مستوية يرى فيها شخص الحبارى كأنه راكب عال على ظهر مكان مرتفع .

ويقول الحطيئة في موضع آخر : إن أمامة لا تواصل إلا في الخيال المروّع الذي يأتي عند المنام . . . ويأبى أن يزول إلاّ مع الصبح . يقول :[1]

نأتــكَ أُمامــةُ ألا سُــؤالا ... وأبصـرْتَ منهـا بغيبٍ خَيَـالاَ
خيـالاً يَرُوعُـكَ عنـد المنامِ ... وَيـأْبَـى مـع الصبـحِ إلا زَوَالاَ

اللوم :

قال زهير[2] يلوم زوجته أم كعب ، وهي كبشة بنت عمار ويصف لومها إياه على سخائه :

فيمَ لَحَـتْ؟ إنَّ لومَهـا ذُعُرُ ... أحميْتِ لومـاً كأنَّـهُ الإبَرُ
من غير ما تُلصِقُ الملامـةَ إلاّ ... سُـخْفَ رأي ، وساءَهـا عُصُرُ
حتَّـى إذا أدخلـتْ ملامَتَها ... مِـنْ تحـتِ جِلْـدي ولا يُرَى أَثَرُ
قلـتُ لهـا: يا، ارْبعِـي أَقُـلْ لكِ في ... أشياءَ ، عنـدي من عِلْمِهـا خَبَرُ[3]

إنه وصف للوم المضجر، الذي يضيق منه الصدر. إنه لوم حار أحمته الزوجة حتى غدا كأنه الإبر في الصدر.

ومما يزيد في ثقل هذا اللوم على النفس أنه كان دون داع معقول . تلومني على

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٢١٤ .
(٢) « ديوان زهير » ٣١٣ - ٣١٤ .
(٣) لحت : لامت . الذعر : الخوف . ويريد هنا : مفزع . أحميت لوما : أي جعلته حامياً حاراً . يلصق الملامة : يقتضي الملامة ويوجبها. والعصر: لغة في العصر، وهو الدهر، ويريد به هنا تقدمه في السن. اربعي: كفي. خبر: علم.

السخاء ، وهل يقبل هذا اللوم ؟ إنك إن بحثت عن الأسباب الحقيقية لم تجد إلا سببين :

أولهما ضعف رأيها وسخفه .

وثانيهما تقدم سني وكبري .

وقد رضت نفسي على الصبر ، وكظمت غيظي وأدخلت ملامتها تحت جلدي ولا يرى أثر علي . قلت لها : يا هذه كفي عني . . . واسمعي أقل لك . . . ثم ذهب يبين لها ضعف رأيها في لومه على السخاء .

***

الخوف :

خاف كعب في جاهليته خوفاً خلع قلبه ، وكان ذلك عندما أهدر الرسول ﷺ دمه ، فذكر ذلك في لاميته الرائعة وقال :[1]

لقد أقومُ مقاماً ، لو يقومُ به ... أرى وأسمعُ ، ما لو يسمعُ الفيلُ
لظلَّ تُرعَدُ من وجدٍ بوادِرُهُ ... إنْ لم يكنْ من رسولِ اللهِ تنويلُ
حتى وضعتُ يميني ، لا أُنازِعُه ... في كفِّ ذي نَقِمَاتٍ قيلُه القيلُ
لذاكَ أهيبُ عندي إذ أُكلِّمُهُ ... وقيل : إنَّكَ منسوبٌ ومسؤولُ
من ضيغمٍ مِنْ ضِراءِ الأُسْدِ مُخْدَرُهُ ... ببَطْنِ عثَّرَ ، غيلٌ دونَهُ غيلُ
يَغْدُو فيَلْحَمُ ضِرغامين ، عيشُهُمَا ... لَحْمٌ من القومِ معفورٌ خراذيلُ
إذا يُساورُ قِرْناً لا يَحِلُّ لَهُ ... أن يتركَ القِرْنَ إلا وهو مفلولُ
منه تَظَلُّ حميرُ الوحشِ ضامزةً ... ولا تُمَشِّي بواديهِ الأراجيلُ
ولا يزالُ بواديه أخو ثقةٍ ... مُطَرَّحُ البَزِّ والدَّرسانِ مأكولُ[2]

---

(١) « ديوان كعب » ٢٠ ـ ٢٣ .

(٢) التنويل العطاء ، والمراد به هنا الأمان والعفو . والبادرة : اللحمة بين المنكب والعنق جمعها بوادر ، =

هذه اللوحة التصويرية للخوف تتلخص في صورتين : **أولاهما** أن الفيل لو كان في محل الشاعر لظلت بوادره ترتعد وترتجف من رسول الله ما لم يكن منه عفو وأمان . والفيل عند العرب هو ذاك المخلوق الضخم الـذي لا يخـاف . . فما بال شاعرنا ؟ إنه معذور في خوفه . **وثانيتهما** : أن رسول الله أخـوف عنده من الأسد الضاري الذي لا يقف أمامه أسد . وقد فصّل في وصف الأسد تفصيلاً سنقف عليه في الفصل الثاني عندما نصل إلى وصف الحيوان .

***

المنية :

يقول زهير :[1]

رأيتُ المنايا خبطَ عَشْوَاءَ ، من تُصِبْ تمته ، ومـن تُخْطِـىء يُعَمَّـرْ فَيهرمِ[2]

إن المنية ناقة لا تبصر تمشي على غير هدى فمن أصابته أماتته ، ومن أخطأته عمر ، ليس هناك ترتيب تسلكه ، لا بالنسبة للأعمار ولا للأموال ولا لأي اعتبار .

***

الوعيد :

قال كعب :[3]

ولمَّـا تفعلـوا إلا وعيـداً كَفَـى بِوَعيدِكُمْ لَهُـمُ قِتَالاَ

= وقيل اللحمة التي عند الثدي . قيله القيل : أي قوله هو الصادق . منسوب : أي مسؤول عن نسبك . الضيغم : الأسد ، وهو مشتق من الضغم وهو العضّ . وضراء : جمع ضار على غير قياس . والمخدر : مكمنه الذي يستتر فيه . وعثر : موضع . الغيل : الشجر الملتف . يلحم : يطعم اللحم . والضرغامان : الشبلان الشديدان . والمعفور : المطروح في التراب . وخراذيل : مقطع . يساور : يواثب . القرن بالكسر : الكفوء في الشجاعة . مفلول : أي مثلول وهي رواية الأصمعي وفي رواية : مجدول أي ملقى على الأرض . ضامزة : ساكنة لا تصوت خوفاً . الأراجيل : الرجالة . الدرسان : ثياب خلقان .

(١) « ديوان زهير » ٢٩ .

(٢) العشواء : مؤنث الأعشى . والناقة العشواء هي الناقة التي بعينها سوء فلا تبصر أمامها .

(٣) « ديوان كعب » ٢٠٦ .

وعيدٌ تَخْدِجُ الأرحامُ منه ... وينقُلُ من أماكنِها الجبالاَ
خفيفُ الغيثِ ، تُعْجِبُ مَنْ رآه ... مَخيلتُه ، ولم تَقْطُر بِلالاَ[1]

أبيات يتهكم فيها كعب على الأوس والخزرج ، إذ قتلوا رجلاً من مزينة . . . إنكم ناس قوالون . . . ماذا فعلتم أكثر من التوعد والصراخ . . . إنها جعجعة لا تنطوي على طحن ، وإن هذا الوعيد يكفي منكم . . . إنه القتال الذي لا تعرفون سواه . . . وعيد مخيف تضع فرقاً منه كل ذات حمل حملها ، ما أشد تأثيره ، إنه وعيد ينقل الجبال من أماكنها .

ثم يصرح الشاعر ـ بعد أن مضى في السخر والتهكم إلى مدى بعيد ـ بما يريد ، حتى يقطع كل احتمال يمكن أن يفهمه فاهم بأنه أراد مدحهم فيقول : إن هذا الوعيد خفيف الغيث . إنه كالمخيلة لا يحمل مطراً ، إذا نظر المرء إليه لأول وهلة أعجبه مرآه وخيل إليه أنه يمطر . . . ولكن سرعان ما تفرقه الرياح . . . إن وعيدكم قول بلا فعل ، وهو مثل السحاب الذي لا يقطر بلالاً .

الحظ السيء العاثر :

قال كعب[2]

لعَمْـرُكَ لولا رحمـةُ اللهِ إنَّني ... لأَمطُـو بجَـدٍّ ما يُريدُ ليرفَعَا
فلـو كنـتُ حوتـاً ركَّضَ المـاءُ فوقَهُ ... ولـو كنـتُ يَرْبُوعـاً سَرَى ثم قَصَّعَا
إذا ما نَتَجْنَـا أربعـاً عامَ كَفْأَةٍ ... بَغَاهـا خَنـاسيرٌ فأهلكَ أربعَا
إذا قلـتُ : إنِّـي في بلادٍ مَضَلَّةٍ ... أَبَـى أنَّ مُمْسانـا ومُصْبَحنـا مَعَا[3]

(١) تخدج : تضع لغير تمام ، المخيلة : أول السحاب إذا نظرت إليه خيل إليك أنه يمطر لا محالة ، ثم تزجيه ريح فتفرقه . البلال : مابل وجه الأرض .
(٢) « ديوان كعب » ص ٢٢٧ .
(٣) مطا يمطو : جدّ في السير وفتح عينيه ، وهذا المعنى هو المناسب هنا . والجد : الحظّ . واليربوع : دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها ، ورجلاه أطول من يديه . وقصع : دخل في القاصعاء وهو حجر يحفره اليربوع فإذا دخل منه سدّ فمه لئلا يدخل عليه حية أو دابة . والكفأة : نتاج عام واحد . والخناسير : الدواهي ، ومفرده خنسير .

إن حظ كعب حظ عاثر، فهو يفتح عينيه بحظ ساقط لا يريد أن يعلو، ويدلّل على ذلك بأربعة افتراضات ، كلها لو حصلت لما لقي فيها إلاّ الإخفـاق والنتيجـة السيئة :

* فلو كان حوتاً لاضطرب الماء فوقه وعرضه للموت .

* ولو كان يربوعاً لمشى ثم دخل القاصعاء ولم يخرج .

* ولو نتج له أربع نوق لأتت الدواهي فأهلكتهن ولم تبق له شيئاً .

* ولو ذهب إلى بلاد مضلة لا يهتدي لها وظنّ أنه تخلص من حظه المشؤوم لوجده معه يأبى أن يتركه في الصباح ولا في المساء .

***

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفصل الثاني
وصف الحيوان

سبق أن ذكرنا في مقدمة البحث منازل شعراء مدرسة عبيد الشعر، وهي منازل يغلب عليها الطابع الصحراوي ، وتتخللها واحات ومرابع تصلح للمرعى ، وتشح فيها المياه ، وهذه البيئة تجعل لبعض الحيوان من القيمة ما ليس لغيره ، فالجمل مثلاً هو أفضل أنواع الحيوان لمعايشة الإنسان في هذه الظروف الصعبة .

والجزيرة العربية بلاد تكثر فيها الحيوانات بنوعيها : الأهلي والوحشي . ففيها أسود ، بل لقد عرف العرب بعض المآسد وحددوا مواقعها ،[1] وفيها الذئاب والنمور والضباع وحمر الوحش وبقره والغزلان والقردة والزرافة وما إلى ذلك ، والشعر العربي في الجاهلية سجل واف لذلك كله ، نجد فيه ذكراً لكثير من أنواع الحيوان والوحوش .[2]

قال القلقشندي[3] يذكر الحجاز : (وأما مواشي الحجاز ففيه الإبل والضأن والمعز بكثرة ، والبقر بقلة ، وبه من الخيل ما يفوق الوصف حسنه ، ويعجز البرق

---

(١) منها مأسدة عثّر التي ذكرها كعب بن زهير ، ومنها مأسدة بيشة .
(٢) انظر في « المفضليات » وصف الضبع لمتمم بن نويرة ص ٥٢ ووصف النعام للمخبل السعدى ص ١١٥ ووصف الذئب للمرقش الأكبر ص ٢٢٦ . وفي « الأصمعيات » وصف الأسد لأبي الفضل الكناني ص ٧٥ وحمار الوحش ص ١٧ وانظر وصف الظبية للأعشى في « ديوانه » ص ٢٥٩ .
(٣) « صبح الأعشى » ٤ / ٢٤٨ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إدراكه . وأما وحوشه ففيه الغزلان وحمر الوحش والذئاب والضباع والثعالب والأرانب وغيرها . وأما طيوره ففيه الحمام والدجاج والحدأة والرخم) .

وقال يذكر اليمامة والبحرين :[1] (أما حيوانه فبه من الحيوان الخيل العربية الفائقة والبغال الجيدة للركوب والحمل ، والحمر والإبل والبقر والغنم ، ومن الطير الدجاج والأوز والحمام ، وفيها من الوحوش الزرافة والأسد والغزلان والقردة وغير ذلك) .

والحيوان ظهر الإنسان وخادمه وغذاؤه وأنيسه ، ونجد في الشعر الجاهلي قصة الصلة المملؤة بالود بينهما ، ومن ذلك هذا الحديث الحلو الممتع الذي حكاه لنا عنترة في معلقته عن حصانه[2] ومن ذلك حديث الحطيئة عن ناقته التي شرعت تشتكي ما تلاقيه من ألوان المسير التي يحملها عليها فيجيبها قائلاً : لا تشتكي واذهبي إلى الأعور فهو رحب الفناء ، حرّ النوال . . فاستجابت إلى مراده ، وانطلقت تقطع الأرض حتى تصل إلى هذا الممدوح . . إنه حديث يدل على تعاطف وانسجام مع الحيوان . يقول :[3]

شكتِ العنتريسُ نَصِّي وإدْلا ... جِي على ظهرِها وشدُّ الحبالِ
لا تَشكِّيْ إليَّ ، وانتجعِي الأعـ ... ـوَرَ رَحْبَ الفِنَاءِ حرَّ النوالِ
فاستخفتْ منايَ ذِعِيْلَةُ العَدْ ... وةِ غِبَّ السُّرَى مَرُوحَ الكَلاَلِ[4]

ومن ذلك قول ضابىء بن الحارث البرجمي[5] عن فرسه الذي سوّاه بنفسه :

---

(١) « صبح الأعشى » ٥ / ١٦ .
(٢) انظرها في « المعلقات العشر » صفحة ١٣٢ . وهي مشهورة .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٢٦٠ .
(٤) العنتريس : الناقة الشديدة ، والنص : أرفق السير وأشده . الإدلاج : السير في أول الليل وفي آخره . حرّ النوال : كريم العطاء . والأعور : هوالحارث بن عبد يغوث . استخفت مناي : ذهبت بي إلى مناي . الذعلبة : السريعة . مروح : نشيطة ، أي كلالها نشاط .
(٥) « طبقات فحول الشعراء » ١٤٤ وفيها خبر الشاعر مفصلاً ، و « الكتاب » لسيبويه ١ / ٣٨ وروايته : « وقيارا » وكذا أورده المبرد في أبيات في « الكامل » ١ / ١٨٨ . وقد أوردت كتب البلاغة البيت في باب حذف المسند .

فمـــن يكُ أمســـى بالمدينـــةِ رَحْلُهُ فإنـــي ـ وقيارٌ ـ بهـــا لغريبُ

بل إننا لنجد في الشعر العربي تجاوباً بين الإنسان والحيوان الضاري ومن ذلك أبيات الفرزدق التي يتحدث فيها عن ذئب نزل به فأضافه .(١)

والحيوان الأهلي نعمة جليلة منَّ الله بها على الإنسان ، وقد ذكر ذلك القرآن ﴿ والأنْعَامَ خَلَقَهَا ، لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تَأْكلونَ . ولَكُم فيها جمالٌ حينَ تُريحونَ وحينَ تَسْرَحُونَ . وتحمِلُ أثقالَكُمْ إلى بلدٍ لم تكونُوا بالغيهِ إلا بشقِّ الأنفسِ إنَّ ربَّكُم لرؤوفٌ رحيمٌ . والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً ويخلقُ ما لا تعلمونَ ﴾ النحل ٥ ـ ٨ .

ولدى النظر في وصف الحيوان عند عبيد الشعر وجدت أن هذا الوصف عندهم نوعان :

ـ الأول مقصود لذاته ، كما نرى في وصف الناقة .

ـ والثاني مرتبط بموصوف آخر ، جاء به الشاعر تمثيلاً له ، كما نرى في وصف حمار الوحش الذي تشبه الناقة به .

ويبدو أن وجود هذين النوعين في الشعر الوصفي ليس خاصاً في شعراء مدرستنا بل هو عام في الشعر العربي كله .

***

وسأعرض في هذا الفصل إلى وصفهم للحيوان الأهلي والمتوحش وإلى الطيور ، سأعرض إلى وصف الناقة ، وثور الوحش وحمار الوحش والخيل والأسد والذئب والنعامة والقطا والكلاب والغراب والبازي .

***

(١) « الكامل » للمبرد ١ / ٢١٦ .

وصف الناقة

ليس وصف الناقة والإكثار منه خاصة لشعراء مدرسة عبيد الشعر بل إن شعراء العرب في الجاهلية عنوا بوصفها ، وجعلوا هذا الوصف حلقة لا بدّ منها في القصيدة العربية ، يقول الدكتور شوقي ضيف : (. . . إذ نراها تبتدىء عادة بوصف الأطلال وبكاء الدمن ، ثم تنتقل إلى وصف رحلات الشاعر في الصحراء ، وحينئذٍ يصف ناقته التي تملأ حسّه ونفسه وصفا دقيقاً فيه حذق ومهارة . . .) .[1]

والناقة شيء ثمين في حياة العربي ، وهي عنده من أعظم المخلوقات التي يتعامل معها ، لما تقدم إليه من خدمة وخير ، فهي تحمله ومتاعه إلى بلد بعيد وهي تصبر على الظمأ والحر والتعب ، وهي ذلول لا تعصيه في رغبة ، سخية معطاء تجود عليه بالوبر واللبن واللحم ، وهي أنسه في الفلوات يحدو لها فتتجاوب معه . ولحكمة بالغة لفت الله أنظار العرب إلى التأمل بالإبل كيف خلقت ﴿ أَفَلا يَنْظُرونَ إلى الإبلِ كيفَ خُلِقَتْ ﴾ الغاشية ١٧ .

وقد وصف شعراؤنا الناقة وصفاً تفصيلياً ، فعرضوا لخلقها وصفاتها فوصفوا أعضاءها ووصفوا سيرها وصبرها . . . وما إلى ذلك .

وصف هؤلاء الشعراء الناقة كما وصفها معاصروهم ، وسلكوا إلى ذلك سبلاً مختلفة :

ـ فمنها أن يتحدث أحدهم عن أسفاره فيذكر خلال ذلك ناقته ويصفها .

ـ ومنها أن يتعرضوا إلى وصفها في أثناء حديثهم عن ارتحال الظعائن .

---

(١) « الفن ومذاهبه » الطبعة السابعة صفحة ١٨ .

ـ ومنها أن يتخذوا وصف الناقة وسيلة للترويح عن أنفسهم ، وللتخفيف عنها مما يثور فيها من الأحزان ، لاسيما عندما يرون الأطلال، فتحرك رؤيتها في نفوسهم ذكريات تعقبها حسرة وغم وألم ، فيركب أحدهم الناقة . . . ويمضي يصف ناقته .

ـ ومنها أن يصف الطريق أو يذكره ثم يعقب ذلك بوصف الناقة .

***

وقد وجدت في وصف الناقة عند أوس أنه يسرف في إيراد الغريب أكثر مما يفعل زملاؤه الآخرون .

ووجدت في وصف الناقة عند زهير أنه قد يصفها في القصيدة الواحدة مرتين ، كما في القصيدة الواردة في الديوان من صفحة ٣٥٠ ـ إلى ٣٥٧ ، فقد فصل بين الوصفين بغزل وفخر ثم انتقل إلى مدح سنان .

ووجدت لكعب عناية خاصة بوصف الناقة لا تقل عن عناية أبيه بذلك ، ومن هنا وجدنا عنده إشارة إلى ما نجده عند بعض شعراء الجاهلية من ذكر لنوع من النوق هو البلية .

وأود أن أفصل ما سبق أن ألمحت به آنفاً من أن هؤلاء الشعراء وغيرهم من شعراء الجاهلية كانوا إذا وصفوا الناقة شبهوها في سرعتها بحمار الوحش أو بقره أو بالنعامة أو بالقطاة ويفصلون في ذكر المشبه تفصيلاً يكاد ينسيهم موضوعهم الأصلي .

***

وسيكون كلامي عن وصف الناقة في النقاط الآتية : ـ

١ ـ أنواع النوق التي عني عبيد الشعر بوصفها .

٢ ـ أوصافها التفصيلية من حيث مظهرها ، فأورد أوصافهم لأعضائها .

٣ ـ أوصافها التفصيلية من حيث خصائصها ، فأورد أوصافهم لسرعتها وصبرها وما إلى ذلك .

***

أولاً : أنواع النوق التي وصفوها :

وصفوا أنواعاً ثلاثة من النوق، وأشار أحدهم إلى نوع رابع وهو الناقة البلية، والأنواع الثلاثة هي : الناقة المركوبة ، والناقة التي يسقى عليها ، والناقة الذبيحة التي تقدم للضيفان .

١ ـ أما الناقة المركوبة التي تسعف في الانتقال ، وتفيد في الحروب كما قال زهير :[١]

منهـا إذا احتضر الخُطُـوبُ مُعَوَّلٌ وقِـرَىً لحاضـرةِ الهُمُـومِ ومَهْرَبُ[٢]

فهي التي ستكون موضوع هذا الفصل ، والحديث عنها واسع الجوانب ، متعدد النواحي ، وستجد تفصيله في ثنايا هذا الفصل .

٢ ـ وأما الناقة التي يسقى عليها فوصفها شيء مهم ، لا من الناحية الأدبية فحسب ، وإنما من الناحية الاجتماعية والحضارية ، حيث يقفنا الوصف على أن الناقة كان يستقى عليها الماء من الدواليب، فهي أبداً تسير وخلفها سائق يحدو ويهدد بالضرب ، وهناك رجل قابل يستقبل الدلو فيأخذها ويصب ما فيها في الحوض ، وهو يتغنى عند فعله هذا ، فتطرب الناقة وتسرع .

إذن نحن ههنا في جو زراعي تكثر فيه المياه وتقوم فيه الناقة بسقي الجنة الواسعة. يقول زهير:[٣]

كأن عينـيَّ في غَرْبـيْ مُقتَّلةٍ من النواضـحِ تَسقـي جنـةً سُحُقَا
تَمطـو الرِّشَـاءَ وتُجـري في ثنايتهَا مـن المَحَالـةِ ثقبـاً رائـداً قَلِقَا
لهـا أداةٌ وأعـوانٌ غدوْنَ لَهَا قِتْـبٌ وغَـرْبٌ إذا ما أُفـرِغَ انسحقَا
وخَلْفَهـا سائـقٌ يَحـدو إذا خَشِيتْ منـه العـذابَ تُمـدُّ الصُّلْـبَ والعُنُقَا

(١) « ديوان زهير » ٣٧٠ .
(٢) المعول : التعويل والاعتماد ، يجعل ناقته قرى للهموم فيهرب بسببها من مواجهة هذه الهموم .
(٣) « ديوان زهير » ٣٧ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقابـلٌ يتغنَّـى ، كُلَّمـا قدَرتْ على العَرَاقـي يداهُ قائمـاً دفَقا[1]

يقول : إنها ناقة مذللة بكثرة العمل ، يستقى عليها . . . وهي تسقي لجنة واسعة متباعدة الأطراف ، ثم وصف لنا الحركة التي تظهر من هذه الناقة ، وهي أنها تمد الحبل ، ويترتب على هذه الحركة تحرك ثقب من البكرة يذهب ويجيء وهو قلق باستمرار ، ثم ذكر لنا أن لهذه الناقة أداة وأعواناً . وتحدث كيف تتم عملية السقي ، وذكر أن خلف الناقة سائقاً يحدوها ومعه السوط يلوح لها به الفينة بعد الفينة ، وهي إذا خشيت الضرب أسرعُ في المسير .

***

٣ ـ وأما الناقة الذبيحة فإن أهم ما ينبغي أن توصف به أن تكون نفيسة عند أهلها سمينة ذات لحم كثير . . . وهذا ما نراه عند الحطيئة الذي ذكر ممدوحه فقال : إنه ينحر الناقة النفيسة من الإبل ويتخير منها ما ابيضت مشافرها وتقدمت سنها ، فيكون هذا أدعى لسمنها ، وكذلك فإنه يتخير الناقة التي كانت كثيرة الأكل ، وقد عبّر عن كثرة أكلها بقوله إنها طويلة العشاء يستمر عشاؤها إلى السحر . وهكذا فإنه ذكر سببين يجعلان الناقة سمينة : تقدم سنها ، وكثرةأكلها . وجاء بهذه الصورة المشتقة من البيئة فقال : إنها إذا مشت هزت الأرض هزاً وكان لمشيها وقع يخيف الأفاعي التي تنحاز إلى ملجأ لتدفع عن نفسها الموت عندما تحسّ بقدوم هذه الناقة . قال الحطيئة :[2]

---

(١) المقتلة : الناقة المذللة بكثرة العمل . النواضح : جمع ناضح وناضحة وهو البعير يستقى عليه ، الجنة السحق : الجنة المتباعدة الأقطار والنواحي . تمطو الرشاء : تمد الحبل . الثناية : الحبل الذي أوثق أحد طرفيه بقبتها والآخر في الدلو . المحالة : البكرة . الرائد : الذي يجيء ويذهب . القلق : الذي لا يثبت . يقول : تمد هذه الناقة الحبل الذي يستقى به فتجري من البكرة ثقباً رائداً . القتب : قتب السانية . الغرب : الدلو . انسحق : انصب ما فيه . العذاب : الضرب . تمد الصلب والعنق : أي لتنجو منه .
القابل : الرجل الذي يستقبل الدلو فيأخذها ويصب ما فيها وهو يتغنى عند فعله ذلك فتطرب الناقة وتسرع . العراقي : الخشبتان كالصليب على الدلو . ودفق الماء : صبه في الحوض .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٧٠ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَدْ يَمْـلأ الجفنـةَ الشِّيزَى فيُترِعُها ... مـن ذاتِ خَيْفَيْنِ معشـاءٍ إلى السَّحرَ
من كل شهبـاءَ قد شابـتْ مشافِرُهَا ... تنحازُ مِنْ حِسِّها الأفعى إلـى الوَزَرِ[1]

***

٤ ـ أما الناقة الرابعة التي أشار إليها أحدهم ، وهو كعـب ، فهـي التـي عرفـت بالبلية ، وما ذكرها إلا على أنها مشبه به .

والبلية هي الناقة التي تعقل على قبـر صاحبهـا ، ولا تعلف ولا تسقـى حتـى تموت ، ويعكس رأسها إلى ذنبها ، وتعقل يداها ورجلاها وهذا من فعل أهل الجاهلية ، كانوا يقولون : إن صاحبها يحشر عليها يوم القيامة . قال كعب :[2]

فطـرتُ برحلـي ، واسـتبـد بمثلِـهِ ... علـى ذاتِ لَوْثٍ كالبليةِ ضامِرِ
تُعـادي مَشَـكَّ الرَّحْـلِ عَنْهَـا وتتقي ... بِمِثْـلِ صفيحِ الجـدولِ المُتَظاهِـرِ[3]

فهو يذكر البلية التي تمنع من الأكل والشرب فتكون ضامـراً أشـد ما يكون الضمور . . يقول : إن ناقته الشديدة ضامر كالبلية ، وفي هذين البيتين إشارة إلى سرعتها حتى إنه طار برحله ، إنها لا تمشي ولكنها تطير . ويتحدث في البيت الثاني عن مجافاتها لمشك الرحل كما تحدث أيضاً عن عنقها الطويل الذي يشبه الجدول .

***

(١) الشيزى : الجفنة السوداء . الخيف : جراب الضرع ، معشاء : طويلة العشاء . الشهبة : البياض المختلط بالسواد . أراد بقوله : شابت مشافرها أنها مسنة وهو أكثر للحمها . الوزر : الملجأ .
(٢) « ديوان كعب » : ١٨٨ .
(٣) ذات لوث : ناقة شديدة . تعادي : تجافي . مشك الرحل : ملتقى الخشبتين في الرحل على الظهر . الصفيح : حجارة طوال يرصف بعضها إلى بعض ويجري الماء عليها . والجدول : مجرى الماء ما بين الحوض إلى الركية .

ثانياً : أوصاف الناقة التفصيلية من حيث مظهرها :

سأورد تحت هذا العنوان أوصافهم لأعضائها وسأبدأ بالرأس وما حوى من عين وأنف ووجنات ثم العنق ، ثم الظهر وفقراته والسنام وموضع الرحل والكاهل ، ثم الأطراف والفروج التي بينها ، ثم وصفهم للجنب وللضرع والذنب والعجز . ثم أورد أوصافهم للونها وعرقها ، ثم أورد التشبيهات بها .

١ ـ رأسها :

وصفوا رأس الناقة بأنه كبير ، وشبهوه بالحجر المستطيل تارة وبالقبر تارة أخرى . يقول الحطيئة :(١)

نَزَائِعُ آفاقِ البلادِ ، يزَينُها براطيلُ في أعناقِها البَتِعَاتِ(٢)

يثني على هذه النوق بأنها مختارة من الآفاق يزينها رؤوس كبيرة ضخمة تشبه الحجارة المستطيلة قد استقرت في أعناق طويلة .

ويقول الحطيئة أيضاً :(٣)

إذا صرَّ يوماً ماضغاه بجرةٍ نَزَتْ هامةٌ بينَ اللهازمِ كالقبرِ(٤)

يقول : إذا صر الماضغان بما يجتر وثبت تلك الهامة بين اللهازم وبدت كالقبر ، إذن تشبيه رأسه بالقبر إنما جاء خلال عرضه حركة تقوم بها الناقة .

***

(١) « ديوان الحطيئة » ٣٣٣ .
(٢) النزائع : التي أخذت من أيدي أصحابها . البتعات : الطوال . آفاق البلاد : نواحيها . البرطيل : الحجر المستطيل .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٦٦ .
(٤) صر : صوت . الجرة : ما أخرج من العلف من كرشه إلى فيه . نزت : وثبت ، اللهزمتان : أصل الحنكين وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه والنسابة : أمن هامتها أو لهازمها ؟ أي من أشرافها أنت أم من أوساطها ؟ فاستعاره لوسط النسب والقبيلة . والهامة الرأس .

٢ ـ عيناها :

وصفوا عينها بشدة الإبصار ، وشبهوها بعين المها وبالمرآة ، وشبهوها بالبئر العميقة لشدة ما عانت من متابعة السرى . . .

قال زهير :[١]

تُراقِبُ المُحْصَدَ المُمَرَّ إذا هاجِرةٌ لم تَقِلْ جنادِبُها
بمقلةٍ ، لا تُغَرُّ ، صادقةٍ يَطْحَرُ عنها القَذَاةَ حاجِبُها[٢]

يقول : إن هذه الناقة ـ إذا اشتد التهاب الهاجرة في القيظ حتى غدت الجنادب التي عاشت في الصحراء وألفت جوها غير قادرة على القيلولة ـ تراقب السوط بعين شديدة الإبصار صادقة الرؤية ، سريعة الانتباه والالتقاط لا تخطىء في رؤية الأشياء ، ولا يأتيها شيء على حين غرة . ولها حاجب عظيم يدفع عن هذه المقلة القذى . وللعين مع السوط قصة ، فإنهم ليذكرون من علامات نباهتها مراقبتها للسوط وقدرتها على اتقائه كلما هم صاحبه بتحريكه ، فلذلك دلالة على قوة بصرها . كما نجد للهاجرة علاقة بقوة الإبصار ، ففي هذا الوقت الصعب الشديد الذي يصيب الجسم فيه الاسترخاء والعين فيه العشى لما تعاني من الوهج ، ومقاساة السموم ونفحات الحموم . . في هذا الوقت الذي لا تكاد العين تتفتح يكون بصر هذه الناقة على أشده .

وقال زهير أيضاً :[٣]

وكأن أَعْيُنَهنَّ من طولِ السُّرَى قُلُبٌ نواكزُ ، ماؤُهنَّ مُنَضَّبُ[٤]

(١) « ديوان زهير » ٢٦٦ .
(٢) المحصد : السوط الشديد الفتل . الممر : الجيد الفتل . لم تقل : من القيلولة . الهاجرة : منتصف النهار في الصيف . والجندب : راجل الجراد ليس له جناحان يطير بهما . المقلة : العين . لا تغر : لا يأتيها شيء على حين غرة . أو لا تخطىء في رؤية الأشياء . يطحر : يدفع . القذى في العين : ما يقع فيها من تبنة ونحوها .
(٣) « ديوان زهير » ٣٧١ .
(٤) القلب : جمع قليب وهو البئر . نواكز : قليلة الماء . منضب : بعيد قليل الماء شبه غؤور أعين هذه الإبل من سير الليل بآبار .

يقول : كأن أعين هذه النوق ـ من طول السرى ـ آبار . وقد شبهها بها لما اعتراها من غؤور بسبب ما عانت من المتاعب والمشاق في مواصلة السرى ، وهذه الآبار عميقة بعيدة الغور ، قليلة الماء . وفي ذلك تصوير لمدى الإعياء الذي انتهت إليه هذه النوق ، والحق أن العين ينعكس عليها كثير من الحالات الجسمية والنفسية في الحيوان والإنسان .

ويعمد كعب وهو أكثرهم وصفاً لعينها إلى هذه المعاني ويفيد منها ويزيد ومن ذلك هذا النّص :[1]

تستشرفُ الأشباحَ ، وهي مشيحةٌ ... ببصيرةٍ وحشيةِ الانسانِ
خوصاءَ ، صافيةٍ ، تجودُ بمائِها ... وَسْطَ النهارِ كنطفةِ الحَرَّانِ
تنفي الظهيرةَ والغبارَ بحاجبٍ ... كالكهفِ ، صِينتْ دونَهُ بِصيانِ
زهراءُ مُقْلَتُها ، تردَّد فَوْقَها ... عند المعرّس ، مُدْلِجُ القِرْدَانِ[2]

يقول : إنها حادة البصر ، عظيمة المحاذرة ، إذا بدا لها شبح رفعت رأسها تتأمله حذراً بعين بصيرة ، غائرة ، صافية ، بعين تجود بمائها وسط النهار حيث تشح الحياة بالماء ، ثم يصف حاجب العين فيقرر أنه ذو نفع عظيم ، فهو يدفع أذى حر الظهيرة وأذى الغبار، وأنه كالكهف الذي يقي من في داخله من المطر والحر والبرد، إن العين صينت دونه بصيان .

ويقول كعب في وصف العين :[3]

---

(١) « ديوان كعب » ١١٨ ـ ١١٩ .
(٢) تستشرف : تتأمل وترفع رأسها إذا بدا لها شخص ، وذلك لذكائها ومحاذرتها . المشيحة : الجادة المحاذرة . بصيرة : أي عين بصيرة . وحشية الإنسان : حادة البصر . الخوصاء : الغائرة العين . تجود بمائها : أي تهمل عينها في وسط النهار للتعب . النطفة : تكون للقليل والكثير . والحران : العطشان . يريد كما صب عطشان ماء ليشربه عند عوز الماء في الفلاة التي لا ماء فيها . تنفي الظهيرة والغبار : تدفع أذاهما بحاجب فعينها مصونة . الزهراء (هنا) الصافية . المدلج : ما أدلج من القردان أي سار ليلاً . تردد فوقها : أي لم يثبت لاكتناز لحمها ولكون جسمها أملس ، فلا يقدر القراد على المقام .
(٣) « ديوان كعب » ٤٠ .

وتُـديرُ للخـرقِ البعيـدِ نياطُهُ بَعْـدَ الـكَلالِ وبَعْـدَ نومِ الساري
عينـاً كمـرآةِ الصَّنَّـاعِ تُديرُها بأنامـلِ الـكفينِ كلَّ مُدارِ
لجمـالِ مَحْجِرِهـا ، وتعلـمِ ما الذي تُبْـدي لنظـرةِ زوجِهـا وتُداري[1]

يقول : تدير هذه الناقة للطريق البعيد عينا جميلة صافية لا تتأثر بالسهر ولا بالتعب ، ويشبهها بمرآة المرأة الصناع التي تحرص أن تكون مرآتها صافية لتشاهد فيها جمال محجرها ، ولتعلم ما الذي تخفيه عن نظر زوجها وما الذي تبديه ، ومن أجل ذلك فمرآتها في غاية الصفاء والوضوح .

وفي هذا النص نرى علاقة بين العين والطريق ، فهي الأداة التي تبصر بها معالمه ، وقد ذكروا من صفاتها أنها تعرفه بنفسها . ومما يلاحظ أن الشاعر في هذا النص أكد وصف عين الناقة بالصفاء ، وقال في موضع آخر :[2]

وصـافيةٌ تنفـي الـقَـذاةَ كأنها على الأينِ يَجلوها جِلاءٌ وتُكْحَلُ[3]

ويربط كعب بين العين والطريق الذي يغيب عن الإنسان طرفه ، فيشبه عين الناقة بعين الثور الوحشي الأبيض الذي تأخر عن القطيع ، وهو إذ ذاك أكثر تحديقاً ليلحق بجماعته ، وأكثر نشاطاً وخفة ، وتكون عينها بهذه الدرجة من التيقظ في وقت اشتدت حرارته حتى توقدت كثبان الرمل وما غلظ من الأرض والحجارة . يقول :[4]

ترمـي الغيوبَ بعينـيْ مفـردٍ لَهَقٍ إذا توقَّـدتِ الحُـزَّانُ والميلُ[5]

وقد سبق أن رأينا عند كعب ما يشبه هذا المعنى .

---

(١) الخرق : الطريق الذي انخرق في الفلاة فذهب . نياطه : متعلقة . الكلال : الإعياء . الصناع : المرأة الحاذقة بالعمل . المحجر : ما أحاط بالعين من خارجها .
(٢) « ديوان كعب » ٥٩ .
(٣) الصافية : العين . الأين : التعب . الجلاء : الكحل .
(٤) « ديوان كعب » ١٠ .
(٥) الغيوب : ما غاب عنك من الأرض واختفى . المفرد : الوحيد . اللهق : الأبيض الشديد البياض . يريد ثور الوحش . والحزان : ما غلظ من الأرض واحدها حزين . الميل : جمع ميلاء وهي العقدة الضخمة من الرمل .

ويعمد الحطيئة إلى هذه المعاني التي وردت عند كعب فيكررها . . حتى إنه ليستعير بعض الألفاظ كقوله (ترمي الغيوب) يقول الحطيئة :[1]

وتَرْمي الغيوبَ بماويتينِ أحدثَتا بعد صَقْلٍ صقالاَ

ولا نكاد نرى جديداً عنده .

***

زبد فمها :

يخرج من فمها زبد له رغوة ، وقد يكون ذلك بسبب تعب تعانيه ، أو سرعة تحمل عليها أو غضب يثيرها ، أو ما إلى ذلك . وشبهوه بالقطن المحلوج حيناً ، وشبهوه بالكتان حيناً آخر ، وشبهوه ببيت العنكبوت .

قال أوس بن حجر :[3]

إذا ما رِكابُ القومِ زَيَّل بَيْنَها سُرَى الليلِ منها مستكينٌ وصارفُ
علا رأسَها بعد الهِبابِ وسامحتْ كمحلوجِ قُطْنٍ ترتميهِ النَّوادفُ[4]

يقول : إذا كان السرى وجدنا النوق على نوعين : صامت ومصوت . . . أما ناقته فكانت إذا همت لتقوم علا رأسها ذلك الزبد الذي كأنه قطن محلوج تبعثره النوادف .

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٢١٦ .
(٢) الماوية : المرآة . قال في « التاج » ٩ / ٤١٣ : كأنها نسبت إلى الماء لصفائها حتى كأن الماء يجرى فيها .
(٣) « ديوان أوس » ٦٦ .
(٤) زيل بينها : فرق بينها وميزها . المستكين : الخاضع الصامت لا يصوت . الصارف : ذو الصريف، وهو الهدير ، وإذا أصبحت الناقة صارفاً فالمعنى أنها كلت . أما صريف الفحل فهو من الفحولة . فاعل (علا) الكاف في (كمحلوج) أي أنها إذا همت لتقوم كسا رأسها زبد فمها وكأنه محلوج القطن الذي تبعثره النوادف .

ويشبه الحطيئة هذا الزبد بقطع القطن أو بالكتان فيقول : [1]

وإنْ غَضِبَتْ خِلْتَ بالمشفرينِ سبائخَ قُطْنٍ وزيراً نُسَالا[2]

ويشبهه في موضع آخر ببيت العنكبوت فيقول : [3]

تَرى بين لَحْيَيْها إذا ما تَزَغَّمتْ لُغَاماً كبيتِ العنكبوتِ الممدد[4]

ونجد هنا أن مع هذا الزبد المتصاعد صوتاً .

ويذكر كعب هذا الزبد الذي يطير ويذهب في الهواء عندما يتحرك مشفرها وينصرف إلى تشبيه مشفرها بالجلد المدبوغ فيقول : [5]

تَنْفي اللُّغَامَ بمثلِ السِّبتِ خصَّرهُ حاذٍ يمانٍ إذا ما أرقلت خَفَقَا[6]

وقد فصل في المشبه به فذكر أن هذا الجلد المدبوغ أدقه حذاء يماني .

***

وجناتها :

وصفوها بأنها غليظة الوجنات ، وذلك بالكلمة التي نجدها كثيراً في أشعارهم وهي (وجناء) فمن ذلك قول أوس : [7]

وقد تُلافي بيَ الحاجاتِ ناجيةٌ وجناءُ لاحقةُ الرجلينِ عيسورُ[8]

(١) « ديوان الحطيئة » ٢١٦ .
(٢) سبائخ : قطع . الزير : الكتان . نسالا : ما نسل منه فسقط .
(٣) « ديوان الحطيئة » ١٥٥ .
(٤) تزغم الجمل : ردد رغاءه في لهازمه . اللغام : زبد أفواه الإبل .
(٥) « ديوان كعب » ٢٣٦ .
(٦) اللغام : الزبد . السبت : الجلد المدبوغ . شبه مشفرها بالسبت. خصره: أدقه. حاذ: حذاء . الإرقال : سير سريع . خفق : اضطرب. تنفي: تذهب.
(٧) « ديوان أوس » ٤٠ .
(٨) الوجناء : الناقة الضخمة الوجنتين . لاحقة الرجلين : ضامرة سريعة العدو . عيسور : الناقة التي لم تروض .

وقول زهير : [1]

وانــمِ القتــودَ علــى وجنــاءَ دوسرةٍ يَشْـرَى الجـديلُ إذا ما دأْيُهـا عَرَقَا[2]

وقول كعب : [3]

غلبــاءُ وجنــاءُ عُلْـكومٌ مذكَّرةٌ فــي دفِّهــا سَعَــةٌ قدامَهــا ميلُ[4]

***

مشفراها :

رأينا في وصف زبد فمها أن كعباً [5] شبـه مشفرهـا بالجلـد المدبـوغ وأنـه يضطرب خفقاً عندما تسرع . ويقول الحطيئة : [6]

وتشـربُ بالقعــبِ الصــغيرِ وإن تُقَدْ بِمشْفَرِها يوماً إلى الرحلِ تَنْقَدِ[7]

يقول : هي سهلة الخطم ، ليست بغليظة المشافر، وهي سلسة ذلول إن قيدت بمشفرها انقادت، وما أردت منها من شيء فعلته .

***

منخراها :

وصفوا أنفها بأنه أقنى وكبير وبأنه سائل دائماً ،ووصفه بعضهم بأنه مستوليس مثقوباً . قال طفيل الغنوى : [8]

(١) « ديوان زهير » ٤١ .
(٢) انم القتود : ارفعها . الدوسرة : الضخمة : يشرى : يضطرب . الجديل : زمام من الجلد مضفور . الدأي : فقرات العنق .
(٣) « ديوان كعب » ١٠ .
(٤) الغلباء : الغليظة . الوجناء : عظيمة الوجنتين . علكوم : شديدة . الدف : الجنب .
(٥) « ديوان كعب » ٢٣٧ .
(٦) « ديوان الحطيئة » ١٥٥ .
(٧) لقعب : القدح الصغير .
(٨) ديوان طفيل » ٧٧ .

أسيلِ مشــكٍّ المنخــرينِ كأنَّهُ إذا استقبلتْهُ الـريحُ مُسعـطُ شُبْرُمِ[1]

يقول : إن أنفه أملس مستو ، لي مثقوباً ، وإنه سائل دائماً كأنما قد أسعط شيئاً حاراً كالشبرم .

ووصف كعب أنفها بأنه أقنى فقال : (قنواء)[2] ووصفه في موضع آخر بأنه كبير حتى كأنه صخرة مستطيلة ضخمة فقال :[3]

كأنَّ ما فاتَ عينيهــا ومذبَحَهَا مـن خَطْمِهـا ومـن اللحْيَيْنِ برطيلُ[4]

***

عنقها :

وصفوا عنقها بالطول والصلابة ، وسلكوا للتعبير عن ذلك سبلاً عدة فقد صرحوا حيناً بأنه طويل ، وركبوا الكناية حيناً آخر فقالوا : إنـه يستوعـب الزمـام الطويل ، أو إنه لطولـه يبقـى مضطربـاً ، وشبهـوه حينـاً بجـذع النخـل الـريان المشذب ، وشبهوه حيناً آخر بجدول الماء الطويل . قال زهير :[5]

في مسبطــرٍّ ، تَبَــارَى في أزمتِّها فُتْـلُ المرافــقِ ، في أعناقِهــا قودُ[6]

يقول : هذه النوق المفتولة الأذرع تتبارى في أعنتها في طريق طويل ممتد وهذه النوق في أعناقها طول .

---

(١) أسيل : أملس مستو . ومشك : موضع الشك . يريد ليس بأخزم أي ليس أنفه مثقوباً . أسعطه الدواء : أدخله في أنفه . والشبرم : شجر حار .
(٢) « ديوان كعب » ١٣ .
(٣) « ديوان كعب » ١٢ .
(٤) الخطم : الأنف ، ومنه سمي الخطام لأنه الموضع الذي يقع عليه . اللحيان : العظمان اللذان تنبت عليهما اللحية . البرطيل : الحجر الكبير المستطيل .
(٥) « ديوان زهير » ٢٨٠ .
(٦) المسبطر : الطريق الطويل الممتد . الفتل : جمع أفتل وهو المدمج . والقود : طول العنق .

وقال زهير : [1]

له عُنُـقٌ تُلْـوي بمـا وُصِلـتْ بِهِ ودَفَّـانِ يشتفَّـانِ كلَّ ظِعانِ[2]

يقول : للبعير عنق طويلة ، وقد عبر عن ذلك بقوله إن هذا العنق تذهب بالزمام الطويل أي تستوعبه .

وقال زهير[3] :

شـديدُ مغـارزِ الأضـلاعِ جَلْسَاً عَريضَ الصدرِ ، مُضطربَ الجِرانِ[4]

يقول : إن هذا البعير طويل العنق جداً حتى إنه لطوله يبقى مضطرباً .

وقال كعب : [5]

تَنْجُـو ، وتقطُـرِ ذِفْراهـا علـى عُنُقٍ كالجِـذْعِ شذَّبَ عنـه عاذِقٌ سَعَفَا[6]

شبه كعب عنق ناقته بالجذع في الطول ، وإذا كان مشذباً بدا أكثر طولاً وكرر كعب هذا التشبيه مرة أخرى وأضاف إلى الجذع كلمة (الريان) فزادت التشبيه جمالاً وتوفيقاً فقال : [7]

حرفٍ تَمُـدُّ زِمامَهـا بِعُذافِرٍ كالجِـذْعِ ، شُذِّبَ ليفُـه ، الريّانِ[8]

(١) « ديوان زهير » ٣٦٠ .
(٢) تلوي بما وصلت به : تذهب بالزمام الطويل ، يريد أنها تستوعب الزمام الطويل ، والدف : الجنب . يشتف : يملأ ويستوفي . والظعان : سير تشد به المرأة هودجها .
(٣) « ديوان زهير » ٣٥٢ .
(٤) مغارز الأضلاع : يريد الصلب لأنه موضع غرز هذه الأضلاع . الجلس : الشديد العريض الصدر ، والأصل في الجلس أنه الصخرة شبهه بها ، وكلما عرض صدر البعير كان أضخم له . الجران : باطن العنق . ومضطرب الجران : أي طويل العنق يضطرب لطوله .
(٥) « ديوان كعب » ٨١ .
(٦) تنجو : تسرع . الذفري : الحيد الناتىء من وراء الأذن وهو أول شيء يعرق عند التعب ، وشبه عنقها في طوله بالجذع . شذب : قشر . العاذق : صاحب النخل الذي يهذبها ويقشرها ويقطع ما لا فائدة منه .
(٧) « ديوان كعب » ٢١٧ .
(٨) الحرف : الشديدة الصلبة . العذافر : العنق .

وفي هذا الوصف إشارة إلى حركة الزمام بالعنق ، وإنما شبهه بالجذع الطويل الريان لطوله ولينه وانعطافه .

وقال كعب أيضاً : [1]

وأتلـعَ يُلْـوَى بالجـديلِ كأنَّهُ عسيبٌ سقـاهُ من سُمَيْحَـةَ جدولُ[2]

جمع كعب في هذا البيت المعنيين السابقين ، فعنقها يذهب بالزمام الطـويل ويستوعبه ، وهو لطوله وليونته كأنه جريد نخل كشط خوصه وهو ريان سقاه جدول ماؤه عذب من بئر معروفة بذلك وهي بئر سميحة .

ـ وشبه كعب في قصيدة أخرى عنقها بالجدول لطوله ، وذكر من الجدول الصفيح الذي يرصف ليجرى الماء عليه ، ليدل على صلابته وذلك في قوله : [3]

تعـادِي مَشَـكَّ الرحـلِ عنهـا وتتقي بمثـلِ صفيحِ الجـدولِ المتظاهرِ[4]

ويصف أوس حركة عنقها إذا بركت فيقول : [5]

تُلْقـي الجِـرَانَ وتقلولـي إذا بَرَكَتْ كمـا تَيسَّـرَ للنَّفْـرِ المَهَـا النورُ[6]

يشبه حركتها الشديدة التردد بحركة المها النافرة إذا أتيح لها أن تنفر وتهيم على وجهها .

***

(١) « ديوان كعب » ٥٣ .
(٢) أتلع : عنق طويل . الجديل : الزمام . العسيب : جريد النخل الذي كشط خوصه . سميحة : بئر .
(٣) « ديوان كعب » ١٨٨ .
(٤) تعادي : تجافي . مشك الرحل : ملتقى الخشبتين في الرحل على الظهر . الصفيح : حجارة طوال يرصف بعضها إلى بعض ويجرى الماء عليها . الجدول : مجرى الماء .
(٥) « ديوان أوس » ٤٣ .
(٦) الجران : باطن العنق . تقلولي : تقلق في موضعها وتتجافى عنه وتريغ . النضر : النضار . النور : جمع نوار وهي النافرة .

سنامها وظهرها :

وصفوها بأنها طويلة السنام . . فقالوا : إنها كوماء[1] وتحدثوا عن الرحل عندما وصفوا السنام . فهذا طفيل يأتينا بصورة جميلة في هذا البيت :[2]

وحملتُ كَوْرِي خَلْفَ ناجيةٍ يقتاتُ شحمَ سنامِها الرحلُ[3]

يقول : تتقدم إبلي ناقة سريعة تواصل السير والارتحال ، حتى كأنما الرحل يقتات شحم سنامها ، ويبدو أن هذا الترابط بين السنام والرحل في وصف شعرائنا أمر متداول طبيعي ، فهذا الحطيئة يقول :[4]

إلى عَجُزٍ كالبابِ شُدَّ رِتَاجُهُ ومُسْتَلْبِعٍ في الكورِ في حُبُكٍ سمرِ[5]

يصف الشاعر السنام بأنه ذو طرائق سمر ، وسبب ذلك أن السنام في الكور وكونه فيه جعل طرائق سمراً من لون وبره .

ـ ويقول أوس بن حجر :[6]

أبقى التهجرُ منها بعد كدنتها من المحالةِ ما يَشْفي بهِ الكُورُ[7]

يقول : إن السير في الهاجرة أنحلها حتى غدا الرحل لا يستقر على ظهرها وقد يذكرون معنى يقابل هذا المعنى ، وهو أن رعيها جعل الشحم يبنى عليها سناما ضخماً حتى لم يعد الحزام يحيط بوسطها . قال الحطيئة :[8]

وَرَعَتْ جنوبَ السدرِ حولاً كاملاً والحَزْنَ فهي يزِلُّ عنها الكُورُ

(١) « ديوان الحطيئة » ٤٩ .
(٢) « ديوان الطفيل » ١٠٨ .
(٣) الكور : الجماعة الكثيرة من الإبل (وأما بالضم فمعناها الرحل) . والناجية : الناقة السريعة .
(٤) « ديوان الحطيئة » ٣٦٦ .
(٥) المستلع : السنام المتقدم . الكور : الرحل . الحبك : الطرائق .
(٦) « ديوان أوس » ٤٢ .
(٧) التهجر : السير في الهاجرة . الكدنة : الشحم . المحالة : الظهر . الكور : الرحل . يشفي : يرتفع في اعوجاج .
(٨) « ديوان الحطيئة » ٣٧٦ .

فَبَنَى عليها النِّيُّ فهيَ جُلالَةٌ ما إن يحيطُ بجوزِها التصديرُ[1]

- وكذلك فإن زهيراً يقول :[2]

أُجُدٌ سَرَى فيها وظَاهرنَيَّها مرعى لها أُنِقٌ بفيدٍ معشبِ[3]

ومما يتصل بالسنام الحديث عن ظهر الناقة ، وهو موضع الرحل . . ولهذا الرحل آثار وقد مرّ معنا آنفاً بعض الكلام على الرحل لصلته الوثيقة بالسنام وسيكون هنا شيء من التفصيل لهذا الموضوع ، فلقد ذكر أوس أن ظهرها واسع لأن جسمها ضخم عظيم فقال :[4]

جُمَالِيَّةٍ ، للرحلِ فيها مقدَّمٌ أمونٍ ، وملقًى للزميلِ ورادفُ[5]

- ويصفون فقراته بأن بعضها مجتمع إلى بعض ، يقول زهير :[6]

بآرزةِ الفقارة لم يَخُنْهَا قِطافٌ في الركابِ ولا خِلاءُ[7]

- وحديثهم عن الرحل طويل ولا يذكر غالباً إلا مقروناً بالظهر ، فيقرر كعب مثلاً بأن فقرات ظهر البعير مرتفعة وكذلك ضلوعه ، وأن لهذا الرحل أطيطا فيقول :[8]

تظلُّ نسوعُ الرحلِ بَعْدَ كَلالِها لهنَّ أطيطٌ بين جوزٍ وكاهلِ
رفيعِ المحالِ والضلوعِ ، نمتْ بهِ قوائمُ عوجٌ ، ناشزاتُ الخصائلِ[9]

---

(١) السدر : موضع . والحزن : موضع من أرض بني أسد . والني : الشحم والسنام . والجوز : الوسط . والتصدير : بمزلة الحزام للسرج .
(٢) « ديوان زهير » ٣٧٠ .
(٣) الأجد : الناقة الشديدة الظهر . وظاهر : أكثر وأظهر . الأنق : المعجب . وفيد : اسم موضع .
(٤) « ديوان أوس » ٦٦ .
(٥) الجمالية : الناقة الوثيقة التي تشبه الجمل في خلقتها وشدتها . الزميل : الرديف . الرادف : التابع .
(٦) « ديوان زهير » ٦٣ .
(٧) الآرزة : الدانية بعضها من بعض ، وذاك أشد لها . الفقارة : الفقرة . القطاف : مقاربة الخطو وضيقه . الركاب : الابل . الخلاء : بروك في عناد .
(٨) « ديوان كعب » ٩٥ .
(٩) الجوز : الوسط . الكاهل : ملتقى فروع الأكتاف . الأطيط : الصرير . المحال : فقار الظهر الواحدة

ـ ويذكر زهير أن موضع الرحل وأثار النسوع بادية في جسمها وفي جنبها خاصة فلقد بدت بيضاء في سواد فيقول :[1]

كبنيانةِ القَرَئيِّ ، موضع رحلها ... وآثار نسعيها من الدف أبلق[2]

وقد يشبهون هذه الآثار بالطرق الواضحة في الفلاة أو بآثار الحبال في البئر[3] ويقول كعب :إن طول السفر قد برى لحمها وأثر في ظهرها حتى أخذ ما عليه من لحم فبدت سلسلة ظهرها كأنها سيف تقادم جفنه أو حرف عود جاف معطوف رفقت به قينية . يقول :[4]

وكأنَّ موضع رحلها من صلبها ... سيفٌ تَقادَمَ جفنُه معجوفُ
أو حرفُ حِنْوٍ من غبيطِ ذابلٍ ... رَفَقتْ به قينيَّةٌ معطوفُ[5]

***

جنبها :

وصفوا جنبها عندما كانوا يذكرون الرحل أو يذكرون القوائم وسنورد فيما يأتي وصف كعب له :[6]

منفجةُ الدَّفَّينِ طُيِّنَ لحمُها ... كما طِينَ بالضاحي من اللبْنِ مِجْدَلُ
ودفٌ لها مثلُ الصفاةِ ، ومرفقٌ ... عن الزَّوْرِ مفتولُ المُشاشةِ أفتلُ[7]

محالة . نمت به : ارتفعت به . العوج : الطوال . ناشزات : مرتفعات . الخصائل : جمع خصيلة وهي العضلة .

(١) « ديوان زهير » ٢٥٧ .

(٢) القرئي : نسبة إلى القرية . النسع : سير تشد به الرحال . الأبلق : الأبيض في سواد . الدف : الجنب .

(٣) انظر ديوان زهير ٣٣١ .

(٤) « ديوان كعب » ١١٦ .

(٥) المعجوف : المهزول اللطيف الناحل . الحنو : العود . الغبيط : شبيه بالقتب على ظهر البعير والرحل من فوقه . الذابل : الجاف . المعطوف : المنحنى . القينية : نسبها إلى بنى القين .

(٦) « ديوان كعب » ٥٨ .

(٧) الانتفاج : خروج الخواصر . الدف : الجنب . المجدل : القصر . الضاحي : الظاهر للشمس . الصفاة : الصخرة الملساء . الزور : الصدر .

يقول : إن جنبيها بارزان خارجان ، وقد كسا لحمها جنبيها كما طين المجدل بالضاحي من اللبن ، وهي صورة تنبىء عن اكتناز لحم الناقة وضخامتها ثم شبه جنبها بالصفاة في الملاسة والاكتناز ، وجعل مرفقها مفتول المشاشة لئلا يمس زورها فتصيبها بعض الأمراض التي تقرح الجلد .

***

كاهلها :

وصفوا كاهلها بالسمن ، وشبهوه بكثيب الرمل الأحدب . يقول زهير :[1]

حرف عذافرة تجد براكب وكأن حاركها كثيب أحدب[2]

***

أطرافها وفروجها :

وصف قوائم الناقة مهم جداً لأنها أهم شيء في الناقة ولأنها أداة السرعة والانتقال . وقد بالغ هؤلاء الشعراء في ذكرها ووصفوها بالطول والصلابة وبأنها مفتولة وشبهوها بالدعائم . يقول أوس :[3]

يشيعها في كل هضب ورملة قوائم عوج مجمرات مقاذف[4]

يقول : يعينها على المشي في الهضاب والرمل قوائم طوال صلبة شديدة تعودت على السير فصلبت أخفافها ، واشتدت ، وكأن هذه القوائم في حركتها مقاذف السفينة ، وذلك يدل على قوتها وسرعتها .

---

(١) « ديوان زهير » ٣٦٩

(٢) الحرف : النجيبة الصلبة الشديدة القوية . العذافرة : العظيمة الشديدة . الحارك : أعلى الكاهل . الكثيب : جبيل من الرمل . أحدب : منعطف من طوله .

(٣) « ديوان أوس » ٦٤ .

(٤) يشيعها : يعينها على المشي . مجمرات : أي قد صلبت أخفافها واشتدت واجتمعت . مقاذف : أي سريعة ، كأنها في حركتها مقاذف السفينة .

وقد مرّ معنا أن زهيراً وابنه وصفا المرفق بأنه أفتل ،[1] وذلك أدعى لقوتها .

وذكر كعب قوائمها فقال :[2]

زجـرتُ عليه حرّةَ الليطِ ، رفعَّتْ ... علـى ربـذٍ ، كـأنهـنَّ دعائمُ
يظـلُّ حصـى المعـزاءِ بينَ فُروجِها ... إذا ما ارتمـتْ ، شزراً بهـنَّ القوائمُ
فضاضـاً كمـا تنـزو دراهـمُ تاجرٍ ... يقمّصهـا فوقَ البنـانِ الأباهمُ[3]

يقـول : إن هذه الناقـة الكريمـة انطلقـت مسرعـة على قوائـم خفيفـة على ضخامتها ، هذه القوائم تشبه دعائم الخشب . . . إذا ارتمت قوائمها يظل حصى المعزاء بين رجليها متناثراً ذات اليمين وذات الشمال من شدة سيرها ونشاطها كأنها دراهم تاجر ينقدها لتطن فترتفع .

ووصف في نص آخر يديها ، وخصهما بالسرعة ، لأنها إذا أسرعت نقلهما فلا بدّ لها من إتباعهما بالرجلين ، يقول كعب :[4]

غيرَ ذي صاحـبٍ زجـرتُ عليهِ ... حـرةً رسـلـةَ اليـدينِ سَعورَا[5]

ووصف كعب في نص آخر قوائمها بالطول ، وأضاف أن بين رجليها خلاء وفراغاً كأنه الخليف ، يقول :[6]

---

(١) انظر « ديوان زهير « ٢٨٠ و « ديوان كعب » ٥٢ .
(٢) « ديوان كعب » ١٣٨ .
(٣) الحرة : العتيقة الكريمة . الليط : الجلد . رفعت : بالغت في السير . الربـذ : الخفيفـة (يعني القوائم) . الدعائم : أساطين من خشب . المعزاء : المكان الغليظ فيه حصى صغار . فروجها : هو الخواء الذي بين قوائمها . ارتمت : يعني القوائم . وشزرا : أراد أنها تنشر الحصى بأخفافها يميناً وشمالاً من شدة سيرها ونشاطها . والفضاض : (بالضم والكسر) ما تفرّق من الشيء عند كسره . يقمصها : ينزيها ويرفعها وذلك إذا نقد الصراف الدرهم فطن وارتفع . الأباهم : جمع إبهام .
(٤) « ديوان كعب » ١٥٩ .
(٥) الحرة : الكريمة . زجر الناقة : حثها وحملها على السير . ورسلة (بفتح الراء وكسرها) الناقة السريعة . والسعور : السريعة ، كأنه استعار لها من تسعّر النار .
(٦) « ديوان كعب » ١١٧ .

فإذا رفعتُ لها اليمينَ تزاورتْ عن فَرْجِ عُوجٍ بينهن خليفُ[1]

ووصفوا هذه القوائم بأنها ممتلئة لحماً ، مفتولة مكتنزة تباعد ذراعاها من صدرها ،[2] حتى إن القراد ليزلق عندما يريد أن يصعد عليها ، قال كعب :[3]

زهراءُ مقلتُها ، تردد فوقَها عند المعرّس ، مدلجُ القردانِ
أعيتْ مذارعُها عليه ، كأنّما تنمي أكارِعُه على صفوانِ[4]

ووصف الحطيئة قوائمها بالطول والصلابة فقال :[5]

تَخْدي على يَسَراتٍ في فقارتها كأنهنَّ صُقُوبَ العَرْعَرِ السُّحُقُ[6]

يشبه هذه القوائم السهلة السير بأعمدة الخيمة الطويلة المتخذة من العرعر الطويل ، ويلاحظ أن قوله (تخدي على يسرات) مشترك بينه وبين كعب في قوله :[7]

تَخْدي على يَسَراتٍ وهي لاحقةٌ ذوابلُ ، وقعُهنَّ الأرضَ تحليلُ

وشبه الحطيئة قوائم البعير في نص آخر بسواري القصر فقال :[8]

وإن خافَ من وقعِ المحرمِ ينتحي على عَضُدٍ ريَّا كساريةِ القصرِ

---

(١) إذا رفعت لها : أي بالسوط . الفرج : ما بين رجليها . تزاورت : تمايلت العوج : القوائم الطويلة . الخليف : طريق في الجبل .
(٢) انظر « ديوان كعب » ٩٤ .
(٣) « ديوان كعب » ٢١٧ .
(٤) المدلج : ما أدلج من القردان ، أي سار ليلاً . تردد فوقها : أي لم يثبت لاكتناز لحمها ولكون جسمها أملس فلا يقدر القراد على المقام . والمذرع : ما بين ركبتها إلى إبطها . الصفوان : الحجر الأملس . الأكارع : جمع كراع وهو من البقر والغنم مستدق الساق العاري من اللحم .
(٥) « ديوان الحطيئة » ٣٨٤ .
(٦) الخدي : ضرب من المشي . اليسرات : القوائم السهلة السير . الصقب : عمود طويل من أعمدة الخيمة . العرعر : شجر .
(٧) انظر « ديوان كعب » ١٥ .
(٨) « ديوان الحطيئة » ٣٦٦ .

تلتـــهُ ، فلـــم تبطـــىءْ بِهِ من ورائِهِ معقربـــةٌ روحـــاءُ ريثـــةُ الفترِ[1]

يقول : إن عضد البعير ريا طويل متين كسارية القصر ، وتلت هذا العضد رجل معروقة قوية مجتمعة الخلاق واسعة الخطو ، قلما تستريح . .

وقال الحطيئة أيضاً : [2]

إذا بركتْ أوفـــتْ علـــى ثفناتِها على قَصَـــبٍ مثـــلِ اليراعِ المقصّدِ
كأن هُوِيَّ الـــريحِ بين فروجِها تجـــاوُبُ آظـــارٍ على رُبَـــعٍ ردي
تَرَامَى يَدَاهـــا بالحَصَى خَلْفَ رجلِها وتَرمـــي به الرجـــلانِ دابـــرةَ اليدِ[3]

يصف قوائمها في هذا النص بأنها مستقيمة ناعمة ، ويسبهها بالقصب الناعم وقد سبق أن مرّ معنا تشبيههم لها بالصفوان الأملس ، وفي كل من التشبيهين من التوفيق ما ليس في الآخر ، ففي تشبيهها بالقصب مراعاة لشكل الأرجل ، وفي تشبيهها بالصفوان مراعاة لصلابتها وشدتها . ثم وصف تباعد ما بين هذه القوائم وكيف أنه أضحى ممراً للرياح التي تحدث صوتاً عندماتهوي ،شبّهه بصوت الأظآر على ولدها الهالك . وهي صورة بدوية خالصة .

ثم وصف لنا اتجاه سير الحصى عندما تسرع وصفاً دقيقاً فقال : إن يديها ترميان الحصى بعيداً خلف رجليها ، وترمي به الرجلان بعد اليد .

---

(١) المحرم : السوط الذي لم يلن من طول الضرب . ينتحي : يعتمد ويقصد . المعقربة : الرجل الموترة العروق وفي « اللسان » : (والمعقرب : الشديد الخلق المجتمعه) الروحاء : الواسعة الخطو . والروح أن يتباعد ما بين الرجلين . ريثة : بطيئة . الفتر : الفتور .

(٢) « ديوان الحطيئة » ١٥٥ .

(٣) أوفت : أشرفت . الثفنات : أصول الفخذين والركبتين . واليراع : القصب . المقصد : الناعم ففي « القاموس » (قصد العوسج ونحوه أغصانه الناعمة) هوي الريح : صوت الريح . ويريد بقوله (بين فروجها) بين قوائمها . والأظآر : جمع ظئر وهي التي تعطف على غير ولدها وترضعه . الربع : ما ولد في الربيع . الردي : الهالك . وذلك أنها إذا مات ولدها سلخ فحشي تبنا ، فكلما طلبته أمه وضع بين يديها فتسكن اليه وتعطف على غيره فذلك البو .

وقال أيضاً في وصف قوائمها وإلقائها الحصى :[1] :

ويَحْـدُو يديهـا زَجُـولا الحَصَى ... أمرَّهـمـا العَصْبُ ثـم استمالاَ
وتحصـفُ بعـدَ اضـطـرابِ النسو ... عِ كما أحصفَ العلجُ يحـدو الحيالا
تُطيرُ الحَصَى بعُـرَى المنسـمي ... نِ إذا الحاقفـاتُ ألِفْـنَ الظلالاَ[2]

يتحدث هنا عن حركة الحصى ، حتى إنه سمى الرجلين (زجولي الحصى) ووصفهما بأنها مفتولتان ، ثم تحدث عن سرعة هذه الناقة الكبيرة ، إنها تسرع بعد أن تضطرب النسوع ، ولا تضطرب عادة إلاّ بعد مرور مدة عليها في السير ، إنها تسرع سرعة الحمار الغليظ الذي يحدو الأتن الحيال . وهذه السرعة تجعل الحصى يتطاير في وقت تخلد إلى الراحة فيه الظباء الرملية التي نشأت في الصحراء وألفت الحر والقيظ ، ومع ذلك فإنها لا تقوى على السير وتؤثر أن تعيش في الظلال .

***

ضروعها :

قال الحطيئة :[3]

وإن طافَ منهـا الحالبـانِ اتقتّهما ... بجُـوفٍ على أيديهمـا هَميرَاتِ
وإن لم يكنْ إلا الصحاصـحُ رُوِّحَتْ ... محلَّقـةً ضـراتُهـا شكِـرَاتِ
إذا أُنفَـدَ الميارُ ما في وعائِه ... وَفَـى كيلَ لانيبٍ ولا بكَرَاتِ[4]

(١) « ديوان الحطيئة » ٢١٦ .
(٢) يحدو : يسوق . زجولا الحصى : أي رجلاها اللتان تقذفان الحصى . أمرهما : فتلهما . العصب : شدة الفتل بالمرفق . استمال : استعطف في السير . الإحصاف : سرعة العدو . العلج : الحمار الغليظ . الحيال : جمع حائل وهي الناقة التي لم تحمل . الحاقفات : الظباء الرملية .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٣٢ .
(٤) الجوف : الضروع الواسعة الأجواف . همرات : ينهمر منها الدر انهماراً . الصحصح : المستوى الأملس من الأرض . محلقة : ممتلئة ضروعها . ناقة حالق : إذا امتلأ ضرعها حتى يحلق بواطن فخذيها . الضرة : أصل الضرع . شكرات : ممتلئات . الميار : الذي يمتار لأهله الطعام . النيب : مسان الابل . البكرات : صغار الإبل . إذا نفذت الميرة من الأوعية اكتفى بألبانها .

يصف هذه الضروع بأنها ضروع واسعة الأجواف ، ينهمر منها الدر انهماراً على أيدي الحالبين ، وإنها الحافلة باللبن مهما كانت طبيعة الأرض التي ترعاها حتى لو كانت أرضاً صخرية ملساء فإنها تعود محلقة أي ممتلئة ضروعها . . مترعات . إن لبن هذه النوق ليسد مسد الميرة ، لأنه لبن نوق لامسنات ولا صغيرات . . إنه لبن غزير كثير .

عجزها :

شبه الحطيئة عجزها بالباب الذي شد رتاجه فقال : (١)

إلـى عَجُزٍ كالبـابِ شُدَّ رِتاجُه ومستتلِـعٍ في الكورِ في حُبُـكٍ سُمْرِ

***

بعرها وذنبها :

قال كعب : (٢)

وسمـرٌ ظمـاءٌ واترتهـنّ بعدما مضـت هجعـةٌ من آخـر الليل ، ذُبَّلُ
سَفَـى فَوْقَهـنَّ التـربَ ضافٍ كأنَّهُ على الفـرجِ والحـادِيْنِ قنـوٌ مذللُ (٣)

وصف كعب بعرها فذكر لونه ويبوسته ، وكيفية سقوطه ، وزمنه وأنه كان بعد أن مضت هجعة من الليل ، ويبدو أن الناقة كانت جالسة ، فعمدت بذنبها إلى الأرض فحركته ، فأطارت الترب وسفته فوق البعر . . . وهنا شرع يصف الذنب بأنه طويل ضاف يستر الفجوة التي بين رجليها حتى كأنه عذق مهيأ مستو .

***

(١) « ديوان الحطيئة » ٣٦٦ .
(٢) « ديوان كعب » ٥٤ .
(٣) سمر : بعر . ظماء : يابسة . واترتهن : تابعتهن . ذبل : يبس . سفى : أطار . فوقهن : أي فوق البعر . ضاف : ذنب طويل . الفرج : ما بين الفخذين . الحاذ : مؤخر الفخذ . القنو : العذق . المذلل : المهيأ المستوي .

لونها :

وصفوها بألوان عدة . فقالوا : إنها حمراء . قال طفيل :[1]

كميتٍ كركنِ البابِ أحيا بناتِهِ مقاليتُها واستحملتْهنَّ اصبعُ[2]

وقال أوس :[3]

كميتٍ، عصاها النقرُ ،صادقةِ السُّرى إذا قيل للحيران : أَيْنَ تُخالِفَ[4]

وقال زهير :[5]

على كُلِّ صهباءِ العثانينِ شامذٍ جُمَاليَّةٍ في رأسها شَطَنَانِ[6]

ووصفوها بأنها بيضاء قال زهير :[7] :

وأعيسُ مخلوجٍ عن الشولِ مُلْبِدٍ فنابانِ من أنيابِهِ غَرِدَانِ[8]

---

(١) « ديوان الطفيل » ٨٨ .

(٢) قال الشريف المرتضى في « أماليه » ١ / ٣٢٢ : (فمعناه أن هذا الفحل الذي وصفه بأنه كميت وأنه كركن الباب لتمامه وشدته ، لما ضرب في الإبل التي وصفها عاشت أولادها التي هي بناته بعد أن كن مقاليت . والمقاليت التي لا يعيش لهن ولد فكان هذا منه أثراً جميلاً عليها) وقوله استحملتهن إصبع : أي عليهن أثر حسن من الرعي ، فإذا نظر إليهن أشير إليهن بالأصابع .

(٣) « ديوان أوس » ٦٤ .

(٤) كميت : ذات حمرة يخالطها سواد . عصاها النقر : أي تستغني عن الضرب بأن تنقر ، والعصى مبتدأ وخبره النقر ، والحيران : التائه . تخالف : تذهب ، أي تعرف وجهتها وقصدها إذا تحير المتحير ولم يستطع المضي .

(٥) « ديوان زهير » ٣٥٩ .

(٦) الصهباء : الناقة الحمراء . العثنون : الشعر تحت لحي الناقة .
الشامذ : التي رفعت ذنبها من نشاط واستكبار . الجمالية : التي تشبه الجمل في عظم خلقها .
الشطن : الحبل .

(٧) « ديوان زهير » ٣٥٩ .

(٨) الأعيس : البعير الأبيض . المخلوج : المعزول المنحى . الشول : جمع شائلة وهي الناقة قل لبنها وارتفع ضرعها . والملبد : الذي بال على فخذيه وراث حتى تلبد . الفرد : المصوت ، يريد صوت أنياب الابل .

وقال أيضاً : [1]

وهـــمٍّ قد نفيتُ بأرحبيٍّ هِجَـانِ اللـونِ من سِرِّ هِجَانِ[2]

وقال الحطيئة : [3]

وأُدْمٍ كأرآمِ الـظباءِ وَهَبْتُهَـا مراسيلَ ، مشدودٍ عليها رحالُها[4]

كلمة (أدماء) في الإبل يراد بها أحد معنيين أشار إليهما صاحب « القاموس » بقوله : (والأدمة بالضم في الإبل لون مشرب سواداً أو بياضاً ، أو هو البياض الواضح) . وبعد النظر في النصوص التي وردت فيها هذه الكلمة وفي كتب اللغة رجحت أنها إن وردت خلال كلام يدل على أن المراد بها البياض انصرفت إلى البياض ، وإن وردت مطلقة انصرفت إلى اللون المشرب سواداً وهو السمرة الشديدة كما في البيت الآتي للحطيئة : [5]

وأدمـاءَ حُرْجُـوجٍ تعاللـتُ موهناً بِسَوْطِيَ فارمـدَّتْ نَجَـاءَ الخفيددِ[6]

ووصفوها بأنها سوداء فقال الحطيئة : [7]

كوماءَ ، دهماءَ ، لا يَجدُو القُـرَادُ بها ثقيلـةِ الـوطءِ لا رَذْلٍ ولا نيبِ[8]

ووصفوها بأنها شهباء وهي البيضاء المختلطة بالسواد . قال الحطيئة : [9]

---

(١) « ديوان زهير » ٣٥٦ .

(٢) الأرحبيّ : فحل منسوب إلى أرحب (بطن من همدان) إليهم تنسب النجائب الأرحبية . والهجان : الناقة البيضاء الخالصة اللون . السر : المحض الخالص .

(٣) « ديوان الحطيئة » ٥٤ .

(٤) الأدم : الإبل البيض . الأرآم : الظباء البيض الخالصة البياض . المراسيل : السراع .

(٥) « ديوان الحطيئة » ١٥٥ .

(٦) الحرجوج : الضامر ، أو الطويلة على وجه الأرض . تعاللت : طلبت علالتها . الموهن : نصف الليل . ارمدت : أسرعت : الخفيدد : الظليم الذكر .

(٧) « ديوان الحطيئة » ٤٩ .

(٨) الكوماء : الطويلة السنام . الدهماء : الناقة السوداء . لا يجذو : لا يثبت عليها لملاستها وسمنها . الرذل : الدون الخسيس . النيب : جمع ناب والناب : الناقة المسنة .

(٩) « ديوان الحطيئة » ٧٠ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من كُلِّ شهبـاءَ قد شاهـتْ مشافِرُها تنحازُ من حسِّها الأفعى إلـى الوَزَرِ[1]

***

عرقها:

ذكروا أنها تعرق . . . وأن أول ما يعرق من جسمها ذفراها ، وأنه يتصبب عرقها على عنقها حتى دعاها كعب بـ (نضاخة) .[2] ووصفوا هذا العرق بالسواد ، وشبهوه بالقطران المعقد ، وبلون رب العصير وبالبول الخاثر ، وبالقار .

قال أوس بن حجر :[3]

كأنَّ كُحَيْلاً مُعْقَـداً أو عنيَّةً على رَجْعِ ذِفْرَاها من الليتِ واكِفُ[4]

وذكر زهير هذا التشبيه وزاد إيراده كيف يعقد القطران فقال :[5]

وتَنْضَـحُ ذِفْرَاهـا بِجـوْنٍ كأنَّهُ عَصيمُ كُحَيْلٍ في المَرَاجِـلِ مُعْقَدِ[6]

فهو معقد بالمراجل ، كما قال في قصيدة أخرى :[7]

كأنَّ بضاحـي جلدِهـا ومَقَذَّها نضيحَ كُحَيْلٍ أعقدتْـهُ المَرَاجِلُ[8]

---

(١) الشهبة : البياض المختلط بالسواد ، أراد أنها بيضاء المشافر مسنة . والوزر: الملجأ.
(٢) انظر « ديوان كعب » ٩ .
(٣) « ديوان أوس بن حجر » ٦٧ .
(٤) الكحيل : القطران . العنية : أبوال الابل تخثر وذلك إذا وضعت في الشمس ، أو بول يعقد بالبعر ، أو بول يخلط بالقطران ، أو هو نوع من القطران ، وهو عادة تطلى به الإبل الجربى . الليت : صفحة العنق . الذفرى : أعلى القفا أي العظم الشاخص خلف الاذن .
(٥) « ديوان زهير » ٢٢٢ .
(٦) تنضح : ترش . الجون : الأسود (وهو من الأضداد) عصيم : أثر . معقد : مطبوخ .
(٧) « ديوان زهير » ٢٩٦ .
(٨) الضاحي : الظاهر . المقذ : ما بين الأذنين من القفا . النضيح : الرشاش . الكحيل : القطران . المرجل : القدر . أعقدته : طبخته حتى غلظ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يقول : إن ظاهر جلدها فيه رشاش من العرق كأنه نضيح قطران غليظ طبخته المراجل وأعقدته .

وجمع بين القطران والبول على غرار ما صنع أوس فقال زهير :[1]

كأنَّ كُحَيْلاً خالطتـه عنيَّةٌ بـدفَّيْنِ منهـا ، استـرخَيَا ، ولَبانِ[2]

وذكر كعب عرق ناقته وأنه يقطر قطراً من ذفراها على عنقها فقال :[3]

تَنْجـو وتَقْطُـرُ ذِفْرَاهَـا علـى عُنُقٍ كالجِـذْعِ شَذَّبَ عنـه عاذِقٌ سَعَفَا

وشبه عرقها بالقار وهو شبيه بالقطران في السواد فقال :[4]

فَزِعْـتُ إلـى وجنـاءَ حرفٍ كأنَّها بأقرابِهـا قارٌ إذا جلدُهـا استحم[5]

وذكر كعب سبب غلظ القطران الذي يشبه به العرق فقال :[6]

تَخَـالُ بضاحـي جِلْدِهـا ودُفُوفِهَا عَصِيمَ هِنـاءٍ أعقدتْـهُ الحَنَاتِمُ[7]

يقول : أعقدته الخوابي التي طال مكثه فيها حتى انعقد .

وشبه كعب عرقها بالقطران وبلون رب العصير ، فقال :[8]

أخـرَجَ السيرُ والهواجِـرُ منها قَطِرَانـاً ولَـوْنَ رُبٍّ عَصِيرا[9]

(١) « ديوان زهير » ٣٦٢ .
(٢) الدف : الجنب . اللبان : الصدر .
(٣) « ديوان كعب » ٨١ .
(٤) « ديوان كعب » ٦٣ .
(٥) الوجناء : عظيمة الوجنتين ، وتكون عندئذٍ غليظة صلبة . الحرف : الضامرة . الأقراب : الخواصر . واستحم : عرق . والقار فسره شارح الديوان بالقطران . وفي « المعجم الوسيط » ما يأتي (القار : الزفت ، والقطران : عصارة شجر الأرز والابهل تطبخ ثم تطلى بها الابل) .
(٦) « ديوان كعب » ١٣٨ .
(٧) العصيم : أثر الهناء وهو القطران . والحناتم : الخوابي التي يوضع فيها القطران . وأداة التشبيه في هذا البيت كلمة (تخال) .
(٨) « ديوان كعب » ١٦٠ .
(٩) الرب : دبس كل ثمرة .

وذكروا أنه عرق غزير لا يكتفي بأن يغطي جلدها كما يغطيه الطلاء وإنما يبل الزمام أيضاً ، قال كعب :[1]

وسالفةً ريَّا ، يُبَلُّ جَديلُها إذا ما عَلاَها ماؤها المتبزِّلُ[2]

***

تشبيه الناقة :

مما يتصل بصفاتها الجسمية أن نذكر ما شبهوا الناقة به . لقد وجدتهم ـ شأنهم في هذا كشأن شعراء عصرهم ـ يشبهون الناقة بحيوانات وطيور ونبات وبأشياء أخرى .

شبهوها بثور الوحش ، وبحماره ، وبالنعام ، وبالقطاة . وشبهوها بالنخلة ، وشبهوها بالقصر وبالسفن في البحر .

ولن نورد هذه اللوحات ههنا لأن لها مواضعها من هذه الرسالة وإنما أكتفي الآن بذكر بعض الأبيات التي تذكر المشبه به .

(١) ثور الوحش

ـ شبه أوس ناقته بثور الوحش ودعاه شبباً ملمعاً ، والشبب ثور الوحش والملمع الذي يكون في جسمه بقع تخالف سائر لونه فقال :[3]

وكأنَّ أَقْتَادِي رميتُ بها بَعْد الكَلالِ مُلَمَّعاً شَبَباً[4]

---

(١) « ديوان كعب » ٥٩ .
(٢) السالفة : صفحة العنق . الجديل : الزمام . ماؤها : عرقها . المتبزل : المتقطر .
(٣) « ديوان أوس » ٢ .
(٤) الأقتاد : جمع قتد وهو من أدوات الرحل .

ودعاه في موضع آخر بذي الوشوم المذعور .[1]

- وشبهها زهير بثور الوحش الأبيض الملمع بالسواد أي الذي في قوائمه توليع بالسواد فقال :[2]

وكأنَّها بعد الكَلال عَشيّةً قَهْبُ الاهابِ مُلَمَّعٌ بسوادِ[3]

وشبهها أيضاً ببقرة الوحش المنفردة ومعها ولدها ،[4] وشبهها بالثور الأبيض المشبّ أي المسن الذي يخرج من بلد إلى بلد[5] ودعاه بذي الجدتين وهو الثور الوحشي الذي في ظهره خطتان تخالفان لونه ووصفه بأنه مخطط القوائم وبأنه أبيض أيضاً.[6]

- وشبهها كعب بالثور المذعور الناشط الذي يخرج من بلد إلى بلد فقال :[7]

وإذا ما أشاءُ أبعثُ منها مطلَع الشمسِ ناشطاً مَذْعُورَا[8]

ويريد كعب أن يقرر من وراء هذا التشبيه سرعة ناقته في الصباح الذي أعقب سرى الليل . . . إنها في هذا الوقت تشبه سرعتها سرعة هذا الثور المذعور .

- وشبه الحطيئة ناقته بثور ناشط لهق فقال :[9]

أوْ فَوْقَ أخنسَ ناشطٍ بشقيقةٍ لَهَقٍ بِغَايِطِ قفرةٍ محبورُ[10]

---

(١) « ديوان أوس » ٤٢ .
(٢) « ديوان زهير » ٣٣١ .
(٣) الكلال : الاعياء . القهب : الأبيض .
(٤) « ديوان زهير » ٢٧٠ .
(٥) « ديوان زهير » ٤٢ .
(٦) « ديوان زهير » ٣٧٩ .
(٧) « ديوان كعب » ١٦١ .
(٨) الناشط : الثور النشيط الذي يخرج من بلد إلى آخر .
(٩) « ديوان الحطيئة » ٣٧٧ .
(١٠) أخنس : من الخنس وهو تأخر الأنف في الوجه وقصره . الشقيقة : غلظ بين رملتين . المحبور : المسرور .

(٢) حمار الوحش :

- شبه أوس ناقته بالأحقب القارب وهو الحمار الوحشي الذي في بطنه بياض والذي يعجل ليلة الورد فقال :[١]

كأني كسوتُ الرحلَ أحقبَ قارباً لـهُ بجنـوبِ الشَّيْطَيْنِ مسَاوِفُ[٢]

- وشبهها زهير بالحمار الذي في صوته بحة وقد طرده الصيادون فقال :[٣]

وكأنهـا صَحِـلُ الشـحيجِ مُطَـرَّدٌ أُخْلَى له حِقْـبُ السَّـوارِ ومذنَبُ[٤]

- وشبهها زهير به وذكر بأنه أقب البطن جأب عليه وبر[٥] وشبه في موضع آخر سرعتها بسرعة الحمار الأخدري المفرد ،[٦] وهذه النسبة هي إلى الأخدر وهو فرس مشهور .

- وأكثر كعب من تشبيه ناقته بحمار الوحش فقال :[٧]

كأنَّ الرحـلَ منهـا فوقَ جَأْبٍ يُقلِّـبُ آتُنـاً خُلُجـاً حيَالا[٨]

وفي موضع آخر ذكر هذا الحمار بأنه قويرح عامين أي أتى له من قروحه سنتان وذلك أصلب له وبأنه شنون ليس بالمهزول ولا بالسمين[٩] وشبهها به ووصفه بأنه حمار لونه يضرب إلى السواد .[١٠]

(١) « ديوان أوس » ٦٧ .
(٢) جنوب الشيطين : موضع . السوف : الشم : يقول : قد بالت حميرة فهو يشم أبوالها .
(٣) « ديوان زهير » ٣٧٢ .
(٤) الصحل : الحمار في صوته بحة . الشحيج : صوت الحمار . المطرد : الذي طرده الصيادون . أخل له : خلا له . حقب السوار : موضع . المذنب : مجرى الماء إلى الروضة والحديقة .
(٥) انظر « ديوان زهير » ٦٥ .
(٦) انظر « ديوان زهير » ٢٧٠ .
(٧) « ديوان كعب » ٢٠٣ .
(٨) الجأب : حمار الوحش الغليظ . يقلب آتنا : أي يصرفها كيف يشاء . الخلج : واحدتها خلوج وهي التي اختلج عنها ولدها أي فصل عنها بذبح أو موت . الحيال : جمع حائل وهي التي حال عليها الحول فلم تحمل .
(٩) انظر « ديوان كعب » ١٠٠ .
(١٠) انظر « ديوان كعب » ١٣٨ .

ـ وكذلك فقد أكثر الحطيئة من تشبيه ناقته بحمار الوحش ويبدو أنه استفاد مما ذكره أساتذته الذين تقدموه في هذه المدرسة . قال :[1]

وكأنّ رحلـي فوقَ أحقـبَ قارحٍ بـالشَّيْطَيْنِ نُهَاقُهُ تعشيرُ[2]

فهذا البيت متأثر ببيت أوس فقد ذكر فيه الحمار باسم أحقب ، وذكر الموضع الذي ذكره أوس وهو (جنوب الشيطين) .

وقد تأثر بكعب فذكر أنه (جون رباعي)[3] وأنه شنون[4]

(٣) النعام

ـ شبه زهير ناقته بالصعل وهو الظليم فقال :[5]

كأنَّ الرحـلَ منهـا فوقَ صَعْلٍ مـن الـظِّلْمَانِ جؤجؤه هَـوَاءُ

وصرح بلفظ النعام فقال : (مثلُ النعامِ إذا هيَّجْتَها . .)[6] وشبهها بظليم نشيط تخضبت ساقاه من أكل نبات الربيع .[7]

ـ وشبه كعب ناقته بالجورق وهو الظليم فقال :[8]

كأن رحلـي وقـد لانـت عريكتها كسـوتـه جورقـا أقـرابـه خصفا[9]

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٣٧٦ .
(٢) الأحقب : الحمار الذي في بطنه بياض . والنهاق : النهيق . التعشير : قال الأصمعي : ينهق عشراً .
(٣) انظر « ديوان كعب » ١٣٨ و « ديوان الحطيئة » ١٩ .
(٤) انظر « ديوان كعب » ١٠٠ و « ديوان الحطيئة » ١٩ .
(٥) « ديوان زهير » ٦٣ .
(٦) انظر « ديوان زهير » ١٦٨ .
(٧) انظر « ديوان زهير » ٣١٦ .
(٨) « ديوان كعب » ٨٢ .
(٩) الخصف : لون مركب من لونين أبيض وأسود . والأقراب : جمع قرب وهو الخاصرة .

وقال أيضاً :[1]

أفتلكَ أم ربــداءُ عارية النسا زجّــاءُ صادقةُ الـرواحِ نسـوفُ[2]

وقال الحطيئة :[3]

عُذَافِــرَةٍ حَرْفٍ كـأنَّ قتودَهَـا على هِقْلَـةٍ بالشيطينِ جفولِ

يشبهها بالهقلة وهي النعامة ،وذكر موضعها ووصفها بأنها جفول . وفي موضع آخر شبه ناقته بالخفيدد في سرعتها ، والخفيدد : الظليم الذكر .

(٤) القطاة

قال كعب :[4]

تنجــو نَجَــاءَ قطــاةِ الجــوِّ أفزَعَها بــذي العِضَــاهِ أحسَّــتْ بازياً طَرَقَا

يشبه سرعتها بسرعة قطاة تقيم بموضع ذي العضاه فوجئت بباز أفزعها فهي تحاذر وتسرع .

(٥) الظباء

قال الحطيئة :[5]

وَأُدْمٍ كـأرآمِ الــظبـاءِ وهبتَهَـا مــراسيلَ مشدودٍ عليهـا رحالُهَا[6]

---

(١) « ديوان كعب » ١١٩ .

(٢) ربداء : يعني نعامة . عارية النسا : أي عارية موضع النسا ، أي لا لحم عليه ولا ريش. والزجاء واسعة الخطو . ونسوف: أي تنسف التراب برجليها.

(٣) « ديوان الحطيئة » ٥ .

(٤) « ديوان كعب » ٢٣٧ .

(٥) « ديوان الحطيئة » ٥٤ .

(٦) الأدم : الإبل البيض . الأرآم : الظباء البيض الخالصة البياض . المراسيل : السراع .

(٦) وشبهوها بالقصر ، قال زهير :[١]

وكأنَّهـا إذْ قربـت لقتـودِهَـا فَـدَنٌ تطـوفُ بـه البُنَـاةُ مُبَوَّبُ[٢]

(٧) وشبهوها بالنخلات الحوامل ، قال الحطيئة :[٣]

أرى العيرَ تُحْدَى بين فنٍّ وضارجٍ كمالاحَ في الصبحِ الأشَاءُ الحوامِلُ[٤]

(٨) وشبهوها بالسفن ، قال زهير :[٥]

عَوْمَ القـوادسِ قفَّـى الأردمـونَ بها إذا تَرَامَـى بهـا المُغْلَوْلِـبُ الزَّبِدُ[٦]

***

ثالثاً ـ أوصاف الناقة التفصيلية من حيث خصائصها :

سأورد في هذا الفصل ما ذكروه عن نسبها ، وسرعتها ، ونشاطها ، وانقيادها وتذللها ، وعن هزالها بعد سمنها ، وعن شدتها وصبرها ، وانتباهها ، ومعرفتها بالطرق ، وعن بلائها في الحروب ، وأثرها في الترويح عن النفس ، وعن أكلها وشربها ، وعلاقتها مع فحلها ، وعن أشياء تقرب من ذلك .

***

---

(١) « ديوان زهير » ٣٧١ .
(٢) القتود : خشب الرحل . الفدن : القصر المشيد .
(٣) « ديوان الحطيئة » ١٨ .
(٤) العير ما يحمل عليه الطعام من الإبل . وقن وضارج : اسما مكان . والأشاء : النخل . يقول : تلوح قافلة العير كما تلوح النخلات الحوامل ولما تنشر الشمس أشعتها .
(٥) « ديوان زهير » ٢٨٠ .
(٦) القوادس : جمع قادس وهو السفينة العظيمة . قفى بها : قادها وذهب . الأردمون : الملاحون الحاذقون . ترامى بها : قذف بها بعضه بعضاً . والمغلولب : البحر ذو الأمواج المتلاطمة . الزبد : ذو الزبد .

نسبها :

الإبل أنواع ، منها الجيد النسب ، ومنها الرديء المجهول النسب ، وقد عني العرب بمعرفة أنساب الإبل والخيل عناية كبيرة ، وشعراؤنا هؤلاء الذين ندرس شعرهم في الوصف عنوا بهذه الناحية ، فقد ذكروا أن الناقة التي يصفون حرة كريمة ترجع إلى نسب عال شريف ، وقد فصّل بعضهم في ذلك مثل أوس وكعب فذكرا لنا أموراً في غاية التفصيل على نحو ما سنرى عندما نورد أقوالهم .

ـ قال طفيل الغنوي : (١)

تَعَارَفُ أشباهاً على الحوضِ ، كُلُّها إلى نسبٍ وسطَ العشيرةِ معلمِ (٢)

يقول : إن نسب هذه النوق معروف وسط العشيرة لا يجهله أحد .

ـ وقال أوس : (٣)

شرفيةٍ مما تُوارِدُ منهلاً بقرينةٍ أو غيرِ ذاتِ قرينِ (٤)

وقال أوس أيضاً : (٥)

حرفٌ أخوها أبوها مَنْ مُهَجَّنَةٍ وعمُّها خالُها وجناءُ مئشيرُ (٦)

يقول : هذه الناقة العظيمة الشديدة ضربها أبوها فجاءت بذكر ، ثم ضربها ثانية فجاءت بذكر آخر فالولدان ابناها لأنها ولدا منها وهما أخواها أيضاً لأبيها ، ثم ضرب أحد الأخوين الأم فجاءت هذه الأم بهذه الناقة ، وهي الحرف فأبوها أخوها

---

(١) « ديوان طفيل » ٧٩ .
(٢) تعارف : يعرف بعضها بعضاً إذا وردت على الحوض .
(٣) « ديوان أوس » ١٢٩ .
(٤) الشرفية : منسوبة إلى الشرف ، وهو ماء لبني كلاب .
(٥) « ديوان أوس » ٤١ .
(٦) المهجنة : الناقة أول ما تحمل . مئشير : بطرة .

لأمها لأنه ولد من أمها ، والأخ الآخر الذي لم يضرب عمها لأنه أخو أبيها وهو خاله لأنه أخو أمها من أبيها ، وأبوه نزا على أمه .[1]

واستفاد كعب هذا المعنى ، وأورده بحروفه فقال :[2]

حرف أخوهـا أبوهـا من مهجنة وعمهـا خالهـا ، قـوداء شمليل[3]

ولا نجد فيه اختلافاً عن بيت أوس إلا الكلمتين الأخيرتين ، ففي بيت أوس (وجناء مئشير) وفي بيت كعب (قوداء شمليل) .

ووصفها كعب بأنها حرة ، أي عتيقة كريمة ، وهذا الوصف قد تكرر عنده في أكثر من موضع ، فمرة يطلقه فيقول : حرة ، ومرة يقيده فيقول : (حرة الليتين) أو (حرة الليط) .

فمن المواضع التي أطلق وصف حرة ولم يقيده بعضو قوله :[4]

عذافـرةٍ تختـالُ بالرحـلِ حُرَّةٍ تُبـاري قِلاصـاً كالنعـامِ الجَوَافِلِ[5]

ومن المواضع التي أضاف الحرية إلى أعضاء قوله :[6]

زجـرتُ عليهِ حرةَ الليطِ رفعتْ على رَبِـذٍ كأنهـنَّ دعـائمُ

وقوله :[7]

كلفتُهـا حُرَّةَ الليَتيْنِ ، ناجيـةً قَصْرَ العَشِـيِّ ، تُبـاري أَيْنُقَـاً عُصُفَا[8]

(١) هذا الشرح الدقيق الوافي كلام الأزهري نقله محقق الديوان .
(٢) « ديوان كعب » ١١ .
(٣) الفوداء : الطويلة العنق . والشمليل : الخفيفة .
(٤) « ديوان كعب » ٩٦ .
(٥) العذافرة : الشديدة . القلاص : أفتاء الإبل . الجوافل : السراع .
(٦) « ديوان كعب » ١٣٨ .
(٧) « ديوان كعب » ٨٠ .
(٨) الليط : الجلد . رفعت : بالغت في السير . الربذ : الخفيفة (يعني القوائم) الدعائم : الأساطين من خشب .

ـ ومما يتصل بالنسب ما ذكروا من أن هذه الإبل متشابهة كأنهن من نجار واحد ، كما قال طفيل : [1]

نظائـرَ أشبـاهٍ يَرِعـنَ لمكدمٍ إذا صبَّ في رقشاء هدراً يُرجِّعُ[2]

وكذلك ما ذكروا من أن هذه الإبل مختارة من البلاد كقول الحطيئة : [3]

نـزائـعُ آفـاقِ البـلادِ يزينُهـا بـراطيـلُ فـي أعنـاقِهـا البَتِعَاتِ[4]

ـ ومن الأنساب الشهيرة التي ذكرها هؤلاء الشعراء (النوق العيدية) وهي النوق النجائب المنسوبة إلى حيّ في اليمن هم بنو العيد ، قال زهير : [5]

إلـى ابـنِ سَلمـى سنـانٍ وابنِـه هرمٍ تنجـو بأقتـادِهـا عيدية تخـدُ

وقال أيضاً : [6]

تَهْـدي قلائص دُرِّبَـتْ ، عيديـةً خُوصاً أضـرَّ بهـا الوجيفُ المهذبُ[7]

ومن الأنساب التي ذكروها (الغريريّ) المنسوب إلى غرير وهو فحل كريم . قال زهير : [8]

---

(١) « ديوان طفيل » ٨٧ .
(٢) نظائر أشباه : أشكال مشتبهات كأنهن من نجار واحد . يرعن : يرجعن إليه . المكدم : الفحل الغليظ . الرقشاء : ما كان بها زخرفة في جلدها . يرجع : يصوت . هدر البعير : رد صوته في حنجرته .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٣٣ .
(٤) النزائع : التي أخذت من أيدي أصحابها . البتعات : الطوال . آفاق البلاد : نواحيها . البرطيل : الحجر المستطيل ، يريد الرأس .
(٥) « ديوان زهير » ٢٨٠ .
(٦) « ديوان زهير » ٣٧١ .
(٧) تهدى : تدل وتتقدم . القلوص : الناقة الفتية . الخوص : جمع خوصاء وهي الغائرة العينين . الوجيف : السير السريع . المهذب : الشديد .
(٨) « ديوان زهير » ٣٦٠ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكلٌ غُرَيْريٌ كأنَّ فَرُوجَهُ ـ إذا رَفَعَتْ منه ـ فروجُ حصانِ[1]

ومن الأنساب التي ذكروها (الأرحبي) المنسوب إلى أرحب ، وهو بطن من همدان إليهم تنسب النجائب الأرحبية . قال زهير :[2]

وهمٍ قد نفيتُ بأرحبيٍّ هجان اللونِ من سرٍّ هجانِ

***

سرعتها ونشاطها :

إن هاتين الصفتين أهم الصفات التي ذكروها للناقة . . . بل يكاد يكون الهدف الأول من إنشاء وصف الناقة إنما هو تبيان سرعتها ونشاطها .

ومن أجل ذلك شبهوها بما شبهوها من حمر الوحش وبقره والقطا وما إلى ذلك مما مرّ معنا آنفاً .

قد يقتصر بعضهم على وصفها بالسرعة بكلمة واحدة كقول الحطيئة عن ناقته (إنها ذعبلة) والذعبلة السريعة .[3] وكقولهم عنها إنها (ناجية) وهذه الكلمة تتكرر عند الشعراء بمعنى الناقة السريعة التي تنجو بصاحبها . كقول طفيل :[4]

وحَمَلْتُ كَوْرِي خَلْفَ ناجيةٍ يقتاتُ شحمَ سنامِها الرحلُ

وكقول أوس (سرح النجاء) :[5]

بجُلالةٍ سرحِ النجاءِ إذا آلُ الجفاجفُ حولَها اضطرَبَا[6]

---

(١) الفروج : ما بين اليدين والرجلين ، وشبه فروجه بفروج الحصان في سعتها وذلك أشد للعدو . إذا رفعت : أي إذا رفعت المرأة من البعير ، أي حملته على السرعة .

(٢) « ديوان زهير » ٣٥٦ .

(٣) « ديوان الحطيئة » ٢٦٠ .

(٤) « ديوان طفيل » ١٠٨ .

(٥) « ديوان أوس » ٢ .

(٦) قوله (بجلالة) متعلق بالبيت الذي قبله ، يقول : ولقد انصرف عن الخيل بجلالة ، والجلالة الناقة =

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد يفصّلون القول بعض التفصيل كما نرى في قول أوس:[1]

وَقَدْ تُلافي بِيَ الحاجاتِ ناجيةٌ ... وجناءُ لاحقةُ الرجلينِ عيسورُ
تُساقِطُ المشيَ أفناناً إذا غضبتْ ... إذا ألحَّتْ على ركبانِها الخورُ
كأن هراً جنيباً تحتَ غُرْضَتِهَا ... واصطَكَّ ديكٌ برجليها وخنزيرُ[2]

هذه الناقة السريعة تبلغني ما أريد ، وينعتها بما يمكنها من هذه السرعة ، فيقول : إنها ضخمة ضامرة شديدة تأتي بأنواع من المشي . وهي تسرع إذا غضبت . . . ويعرض سرعتها بالصورة الآتية : كأن هناك حيوانات تنهشها وتثيرها ، الهر تحت حزامها والديك والخنزير برجليها ، فهي تقفز وتولي مسرعة لتنجو منها ولا تهدأ ولا تفتر .

ـ ويقول أوس :[3]

علاةٍ من النوقِ المراسيلِ وَهْمَةٍ ... نجاةٍ علتْها كَبْرةٌ فهي شارِفُ
يُشيِّعُها في كل هضبٍ ورملةٍ ... قوائمُ عوجٌ مُجْمَرَاتٌ مقاذفُ
توائمُ ألافٌ توالٍ لواحقٌ ... سواهٍ لواهٍ مربِذاتٌ خوانِفُ
كأن ونيً خانتْ به من نظامِها ... معاقدُ فارفضَّتْ بهنَّ الطوائفُ[4]

= الضخمة القوية . سرح النجاء : سريعة العدو . والآل : السراب . الجفاجف : جمع جفجف وهو ما اطمأن من الأرض .

(١) « ديوان أوس » ٤٠ ـ ٤٢ .

(٢) لاحقة الرجلين : ضامرة سريعة العدو . العيسور: الناقة الشديدة التي لم تروض . الأفنان : الأنواع . الخور : جمع خور ، وهو المنخفض المطمئن من الأرض بين النشزين . وألحت : تتابعت . جنيب : مجنوب ، من جنب الدابة إذا قادها إلى جنبه . والغرضة : حزام الرحل . اصطك : احتك .

(٣) « ديوان أوس » ٦٥ ـ ٦٦ .

(٤) العلاة : الناقة المشرفة . المراسيل : جمع مرسال وهي الناقة السريعة السهلة السير . وهمة : ضخمة قوية . نجاة : سريعة . الشارف من الإبل : المسن . يشيعها : يعينها على المشي . مجمرات : أي قد صلبت أخفافها واشتدت واجتمعت . مقاذف : أي سريعة كأنها مقاذف السفينة . قوائم الاف : أي كأنها في حركتها توائم متآلفة تنهض معاً وتحط معاً ، تتوالى وتتلاحى . سواه لواه : لينة السير لا تتعب راكبها ، وتلهو عن السير لا تبالي به . الربذ : خفة القوائم في المشي . خوانق : تهدى بأيديها إلى ضبعها . الونى : جمع ونية وهي الدرة .

يذكر أوس في هذا النص بعض الصفات الجسمية التي تساعد الناقة على السرعة، فيذكر أنهامشرفة متقدمة في السن ليست صغيرة ، وهي ضخمةقوية،كل ذلك يؤهلها لتكون مرسالاً نجاة أي سهلة السير سريعته ، ويعينها على المشي في المرتفعات الصعبة وفي الأراضي الرخوة تلك القوائم الطوال الصلبة[1] التي تعودت على المشي ، فصلبت أخفافها واشتدت وتعودت على السرعة ، فكأنها في حركتها مقاذف السفينة . وكأنه لم يكتف بهذا التشبيه . . فجاء بتشبيه آخر وهو تشبيهها في حركتها بتوائم متآلفة تنهض معاً وتحط معاً تتوالى وتتلاحق . . .

وقد جمعت مع السرعة الهائلة الليونة في السير ، فهي لا تتعب راكبها . . . إن قوائمها قد اتصفت بالخفة في المشي وشبه سرعة الناقة تشبيهاً جميلاً غريباً بآن، فقال: إن سرعتها لتشبه سرعة الدرر التي كانت في عقد فانقطع خيطه فنزلت متسارعة إلى الأرض.

ويقول زهير :[2]

إلى ابنِ سَلْمَى سنانٍ وابنِهِ هَرِمٍ ... تنجو بأقتادِها عيديةٌ تَخِدُ
في مُسبَطِرٍّ ، تُبَاري في أزمتها ، ... فُتْلُ المرافقِ ، في أعناقِها قَوَدُ
مُعْصَوْصِبَاتٌ يُبادِرْنَ النَجاءَ بِنَا ... إذا ترامَتْ بها الديمومةُ الجَدَدُ
عَوْمَ القوادسِ قفَّى الأردمونَ بها ... إذا ترامى بها المغلولب الزَّبِدُ[3]

ويتحدث زهير ههنا عن سرعة هذه الناقة ، ويتعرض خلال ذلك للطريق . يقول : إنها نوق أصيلة كريمة عيدية تسرع وتخد في طريق صحراوي طويل لا ماء

(١) سبق أن ذكرنا ذلك في وصف أطرافها .
(٢) « ديوان زهير » ٢٨٠ .
(٣) تنجو : تسرع . الأقتاد : خشب الرحل . العيدية : نوق كرام تحدثنا عنها في الفصل الذي خصصناه لأنساب النوق . تخد : تسرع . المسبطر : الطريق الطويل الممتد . والفتل : جمع أفتل وهو المدمج ، القود : طول العنق . المعصوصبات : المجتمعات الجادات في السير . ترامت : رمى بها بعضها بعضاً . الديمومة : الفلاة الواسعة لا ماء فيها لدوام بعدها . والجدد : ما استرق من الرمل . والقوادس : جمع قادس وهو السفينة العظيمة . الأردمون : الملاحون الحاذقون . والمغلولب : البحر ذو الأمواج المتلاطمة . الزبد : ذو الزبد .

فيه ، فهي في رحلتها تتبارى في أزمتها مجتمعات جادات في السير يتسابقن . . ما أشبههن في هذه الصحراء بالسفن التي تضطرب في البحر المزبد .

ويقول زهير :[1]

إنِّـي لَتُعْدينـي علـى الهـمِّ جسرةٌ تُخُـبٌّ بوصَّالٍ صروم وتُعْنِقُ[2]

يذكر زهير في هذا البيت أن ناقته جسرة تخب وتعنق وهي تبلغه كل أمر يهم به .

ويقول أيضاً :[3]

هل تُلْحِقَنِّي وأصحَابِي بِهِـمْ قُلُصٌ يُزْجِـي أوائلَهـا التبغيلُ والرَّتَكُ
مُقْـوَرَةٌ ، تَتَبَـارى ، لا شَوَارَ لَها إلا القُطُوعُ علـى الانسـاعِ والورُكُ[4]

ذكر زهير في هذين البيتين أنواعاً من المسير هي : التبغيل والرتك ، كما ذكر ناحية جسمية تساعد الناقة على السرعة وهي الفتاء ، وأمر آخر يتعلق بالأثقال . فقال : إن هذه الناقة لا متاع عليها إلا شيء بسيط ، وهذا بطبيعة الحال يساعدها على السرعة .

وقال أيضاً :[5]

إليكَ مِنَ الغـورِ اليمانِـي ، تَدَافَعَتْ يداهـا وَنِسْـعَا غَرْضِيهـا قَلِقَانِ

---

(١) « ديوان زهير » ٢٥٧ .

(٢) تعديني : تعينني . الهم : أي ما هم به . الجسرة : الناقة النشيطة الجسورة على السفر . الخبب : نوع من السير . الوصال الصروم : الرجل الذي يصل في موضع الوصل ويصرم في موضع الصرم ، ويعني نفسه . وتعنق : تسير سيراً واسعاً .

(٣) « ديوان زهير » ١٦٨ .

(٤) القلوص : الفتية من الإبل . التبغيل : ضرب من السير ، وهو ما يقارب مشي البغال ، والرتك : مقاربة الخطو في سرعة وهو مشي النعام . مقورة : ضامرة . الشوار : المتاع . القطوع : الطنافس التي يوطأ بها الرحل . تتبارى : يعارض بعضها بعضاً في السير . الورك : ثوب يشد على مورك الرحل ثم يثنى فيدخل فضله تحت الرحل ليستريح بذلك الراكب .

(٥) « ديوان زهير » ٣٦٢ .

نَهُـوزٌ بِلَحْيَيْهَـا ، أمـامَ سِفَارِهَا ومُعْتَلَّـةً إنْ شِئْـتَ في الجمزان
وَكَمْ قَدْ طَوَتْ من منهـلٍ بعـدَ منهلٍ وأوردتُهـا من آجـنٍ ودِفَانِ[1]

يقول : إنها تتدافع يداها ، تطوي الأرض طياً وساعدها على هذه السرعة ضمورها الذي دل عليه أن حزامها قلق . . . إنها وإن اعتلت فهي نشيطة تمد عنقها وتدفع به الزمام مرة بعد مرة . . . وكم قد طوت من المناهل العدة والمياه الآجنة . .

ـ ومن الصفات الجسمية التي تمكن الناقة من السرعة الكبيرة ما ذكره زهير من شدة الأسر وطول الرجلين وغلظ العنق ، فقال :[2]

شديدِ الأسـرِ ، أعلـبَ دَوْسَرِيٍّ زَرُوفِ الرجـلِ مطـردِ الجرانِ[3]

ـ ومن الأوصاف التي ذكروها في سرعة الناقة أنها موثقة الخلق ، تؤمن سقطتها كأن بها خيلاء ، وأنها صابرة عندها المقاومة التي تجعلها لا تشتكي من الإعياء أبداً يقول كعب :[4]

فَسَـلٌ طِلابهَـا ، وتعـز عنهـا بنـاجيـة كـأن بهـا خيـالاً
أمـون مـا تمـل ومـا تشكـي ـ إذا جشـمتهـا يومـا ـ كـلالا[5]

---

(١) الغور : ما انهبط من الأرض . تدافعت يداها : دفعت إحداهما الأخرى . والنسع سير تشد به الرحال . والغرض للرحل بمنزلة الحزام للسرج . وقلقان : لضمور الناقة . نهوز : تمد عنقها تنهزأي تدفع به الزمام مرة بعد مرة من نشاطها . السفار : حديدة تجعل على أنف البعير . الجمزان : العدو السريع . المنهل : مورد الماء . الآجن : الماء المتغير اللون والطعم والرائحة . الدفان : الماء المدفون تدفنه الريح بالتراب .

(٢) « ديوان زهير » ٣٥٦ .

(٣) الأسر : الخلق والبناء . الأغلب : الغليظ العنق . الدوسري : الضخم الشديد . الزروف : الناقة الطويلة الرجلين الواسعة الخطو . الجران : باطن العنق ، وقوله : مطرد الجران : أي ليس فيه اختلاف بل يشبه بعضه بعضا .

(٤) « ديوان كعب » ٢٠٢ .

(٥) سل طلابها : سل نفسك عن طلابها . وتعز عنها بركوب ناقة سريعة . الخيال : الخيلاء والتبختر . الأمون : الموثقة الخلق التي يؤمن عثارها وسقطتها . ما تمل : ما تمل من السير عليها . جشمتها : كلفتها . الكلال : الإعياء .

- ومن الأوصاف التي ذكروها في سرعتها أن الحصى ينثر بين رجليها بأخفافها يميناً وشمالاً .[1]

- ومن الأوصاف التي ذكروا أنها السبب في سرعتها كرم أصلها .[2]

- وكذلك من الأمور التي ذكروها في حديثهم عن سرعة الناقة موقفها من السوط فقالوا حيناً: إنَّ عصاها النقر ،فيكفيها مجرد النقر لتسرع ،[3] وقالوا حيناً آخر : إن مجرد رفع السوط يجعلها تنساب في طريها تنهب الأرض نهباً .[4]

- وصور زهير سرعة بعيره بأنها بلغت حداً يكاد يطير الرحل لولا الحزام فيقول :[5]

يكاد ، وقد بلغت الآد منه يطير الرحل ، لولا النسعتان[6]

- ومن أهم ما توصف به سرعة الناقة الاستمرار وعدم تأثرها بالكلال ولا بالقيظ ولا بالبرد ، ذلك لأن المضي في السرعة حيناً من الزمن ، ثم الانقطاع لا يحقق غرضاً ما ، والمثل العربي يقول : إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

فزهير يقول : إنها تستطيع متابعة المشي في قيظ الظهيرة تهز رأسها نشطة لا تبالي يقول :[7]

هَلْ تُبْلِغَنِّيها - على شَحْطِ النـوَى - عَنْسٌ تَخُبُّ بِيَ الهجيرَ وتَنْعَبُ[8] .

ويقول كعب :[9]

---

(١) سبق أن عرضنا له في وصف أطرافها ونكتفي هنا بالإشارة إليه . وانظر « ديوان كعب» ١٣٨ .
(٢) انظر ما أوردناه في (نسبها) وانظر « ديوان كعب » ٨٠ .
(٣) انظر « ديوان أوس » ٦٤ .
(٤) انظر « ديوان كعب » ١١٦ .
(٥) « ديوان زهير » ٣٥٠ .
(٦) الآد : القوة . وبلغت الآدمنه : أي جهدته . والنسع : سير يشد به الرحل .
(٧) « ديوان زهير » ٣٦٩ .
(٨) الشحط : البعد . النوى : البعد . العنس : الناقة الصلبة . تخب : تسير الخبب. الهجير: منتصف النهار . تنعب : تهز رأسها في سيرها .
(٩) « ديوان كعب » ٢٣٥ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حَلَّتْ نَوارُ بأرضٍ لا يُبَلِّغُها ... إلا صَمُوتُ السُّرى ، لا تَسْأَمُ العَنَقَا
خَطَّارَةٌ بعْدَ غِبِّ الجهدِ ناجيةٌ ... لا تشتكي للحفا من خُفِّها رَقَقَا[1]

- وعرض كعب وقع سيرها السريع ، فذكر أنه متدارك متواتر وأنه سجية ليس متكلفاً حتى لو أنها هبطت أرضاً لينة الموطىء . . . كما ذكر شدتها وخيلاءها ومباراتها للنوق الفتية فقال :[2]

عُذَافِرةٌ تختالُ بالرحلِ ، حرةٌ ... تُبارِي قِلاصاً كالنعامِ الجوافلِ
بوقعٍ دراكٍ غيرِ ما متكلَّفٍ ... إذا هبطت وعثاً ولا متخاذلِ[3]

- ومما عبر به الحطيئة عن سرعتها قطعها المسافة بزمن أقل مما يقدر الناس فيقول ، لو قدرت أنني سآتي أهل بلدة ليلاً ثم ركبت هذه الناقة أتيتهم نصف النهار لسرعتها الفائقة . قال :[4]

إذا قلتُ : إني آيبٌ أهلَ بلدةٍ ... وضعتُ بها عنه الوليةَ بالهَجْرِ[5]

- وذكروا في سرعتها أنواعاً من المسير منها العنق والتبغيل والرتك والخبب[6] والإرقال والوجيف ، قال زهير :[7]

تَهْدِي قلائصَ دُرِّبتْ ، عيديةً ... خُوصاً أضرَّ بها الوجيفُ المُهْذِبُ[8]

---

(١) صموت السرى : ناقة لا ترغو عند السرى ولا تضعف فيه . العنق : سير فيه سرعة . الخطارة : التي تخطر في سيرها . الرقق : ألم ينهك الخف فيحفى .
(٢) « ديوان كعب » ٩٦ .
(٣) العذافرة : الشديدة . الحرة : الكريمة . القلاص : أفتاء الإبل . الجوافل : السراع . دراك : متدارك متواتر . الوعث : اللين الموطىء وليس بكثير الرمل جداً .
(٤) « ديوان الحطيئة » ٣٦٦ .
(٥) آيب : آت ليلاً . والولية : البرذعة . والهجر : نصف النهار . وعنه : أي عن البعير . وبها : أي بالبلدة .
(٦) وقد مرت بنا في هذا الفصل وشرحنا معانيها في مواضعها .
(٧) « ديوان زهير » ٣٧١ .
(٨) تهدي : تدل . الخوص : الغائرات العيون . المهذب : الشديد .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال كعب :[1]

وَلَنْ يُبَلِّغَهـا إلاَّ عُذَافِرَةٌ ... فيهـا على الأَيْنِ إرقـالٌ وتبغيلُ[2]

وقال الحطيئة :[3]

فلأياً أَزاحـتْ علَّتـي ذاتُ مَنْسِمٍ ... نـكيبٍ تَغَالَـى في الزمـامِ خَنُوفُ
مُقَذَّفَـةٌ باللحـمِ ، وجنـاءُ ، عَدْوُهـا ... علـى الأينِ إرقـالٌ لهـا ووجيفُ[4]

والإرقال أن تعدو الناقة عدواً سريعاً وتنفض رأسها ، والوجيف : نوع من السير السريع .

- ومن أنواع المسير الذميل ، قال كعب :[5]

يُقَطِّـعُ سيرَ الناعجـاتِ ذميلُها ... نَجَـاءً إذا اختـبَّ النجـاءُ المعوَّلُ[6]

وقال الحطيئة :[7]

فلأياً قصرتُ الطـرفَ عنهـمْ بِجَسْرَةٍ ... ذمـولٍ إذا واكلتَهـا لا تُوَاكِلُ
صمـوتِ السُّرَى ، عيرانـةٍ ذاتِ مَنْسِمٍ ... نـكيبِ الصُّـوَى ترفضُّ عنـه الجنادِلُ
عذافـرةٍ خرسـاءَ ، فيهـا تلفُّتٌ ... إذا ما اعتراهـا ليلُهـا المتطاولُ[8]

---

(١) « ديوان كعب » ٩ .
(٢) الأين : التعب .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٢٥٤ .
(٤) لأيا : بعد بطء . ذات المنسم : الناقة ، والمنسم : الظفر في صدر الخف . ناقة نكيب : دابرة الخف من مواصلة السير . تغالى في الزمام : تسرع في سيرها . خنف البعير : قلب في مسيره خف يده إلى وحشيه من خارج (أو لوى أنفه من الزمام من نشاطه) مقذفة اللحم : كثيرة اللحم .
(٥) « ديوان كعب » ٥٧ .
(٦) الناعجات : الإبل . الذميل : سرعة السير . النجاء : السرعة . المعول : المحمل .
(٧) « ديوان الحطيئة » ١٨ - ١٩ .
(٨) الجسرة : الناقة النشيطة . الذمول : الناقة التي تمشي نوعاً من السير هو الذميل . الناقة المواكلة : الناقة التي فيها بطء يحتاج راكبها إلى الضرب والزجر . صموت السرى : لا ترغو من الضجر . عيرانه : صلبة شديدة . المنسم : الظفر في مقدم الخف . الصوى : أعلام تنصب على الطريق . نكيب : أي قد نكبته الصوى : الجنادل : الصخور . التلفت : الانتباه .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يقول : إن هذه الناقة النشيطة التي تمشي الذميل قد ركز في طبيعتها الإسراع فلو أنك تركتها تبطىء فلا تبطىء ، لأنها لا تستطيع مخالفة فطرتها ، وهي لا ترغو من الضجر ، وقد نكبت قدميها أعلام الطريق ، وإن الصخور من سرعتها لترفض عن منسمها، وذكر أنها ناقة شديدة لا يوهنها السرى الطويل وأنها حذرة متنبهة فيها التلفت اليقظ .

ـ ومن أنواع السير التي ذكروها النص والإدلاج[1] والنص : أرفق السير وأشده والإدلاج السير في أول الليل وآخره .

ـ وأود أن أختتم حديثي عن سرعتها بهذه الأبيات الجميلة . يقول الحطيئة :[2]

فَهَلْ تُبْلِغَنيكَها عِرْمِسٌ ... صموتُ السُّرى لا تَشْكَّى الكَلاَلاَ
مُفَرَّجَةَ الضَّبعِ موَّارةٌ ... تجُذ الإكامَ وتنفي النِّقَالا
إذا ما النواعجُ واكَبْنَها ... جَشَمْنَ مِنَ السيرِ ربواً عضالا
وَيحْدُو يديها زجولا الحَصَى ... أمرَّهُمَا العصبُ ثم استمالاَ
وَتُحْصِفُ بعدَ اضطرابِ النسو ... ع كما أحصفَ العلجُ يحد والحيالا
تُطيرُ الحَصَى بِعُرَى المنسمي ... نِ إذا الحاقفاتُ أُلِفْنَ الظلاَلاَ[3]

ذكر الحطيئة الصفات الجسمية التي هيأتها لتكون سريعة من الشدة والصبر ومن كونها مفرجة الضبع مفتولة العضلات ، وهذا أدعى لسرعتها ، وذكر ما رأيناه عند زملائه من مسابقتها النواعج[4] وكيف أنها ترهقهن من أمرهن عسراً ثم عرض

---

(١) انظر « ديوان الحطيئة » ٢٦٠ .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٢١٦ .
(٣) عرمس: شديدة (شبهها بالصخرة) صموت السرى : لا ترغو لصبرها . الضبع : العضد . موارة : سريعة . النقال : رقاع النعال . النواعج : البيض من الإبل . ربوا : انتفاخا . عضالاً : شديداً . يحدو : يسوق . زجولاً الحصى : رجلاها اللتان تقذفان الحصى . أمرهما : فتلهما . العصب : شدة الفتل . استمال : استعطف . الاحصاف : سرعة العدو . العلج : الحمار الغليظ . الحيال : جمع حائل وهي الناقة التي لم تحمل . عرى المنسمين : السلاميات . الحاقفات : الظباء الرملية .
(٤) انظر على سبيل المثال ما جاء في « ديوان زهير » ٣٧٠ و « ديوان كعب » ٥٣ .

لرجليها وقذفهما بالحصى ، ويشبهها بحمار الوحش الذي يسوق الأتن الحائلات . . وأنها في قيظ الظهيرة تسرع .

***

وبعد فقد تبين أن هؤلاء الشعراء عندما يريدون ذكر سرعة الناقة يصفونها بالقوة والصلابة والفتاء والقوائم السريعة التي لم يخنهن مفصل :[1]

وتبين أيضاً أن في وصفهم الدقيق لسرعتها ما يدل على نشاطها ، وربما ينصون صراحة على نشاطها ، كما قال أوس :[2]

وَقَدْ أَرانِي أمامَ الحيِّ تحملُني جُلذية وَصَلتْ دأيا بألواحِ
عيرانة كأتان الضحل صلَّبها جَرْمُ السوادِيِّ رضوّه بمرضاحِ[3]

وتبين أن السرعة والنشاط لا تتعارض مع ليونة السير وسهولته[4] وأن هذا الوصف هو الغالب ، وشذّ عن ذلك ما ذكره الحطيئة من أنها (ثقيلة الوطء)[5] أو أنها (تنحاز من حسها الأفعى إلى الوزر) .[6]

***

انقيادها وتذللها :

وصفوها بالانقياد والتذلل ، ونفوا عنها اللجون والخلاء فمن ذلك قول

---

(١) كما قال كعب انظر « ديوان كعب » : ٥٢ .
(٢) « ديوان أوس » ١٨ وانظر أيضاً « ديوان أوس » ١٢٩ .
(٣) الجلذية : الناقة الشديدة الغليظة . الدأي : فقر الكاهل والظاهر ، ويريد أنها لشدتها متماسكة العظام فدأياتها موصولة بألواحها . أتان الضحل : صخرة . الجرم : النوى . السوادي : نخل سواد العراق . رض : دق . المرضاح : الحجر الذي يرضح به النوى أي يدق .
(٤) انظر « ديوان زهير » ٢٩٦ .
(٥) انظر « ديوان الحطيئة » ٤٩ .
(٦) انظر « ديوان الحطيئة » ٧٠ .

أوس (غير لجون) ،[1] وقول زهير (لم يخنها قطاف في الركاب ولا خلاء) ،[2] وقول كعب :[3]

وكنتُ إذا ما اعترتني الهمومُ أُكلِّفُها ذاتَ لَوْثٍ أَمُونَا
عذافرةً حرةَ اللِّيطِ لا سَقُوطاً ولا ذاتَ ضفنٍ لجُونَا[4]

وقوله :[5]

غبراءَ خاضعةِ الصُّوَى جاوزتُها ليلاً بكاتمةِ السُّرى مذعانِ

***

هزالها بعد سمنها :

وصفوا الناقة بالهزال يصيبها بسبب متابعة السير حتى لم يعد عليها لحم بعد ما كانت مكتنزة لحماً مطبقة شحماً . يقول أوس : إن تدآب السير عليها لقضاء حوائجه أصابها بالهزال حتى ذهب لحمها فصارت مثل ناقة قد أخذ الجازر ما على عظامها من اللحم .

يقول :[6]

أضرتْ بها الحاجاتُ حتَّى كأنّها أكبّ عليها جازرٌ متعرقُ[7]

---

(١) « ديوان أوس » ١٢٩ . ولجون : حرون ، وقد مرّ هذا القول آنفاً .
(٢) « ديوان زهير » ٦٢ . والقطاف : مقاربة الخطو . والركاب : الابل . الخلاء : بروكها بعناء وعدم قيامها .
(٣) « ديوان كعب » ١٠٠ .
(٤) اللوث : الشدة والقوة . الأمون : الصلبة التي لا يخاف عثارها . السقوط : الضعيفة في مسيرها . لا ذات ضفن : يريد أنها ليس لها هوى سوى هوى راكبها .
(٥) « ديوان كعب » ٢١٧ .
(٦) « ديوان أوس » ٧٧ .
(٧) الجازر : الجزار . المتعرق : الذي يأخذ ما على العظم من اللحم .

وذكر زهير أن ناقته شديدة الظهر ، وأن مرعاها أكثر شحمها وزاد في ضخامتها حتى أصبحت كالقصر المبوب . . كانت تتقدم القلائص التي أضر بها الوجيف . . . وما زالت كذلك في سير سريع مستمر حتى ضمر ما بقي في جوفها من علف وماء فقال :[1]

أُجُـدٌ ، سَرَى فيهـا ، وظَاهَـرَ نَيَّها ... مرعـىً لهـا أَنِـقٌ بفَيْدٍ معشبُ
تَهْـدِي قلائصَ ، دُرِّبَـتْ ، عيديةً ... خُوصاً أضرَّ بهـا الـوجيفُ المُهْذِبُ
حتـى انطـوى بعـدَ الـدؤوبِ ثميلُها ... وأُذِلَّ منهـا بالفَـلاةِ المَصْعَبُ[2]

ـ ويقول زهير في موضع آخر : عندما رأيت الـديار لا تجيبني نهضت إلى ناقتي الضخمة العظيمة الشديدة الصلبة ، وركبتها ومـا زلـت في تسياري حتـى ذاب سنامها ولم يبق منه إلاّ أصله . يقول :[3]

فلمـا رأيـتُ أنَّهـا لا تجيبُـني ... نهضتُ إلى وجنـاءَ ، كالفحـل جَلْعَدِ
جُمَـالِيَّةٍ ، لم يُبْـقِ سَيْري ورِحْلَتي ... على ظَهْرِها ، من نَيِّها ، غيرَ محفد[4]

ـ ويقول كعب : إنها بعد الجهد ضمرت حتى بدا مريئها كنصل السيف أو كالقدح بلا ريش ولا نصل ، وقد جعلته بطانة للعنق . يقول :[5]

تَرى المريءَ كنصلِ السيفِ إذْ ضمرت ... أو النضـيِّ الفضـا بطنتـه العنقا[6]

وهي كناية رائعة عن إجهاد التعب اياها وهزالها .

---

(١) « ديوان زهير » ٣٧٠ .
(٢) الأجد : الناقة الشديدة . ظاهر : أكثر وأظهر . الني : الشحم . الأنق : المعجب . فيد : اسم موضع . انطوى : ضمر . الدؤوب : الإسراع في السير واللزوم له . ثميلها : ما بقي في جوفها من علفها ومائها . المصعب : الصعوبة .
(٣) « ديوان زهير » ٢٢٠ .
(٤) الجلعد : الشديدة الصلبة . الني : الشحم . المحفد : أصل السنام .
(٥) « ديوان كعب » ٢٣٦ .
(٦) النصي : القدح بلا ريش ولا نصل . الفضا : المهمل أو غير المحكم . وبطنته : جعلته بطانة للعنق .

ويقول كعب :[1]

حرفٍ توارثها السُّفَارُ فجسمُها عارٍ ، تَساوكُ ، والفؤادُ خطيفُ[2]

لقد سوفر عليها مرة بعد مرة فأهزلها ذلك ، وعري جسمها عن اللحم فهي تتمايل من الضعف والهزال وفؤادها مخطوف .

ضمورها :

مما يتصل بهزال الناقة ما أسرف الواصفون بذكره وهو ضمورها، والضمور سمة محمودة تدل على أصالتها ، وصفة تساعدها على السرعة ، وقد ذكروه جميعاً .

وقد عبر عنه زهير بقوله (مقورة) أي ضامرة ، وذلك في البيت :[3]

مقوَّرة ، تتباري لا شوار لها إلا القطوع على الأنساع والوُرُكُ[4]

وعبر عنه مرة أخرى بقوله : (إنَّ نسعي غرضيها قَلِقَانِ)[5] أي لضمورها .

وذكر كعب هذه الصفة بقوله : (ذات لوث)[6] أي ناقة شديدة ضامرة ، وما أكثر ما ورد معنا في وصفها (أنها حرف) ومن المعاني التي وردت في شرح كلمة (حرف) أنها ضامرة .

***

---

(١) « ديوان كعب » ١١٥

(٢) توارثها السفار : أي سوفر عليها مرة بعد مرة فأهزلها ذلك . تتساوك : تتمايل من الهزال والضعف في السفر . خطيف : مخطوف .

(٣) « ديوان زهير » ١٦٨ .

(٤) الشوار : المتاع . القطوع : الطنافس التي يوطأ بها الرحل . الورك : ثوب يشدُّ على مورك الرحل .

(٥) « ديوان زهير » ٣٦٢ .

(٦) « ديوان كعب » ١٨٨ .

ضخامتها وسمنها :

ذكرنا في فقرة سابقة أن هؤلاء الشعراء كانوا يصفون الناقة بأنها سمينة قد رعت الربيع ، فنا سنامها ، وعظم شحمها ، واكتنز لحمها . . ثم عندما توارثها السفر أكلت هذه الرحلات لحمها وأذابت شحمها وجعلتها مهزولة .

وقد وصفوها بالضخامة ، والضخامة أمر يختلف عن السمن ، وقد يجتمعان وقد يفترقان ، ولكنهما عندما يجتمعان يزين كل منهما صاحبه ، فالسمن يزيد الضخامة والضخامة تجعل السمن جميلاً مقبولاً ، والذي اتضح من دراسة النصوص أنهما سمتان محمودتان . . . وما ذكروا الهزال إلا ليبينوا مدى احتمالها الصعاب وتأثير السفر عليها وذلك يدل على صلابتها وشدتها .

ولن آتي بالنصوص كلها لكثرتها ، ولأن جلها مرّ بنا آنفاً وسأكتفي بالإشارة إلى بعضها . وصفوا ضخامة الناقة بكلمة حيناً وبصورة حيناً آخر .

- فقد يوردون كلمة تدل على هذا المعنى مثل (جلالة) التي رأينا أنها تكررت كثيراً في أشعار أوس[١] وكعب[٢] والحطيئة[٣] ومثل كلمة (وجناء) التي تكررت كثيراً في أشعار أوس[٤] وزهير[٥] ومثل كلمة (دوسرة)[٦] وهي الناقة الضخمة . ومثل كلمة (كباري)[٧] وهي الضخم العظيم . ومثل كلمة (سناء)[٨] وهي الشديدة العظيمة ، ومثل كلمة (وهمة)[٩] وهي الضخمة القوية ، ومثل كلمة (جمالية)

---

(١) « ديوان أوس » ٢ .
(٢) « ديوان كعب » ١١٥ .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٧٦ .
(٤) « ديوان أوس » ٤٠ .
(٥) « ديوان زهير » ٤١ .
(٦) « ديوان زهير » ٤١ .
(٧) « ديوان زهير » ٢٤٥ .
(٨) « ديوان زهير » ٣٣١ .
(٩) « ديوان أوس » ٦٤ .

وهي الناقة الوثيقة التي تشبه الجمل في خلقها وشدتها وعظمتها وقد تكررت في أشعارهم ،[1] ومثل كلمة (عذافرة) وهي الناقة العظيمة الخلق كما قال زهير[2] وقد اجتمع في هذا البيت وصفها بالسمن والضخامة .

كلفتها عرمسا عذافرة ذات هباب فعما مناكبها[3]

وقد تكررت كثيراً في أشعار زهير[4] وكعب[5] والحطيئة .[6]

ـ وقد يكون وصفها بالضخامة عن طريق الصورة كقول زهير : [7]

كبنيانة القرئي ، موضع رحلها وآثار نسعيها من الدف أبلق

فهو يشبهها بالبنيان الذي يقيمه الرجل في القرية .

أو كقوله : [8]

وكأنها إذ قربت لقتودها فدن تطوف به البناة مبوب

يشبهها بقصر مشيد تطوف به البناة .

وقد وجدنا هذه الصورة في شعر طفيل ، فقد وصف نوقه السمينة الضخمة فشبهها بالقصور التي تطين وترفع ، ولم يكتف بذلك بل جاء بصورة أخرى وهي أن الناظر عندما ينظر إليها والراعي البطيء الثقيل يسوقها ، يحسبها إبل عراقي موفرة تدفع دفعاً . . . وجاء أخيراً بصورة ثالثة تجدها في قوله لقد غطى الشحم كل مفصل

---

(١) انظر مثلاً « ديوان زهير » ٣٥٩ و ٢٢٠ و « ديوان أوس » ٦٤ .
(٢) « ديوان زهير » ٢٦٥ .
(٣) العرمس : الناقة الصلبة الشديدة . الهباب : النشاط . وفعماً : ممتلئاً .
(٤) « ديوان زهير » ٣٦٩ .
(٥) « ديوان كعب » ٩ و ١٠٠ .
(٦) « ديوان الحطيئة » ٥ .
(٧) « ديوان زهير » ٢٥٧ .
(٨) « ديوان زهير » ٣٦٩ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من مفاصلها فلم يعد يبدو لها مرفق ، والروادف أمثال الدلاء تضطرب وتتمايل فقال :[1]

وقد سمنت حتى كأن مخاضها ... مجادل بناء تطان وترفع
إذا ساقها الراعي الدثور حسبتها ... ركاب عراقي مواقير تدفع
من النيّ حتى استحقبت كل مرفق ... روادف أمثال الدلاء تنعنع[2]

وكقوله :[3]

وقد سمنت حتى كأن مخاضها ... تفشغها ظلع وليست بظلع

يقول : وقد سمنت حتى كأن الحوامل التي أتى عليها عشرة أشهر يعتريها عرج وليست بعرجاء .

ـ وقد يذكرون ضخامة الناقة على العموم . وقد يذكرون ضخامة بعض الأعضاء المهمة كالعنق الغليظ المطرد الذي يشبه بعضه بعضاً على نحو ما رأينا عند زهير[4] أو الصدر والأضلاع كما قال زهير أيضاً :[5]

زَجَرْتُ عليهِ ، والحيَّات مَذْلَى ... نَبيلَ الجوزِ ، أتلعَ ، تَيِّحَانِ
شديدَ مغارزِ الاضلاعِ جَلْساً ... عريضَ الصدرِ مُضْطَرِبَ الجرانِ[6]

---

(١) « ديوان الطفيل » ٨٨ ـ ٨٩ .
(٢) المخاض : النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر . المجادل : جمع مجدل وهو القصر . تطان : تطين . الدثور : البطيء الثقيل الذي لا يكاد يبرح مكانه . الركاب : النوق . المواقير : الموقرة بأعبائها . تدفع : تساق . النيّ : الشحم التنعنع : الاضطراب والتمايل .
(٣) « ديوان طفيل » ٥٢ .
(٤) « ديوان زهير » ٣٥٦ .
(٥) « ديوان زهير » ٣٥٠ .
(٦) زجرت : دفعت وأثرت . مذلى : جمع مذيل وهو الضجر القلق . النبيل ـ هنا ـ الجسيم . والجوز : الصدر . الأتلع : طويل العنق . والتيحان : النشيط المتصرف الذي يعترض في مشيه ويميل نشاطاً . ومغارز الأضلاع : يريد الصلب لأنه موضع غرز هذه الأضلاع . الجلس : الشديد العريض الصدر ، والأصل في الجلس أن الصخرة شبيهة به . مضطرب الجران : أي طويل العنق .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكلما كان عرض صدر البعير كبيراً كان ذلك أضخم لبدنه .

وتبعه في ذلك كعب فقال :[1]

فلمَ يَجدا إلا مُنَاخَ مطيةٍ تجافى بها زورٌ نبيلٌ وكلكلُ[2]

أو الرأس الذي شبهوه بالقبر أو الحجر العظيم المستطيل[3] أو العضد الذي شبهوه بسارية القصر[4] أو العجز الذي شبهوه بالباب الضخم العظيم[5] .

ـ ووصف أوس ناقته بالعلو والامتلاء وبأنها كناز اللحم[6] وتابعه زهير فوصفها بأنها كناز البضيع[7] ووصفها الحطيئة بأنها مقذفة اللحم .[8]

واستخدموا صورة واقعية وهي أن القراد يزَل ولا يستطيع أن يرتقي على الناقة لسمنها حتى كأن لحمها صفوان أملس .

فمن ذلك قول زهير :[9]

غليظ ، على مجذى القراد ، كأنما بجانب صفوان يزل ويرتقي[10]

وقول كعب :[11]

زهراء مقلتها ، تردد فوقها عند المعرس ، مدلج القردان

---

(١) « ديوان كعب » ٥٢ .
(٢) الزور : الصدر . نبيل : ضخم جسيم .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٣٣ و ٣٦٦ .
(٤) « ديوان الحطيئة » ٣٦٦ .
(٥) « ديوان الحطيئة » ٣٦٦ .
(٦) « ديوان أوس » ٦٤ .
(٧) « ديوان زهير » ٢٩٦ والبضيع : اللحم .
(٨) « ديوان الحطيئة » ٢٥٤ .
(٩) « ديوان زهير » ٢٤٥ .
(١٠) جذا : انتصب على أطراف أصابعه وثبت .
(١١) « ديوان كعب » ٢١٩ .

أعيت مدارعها عليه كأنما تنمي أكارعه على صفوان[1]

وقول الحطيئة : [2]

يسري القراد عليها ثم تزلقه منها مغابن مسود بها العرق[3]

***

شدتها :

وصفوا الناقة بالقوة والصلابة والصبر ، ومقاومتها البرد والتعب وتحملها السير والظمأ ، وليقرروا هذه الشدة وصفوها بالبطر وأطلقوا عليها أنها (مذكرة)[4] و (عنتريس)[5] و (عيسور)[6] و (مشير)[7] و (عنس أمون) قال أوس : [8]

وعنس أمون قد تعللت متنها على صفة أو لم يصف لي واصف[9]

والعنس في الأصل الصخرة ويريد بها الناقة القوية ، فقد شبهت بالصخرة لصلابتها وكذلك فقد وصف زهير[10] وكعب[11] ناقتيهما بأنها عنس أمون .

وذكر أوس أن من أسباب صلابتها أكلها النوى الذي رضوه بمرضاح .[12]

---

(١) المدلج : ما أدلج من القردان ، أي سار ليلاً . تردد فوقها : لم يثبت لسمنها واكتناز جسمها ولكونه أملس ، فلا يقدر القراد على المقام . المدرع : ما بين ركبتها إلى ابطها .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٣٨٤ .
(٣) المغابن : أصول الاباط والأفخاذ .
(٤) « ديوان كعب » ١٠ .
(٥) « ديوان الحطيئة » ٢٦٠ .
(٦) « ديوان أوس » ٤٠ والعيسور : الناقة الشديدة لم تروض .
(٧) « ديوان أوس » ٤١ ومشير : بطرة .
(٨) « ديوان أوس » ٦٤ .
(٩) أمون : وثيقة الخلق فهي مأمونة لا تعثر ولا تفتر . تعلل بالأمر : تلهى به .
(١٠) « ديوان زهير » ٣٣١ .
(١١) « ديوان كعب » ١٠٠ و ٢٠٢ .
(١٢) « ديوان أوس » ١٨ .

إقامتها في القفر :

وصفوها بأنها مقيمة في القفر ، وأنها تحبه وتسر بالإقامة فيه ، حتى إذا ما أقامت في الريف حقبة مرضت وحنت من جديد إلى معاودة العيش في ربوع الفيافي .

- يقول طفيل إن هذه النوق تقيم بالقفر ولا تروح إلى أهلها ، فلم تر ناراً منذ حول ولم تسمع أصوات الكلاب المقيمة كذلك . يقول :[1]

عوازب لم تسمع نبوح مقامة ولم تر ناراً تمّ حول مجرم[2]

- ويقرر أوس أن إقامتها في الريف آذتها فيقول : لقد أقامت نصف حول بالحيرة قدمت من الحرب ولم تجرب بعد ، ولم تناسبها هذه الإقامة . . وكان الخادم يشتري لها الحشيش شراء لتأكل . يقول :[3]

وقد ثوت نصف حول أشهرا جددا تسفي على رحلها بالحيرة المور
وقارفت وهي لم تجرب ، وباع لها من الفصافص بالنُّمّيِّ سفسير[4]

نباهتها :

وصف زهير[5] ناقته بأنها (لحاظة طفل العشي) تتلفت وتنظر يمنة ويسرة فتلحظ الأشباح الخفية ، وقيد هذه الرؤية بأنها في الطفل ، وهو قبيل العشي حين تصفر الشمس للمغيب ، وهو وقت تصعب فيه الرؤية .

- وذكر كعب[6] أن ناقته تتلفت لصوت خفي حيناً ولغير صوت حيناً آخر .

(١) « ديوان طفيل » ٧٨ .
(٢) عوازب : أي لا تروح إلى أهلها وإنما تبيت في القفر . الحول المجرم : الحول التام .
(٣) « ديوان أوس » ٤١ .
(٤) ثوت : أقامت . الجدد : التامة . المور : التراب الدقيق . يسفي : تحمله الرياح حتى تصيره عالياً على الرحل . قارفت : دنت من الجرب ولم تجرب بعد . باع لها : اشترى لها . الفصافص : جمع فصفص وهو نبات عشبي معروف رطب . النمي : الفلوس . السفسير : الخادم .
(٥) « ديوان زهير » ٣٣١ .
(٦) « ديوان كعب » ٩٤ .

ـ وقريب من هذا ما ذكره الحطيئة .[1]

ـ وقال في موضع آخر : إن نباهتها لتجعل عينيها في حذر ومراقبة دائمة للذباب الذي يغرد كما يغرد الشارب السكران ، وإن صوت الهدهد ليروعها . . وإنها تراقب السوط وتخافه وتأباه فإذا أحست بوقعه جرت وعدلت بي عن الطريق ولا أستطيع أن أقومها إلى ضحى الغد قال :[2] :

تراقب عيناها إذا تلع الضحى ... ذبابا كصوت الشارب المتغرد
وكادت على الأطواء أطواء ضارجٍ ... تساقطني والرحل من صوت هدهد
وإن آنست وقعاً من السوط عارضت ... بي الجور حتى تستقيم ضحى الغد[3]

ومما يدل على نباهتها أن كعبا[4] يقول : إنني اكتلأت بعينها ، والعرب تحترس بها مما يفزع يقول :[5]

أنخت قلوصي واكتلأت بعينها ... وآمرت نفسي : أيّ أمريّ أفعل[6]

معرفتها للظرق ودورها في الترويح عن النفس والحرب :

أما معرفتها الطرق فقد قال أوس : إنها تعرف الطريق في الليل وتعرف وجهتها وقصدها إذا تحير المتحير ولم يستطع المضي .[7] وذكر كعب معرفتها بالأرض الطامسة التي لا أعلام لها .[8] وأما دورها في الحروب والترويح عن النفس فقد ذكروه كثيراً .[9]

---

(١) « ديوان الحطيئة » ١٩ .
(٢) « ديوان الحطيئة » ١٥٥ .
(٣) تلع : طلع ، أي ارتفع النهار . وتشبيه صوت الذباب بصوت السكران المترنم متداول عند الشعراء ذكره عنترة في معلقته وكعب وغيرهما . الطوى : البئر المطوية . وضارج : اسم مكان . تساقطني : تسقطني . آنست : أحست .
(٤) « ديوان كعب » ٥٣ .
(٥) اكتلأت بعينها : جعلتها تكلؤني .
(٦) وهذا متكرر في أشعار هذه المدرسة وانظر « ديوان كعب » ٣٦ و « ديوان الحطيئة » ٣٦٦ .
(٧) انظر « ديوان أوس » ٦٤ .
(٨) انظر « ديوان كعب » ٩ .
(٩) وقد مرّ بنا هذا المعنى كثيراً فيما سبق ، ونشير إلى « ديوان زهير » ٣٧٠ .

أكلها وشربها :

وصفوها بكثرة الأكل وتحدثوا عن صريف أنيابها ، فقد ذكر الحطيئة أن ناقته شديدة الأكل ، بقيت في مكان مخصب معين حولا كاملاً ترعى فيه حتى بنى عليها الشحم وأصبح الحزام لا يحيط بها .(١) وذكر أنها طويلة العشاء فهي (معشاء إلى السحر) ،(٢) وأثنى أيضاً على نوقه بأنهن مهاريس شديدات الأكل .(٣)

وذكر زهير صريف أنياب بعيره وشبهه بترنم الصرد فقال :(٤)

كأن صريف نابيه إذا ما أمرهما ترنم أخطبان(٥)

وذكر الحطيئة صرير ما ضغيه حالة الاجترار ثم قال : إنه إذا شرب سمع لجرعه صوت كالصوت الذي يحصل عند اصطدام الجدول بالساقية فقال :(٦)

وإن عب في ماء سمعت لجرعه خواة كتثليم الجداول في الدبر(٧)

***

علاقتها مع الفحل :

ذكر الطفيل أن الفحل كلف بنوقه راغب بها وهي تأباه ومع ذلك فهي تشم

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٣٧٦ .
(٢) « ديوان الحطيئة » ٧٠ .
(٣) « ديوان الحطيئة » ٣٣٢ .
(٤) « ديوان زهير » ٣٥٤.
(٥) الصريف : الصوت . أمرهما : حركهما . الترنم : تطريب الصوت . الأخطب : الصرد وهو طائر أبيض البطن أخضر الظهر ضخم الرأس والمنقار ، وإنما سمي أخطب لخطوط فيه .
(٦) « ديوان الحطيئة » ٣٦٦ .
(٧) عب : كرع . الخواة : الصوت . الجداول : الأنهار الصغيرة . الدبرة : الساقية بين المزارع ، وجمعها دبر.

منكبيه ، وشبهها بعذارى قريش قال :[1]

تسوف الأوابي منكبيه كأنها عذارى قريش غير أن لم توشم[2]

وكرر هذا المعنى فقال إن الفحل عندما يدعوهن يستجبن إليه كما يستجيب الطروب إلى صوت المغني ، ولكنهن يأبين أن يقربهن الفحل لأنهنّ لواقح فيكتفين بالاعتكاف حوله لا يتحولن عنه كما تعكف العذارى حول ميت عزيز .

قال :[3]

إذا دعاهن ارعوين لصوته كما يرعوي غيد إلى صوت مسمع
تبيت أوابيها عواكف حوله عكوف العذارى حول ميت مفجع

(١) « ديوان الطفيل » ٧٨ .
(٢) تسوف : تشم . الأوابي : التي تأبى الفحل . الوشم : النقش .
(٣) « ديوان طفيل » ٥٢ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وصف الخيل

عرف العربي الخيل وأحبها ، وعاشرها وصاحبها ، وأفاض عليها مشاعره ، واستطاع أن يجعل منها أداة فعالة ومهمة من أدوات القتال ، فروَّضها وذللها ، وعني بتربيتها وبتكاثرها ، وعرف أنواعها ، فحافظ على صفاء دم الجيّد منها ، وبالغ في الاهتمام به .

والخيل عنصر مهم في الحروب للغارات والكرّ والفرّ ، وللقتال وإحراز النصر ، والخيل زينة يزدان بها المرء أيام السلم ، ومتعة يستمتع بها في السبق وملاحقة الطرائد أيام القنص ، وثروة يعتزّ بامتلاكها السراة وكرام الناس .

ولقد أقسم الله بها دلالة على عظيم شأنها فقال تعالى :

﴿ والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا﴾ وقرر تبارك وتعالى أنها من الشهوات التي زين حبها للناس ،[1] ولذا فقد وصفها العربي في الجاهلية وصفاً دقيقاً أفرغ فيه طاقاته البيانية واستخدم فيه خياله الخصب ، فكان من ذلك أدب جميل . ووصفها شعراؤنا (عبيد الشعر) كما فعل أسلافهم ومعاصروهم ـ وصفاً دقيقاً ، بل إنَّ أحدهم وهو طفيل عرف بطفيل الخيل لكثرة ما قال فيها ولما أفاض وأجاد .

وقد وقفت من النظر في وصفهم على أمر غريب ، ذلك أنهم في الارتحال والانتقال يستخدمون الإبل ولا يركبون الخيل وإنما يقودونها ويربطونها بالإبل ،

---

(١) وذلك في آية آل عمران ﴿ زين للناس حب الشهوات . . . ﴾ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وذكروا أنها عندئذٍ تبطىء ولا تسرع ،[1] وهذا يدل على مدى اهتمامهم بها ورغبتهم في ادخار جهدها وطاقتها ليوم احتياجهم لها في حرب أو صيد أو سبق أو مفاخرة .

وكانوا يسمون خيولهم وكأنها أبناؤهم فيتحدث أحدهم عن فرسه باسمه[2] ويسقونها اللبن حتى تستعيد سمنها .[3]

وهناك دراسات قديمة وحديثة عن الخيل وأوصافها[4] كما ألف اللغويون كتباً خاصة في الخيل .[5]

***

(١) انظر « ديوان زهير » ٥٠ و ١٥٣ .
(٢) انظر « ديوان أوس » ١١٣ .
(٣) انظر « ديوان زهير » ١٨٦ .
(٤) منها « نسب الخيل » لهشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ وهو مطبوع ، ومنها « عقد الأجياد في الصافنات الجياد للأمير محمد بن عبد القادر الجزائري وهو مطبوع في المكتب الاسلامي بدمشق . ومنها « جواب السائل عن الخيل الأصائل » للملك عبد الله بن الحسين الهاشمي وهو مطبوع في المكتب الاسلامي بدمشق ومنها « رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد » لمحمد البخشي الحلبي طبع حلب .
(٥) منها « كتاب الخيل » للأصمعي ومنها « كتاب الخيل » لأبي عبيدة تحقيق كرنكو . وانظر « المخصص » لابن سيده ٦ / ١٣٥ ـ ٢٠٤ .

١ ـ أوصافها التفصيلية من حيث مظهرها :

وأعني أوصافهم لأعضائها التي تتمثل في صفات الفرس المثلى وسأورد منها وصفهم لرأس الفرس[١] ووجهه وعينه وخدّه وفمه وأذنه وأعرافه وعنقه وصدره وبطنه وقوائمه ولونه وذنبه . . . وما إلى ذلك .

فأما الرأس فقد ذكر طفيل أن رأس الفرس كالسنان الذي يركب على الرمح إنه يتقدم بانطلاقة وسرعة ، وتأتي بعده أجزاء الفرس الأخرى فهو يهدي العنق والقوائم إلى المكان المقصود . قال طفيل :[٢]

وعُوجٍ كأحْنَاءِ السَّرَاءِ مَطَتْ بها مطاردُ تَهديها أسنَّةُ قعضبِ[٣]

وذكر زهير رأس الفرس فقرر أنه صغير وشبهه بأسفل قناة الرمح المتخذة من شجر المران القوي فقال :[٤]

صَعْلٍ ، كسافلةِ القَنَاةِ من الـ مُرَّانِ ينفي الخيلَ بالعَذْمِ[٥]

***

وأما وجهه فقد وصفه طفيل بقلة اللحم ، وهذا مستجاد في الخيل فقال عنه مرة : (ساهم الوجه)[٦] وقال مرة أخرى عن خيله :[٧]

مُعَرَّقَةَ الألحى ، تلوحُ متونُها تشيرُ القَطَا في مَنْقَلٍ بعد مقرب[٨]

---

(١) الفرس : يذكر ويؤنث .
(٢) « ديوان طفيل » ٢١ .
(٣) عوج : وصف لقوائم . الحنو : عود فيه عوج ، وجمعه أحناء . والسراء : شجر قوي تتخذ منه القسي . ومطت : جدت في السير . والمطرد : الرمح القصير ، ويراد به هنا العنق . تهديها : تدلها وتتقدمها . الأسنة : جمع سنان وهو ما يركب على الرمح وهو أداة الطعن . ويريد بالأسنة رؤوس الخيل . وقعضب : اسم رجل كان يعمل الأسنة في الجاهلية .
(٤) « ديوان زهير » ٢٥٦ .
(٥) صعل : دقيق العنق صغير الرأس . سافلة القناة : أسفلها ، وهو أغلظ كعوباً وأشد . المرّان : شجر قوي تتخذ منه الرماح . ينفي : يطرد العذم : العضّ يريد أنه يعضها ولا يتركها تتقدمه .
(٦) « ديوان طفيل » ٦٠ وساهم : قليل لحم الوجه .
(٧) « ديوان طفيل » ٣٤ .
(٨) معرقة : ذهب لحمها . الألحى : جمع لحي ، وهو أحد العظمين اللذين فيهما الأسنان ، أي قليلة

ووصف كعب فرسه بحدّة البصر ، حتى إذا بدا في الأفق شبح شخص آنسه القوم كان هذا الفرس أبصر بالشخص وأكثر إدراكاً له . قال[1]

أمين الشظى ، عبلٍ ، إذا القومُ آنسُوا مدى العينِ شخصاً كانبالشخصِ أبصرا[2]

***

ووصف زهير فرسه بأنه (أسيل الخد) أي طويله وناعمه فقال : [3]

هبطتُ بمسود النَواشرِ سابحٍ مُمَرٍّ أسيلِ الخدِ ، نَهْدٍ مراكلُه

***

ووصف طفيل فمه بالاتساع ، وعبرّ عن ذلك بصورة طريفة وهي : أنه لو أُلقي كلب في فمه لذهب ، وهي صورة على سذاجتها ـ لا تخلو من مبالغة قال : [4]

كأنَّ على أعطافِهِ ثوبَ مائحٍ وإنْ يُلْقَ كلبٌ بينَ لَحْيَيْهِ يذهبِ[5]

***

ووصف أوس أذن فرسه بأنها صغيرة ، وشبه هذه الأذن بغصن المرخ اللين فقال : [6]

وأذنٌ لها ، حَشْرةٌ مَشْرةٌ كإغليط مَرْخٍ إذا ما صَفِر[7]

***

= لحم الوجه . تلوح : تبدو . المنقل : الطريق في الجبل . المقرب : الطريق المختصر .

(١) « ديوان كعب » ٢٣ .

(٢) أمين : موثق الخلق . الشظى : عظيم لاصق بالذراع ، فإذا عدا الفرس يبين كأنه منشق وليس منشقاً . عبل : ضخم .

(٣) الحشرة : الصغيرة الدقيقة . المشرة من الاتباع . والاغليط : كل غصن تناثر عنه الورق . والمرخ : شجر من العضاه لين رقيق .

(٤) « ديوان أوس » ١٠٣ .

(٥) « ديوان زهير » ١٢٨ .

(٦) « ديوان طفيل » ٢٧ .

(٧) المائح : الذي ينزل البئر فيملأ الدلو إذا قلّ ماؤها ، وهو أبداً مبلول . يصف الفرس بأنه عرق حتى ابتلّ جلده فصار مثل ثوب المائح . وأن ألقي كلب بين لحييه ذهب ومرّ دون أدنى عناء لاتّساع فمه .

ووصفوا الغرة بأنها طويلة متسعة فقال أوس : (ذات شمراخ)[1] والشمراخ : غرة الفرس إذا اتسعت وطالت .

ووصفوا الأعراف (وهي الشعر في عنق الفرس) باللمعان فقال طفيل :[2]

كأنَّ على أعرافِهِ ولِجَامِهِ سَنَا ضَرَمٍ من عرفجٍ يتلهبُ[3]

وأعاد المعنى واللفظ ذاته في قصيدة أخرى فقال :[4]

كأنَّ على أعرافِهِ ولِجَامِهِ سَنَا ضَرَمٍ من عرفجٍ متلهّبِ

والملاحظ أنه لا فرق بين البيتين إلا في الكلمة الأخيرة والروى . فالأعراف واللجام تلتمع كما تلتمع نار العرفج المتلهبة المشهورة بشدة احمرارها .

***

ووصفوا العنق بالطول والعلو والدقة ، ودعوا الأعناق هوادي تدل على القصد . فقال طفيل :[5]

طِوالُ الهوادي ، والمتونُ صليبةٌ مغاوير فيها للأريبِ مُعَقَّبُ[6]

وقال في قصيدة أخرى :[7]

تُنيفُ إذا اقورَّت من القَوْدِ وانطوتْ بهادٍ رفيعٍ يقهرُ الخيلَ صلهبِ
وعُوجٍ كأحناءِ السَّراءِ مَطَتْ بها مطاردُ تَهديها أسنةُ قعضبِ[8]

---

(١) ديوان أوس ٣٠ .
(٢) « ديوان طفيل » ٤٥ .
(٣) العرفج : شجر سهلي ناره شديدة الحمرة . والأعراف : جمع عرف .
(٤) ديوان طفيل » ٢٦ .
(٥) « ديون طفيل » ٤٣ .
(٦) الهوادي : جمع هاد ، وهو ـ هنا ـ العنق . والمتون : الظهور . المغوار : القوي على الغارات وشدة العدو . الأريب : ذو البصر بالخيل معقب : القدرة على الحرب غزوة بعد غزوة .
(٧) ديوان طفيل » ٢١ .
(٨) تنيف : تشرف . اقورت : ضمرت . رفيع : مرتفع . يقهر : يسبق . الصلهب : الطويل . مطت : جدت في السير . مطارد : رماح قصيرة تطعن بها حمر الوحش . أسنة قعضب : الأسنة التي صنعها قعضب الشهير بهذه الصناعة في الجاهلية ويريد بالأسنة الرماح .

فقد وصف الهادي بأنه رفيع يقهر الخيل ، ونجد في النصّ الأخير تشبيهاً لها بالرماح القصيرة التي تطعن بها حمر الوحش .

ووصف زهير فرسه بأنه (صعل)[1] والصعل : دقيق العنق صغير الرأس ووصف فرسه في موضع آخر بأنها طويلة العنق ، وبأن هذا العنق يميل إلى الأرض في حالة العدو الشديد ، فقال :[2]

كَبْـدَاءُ مقبلـةً ، وَرْكَـاءُ مُـدْبِرَةً قوداءُ . فيها إذا استعرضتَهـا خَضَعُ[4]

ووصف زهير الخيل بأنها (عناجيج)[5] وهي : طوال الأعناق .

***

ووصف طفيل فرسه بأنه سابغ الأضلاع طويلها ، عظيم الصدر منتفخ الجنبين فقال :[6]

فإنْ فَزِعُوا طَارُوا إلى كُلِّ سابحٍ شديدِالقُصيرىسابغِ الضلعِ جُرْشعِ[7]

ووصف الصدر مرة أخرى بأنه معتدل فقال : (والجوز معتدل)[8]

وكذلك فقد وصف أوس فرسَه بقوله (جرشعية)[9] والجرشع : الفرس العظيم الصدر ، المنتفخ الجنبين . وجرى على ذلك زهير فوصفها بأنها (كبداء)[10] والكبداء : الضخمة الوسط .

---

(١) « ديوان زهير » ٢٥٦ .
(٢) « ديوان زهير » ٢٣٧ .
(٣) الكبداء : الضخمة الوسط من الخيل . مقبلة : إذا أقبلت عليك . الوركاء : العظيمة الوركين . .
(٤) القوداء : الطويلة العنق . استعرضتها : نظرت إليها عرضاً . الخضع : ميل العنق والرأس إلى الأرض ويكون في الخيل إذا اشتد عدوها .
(٥) « ديوان زهير » ٢٠٣ .
(٦) ديوان طفيل » ٥٣ .
السابح : السريع . القصيرى : أصل العنق ، أو أعلى الأضلاع . سابغ الضلع : طويل الأضلاع . الجرشع : العظيم الصدر المنتفخ الجنبين .
(٨) « ديوان طفيل » ٥٧ .
(٩) « ديوان أوس » ٦١ .
(١٠) « ديوان زهير » ٢٣٧ .

وقال الحطيئة :[1]

له مَتْـنُ عَيْرٍ ، وسـاقَـا ظلـيمٍ وَنَهْـدُ المَعَـدَّيْنِ ينبـى الحِزامَا[2]

يقول الحطيئة : إنّ فرسه ضخم البطن ، وعبرّ عن ذلك بوصف مَوْضِعَيْ عَقِبَي الراكبِ من جنبي الدابة بالضخامة ، ولم يكتف بذلك بل جاء بكناية عن هذا المعنى ، وهي أنّ حزامه ناب غير مستقر في مكانه المناسب .

ويبدو أنّ الحطيئة استفاد من زهير الذي نراه يصف المراكل بالضخامة خلال وصفه للفرس فمن ذلك قوله (نهد مراكله)[3] ومن ذلك قوله :[4]

وكلَّ طُوَالـةٍ ، وأَقـبَّ نَهْـدٍ مراكِلُها مـن التعـداءِ جـونُ[5]

وفي هذا البيت زيادة أن هذه المراكل الضخمة اسودت من التعداء والـركل والعرق .

والظهر ـ مع القوائم ـ أهم ما في الفرس ، وقد وصفوه بالنعومـة والصلابـة واللمعان فقال طفيل :[6]

مـن الغـزوِ واقـورَّتْ كـأنَّ متونَها زحاليفُ ولـدانٍ عفـتْ بعـد ملعبِ[7]

يشبه متونها بزحاليف الصبيان التي عفت بعد لعب كثير عليها ، فأضحـت ملساء ناعمة ووصف هذه المتون في موضع آخر بالصلابة .[8]

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٣٨٨ .
(٢) العير : ـ هنا ـ حمار الوحش . المعدّان : موضعا عقبي الراكب من الدابة . النهد : القوي الضخم . ينبى الحزام : يجعله نابياً ، أي غير مستقر في مكانه المناسب .
(٣) « ديوان زهير » ١٢٨ .
(٤) « ديوان زهير » ١٨٦ .
(٥) الطوالة : الطويلة . الأقب : الضامر البطن . النهد : العظيم الخلق الضخم . المراكل : مواضع أعقاب الفرسان حيث يركلون الفرس عندما يريدون أن يستحثوها . التعداء : العدو . الجون : السود ، وقد اسودت من الركل والعرق .
(٦) « ديوان طفيل » ٢٤ .
(٧) اقورت: ضمرت. زحاليف: جمع زحلوفة وهي آثار تزلج الصبيان من فوق التل إلى أسفله.
(٨) « ديوان طفيل » ٤٣ .

أما اللمعان فذلك في قول طفيل :[1]

وَكُمْتـاً مُدَمَّـاةً كـأنَّ مُتـونَهـا جَرَى فَوْقَها واستشعَـرَتْ لَونَ مذْهَبِ

***

وصفوها بالطول بقولهم (شطبة)[2] و (سلهبة)[3] أو قولهم (شقاء) و (في أوصالها طول)[4] و (طوالة) .[5]

ويبدو أنّ هذه الصفة المستحسنة عندهم لها صلة بالسرعة وإحراز السبق والتقدم ، ولذلك وجدناها مقرونة بالسرعة ومجاوزة الجياد . كقول طفيل :[6]

وَسَـلْهَبَـةٍ تَنْضُـو الجيـادَ كأنَّهـا رَدَاةٌ تـدلَّـتْ من فُرُوعِ يَلَمْلَمِ[7]

وكقوله :[8]

وكُلِّ طمـوحِ الطـرفِ شقَّـاءَ شَطْبَةٍ مقربـة كَبْـدَاءَ سَفْـوَاءَ مِمْـزعِ[9]

وكقوله :[10]

إنـي ، وإنْ قَلَّ مالـي ، لا يُفارِقُني مِثْـلُ النعامـةِ ، في أوصالِهـا طولُ

***

مما يكمل صورة الفرس الجميلة أن يكون عالياً بعد أن كان طويلاً ، وقد

---

(١) « ديوان طفيل » ٢٣ .
(٢) « ديوان طفيل » ٥٤ و « ديوان أوس » ٣٠ .
(٣) « ديوان طفيل » ٧٩ .
(٤) « ديوان طفيل » ٥٧ .
(٥) « ديوان زهير » ١٨٦ .
(٦) « ديوان طفيل » ٧٩ .
(٧) السلهبة : الطويلة من الخيل . تنضو : تجاوز وتسبق وتتقدم . ردا ة : صخرة . تدلت : نزلت من عل . يلملم : اسم جبل .
(٨) « ديوان طفيل » ٥٤ .
(٩) الممزع : السريع . الشقاء : الطويلة . الشطبة : الطويلة الحسنة . المقربة : التي تسير التقريب . السفواء : الخفيفة السرعة .
(١٠) ديوان طفيل ٥٧ .

وصفه زهير بهذا الوصف ، فذكر أنّ ملجمه لا يكاد ينال قذاله إلا بصعوبة بالغة فقال : (١)

ومُلْجِمُنَا ما إنْ يَنَالُ قَذَالَهُ وَلاَ قَدَمَاهُ الأرضَ إلا أناملُه(٢)

وهذا يدل على علوه ، فالملجم لا ينال قذاله إلاّ بأن يتمطى ولا يقف على الأرض بقدمه ، وإنما يعتمد على أنامله ومشط رجله .

***

وصفوا قوائمه بأنها عوج وقوية ، وقالوا : إن ذلك يستحبّ فيها فقال طفيل : (٣)

وعوج كأحناءِ السراءِ مَطَتْ بها مطاردُ تَهديها أسنةُ قَعْضَبِ

فهذه القوائم عوج كعيدان السراء ، وهو شجر قوي تتخذ منه القسي ويشبهها في القصيدة ذاتها بعود النبعة المنتخب فيقول : (٤)

وجرداءَ ممراحٍ نبيلٍ حزامُها طَروحٍ كعود النبعةِ المتنخبِ(٥)

ووصفوا حوافرها بأنها مطمئنة واسعة ، وأنها تعدو بها راجمة الأرض بحوافرها تكاد الأرض من وقعهن تنصدع كما قال زهير : (٦)

تَرْدي على مُطمئناتٍ مواطِئُها تكادُ مِنْ وقعهنَّ الأرضُ تنصدعُ(٧)

ووصف زهير يديه وكاهله بأنها غلبت سائر أعضائه وكانت أعظم شيء فيه قوة فقال : (٨)

تميمٍ فلو نَاهُ ، فأكمِلَ صُنْعَهُ فَتَمَّ وَعَزَّتْهُ يداهُ وكاهِلُهْ(٩)

(١) « ديوان زهير » ١٣٣ .
(٢) القذال : معقد عذاره في رأسه .
(٣) « ديوان طفيل » ٢١ .
(٤) « ديوان طفيل » ٢١ .
(٥) طروح : التي تطرح الأرض بقوائمها طرحاً شديداً . والنبعة : شجر متين . المتنخب : المتخير.
(٦) « ديوان زهير » ٢٣٨ .
(٧) تردي: تعدو راجمة الأرض بحوافرها . والمطمئنات من الحوافر : التامة الواسعة فهي تطمئن في موقعها من الأرض . المواطىء : الحوافر .
(٨) « ديوان زهير » ١٣٠ .
(٩) تميم : تام الخلق كامله . فلوناه : فطمناه . أكمل صنعه : أي أحسنا القيام عليه حتى تمّ خلقه . عزته يداه : أي غلبت يداه وكاهله سائر أعضائه الكاهل : مجتمع الكتفين في أصل العنق .

ومما يتصل بوصف القوائم أمران : التحجيل ، ومباعدة ما بين الفخذين . فأما التحجيل فقد جاء في وصف أوس لفرسه بأنها ذات أحجال[1] وأما مباعدة ما بين الفخذين فقد وردت في وصف زهير لفرسه إذ قال :[2]

وصاحبي وردةٌ ، نهدٌ مَراكِلُها جَرْدَاءُ لا فَحَجٌ فيها ولا صَكَكُ

فقد قرر أنّ تباعد ما بين فخذيها وسط ليس بالفحج ، وهو التباعد الشديد ، ولا بالصكك ، وهو أن يصطكّ عرقوباها أحدهما بالآخر .

ونجد أحياناً في شعرهم كلمة (صلدم) التي تعنى قوة قوائم الفرس وشدة حوافرها .[3]

وصفوها بأنه عظيمة الوركين فقال طفيل (مشرفاً حجباتها)[4] وهذه سمة من سمات الكرم والعتق ، وذلك عندما يكون رأس الورك مشرفاً . وقال زهير أيضاً :[5]

(وركاء مدبرة) أي عظيمة الوركين .

***

وصف طفيل ذنبها بأنه ذو شعر غزير وبأنه أسود ، وشبهه بمجرّ النخل فقال :[6]

وأذنابُها وحفٌ كأنّ ذُيُولَها مجرُّ أُشاءٍ من سُمَيْحَةَ مرطبِ[7]

***

ويصفونها بأنها جرداء ،[8] أي قصيرة الشعر ، ويعدون هذا دليلاً على كرم أصلها وعتقها وجودتها . قال طفيل :[9]

وجرداءَ مِمراحٍ نبيلٍ حزامُها طَروحٍ كعودِ النبعةِ المُتَنَخِّبِ[10]

***

(١) « ديوان أوس » ١٠٣ . والأحجال : جمع حجل ، وهو بياض في قوائم الفرس .
(٢) « ديوان زهير » ١٦٩ .
(٣) « ديوان طفيل » ٤٦ .
(٤) « ديوان طفيل » ٢٣ .
(٥) « ديوان زهير » ٢٣٧ .
(٦) « ديوان طفيل » ٢٤ .
(٧) الوحف : الشعر الغزير الحسن الأسود . الأشاء : النخل . سميحة : بئر بالمدينة عذبة .
(٨) « ديوان طفيل » ٤٦ .
(٩) « ديوان طفيل » ٢١ .
(١٠) ممراح : نشيطة سريعة . نبيل (هنا) : عظيم .

وصفوا مفاصلها بأمور ثلاثة هي : قلة اللحم ، واللين ، والقوة . وقد عبّر زهير عن قلة اللحم فيها بقوله (ظماء مفاصله) وذلك في البيت الآتي .[1]

فلأياً بلأي قَدْ حَملْنَا غُلامَنَا على ظَهْرِ محبوكٍ ظِمَاءٍ مفاصِلُهْ[2]

وقال كعب عن فرسه :[3]

هَبَطْتُ بملبونٍ كأنَّ جِلالَهُ نَضَتْ عن أديمٍ لَثَّه الطلُّ أحمَرا[4]

والملبون الفرس اللين المعاطف .

وقال الحطيئة يصف المفاصل بأنها قوية مأمونة :[5]

أمينُ الفُصوص ، كَعَيْرِ الفَلا يتلو نحائصَ قُبّاً جسَامَا[6]

***

وصف طفيل خيله بأنها جميعاً من لون مستحسن محمود في الخيل ، وهو اللون الأحمر فقال :[7]

أبوهن مكتومٌ ، وأعوجُ تُفْتَلى وِراداً وَحُوّاً ليسَ فيهنَّ مُغْرِبُ[8]

والوراد جمع ورد وهو ما كان أحمر اللون يضرب إلى صفرة حسنة . والحو جمع أحوى وحواء وهو ما كان أحمر اللون يضرب إلى السواد .

(١) « ديوان زهير » ١٣٣ .
(٢) ظماء مفاصله : أي هي قليلة اللحم ، يابسة وليست برهلة .
(٣) « ديوان كعب » ١٢٣ .
(٤) الملبون : الفرس اللين المفاصل ، ويقال له ملبون إذا ربي باللبن . جلال : جمع جلّ وهو ما تلبسه الدابة لتصان به . نضت : نزعت . لثه الطلّ : أصابه الطلّ ، أي كأن الجلال قد نضيت عن أديم أحمر ند . وهو يصف الفرس بأنه أحمر اللون عليه شيء من العرق .
(٥) « ديوان الحطيئة » ٣٨٨ .
(٦) أمين الفصوص : موثق المفاصل مأمونها النحوص : الأتان الحائلة . القب : الضوامر.
(٧) « ديوان طفيل » ٤٤ .
(٨) مكتوم وأعوج : فرسان شهيران تنسب إليهما الأصائل . تفتل : تفصل .

فهذه الخيل إما أن تكون شديدة الحمرة أو خفيفة الحمرة ، واستبعد أن يكون في خيله مغرب ، والمغرب هو الذي ابيضت مشافره ومحاجره وبطنه ، وهذا لون مذموم فيها .

وذكر طفيل مرة أخرى هذين اللونين في معرض الثناء على خيله فقال :[1]

وراداً وحُوّاً مشرفاً حَجَبَاتُها بنات حصانٍ قد تُعُولِمَ مُنْجِبِ
وكُمْتاً مدمَّاةً ، كأنَّ متونَها جَرَى فَوْقَها،واستشْعَرَتْ لَوْنَ مُذْهَبِ[2]

فالخيل وراد وحوّ ، وزاد هنا أنها كمت مدماة ، والكميت الأحمر . ونقل ابن منظور عن أبي عبيدة ما يأتي : (فرق ما بين الكميت والأشقر في الخيل بالعرف والذنب ، فإن كانا أحمرين فهو أشقر ، وإن كانا أسودين فهو كميت ، والورد بينهما) والمدماة التي تضرب كمتتها إلى لون الدم . وفي هذين البيتين إشارة إلى المتون اللامعة وكأنها قد أشربت لون الذهب .

ووصف زهير فرسه بأنها وردة فقال :[3] (وصاحبي وردة) وقرر صفاء لونه ولمعانه وبريقه وشبهه بالقطعة المجلوة من الفضة فقال :

(مثل الوذيلة) .[4] ووصف كعب فرسه الملبون بأن أديمه أحمر أصابه شيء من الطل ، يريد العرق .[5] ووصفه مرة أخرى بأنه كميت فقال :[6]

وإن الكميت عند زيد ذمامة وما بالكميت من خفاء لمن رأى[7]

---

(١) « ديوان طفيل » ٢٣ .
(٢) الحجبة : رأس الورك الذي يلي الخاصرة ، ويكون عظمها مشرفاً إذا كان الفرس كريماً عتيقاً .
تعولم : علم . منجب : كريم .
(٣) « ديوان زهير » ١٦٩ .
(٤) « ديوان زهير » ٢٥٥ والوذيلة : القطعة المجلوة من الفضة .
(٥) « ديوان كعب » ١٢٣ .
(٦) « ديوان كعب » ١٢٩ .
(٧) ذمامة : حق وحرمة .

عرقها:

سلكوا في وصف عرقها سبلاً عدة . فقد شبهها طفيل بالسُّبَد وهو طائر مخطط الريش ، واسع الفم ، مفلطح الرأس والمنقار ، إذا أصابه الماء جرى عنه سريعاً لأنه لين الريش . والعرب تشبه به الفرس إذا عرق فقال :(١)

تقريبُها المَرَطَى ، والجوزُ معتدلٌ كأنَّها سُبَدٌ بالماءِ مغسولُ(٢)

وشبهها أيضاً بالذئب الذي تعرّض للمطر في الليل فأصبح مبلولاً فقال :(٣)

كأنَّهُ بَعْدَ ما صدّرن من عَرَقٍ سيدٌ تمطَّر جُنْحَ الليلِ مبلولُ(٤)

وذَكر زهير أن فرسه في أثناء تدريبها وترويضها تصب العرق على سنابكها صبا فقال :(٥)

نُعَوِّدُهَا الطِّرادَ ، فكلَّ يومٍ تُسَنُّ على سَنَابِكِها القُرونُ(٦)

وذكر طفيل في بائيته الرائعة أنّ فرسه عرق حتى ابتلّ جلده فصار مثل ثوب المائح وهو الذي ينزل البئر فيملأ الدلو إذا قلّ ماؤها ، والمائح أبداً مبلول الثياب . قال :(٧)

كأنَّ على أعطافِهِ ثوبَ مائحٍ وإن يُلْقَ كلبٌ بينَ لحييهِ يَذْهَبِ

ويشبه طفيل في القصيدة ذاتها الجاف من العرق بآثار الملح التي تبقى على

---

(١) « ديوان طفيل » ٥٧ .
(٢) التقريب : نوع من العدو . والمرطى : نوع من العدو أيضاً ، قال الأصمعي : هو فوق التقريب ودون الأهذاب .
(٣) « ديوان طفيل » ٦٠ .
(٤) المصدر من الخيل : من بلغ العرق صدره . والسيد : الذئب . تمطر : تعرض للمطر .
(٥) ديوان زهير ١٨٧ .
(٦) تسنّ : تصب . القرون : جمع قرن وهو الدفعة من المطر.
(٧) ديوان طفيل ٢٧ .

الأشاريرِ بعد تجفيف الأقط فقال :[1]

كأنَّ يبيسَ المـاءِ فـوقَ مُتُـونِها أشـاريرُ ملحٍ في مبـاءةِ مُجْـرِبِ[2]

***

وصف أوس فرسه بأنه (هزيم) وهو شديد الصوت ، وشدة الصوت في المعركة ولاسيما عند الالتحام مطلوبة ، فقال :[3]

نَجَّـاكَ جيَّـاشٌ هزيـمٌ كَمَـا أَحْمَيْـتَ وَسْـطَ الـوَبَـرِ الميسمَـا[4]

***

وصفوا لجامه باللمعان . قال طفيل :[5]

كأنَّ علـى أعـرافِـهِ ولجـامِهِ سَـنَـا ضـرمٍ مـن عرفـجٍ يتلهـبُ

وذكر زهير الحَكَمة وهي التي تكون على الأنف من الرسن ، وذكر أنها متخذة من الجلد والقنب فقال :[6]

القـائـد الخيـلِ منكـوبـاً دوابِـرُها قـد أُحكمتْ حكَماتِ القِـدِّ والأَبقَا[7]

***

(١) ديوان طفيل ٢٤ .
(٢) يبيس الماء : يبيس العرق . أشاريرِ : جمع أشرارة وهي ما يبسط عليه الأقط وغيره ليجف . المباءة : مراتع الإبل . المجرب : الذي جربت إبله .
(٣) « ديوان أوس » ١١٤ .
(٤) الجياش : الشديد الجري السريع . الهزيم : الشديد الصوت .
(٥) ديوان طفيل ٢٦ و ٤٥ . وقد مر بنا البيت في وصف الأعراف .
(٦) ديوان زهير ٤٩ .
(٧) الدوابر : أواخر الحوافر . ومنكوباً دوابرها : أي أكلتها الأرض وأثرت فيها . أحكمت : جعل لها حكمات . والقدّ : ما قطع من الجلد . والأبق : القنب . وأراد حكمات القدّ وحكمات الأبق ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه .

ومن تشبيهاتهم للخيل : سأورد عرضاً للتشبيهات التي ذكرها شعراؤنا للخيل :

١ ـ شبهوا الفرس بالجراد في كثرتها وخفتها :

قال طفيل :(١)

كأنَّ رِعالَ الخيلِ لما تبدّدْت بَوَادي جرادِ الهبوةِ المتصَوبِ(٢)

وقال أيضاً :(٣)

ومن بطنِ ذي عاجٍ رعالٌ كأنها جرادٌ تُباري وِجْهَةَ الريحِ مطنبُ

وشبه الحطيئة الخيل في كثرتها وخفتها بالجراد المنتشر الذي ساقت الرياح أعجازه فقال :(٤)

ونحنُ إذا ما الخيلُ جاءتْ كأنها جرادٌ زَفَتْ أعجازَهُ الريحُ منتشر(٥)

وشبه أوس فرسه الخفيفة الضامرة بالجرادة الخيفانة لخفتها وضمورها ودعاها خيفانة .(٦)

٢ ـ وشبهوها بأسراب القطا

قال طفيل :(٧)

يُبادِرْنَ بالفرسانِ كُلَّ ثنيّةٍ جُنُوحاً كَفُرَّاطِ القَطَا المتسربِ(٨)

(١) « ديوان طفيل » ٢٥ .
(٢) رعال الخيل : قطعها . تبددت : تفرقت . بوادي : أوائل . الهبوة : الغبرة .
(٣) ديوان طفيل ٤٣ . تباري : تعارض . وأطنب في عدوه : إذا أمعن وابتعد .
(٤) ديوان الحطيئة ٣٠٢ .
(٥) زفت : ساقت واستخفت . أعجازه : أواخره . منتشر : متفرق .
(٦) ديوان أوس ٦١ . والخيفانة : الجرادة .
(٧) ديوان طفيل ٢٦ .
(٨) الثنية : الطريق في الجبل . والفرّاط : جمع فارط ، وهو الذي يسبق قومه ويتقدمهم . المتسرب : المتتابع .

وشبهها زهير بالقطاة التي أزعجها شاربون ووقعت أخت لها بالشرك فأسرعت جداً . قال :[1]

كأنَّهـا من قَطَا الأجبـابِ حلأَّها ... وِرْدٌ وأفْـرَدَ عنهـا أُخْتَهـا الشَّرَكُ[2]

وشبه زهير الفرس بالقطاة في قصيدة أخرى ، ثم ذهب يصف القطاة وصفاً مفصلاً استغرق عشرة أبيات .[3]

قال طفيل :[4]

وفينـا ربـاطُ الخيلِ كُلُّ مُطَّهمٍ ... رجيلٍ كسرحانِ الغَضَا المتأوّبِ[5]

وقال أيضاً :[6]

كسيدِ الغضا الغـادي أضـلَّ جِرَاءَه ... عـلاَ شَرَفـاً مستقبِـلَ الـريح يَلْحَبُ[7]

وشبه زهير فرسه بالذئب الذي لا هو كبيرٌ فانٍ ولا هو صغيرٌ حَدَث فقال :[8]

قَيْـدِ الأوابـدِ ، مـا يُغَيِّبُهـا ... كالسيـدِ لاَ ضِـرعٍ ولا قَحْـمِ[9]

وشبهها كعب بسرحان القصيمة[10]

---

(١) ديوان زهير ص ١٧١ وهذه رواية الأعلم .
(٢) الأجباب : جمع جب . حلأها : قال الأصمعي : حَلأها ورد أي منعها يقول نظرتْ إلى الماء عليه ناس كثير فلم ترده . ورد : قوم يردون الماء .
(٣) انظرها في ديوان زهير ٢٣٩ ـ ٢٤٥ .
(٤) « ديوان طفيل » ٢٠ .
(٥) المطهم : المتناهي الحسن البارع الجمال والكريم الحسب .
الرجيل : الفرس الشديد الحافر الذي لا يحفى . السرحان : الذئب . المتأوب : العائد .
(٦) ديوان طفيل ٤٥ .
(٧) جراؤه : أولاده . يلحب : يمر مروراً سريعاً .
(٨) « ديوان زهير » ٢٥٥ .
(٩) الأوابد : الوحش . ما يغيّبها : ما تغيب عنه . الضرع : الصغير السن . القحم : الكبير الفاني .
(١٠) ديوان كعب ١٢٩ والقصيمة : الأرض تنبت الغضا .

٤ ـ وشبهوها بالنعامة

قال طفيل[١]

إنـي وأنْ قَلَّ مالِـي لا يُفارقُني مثـل النَّعامـةِ في أوصالِهـا طُولُ

وقال الحطيئة عن فرسه : له ساقا ظليم[٢]

٥ ـ وشبهوها بالصقر كما في شعر زهير .[٣]

٦ ـ وشبهوها إذا عرقت بالسبّد كما في شعر طفيل .[٤]

٧ ـ وشبهوها بالطير . قال طفيل :[٥]

إذا خرجَتْ يومـاً أعيدتْ كأنهـا عـواكفُ طيرٍ فـي السمـاءِ تَقَلَّبُ[٦]

٨ ـ وشبهوها بحمير الوحش . قال زهير :[٧]

نَحُـلُّ بسهلِهـا ، فاذا فَزِعْنَا جَرَى منهـنَّ بالآصـالِ عُـونُ[٨]

وقال الحطيئة : له متن عَيْرٍ[٩]

٩ ـ وشبهوها بالتيس . قال كعب :[١٠]

كَتَيْسِ الإرانِ الأعفَـرِ انضرجت له كلابٌ رآهـا مـن بعيدٍ فأَحْضَرا[١١]

(١) ديوان طفيل ٥٧ .
(٢) ديوان الحطيئة ٣٨٨ .
(٣) ديوان زهير ٢٤٥ .
(٤) ديوان طفيل ٥٧ .
(٥) ديوان طفيل ٤٤ .
(٦) عواكف : ثوابت في السماء لا تنزل إلى الأرض .
(٧) ديوان زهير ١٨٦ .
(٨) العون : جمع عانة وهي جماعة الحمير . والآصال : جمع أصيل ، والعدو إنما يستعدّ له بالآصال حتى إذا جاء الصباح لم يأخذه عدوه على غرة .
(٩) « ديوان الحطيئة » ٣٨٨ .
(١٠) « ديوان كعب » ١٢٣ .
(١١) الإران: موضع . الأعفر : الذي تعلو بياضه حمرة . انضرجت : انبسطت في عدوها . أحضر . الفرس : وثب في عدوه .

١٠ ـ وشبهوها بالوعل . قال الحطيئة :[١]

وخيلٍ تُعادي بالكُماةِ كأنَّها وُعُولٌ كهافٍ أعْرَضَتْ لوعولِ[٢]

١١ ـ وشبهوها بكلاب الصيد . قال طفيل :[٣]

تُباري مَرَاخِيهَا الزِّجَاجَ كأنَّها ضِراءٌ أحسَّتْ نَبْأةً من مُكَلِّبِ[٤]

١٢ ـ وشبهوها بالقيد . فقال زهير :[٥] (قيد الأوابد)

١٣ ـ وشبهوها بالميسم كما وجدنا في شعر أوس[٦]

١٤ ـ وشبهوها بالسهام . قال زهير :[٧]

وشعث معطلة كالقداح غزون مخاضاً وأدّين حُولا[٨]

١٥ ـ وشبهوها بالسيل . قال الحطيئة :[٩]

سالتْ قرابينُ بالخيلِ الجيادِ لَكُمْ مِثْلَ الأتيِّ زَفَاهُ اليَمُّ فانفَعَما[١٠]

١٦ ـ وشبهوها بالصخرة . قال طفيل :[١١]

---

(١) « ديوان الحطيئة » ٩ .
(٢) تعادى : تتبارى في العدو . والكمي : البطل الشجاع الجريء . الوعل : تيس الجبل . والكهاف : جمع كهف ، ويبدو أنها مساكن الوعول . أعرضت : اعترضت .
(٣) « ديوان طفيل ٢٤ .
(٤) تبارى : تسابق . المراخى : جمع مرخاء وهي السهلة العدو. الزّجاج : الأسنة . الضراء : جمع ضرو (بالكسر) المعلم من الكلاب . النبأة : الصوت . المكلب : صاحب الكلب .
(٥) ديوان زهير ٢٥٥ .
(٦) ديوان أوس ١١٣ .
(٧) ديوان زهير ١٩٥ .
(٨) شعث : الخيل شعثها السفر . المعطلة : التي لا أرسان عليها . القداح : السهام . المخاض : الحوامل . الحول : التي ليس بها حمل .
(٩) ديوان الحطيئة ٣١٦ .
(١٠) قرابين : اسم موضع . الأتي : السيل . زفاه : ساقه . اليم : البحر .
(١١) ديوان طفيل ٧٩ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وسلهبةٍ تنضو الجيادَ كأنَّها رداةٌ تدلَّتْ من فروعِ يَلَمْلَمِ[1]

١٧ ـ وشبهوها بالفضة . قال زهيرٌ :[2]

ولقد غدوتُ على القنيص بسابح مثلِ الوذيلةِ جُرْشُعٍ لأَمِ[3]

ولا بدّ من الإشارة إلى أن هذه التشبيهات ليست مطلقة ، وإنما لكل تشبيه وجه .[4]

شدتها ونشاطها :

مما ذكره هؤلاء الشعراء في شدة الفرس ما قرره طفيل من أن فرسه يتمتع بصحة جيدة ولم يصبه داء يعرّض عرقه الأبجل للقطع من قبل البيطار كما جرت عادتهم في مداواة الخيل فقال :[5]

بساهمِ الوجهِ لم تُقْطَعْ أباجِلُهُ يُصانُ وهو ليومِ الروعِ مبذولُ

والأبجل عرق في رجل الفرس أو يده .

وأورد هذا المعنى زهير فاستدل على صحة فرسه بأنه لم تقطع أباجله ، وأضاف أن صفاقه أيضاً لم يخرق بمنقبه فقال :[6]

أمينٍ شَظَاهُ ، لم يُخرَّقْ صِفَاقُه بمنقبةٍ ولم تُقْطَعْ أباجِلُهُ[7]

(١) السلهبة :الطويلة. تنضو :تجاوز .رداة: صخرة. تدلت :نزلت من علو . يلملم : جبل جصين .

(٢) ديوان زهير ٢٥٥ .

(٣) غدوت عليه : جئته غداة ، أي بين بزوغ الفجر وشروق الشمس . القنيص : الصيد . السابح : الفرس الخفيف السريع . الوذيلة : القطعة المجلوة من الفضة . الجرشع : الضخم الجبنين . لأم : ملتئم .

(٤) وقد يمر بنا تفصيل بعض هذه التشبيهات في الباب الأخير .

(٥) ديوان طفيل ٦٠ .

(٦) ديوان زهير ١٢٩ .

(٧) أمين : قوى . الشظى : عظيم لاصق بالذراع . الصفاق : الجلدة السفلى التي تحت ظاهر الجلد . ولم يخرق صفاقه بمنقبه : أي لم يكن به داء يجعل البيطار يخرق صفاقه بمنقبة . والمنقبة حديدة يستخدمها البيطار .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ووصفوا الخيل بشدة العظام وصلابتها ومتانتها ، وصرحوا بذكر بعض عظامه كالقُصَيْرَى والشظى والحجاج .

فذكر طفيل (القُصَيْرَى) ووصفه بالشدة فقال (شديد القُصَيْرَى)[1] .

وذكر زهير[2] وكعب الشظى ووصفاه بالمتانة والقوة .

وقال كعب :(أمين الشظى) .[3] وفصّل هذا في موضع آخر فراح يقرر أن فرسه مدمج الخلق شديد العظام ضخم القوائم قصير النسا حوافره لا تعرف الحفا فقال :[4]

مُمَرٌّ كسِرْحانِ القصيمةِ مُنْعَلٌ مَسَاحِيَ لا يُدْمِي دوابرَهَا الوَجَى

شديدُ الشَّظى عَبْلُ الشَّوَى شِنَجُ النَّسَا كأنَّ مكانَ الرِّدْفِ من ظهره وَعَى[5]

وعبر طفيل عن شدة حوافره وقوائمه بقوله (رجيل)[6]

وذكر الحطيئة عظم الحجاج فقال : (صليب الحجاج)[7] .

وذكر زهير أن فرسه تام الخلق (تميم) .[8]

وذكر زهير أن فرسه موثق الخلق شديد الفتل (ممر)[9]

وشبّه زهير فرسه بسافلة قناة الرمح المأخوذة من المرّان ليدلّ على شدته وقوته

---

(١) ديوان طفيل ٢٦ .
(٢) ديوان زهير ١٢٩ .
(٣) ديوان كعب ١٢٣ .
(٤) ديوان كعب ١٣٠ .
(٥) الممر : المدمج الخلق الشديد الفتل . السرحان : الذئب . القصيمة : قطعة من الأرض تنبت الغضا . المساحي (هنا) : الحوافر . الوجى : الحفى . عبل الشوى : ضخم القوائم . شنج النسا : قصير النسا ، وهو عرق يستحسن قصره .
(٦) ديوان طفيل ٢٠ .
(٧) ديوان الحطيئة ٣٨٨ .
(٨) ديوان زهير ١٣٠ .
(٩) ديوان زهير ١٢٨ .

ومتانته ، لأنّ أسفلها أشد شيء فيها وأغلظ فقال :[1]

صَعْـلٌ كسافلـةِ القنـاةِ من الـ مـرّان ينفـي الخيـلَ بالعَـذْمِ

وعبّر عن امتلاء جسمه وتوازنه بقوله (محبوك) .[2]

وذكر أن أوائله وأواخره متماسكة متعاونة ، وهذا مما يدل على شدته وقوته قال : (سراع تواليه صياب أوائله)[3] وقال أيضاً :[4]

بذي ميعـةٍ ، لا موضـعُ الرمـح مسلمٌ لبـطءٍ ، ولا ما خلفَ ذلك خاذِله[5]

ومن الصور الجميلة التي عبر طفيل بها عن نشاطها قوله : إنها إذا خرجت وسارت وحققت المطلوب منها ، ثم أعيدت تكون في هذه الحالة أوفر ما تكون نشاطاً وهي عندئذٍ كالطير تحلق في السماء ولا تنزل إلى الأرض .

يقول :[6]

إذا خَرَجَـتْ يومـاً أُعِيدَتْ كأنّها عـواكفُ طيرٍ في السمـاءِ تَقَلَّبُ[7]

ودعاها طفيل (ممراحاً)[8] وهي النشيطة السريعة .

وأتى زهير بصورة واقعية رائعة تعبر عن نشاط فرسه المتدفق وحركته المستمرة وذلك عندما قال : إنهم لاقوا صعوبة بالغة حتى استطاعوا أن يحملوا عليه الغلام قال :[9]

فلأياً بلأي قد حَمَلْنَـا غُلامَنا على ظهـرِ محبـوكٍ ظمـاءٍ مفاصلُهْ

(١) ديوان زهير ٢٥٥ .
(٢) ديوان زهير ١٣٣ .
(٣) ديوان زهير ١٣٦ ويريد بتواليه رجليه وعجزه وبأوائله يديه وصدره .
(٤) ديوان زهير ١٣٧ .
(٥) موضع الرمح : قدام القربوس . يعنى أن مقدمه لا يسلم مؤخره .
(٦) ديوان طفيل ٤٤ .
(٧) عواكف : ثوابت في السماء لا تنزل إلى الأرض .
(٨) ديوان طفيل ٢١ .
(٩) ديوان زهير ١٣٣ .

ودعاه زهير[1] والحطيئة[2] بذي ميعة ، والميعة النشاط .

وأود أن أضيف أن كل ما سأذكره عن سرعتها واردٌ هنا ليكون دليلاً على شدتها ونشاطها .

ضمورها وهزالها :

حمدوا لها الضمور لما يورث الفرس من خفة ورشاقة وقدرة على إحراز السبق ، وذكروا أن التدريب يضمرها ، وذكروا أيضاً أن لاشتراكها في الحروب وملاحقتها الصيد أثراً في ذلك وقالوا : إنّ هذه المشاركة والجهد يورثها هُزالاً وحفًى .

وسلكوا في تقرير هذه المعاني سبيل التشبيه كثيراً فاستغنوا بالصورة عن الكلام الطويل ، كما قال طفيل يذكر أنها كانت سناناً فكانت القلائد على قدر العنق ، فلما هزلت اضطربت في أعناقها قال :[3]

وتَمَّتْ إلى أجوازِها وتقلقلَتْ قلائدُ في أعناقِها لم تقَضَّبِ[4]

وكما فعل أوس عندما شبهها بالجرادة لضمورها وخفتها .[5]

وقد رأيتهم ـ بعدما يذكرون الضمور ـ يستدركون فيشيرون إلى عظم الخلقة ، كأنهم يقولون : ليس يعني ضمورها ضآلتها .

قال زهير : (أقب نهد)[6] والأقب : الضامر البطن ، والنهد : العظيم الخلق . وقص علينا زهير قصة هزالها ومحافظتها على ضخامة منظرها وعلّل ذلك بأنها

---

(١) ديوان زهير ١٣٧ .
(٢) ديوان الحطيئة ٣٨٨ .
(٣) ديوان طفيل ٢٥ . لم تقطع .
(٤) الأجواز : الصدور . تقلقلت : اضطربت . لم تقضب :
(٥) انظر ديوان أوس ٦١ .
(٦) ديوان زهير ١٨٦ .

عندما هزلت برزت عظامها وارتفعت وضمرت حتى يبست جلودها على العظام فقال :[1]

نواشزَ أطباقُ أعناقِها وضُمَّرُها قافِلاتٌ قفولاَ[2]

وقرر زهير هذا المعنى في موضع آخر فقال : [3]

وَعَزَّتْها كواهِلُها وكلَّتْ سنابِكُها وقَدَّحَتِ العُيُونُ

يقول : إن كواهلها صارت أرفع شيء فيها من الهزال ، وإذا هزل الفرس أشرف كاهله على سائر جسده وارتفع ، وحفيت سنابكها وأكلتها الأرض وغارت عيونها من الجهد والإعياء .

وهذا الهزال ليس طبيعياً ولا نتيجة لمرض . . وإنما من الإعياء والجهد المتواصل .

وكانت الخيل قبله سماناً ، ويذكرون أن أكلها الحشيش وشربها اللبن يعيدانها إلى سمنها الأول قال طفيل يصف سمنها : [4]

نزائعَ مقذوفاً على سَرَواتِها بما لم تُخَالِسْها الغُزَاةُ وتُسْهَبُ[5]

وقال زهير يصف رجوع السمن إليها : [6]

وَيَرْجِعُها إذا نحن انقلبْنَا نسيفُ البَقْلِ واللبُن الحقينُ

يقول : إذا نحن رجعنا من الغزو واسترحنا ، فسرعان ما يعيد إليها سمنها نسيف البقل الذي نقتلعه من جذوره واللبن المحقون في السقاء الذي نسقيها إياه فيردها ذلك إلى الصلاح والسمن .

***

(١) ديوان زهير ١٩٥ .

(٢) نواشز : أي ارتفعت عظامها من الهزال . أطباق أعناقها : فقار أعناقها . الضُمَّر: جمع ضامر. قافلات : يابسات .

(٣) ديوان زهير ١٩٠ .

(٤) ديوان طفيل ٢٣ .

(٥) نزائع : مختارة . مقذوفاً : مرمياً . سرواتها : ظهورها. أسهبت الدابة : إذا أهملتها ترعى حتى حملت الشحم على ظهورها .

(٦) ديوان زهير ١٩١ .

٢ ـ أوصافها التفصيلية من حيث خصائصها :

نسبها :

هناك دراسات خاصة بأنساب الخيل قديمة وحديثة ،[١] تدل على مدى ما للنسب من قيمة في جودة الخيل وخصائصها ، وعرفت الجياد الكريمة بالأصائل ، وعُني شعراؤنا بذكر أنساب الخيول التي يصفونها عناية جلية واضحة .

ويظهر أن غنيا قبيلة طفيل كانت ذات عناية خاصة بالخيل ، وكانت تملك أشهر الأصائل العربية ، فلقد ذكرت كتب اللغة والخيل أسماء عدد من الفحول المشهورة لغنى أصبحت تعد فيما بعد أصولاً تنسب إليها الخيول الأصيلة ، وقد أكثر طفيل من ذكر أسمائها في شعره الوصفي . يقول :[٢]

وخيلٌ كأمثالِ السراحِ مَصُونَةٍ ذخائرَ ما أبقى الغُرَابُ ومُذْهَبُ

ثم يقول في القصيدة نفسها :[٣]

أبوهنَّ مكتومٌ وأعوجُ تُفْتَلَى وِراداً وحُواً لَيْسَ فيهنَّ مُغْرِبُ

بناتِ الغُرابِ والوجيهِ ولاحقٍ وأعوجَ تَنْمي نسبةَ المُتَنَسِّبِ
وِراداً وحُوّاً مُشْرِفاً حَجَباتُها بناتِ حصان قد تُعُولِم مُنْجِبِ

والفحلان هما الوجيه ولاحق ، ثم قال : إن هذه الخيل بنات حصان منجب قد عرف واشتهر .

---

(١) من الدراسات القديمة دراسة ابن الكلبي التي أشرنا اليها في أول بحثنا عن وصف الخيل ومن الدراسات الحديثة دراسة أحمد زكي باشا عنوانها « أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام» .
(٢) ديوان طفيل ٤٣ . والسراح : الذئاب .
(٣) ديوان طفيل ٤٤ .
(٤) ديوان طفيل ٢٣ .

ويذكر طفيل أنّ فرسه صفوة الصفوة فهو ذو نسب في الغرابيات المتقدمات فيقول :[1]

أو قارحٌ في الغُـرابياتِ ذو نَسَبٍ وفي الجِرَاءِ مسحُّ الشـدِّ إجْفِيلُ[2]

ونسب أوس فرسه إلى جرشع معروق الأباجل فهي جرشعية فقال :[3]

تَقَبَّـلَ مـن خيفانـةٍ جُرْشُعِيَّةٍ سـليلةِ معـروقِ الأباجـلِ جُرْشُعِ[4]

وقد يفتخرون بالفرس لا عرق له في الجودة وهو مع ذلك من الجياد ويخرج سابقاً ، ويدعونه خارجياً . قال طفيل :[5]

وعارضتُهـا رهـواً علـى مُتَتَـابعٍ شـديـدِ القُصَيْرى خـارجـيٍّ مُحَنَّبِ[6]

وقال أوس :[7]

وخارجـيٍّ يَـزُمُّ الألـفَ معـترِضاً وَهَـوْنَـةٍ ذاتِ شِمْـراخٍ وأحجـالِ[8]

---

(١) ديوان طفيل ٥٧ .

(٢) الجراء : الجرى ، وهو الاندفاع في السير . مسح الشد : يصب الشد صبا . الإجفيل : الذي من شأنه أن يجفل ويفزع من كل شيء .

(٣) ديوان أوس ٦١ .

(٤) الجرشع : الفرس العظيم الصدر المنتفخ الجنبين . الأبجل : عرق في ذراع الفرس بمنزلة الأكحل من الإنسان . والخيفانة : الجرادة .

(٥) ديوان طفيل ٢٦ .

(٦) الرهو : السير السريع المتتابع (وهو من الأضداد ، وأكثر ما يستعمل في الرفق في السير)القصيرى: أصل العنق ، أو أعلى الأضلاع فمعنى قوله « شديد القصيرى » أي شديد العظام . المحنّب: الفرس اعوجت ساقاه وبعد ما بين فخذيه .

(٧) ديوان أوس ١٠٣ .

(٨) يزم الألف : يتقدمها كأنه يقودها . الهونة : الفرس المطواعة . والشمراخ: غَرة الفرس . والأحجال: جمع حجل وهو بياض في قوائمه .

سرعتها :

إنّ أهم صفة يمكن أن توصف بها الفرس هي السرعة . . ومن أجلها فضلت الفرس على كثير من الحيوان . . . ولذلك وصفوها ووصفوا أعضاءها، والسرعة مطلوبة في الفرس المعدّة للحرب والفرس المسابقة والفرس التي هيئت للطرد .

هذا طفيل يدعو فرسه سابحاً ويذكر بعض الأوصاف الجسمية التي تساعده على العدو السريع ، فيقرّر أنّ عظمه شديد متين ، وأنه عظيم الصدر ، ممتلىء الجنبين ، وكذلك فإنّ فرسا أنثى طموح الطرف لا ترى عينها مكاناً بعيداً إلا تطلعت إلى الوصول إليه . . وهي خفيفة سريعة يقول :(١)

فإنْ فَزِعُوا طارُوا إلى كلِّ سابحٍ ... شديدِ القُصَيْرى سابغِ الضلعِ جُرْشُعِ
وكلِّ طموحِ الطرفِ شقاءَ شطبةٍ ... مقربةٍ كبداءَ سفواءَ مِمْزَعِ(٢)

ونجد وصف الفرس بأنه « سابح» أيضاً عند زهير .(٣)

وتخيل طفيل السرعة ماء فعبّر عن شدتها بأن فرسه يصب السرعة صبا وذلك في قوله (وفي الجراء مسح الشد إجفيل) .(٤)

وذكر طفيل أيضاً من الصفات العضوية التي تساعدها على السرعة الطول ثم عبّر عن سرعتها الفائقة بصورتين : أولاهما أنها لا تدع جواداً أمامها وإنما تخلف الجياد جميعاً وراءها وتجاوزها . وثانيتهما صورة جميلة جداً نجدها كثيراً في الشعر الجاهلي ، وهي صورة الصخرة التي انحدرت من مكان عال في الجبل . يقول :(٥)

---

(١) ديوان طفيل ٥٣ .
(٢) السابح : السريع . القصيري : أصل العنق أو أعلى الأضلاع . سابغ الضلع : طويل الأضلاع . الجرشع : العظيم الصدر المنتفخ الجنبين . الفرس الممزع : السريع . الشقاء : الطويلة . الشطبة : الحسنة . السفواء : الخفيفة السريعة . الكبداء : التي عظم بطنها من أعلاه . مقربة : أي تمشي التقريب وهو ضرب من العدو والخبب دونه .
(٣) ديوان زهير ١٢٧ .
(٤) ديوان طفيل ٥٧ .
(٥) ديوان طفيل ٧٩ .

وسلهبةٍ تنضو الجيادَ كأنّها رداةٌ تدلّتْ من فروعِ يلَمْلَمِ[1]

والصورة الأولى الواردة في البيت السابق ، وهي مسابقة الخيل وسبقها نجدها تتكرر عند هؤلاء الشعراء ، فيقرر طفيل في موضع آخر أن هذا الفرس يقهر الخيل يقول :[2]

تُنيفُ إذا اقورَّتْ من القَوْدِ وانطوتْ بهادٍ رفيعٍ يقهرُ الخيلَ صَلْهَبِ[3]

ويقول زهير :[4]

ورُحْنَا به ينضُو الجيادَ عشيةً مُخضَّبةً أرساغُهُ وحوامِلُه[5]

وتكاد الألفاظ في الصورتين تتماثل (ينضو الجياد) .

ويقول في موضع آخر : (ينفى الخيل بالعذم)[6] يطرد الخيل ويخلفها ويعضها ولا يتركها تتقدمه .

ويقول طفيل : إنّ هذا الفرس خلال جريه يذيق الذي يعلو على متنه شيئاً شديداً حتى يغدو كالخذاريف التي يلعب بها الصبيان لا يكاد يستقر من العدو الخاطف والجري العظيم . يقول :[7]

يُذيقُ الذي يعلو على ظهرِ مَتْنِهِ ظِلالَ خذاريفٍ من الشدِّ مُلْهِبِ[8]

ويبدو أن صورة الخذروف كانت محببة لدى الشاعر ، ولذا لجأ إليها مرة أخرى إذ يقول :[9]

(١) السلهبة : الطويلة . تنضو : تسبق وتجاوز . رداة : صخرة . يلملم : جبل معين .
(٢) ديوان طفيل ٢١ .
(٣) تنيف : تشرف . اقورت : ضمرت . بهاد : بعنق . رفيع : مرتفع . يقهر : يسبق . الصلهب : الطويل .
(٤) ديوان زهير ١٣٧ .
(٥) مخضبة أرساغه : أي بالدم الذي سال من الطريدة . حوامله : أي قوائمه .
(٦) ديوان زهير ٢٥٦ والعذم : العض .
(٧) ديوان طفيل ٢١ .
(٨) الخذروف : الخرارة التي يلعب بها الصبيان . الشد : العدو . ملهب : شديد العدو .
(٩) ديوان طفيل ٢١ .

إذا قيلَ : نهنها وقد جدّجدها تراميتْ كَخُذْرُوفِ الوليدِ المُثَقَّبِ

يقول : إذا طلب إليَّ أن أكفها عن السرعة وهي قد عزم جريها تتابعت كالخذروف المثقب وذكرنا الخذروف بمريخ الوليد الذي شبه أوس الفرس به وذلك في قوله :(١)

وَوَدَّعَ إخوانَ الصفاءِ بِقُرْزُلٍ يَمُرُّ كَمِرّيخِ الوليدِ المُقَزَّعِ(٢)

ويقول طفيل مقرراً سرعتها :(٣)

تباري مراخيها الزِّجاجَ كأنَّها ضِراءٌ أحسّتْ نبأةً منَ مكلِّبِ(٤)

يقول : تسابق الخيول المراخي الرماح عندما ترمى . . وهذا يدل على سرعتها فكأنها كلاب سمعت صوت صاحبها فهي تسرع مستجيبة .

وذكر طفيل أنها عندما تسرع يكون وقعها على الأرض شديداً يشبه وقع عود النبعة المتخير المتين .(٥)

وذكر أنّ الغبار الذي تثيره خلفها يشبه قطن النوادف تتركه في كل قاع ومذنب ويبدو هذا الغبار من جانب السهل الأقصى دواخن تنضب . يقول :(٦)

كأنّ السدا قطنُ النوادِف خَلْفَها إذا استودعته كل قاعٍ ومذنبِ
إذا هبطتْ سهلاً كان غُبارها بجانبه الأقصى دواخنُ تنضبِ(٧)

(١) ديوان أوس ٦١ .
(٢) قرزل : اسم فرس طفيل بن مالك . ومريخ الوليد : قضيب يجعل الصبي في أعلاه تمرة وطينة تثقله ثم يرمى به بغير ريش . الوليد المقزع : المحلوق بعض رأسه والمتروك بعضه متفرقاً في مواضع .
(٣) ديوان طفيل ٢٤ .
(٤) المراخي : جمع مرخاء وهي السهلة العدو . الزجاج : الأسنة . الضراء : جمع ضرو وهو المعلم من الكلاب . تباري : تسابق . النبأة : الصوت الخفي . المكلب : صاحب الكلب .
(٥) ديوان طفيل ٢١ .
(٦) ديوان طفيل ٢٤ .
(٧) السدا ـ كما قال محقق الديوان ـ الغبار ، وهو في الديوان غير معرف بأل ورجحت أن يكون كما اثبت .

فالغبار هنا قطن نوادف ، أو دخان أبيض يتصاعد .

وفي قصيدة أخرى لطفيل نرى الغبار أصهب قد سدّ فروج الفرس وتتهاداه السنابك ، يقول :[1]

إذا استعجلَتْ بالركضِ سدَّ فروجَها غبارٌ تَهادَاهُ السنابكُ أصهبُ[2]

وأما الحصى المتطاير بين قوائمها فكأنه بَرَدٌ ذرته ريح يتصبب من وابل منهمر . يقول طفيل :[3]

وَهصْنَ الحَصَى حتى كأنَّ رُضَاضَهُ ذُرَى بَرَدٍ من وابلٍ متحلّبِ[4]

وتحدّث زهير عن وقع قوائم فرسه وتناثر الحصى فذكر أنها تعدو على قوائم قوية تكاد الأرض تنصدع من وقعهن وأنها ترجم الأرض بحوافرها رجماً .[5]

وقال طفيل :[6]

يُبادرنَ بالفُرسانِ كُلَّ ثنيةٍ جُنوحاً كفرّاطِ القَطَا المتسرِّبِ
وعارضتُها رهواً على متتابعٍ شديد القُصَيْرى خارجيّ محنّبِ[7]

يتمدحون عادة بطلوع الثنايا ، فهذه الخيل الكريمة الأصيلة تسارع إلى صعود هذه الثنايا الصعبة مسرعة طائرة كالسابقات المتقدمات من جموع القطا . ثم يخصّ

والمذنب : مجاري الماء إلى الروضة . دواخن تنضب : وهو شجر له دخان أبيض .

(١) ديوان طفيل ٤٤ .

(٢) الفروج : ما بين القوائم . تهاداه : يقذفه هذا السنبك إلى هذا . اصهب : لون أصفر ضارب إلى شيء من الحمرة والبياض . والسنبك : طرف الحافر .

(٣) ديوان طفيل ٢٦ .

(٤) الوهص : شدة الوطء . رضاضه : ما ترضض منه وتكسر . ذرى : ما تذروه الرياح . متحلب : منهمر .

(٥) ديوان زهير ٢٣٧ .

(٦) ديوان طفيل ٢٦ .

(٧) الثنية : الطريق في الجبل . الفارط : الذي يسبق قومه ويتقدمهم . الرهو : السير السريع (وهو من الأضداد) . القصيرى : عظم . المحنب : الذي اعوجت ساقاه وبعد ما بين رجليه .

طفيل فرسه الخارجي المحنب متين العظم بمهمة معارضة هذه الأصائل . . وينجح فيها أيما نجاح .

ولاحظ زهير بعينه الدقيقة حالة أعضاء الفرس في أثناء حركتها في العدو الشديد فأشار إلى أن في هذه الفرس خضعاً ، والخضع ميل العنق والرأس إلى الأرض . ويكون في الخيل إذا اشتد عدوها فقال: (قوداء ، فيها إذا استعرضتها خضع) .[1]

وقال يقرر هذه الصفة ويتحدث عن السرعة :[2]

جوانحَ يَخْلِجنَ خَلْجَ الظبا يَرْكُضْنَ ميلاً وينزِعْنَ ميلاً[3]

ويذهب زهير إلى القول بأن سرعة هذه الفرس تفوق كل تقدير ، ويقول إن سيرها شديد عندما تكون مجهدة متعبة . . ويترك السامع يستنتج ويتوقع كيف يمكن أن تكون سرعتها قبل التعب والإعياء . يقول :[4]

مراً كفاتاً إذا ما الماءُ أسهلها حتّى إذا ضُرِبَتْ بالسوطِ تَبْتَرِكُ[5]

يقول : إن هذه الفرس تسرع إذا عرقت وأجهدت ، فكيف تكون سرعتها قبل ذلك حتى إذا ضربت بالسوط اجتهدت في العدو وانطلقت .

ويقرر المعنى نفسه في موضع آخر فيقول :[6]

إذا رفَعَ السياطَ لها تمطَّتْ وذلك من عُلالتها ، متينُ[7]

---

(١) ديوان زهير ٢٣٧ .
(٢) ديوان زهير ٢٠٤ .
(٣) جوانح : مائلة في عدوها لنشاطها . يخلجن : يسرعن . ينزعن : يكففن عن الركض .
(٤) ديوان زهير ١٧٠ .
(٥) مرا كفاتاً : أي تمر هذه الفرس مراً سريعاً . الماء أسهلها : عرقت . تبترك : تجتهد في العدو .
(٦) ديوان زهير : ١٩١ .
(٧) تمطت : تمددت . العلالة : ما تعطى الخيل من الجري بعد ما بذلت جهدها يقول : إن ذلك العدو والتمطي وإن كان علالة فهو متين قوي .

يقول : إذا رفع لها السوط أسرعت وتمددت وكان سيرها السريع هذا شديداً على الرغم من أنها تعطي ما تعطي وهي في غاية الإجهاد .

وهكذا فإنهم يعبرون عن سرعة الفرس بطرائق عدة :

* منها أن يذكروا سرعتها ذكراً صريحاً .

* ومنها أن يأتوا بصور بيانية جميلة مؤثرة تنتهي بالسامع أو القارىء إلى ذلك ، كما رأينا من التشبيهات العديدة التي تشبه بها الفرس .

* ومنها أن يذكر بعض الصفات الجسمية كقوة القوائم وطول الجسم ، مما يساعد على الجري . ثم يذكر سرعتها الفائقة .

* ومنها أن يحكى لنا حدثاً يزعم أنه وقع : كأن يقول إن هذه الخيول وضعت ما في بطونها من أجنة ، أو أنها ألقت كل ما كان عليها حتى السرج والأحزمة .

قال طفيل :[1]

وألقت من الإفزاع كُلَّ رِحالةٍ وكُلَّ حزامٍ فضلُه يتذبذب[2]

* ومنها أن يذكر الشاعر سرعة هذه الفرس في حالة لا تكون الخيل عادة فيها قادرة على الإسراع . مثل حالة الإجهاد والتعب المتواصل ، ومثل حالة البداية . . فإذا حمي العدو واشتد فإنه يكون أسرع .

يقول الحطيئة :[3]

وسربٍ ذعرتُ بذى ميعةٍ ترى في البديهةِ منه اعتزامًا[4]

---

(١) ديوان طفيل ٤٤ .
(٢) الافزاع : الفزع . الرحالة : سرج من جلود ليس فيه خشب يتخذ للركض الشديد . فضله : زيادته .
(٣) ديوان الحطيئة ٣٨٨ .
(٤) السرب : الفريق . ذعرت : أفضت . ذو ميعة : ذو نشاط . البديهة : أول جري .

وقد ذكروا في أشعارهم أنواعاً من السير والعدو ، حددها علماء اللغة[1] ذكروا منها الرديان ، والمزع ، والتقريب والمرطى . فأما الرديان فقد قال الأصمعي في شرحه : إذا رجم الأرض رجماً وجاء بين العدو والمشي قيل : ردى ردياً ورديانا.[2]

قال زهير :[3]

تَرْدِي على مطمئناتٍ مواطِئُها تكادُ من وقعِهنَّ الأرضُ تنصدعُ

وأما المزع فهو العدو الخفيف . وقيل : هو أول العدو وآخر المشي[4].

قال طفيل :[5]

وكلٌ طموحِ الطرفِ شَقَّاءَ شطبةٍ مقرِّبةٍ كبداءَ سفواءَ مِمْزَعِ

***

وأما التقريب ، وهو ضرب مشهور من العدو فقالوا في تحديده : (أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً) وقالوا : إنه خاص بالخيل ولا توصف به الإبل ، وقالوا : إن الخبب دونه .[6]

قال طفيل :[7]

تقريبُها المَرطَى ، والجوزُ معتدلٌ كأنَّها ، سُبَدٌ بالماءِ مغسولُ

والمرطى ضرب من العدو أيضاً . قال الأصمعي : هو فوق التقريب ودون الأهذاب . فهو يقول : إن تقريبها بالنسبة إلى غيرها من الخيل مرطى. وذكر طفيل في

(١) انظر ما كتبه ابن سيده عنها في « المخصص » ٦ / ١٦٥ - ١٧١ .
(٢) المخصص ٦ / ١٦٦ .
(٣) ديوان زهير ٢٣٨ .
(٤) المخصص ٦ / ١٦٧ .
(٥) ديوان طفيل ٥٤ .
(٦) القاموس وشرحه مادة (قرب) .
(٧) ديوان طفيل ٥٧ .

موضع آخر أنها بعد الكلال تقرب فقال :[1]

فلـــم يَبْـــقَ إلا كلُّ جرداءَ صلدمٍ إذا استعجلـتْ بَعْـدَ الـكلالِ تُقَرِّبُ[2]

ومما يتصل بسرعته أوثق الاتصال كونه أداة رئيسية من أدوات الصيد حتى سماه زهير (قيد الأوابد) فقال :[3]

قيـدِ الأوابـدِ ، مـا يغيِّبُهـا كالسيـدِ لا ضَـرَعٍ ولا قَحْـمِ

فهو قيد للوحوش إذا رآها لا يمكن أن تغيب عنه قبل أن يصيدها . . إنه يقيد الوحوش بسرعته لا تفوته طريده .

وقد فصل زهير القول في وصف الفرس في مشهـد الصيد كما فصّـل طفيل القول في وصف الفرس في حومة الوغى والغارة .

وكان مما ذكره زهير أن هذا الفرس يدرك الصيد لا محالة ، ولذلك فصاحبه يجاهر الصيد ولا يباغته ولا يخاتله قال :[4]

إذَا ما غَدَوْنَـا نبتغـي الصيدَ مرةً مَتَـى نَرَهُ فإنَّنَـا لا نُخَاتِلُهْ

يُدِلُّ بجودة فرسه وسرعته فلا يخاتل الصيد ولا يسارقه إذا أراد صيده ولكن يجاهره .

وفي نهاية وصف مشهد الصيد يذكر زهير فرسه الذي يلحق الطرائد وهنّ من شدة العدو يثرن الحصى في وجهه . . فلم يصدّه رجمهنّ إياه عن الإمساك بهـن . يقول :[5]

يُثِـرْن الحصى في وجهِـهِ وَهُـوَ لاحِقٌ سـراعٌ تواليـه صِيَابٌ أوائلُـهْ[6]

(١) ديوان طفيل ٤٦ .
(٢) الجرداء : القصيرة الشعر . الصلدم : القوية الشديدة الحوافر .
(٣) ديوان زهير ٢٥٥ .
(٤) ديوان زهير ١٣٠ .
(٥) ديوان زهير ١٣٦ .
(٦) تواليه : أي رجلاه وعجزه . أوائله : يداه وصدره .

صبرها :

وصفوها بالصبر الشديد ، فهي تتحمل متاعب السفر ، حتى هزلت بعد سمن ، وولدت لغير تمام ، وتشعثت وأصابها الإعياء ، واستطاعت أن تؤدي مهمتها على أحسن وجه . وكان زهير يكثر من ذكر هذه المعاني فهو يقول :(١)

القائد الخيلِ ، منكوباً دوابرُها ... قد أُحكِمتْ حكَمات القِدِّ والأَبَفَا
غَزَتْ سِمَاناً فآبت ضمّرا خدجاً ... من بعدِ ما جَنبُوها بُدَّناعققا
حتى يؤوب بها شعثا معطلة ... تشكو الدوابر والأنساء والصفقا(٢)

يقول : لقد أكلت الأرض دوابرها ، فهي تتألم منها أبداً وتشكوها ، قد غزت هذه الخيل سماناً بدّنا حوامل قد استبان حملها وعظمت بطونها ، وقد قادوها إلى الغزو ولم يركبوها ، وكان من عادتهم أنهم في طريقهم إلى المعركة يركبون الإبل ويقودون الخيل . . ورجعت ضمرا خدجاً قد ألقت أجنّتها لغير تمام من شدة الإعياء وطول الغزو وبعد المسافة ، وآبت معطّلة لا أرسان لها لأنها لا تحتاج إليها لشدة جدها وإعيائها وهي تشكو أموراً ثلاثة : الدوابر ، وعروق الأنساء ، والصفق . وكرر زهير هذا المعنى في قصيدة أخرى فقال :(٣)

وشعثٍ معطلةٍ كالقداحِ ... غَزَوْنَ مخاضاً وأُدِّينَ حُولاً(٤)

***

(١) ديوان زهير ٤٩ ـ ٥٠ .
(٢) الدوابر : أواخر الحوافر . ومنكوبة الدوابر : أي أكلتها الأرض وأثرت فيها . أحكمت : جعلت لها حكمات . والحكمة تكون على الأنف من الرسن . والقد : ما قطع من الجلد . والأبق : هو القُنب . الخدج : التي وضعت أولادها لغير تمام ، أو ناقصين . البدن : جمع بادن وهي الضخمة السمينة . العقق : جمع عقوق ، وهي التي استبان حملها وعظمت بطونها . وجنبوها : قادوها ولم يركبوها . الأشعث : المتفرق الشعر المتسخ الرأس . المعطلة : التي لا أرسان لها . الانساء : جمع نسا وهو عرق في الفخذ . الصفق : جمع صفاق وهو الجلد الذي دون الجلد الأعلى مما يلي البطن حيث ينقب البيطار.
(٣) ديوان زهير : ١٩٥ .
(٤) مخاض : حوامل . حول : جمع حائل وهي التي ليس بها حمل .

بلاؤها :

إن هذه الصفات المحمودة وأمثالها هي التي تتيح للفرس أن يبلى البلاء الحسن سواء أكان ذلك في ميدان المعركة أم في الصيد أم في ميادين السباق .

وعلى الرغم من أنه كان يصان ويكرم . . لكنه يبذل ليوم الروع كما قال طفيل :(١)

بساهمِ الوجهِ لم تقطعْ أباجِلُهُ يُصَانُ وهو ليومِ الروعِ مبذولُ

وأما بلاؤه في الحروب فقد ذكروا كرّه وفرّه وتفوقه في الغارة وإحراز النصر قال طفيل : إن هذه الخيل تجيء بفرسان الصباح مأسورين مسومة عوابس وقد ركبها فرسان مقنّعون وهي تعدو الرديان فترجم الأرض بحوافرها . قال :(٢)

تجيءُ بفرسانِ الصباحِ عوابساً مسوَّمةً تَردِي بكل مقنَّعِ

وقال طفيل : إنّ هذه الخيل المحجلة الطوامح خاضت الدماء ووطئت القتلى فبلغ منها موضع الخضاب قال :(٣)

طوامحُ بالطرفِ الظراب إذا بَدَتْ محجَّلَةَ الأيدي دَماً بالمُخَضبِ(٤)

وكذلك زهير يقول : إنها تحت عجاج الروع تسرع : (والخيل تحت عجاج الروع تمتزع) .(٥)

وأما بلاؤه في الصيد فقد عرضه زهير في مشهد رائع من مشاهد الصيد ذكر فيه سرعته الفائقة وملاحقته للعدو وإدراكه إياه ورده فقال :(٦)

---

(١) ديوان طفيل ٦٠ .
(٢) ديوان طفيل ٥٣ .
(٣) ديوان طفيل ٣٤ .
(٤) الظرب : الجبل المنبسط جمعه ظراب . التحجيل : بياض في قوائم الفرس .
(٥) ديوان زهير ٢٤٥ .
(٦) ديوان زهير ١٣٦ .

فردٌ علينا العَيْرَ مِنْ دُونِ إلْفِهِ على رُغْمِهِ يَدْمَى نَسَاهُ وفائلُهْ[1]

وأما بلاؤه في السبق فما اكثر ما نقرأ قولهم (ينضو الجياد)[2] أي يسبقها .

***

ترويضها :

يذكر زهير أنّ فرسه كانت مهملة في مراعيها ، فلما أراد أن يضمّرها ويدربها على الجري وجد فيها التواء وحرونا وصعوبة على أصحابها ، فكأنها ذات ضغن وحدّة . . وما زال يروضها ويحملها على أن تجيب الصارخ المستغيث ، وتنهد إلى العدو ، حتى تخلصت من عيوبها السابقة كلها ، ولانت عريكتها وانقادت ، وأضحت مطواعة ، يقول :[3]

نُعَوِّدُها الطرادَ فكلَّ يومٍ تُسَنُّ على سنابِكِها القرونُ
وكانت تُشْتَكى الأضغانُ مِنْها ذواتُ الغَرْبِ والضِّغنُ الحَرُونُ
وخَرَّجَها صوارخُ كلَّ يومٍ فقد جَعَلَتْ عرائكُها تلينُ[4]

وقال يذكر تدريبه فرسه وتفرغه له واستعماله الضرب :[5]

فبتْنَا عُراةً عندَ رأس جوادِنا يزاولُنا عن نفسه ونزَاوِلُهْ
فنضربُه حتَّى اطمأنَّ قَذَالُه ولم يطمئنَّ قلبُهُ وخصائِلُه

يقول : إننا تجردنا للفرس في أزرنا لصعوبته ونشاطه ، وأقمنا عند رأسه يعالج مدافعتنا ونعالج الجامه وركوبه وترويضه . وما زلنا حتى أمكننا من رأسه فألجمناه ، وهو مع ذلك حديد القلب مضطرب اللمم لنشاطه .

---

(١) النسا والفائل : عرقان .
(٢) انظر « ديوان طفيل » ٧٩ و « ديوان زهير » ١٣٧ .
(٣) ديوان زهير ١٨٧ ـ ١٨٩ .
(٤) الطراد : مطاردة الصيد . تشن : تصب . القرن : الدفعة من العروق . ذوات الغرب : ذوات الحدة والضغن وهي التي لا تعطى كل ما عندها من الجري حتى تضرب . خرجها : دربها وعوّدها . العريكة : الطبيعة . وإذا انقادت الفرس لانت عريكتها .
(٥) ديوان زهير ١٣٢ ـ ١٣٣ .

وصف الكلاب :

ورد وصفها في شعر (عبيد الشعر) خلال وصف الصياد ومن هنا كانت الكلاب الموصوفة هي كلاب الصيد ، فقد ذكر أوس[1] أنها معلمة ومدربة تدريباً جيداً ، وحدثنا أوس عن العناء الشديد الذي تلاقيه هذه الكلاب في التدريب إلى درجة تسيل منها الدماء على ترائبها . وحتى أصبحت متقنة لمهنة الصيد لاعتمادها على الخبرة المكتسبة بالتدريب وعلى حاسة الشم الحادة التي أودعها الله فيه فطرة ، ووصفها أوس بأنها تعرف الأماكن المناسبة وهي التي تقود الصياد إليها . . ثم إذا جاء دورها في الصيد أدت مهمتها على أحسن وجه .

وذكر كعب أيضاً أنها معلمة حاذقة فهي تكتفي بالإشارة والصفير ، وأنها تقعي على ذنبها إذا صعدت يفاعاً من الأرض . وذكر أن لعيونها حركة وإشعاعاً وأنها في تطلع دائم للصيد ، وهي إذا خرجت للصيد تزرق عيونها من شدة تحديقها في الصيد ، ومن أين يثور ؟ وأشداقها واسعة جداً ، فإذا فتحتها استعداداً للقنص بدت من أفواهها الأنياب الحادة المخيفة . وأنها عابسة دائماً ، وما ذلك إلا رغبة في الصيد . وهي من خفتها وسرعتها تبدو وكأنها تطفو على الأرض لرفعها قوائمها كما يطفو الشيء فوق الماء .

يقول كعب :[2]

مَن خَفي الطمرين يسعى بغُضْفٍ ... لم يُؤيهْ بهنَّ إلاّ صفيرَا
مُقعياتٍ إذا علونَ يفَاعاً ... زَرِقَاتٍ عيونُها لِتُغيرَا

(١) ديوان أوس ٣ .
(٢) ديوان كعب ١٦٧ .

كالحاتٍ معاً عوارضَ أشدا ق تَرى في مَشَقِّها تأخيرَا
طافياتٍ كأنهنَّ يَعَاسيـ ـبُ عشيٍّ بارِيْنَ ريحاً دبورَا
ما أرى ذائداً يزيدُ عليه غابَ عنه أنصارُهُ مكثُورَا
بأسيل صدق يثقفه فيـ ـهن لا نابيا ولا مأطورا[1]

والبيتان الأخيران في ثور الوحش وكيف يصطدم مع الكلاب . . إنه الوحش مخيف قوي ما رأيت مثله ذائداً أبداً . . يذود عن نفسه بقرن يشبه الرمح يسدده نحو الكلاب لا ينبو عن الطعن ولا ينعطف .

وهكذا ينتهي هذا المشهد بمصرع هذه الكلاب الشديدة السريعة المتقنة للصيد ويشبه كعب هذه الكلاب بمجموعة من يعاسيب النحل التي كانت تباري ريحاً دبوراً . وهذا قريب مما وجدناه عند أوس الذي يشبه الكلاب بالزنابير في قوله :[2]

ولّى مُجداً وأزمعنَ اللحاقَ بهِ كأنهنَّ بجنبيهِ الزنابيرُ

***

(١) خفى الطمرين : الصياد . الغضف : الكلاب ، جمع أغضف وهو الكلب الذي استرخت أذناه وأقبلتا على القفا ، وهي كلاب الصيد . التأييه : الزجر . الاقعاء : القعود على الذنب والانتصاب . اليفاع : ما ارتفع من الأرض . زرقات عيونها : أي من الغضب وشدة النظر . الكالح : العابس . العوارض : الرباعيات والأنياب . طافيات : عاليات من خفتها . اليعسوب : ذكر النحل . ذاد : دافع . مكثور: قد كوثر وغاب عنه أنصاره . أسيل : قرن . صدق : صلب يثقفه : يسدده . فيهن : أي في الكلاب . لا نابيا : لا ينبو على الطحن . المأطور : المعطوف .
(٢) ديوان أوس ٤٣ .

وصف ثور الوحش :

سندرس فيما يلي وصف هؤلاء الشعراء لأنواع من الحيوان الوحشي بعد أن درسنا أنواعاً من الحيوان الأهلي ، وسنبدأ بثور الوحش .

لقد رأيت وصفهم له يأتي غالباً في ثنايا وصف الناقة ، وذلك عندما يريد أن يصور لنا سرعتها الفائقة ، يقول : إنها تشبه الثور ، ويتخير حالة من الحالات التي يكون فيها الثور محمولاً على السرعة ، وأكثر هذه الحالات وروداً حالة مفاجأة الصياد وكلابه الثور . . ويصفون حال كل منها . . ثم يصفون المعركة . . وغالباً ما تكون نتيجتها إلى جانب الثور .

وكأنهم أجمعوا على أن لونه أبيض . . وعبروا عن ذلك بقولهم (لهق)[1] وأن قوائمه مخططة وعبروا عن ذلك بقولهم (ملمع)[2] أو (ذو وشوم)[3] وقد عينوا موطنه فأوس ذكر مرة أنه (أنبط)[4] وذكر مرة أخرى أنه بين (مأفقة والقطقطانة والبرعوم) .[5]

وحدد زهير أن موطنه (حومل)[6] وقال الحطيئة إنه (شقيقه) و (غايط قفرة) .[7]

---

(١) انظر ديوان أوس ٢ و«ديوان زهير» ٣٧٩، ٣٨٢ و«ديوان كعب» ٢٢٢ و«ديوان الحطيئة» ٣٧٧ .
(٢) انظر ديوان أوس ٢ و « ديوان كعب » ٢٢٢ .
(٣) انظر « ديوان أوس » ٤٢ و « ديوان كعب » ١٦١ .
(٤) انظر « ديوان أوس » ٢ .
(٥) انظر ديوان « أوس » ٤٢ .
(٦) انظر ديوان « زهير » ٣٧٩ .
(٧) انظر « ديوان الحطيئة » ٣٧٧ .

يقول أوس :[1].

وكأن اقتادي رميت بها ... بعد الكلال ملمعاً شببا
من وحش أنبط بات منكرسا ... حرجا يعالج مظلماً صخباً
لهقاً كأن سراته كسيت ... خرزا نقالم يعد أن قشبا[2]

يتحدث عن ناقته السريعة جداً . . تلك التي لا تعرف الكلال . . فكأن رحله بعد اعيائها. رمى به ثوراً وحشياً ملمعاً يطوي البيد ويمر كالنسيم . وحدد أوس موطن هذا الوحش، فهو من أنبط المشهور بكثرة الوحش.

وهكذا فإن هذا الثور أبيض اللون ملمع فيه بقع من لون آخر . . ويا لروعة مرآه من بعيد وظهره يلمع كأنما كسي خرزاً مجلوا من قريب انعكست عليه أشعة الشمس .

بات مذعوراً يعاني ظلمة فاحمة من الليل ، وصخبا مروعاً تشترك فيه الكلاب والضفادع والرياح المزمجرة والأمطار المنهمرة والأمطار في الصحراء تكون في الليل غزيرة . . فألجأه ذلك كله إلى مضيق من الأرض بات فيه متجمعاً مستعداً للعدو الذي لا يفوقه سير مهما كان سريعاً .

ويقول أوس أيضاً : [3]

كأنها ذو وشوم بين مأفقة ... والقطقطانة والبرعوم مذعور

---

(١) ديوان أوس ٢ .

(٢) القتد : الرجل . الشبب : ثور الوحش الذي تمّ تمامه . الملمع . الذي يكون في جسمه بقع تخالف سائر لونه . أنبط : موطن كثير الوحش . منكرس : متجمع . حرج : لاجيء إلى مضيق من الأرض المظلم . الصخب : صفتان لليل وصخب الليل لاشتداد وقع المطر فيه أو نقيق الضفادع أو صوت الكلاب أو الريح بين ورق الشجر أو ذلك كله مجتمعاً . واللهق : الأبيض . السراة : الظهر . نقا : جمع نقاوة وهو خيار الشيء . قشب : جلى .

(٣) ديوان اوس ٤٢ ـ ٤٣ .

أحس ركز قنيص من بني أسد فانصاع منثوياً والخطو مقصور
يسعى بغضف كأمثال الحصى زمعاً كأن أحناكها السفلى مآشير
حتى أشب لهن الثور من كثب فأرسلوهن لم يدروا بما ثيروا
ولي مجداً وأزمعن اللحاق به كأنهن بجنبيه الزنابير
حتى إذا قلت نالته أوائلها ولو يشاء لنجته المثابير
كرعليها ، ولم يفشل ، يهارشها كأنه بتواليهن مسرور
فشكها بذليق ، حده سلب كأنه حين يعلوهن موتور
ثم استمر يباري ظله جذلا كأنه مرزبان فاز محبور[1]

وهذا النص أيضاً ورد تبعاً للناقة التي يصفها الشاعر بالسرعة فيشبهها بهذا الثور .

إنه ذو وشوم من وحوش المنطقة بين مأفقة والقطقطانة والبرعوم ، وبينما كان مسروراً في مقامه ، آمناً في سربه إذ أحس بصوت صياد من بني أسد إنه صياد معروف ، كأني بأوس يسرف في هذه الأسماء ليقنعنا بأن الحادثة واقعية فالأرض محددة والصياد رجل معين ـ فأصابه الذعر . . فولى هارباً لكن الخوف خلع قلبه حتى كان خطوه قصيراً . أما الصياد فقد كان يسير ومعه كلاب كثيرة تسير بتؤدة مخالسة للفريسة ، وأسنانها حادة قاطعة كأنها المناشير حتى أتيح لها الثور من قرب فأرسلهن الصياد ، فانطلقن لا يلوين على شيء فما كان منه إلا أن ولى مجداً ومضى . . والكلاب تتابعه مزمعة اللحاق به كأنهن الزنابير في السرعة وهن بجنبه حتى إذا

---

(١) ذو وشوم : صفة للثور تتصل بلون قوائمه . ومأفقة والقطقطانة والبرعوم مواضع . والركز : الصوت الخافت . القنيص : الصياد . انصاع : انفتل راجعاً . منثوياً : عائداً مولياً . مقصور : قصير وكان ذلك بسبب الخوف الغضف : الكلاب . زمعاً : أي يسير ببطء وتؤدة يخالس الفريسة . . مآشير : مناشير . أشب : أتيح . المثابير : من المثابرة . لم يفشل : لم يضعف ولم يفتر . يهارشها : يناوشها . الذليق : القرن الحاد . السلب : الطويل الخفيف . الموتور : من له ثأر عندهن . المرزبان : الفارس الشجاع المقدم على القوم .

قلت : نالته أوائل الكلاب مضى مسرعاً فابتعد عنهن قليلاً ، ولو شاء لنجته المثابرة في السرعة ولخلفهن وراءه ، لكنه كف عن العدو وكر عليها ، يستقبلها بقرونه ، ولم يضعف ولم يفتر وظل معها في معركة يناوشها وكأنه مسرور بتواليها نحوه . وقد شكها بقرنه الحاد الطويل الخفيف برشاقة وسرعة إيقاع ، وكأنه حين يعلوهن موتور . . . .

ثم وصف حركته بعد الانتصار وصفاً رائعاً . . . إنه لم يركن إلى الراحة وجثث الكلاب من حوله تملأ ساحة المعركة ، بل استمر يباري ظله فرحاً كأنه فارس شجاع فاز على قوم أشداء . . . إنه في غاية الحبور .

ويقول زهير :[1]

أفذاكَ أم ذو جُدَّتَيْن مُولَّعٌ ... لَهَقٌ تراعيه بحومل رَبْرَبُ
بَيْنَا يُضاحِكُ رملةً وجواءَهَا ... يوماً أتيح له أقيدر جأنبُ
قصداً إليه فجال ثمت رده ... عزٌّ ومشتد النصال مُجَرَّبُ
فَتَرَكْنَهُ خَضِلَ الجبين كأنَّهُ ... قَرِمٌ به (كدمٌ)[2] البِكَارة مُصْعَبُ
فابتزهُنَّ حتُوفَهنَّ ، ففائظ ... عَطِبٌ وكابٍ للجبينِ مُتَّرِبُ[3]

وصف دقيق لهذا الثور ، فهو أبيض اللون ، على ظهره خطتان تخالفان لونه وقوائمه مخططة ، كان يرعى مع ربرب بحومل . . وكان يحيا حياة آمنة سعيدة ، يضاحك رملة حومل ، أي كان مسروراً في تلك الرملة ، رماه القدر بصياد قصير

---

(١) ديوان زهير ٣٧٩ .
(٢) في الديوان ورد هذا الشطر ناقصاً هذه الكلمة ، وقال محققه : (ويلاحظ أن بهذا الشطر نقصاً) وقد توقع جامع (شعر زهير) إنها (كدم) فأثبتناها عنه .
(٣) ذو الجدتين : الثور في ظهره خطتان تخالف لونه . المولع : المخطط القوائم . اللهق : الأبيض . تراعيه : ترعى معه . الربرب : القطيع من بقر الوحش . حومل : موضع . الجواء : جمع جو وهو المنخفض من الأرض .
الأقيدر : الصياد القصير . الجأنب : الغليظ القصير . العز : الأنفة من الفرار . مشتد النصال : =

غليظ ، والقصر في الصياد صفة مطلوبة ليساعد قصره على اختفائه . وهذا الصياد قاصد إليه بكلابه . . ففر مسرعاً . . ثم رده إلى مواجهة هذه الكلاب الأنفة من الفرار وقرن مجرب طعنت به كلاب كثيرة قبل هذه وأرداها جميعاً . ولم يفصل لنا زهير في المعركة بل اقتصر على ذكر النتيجة وهي صرع الكلاب التي تركت جبينه ملطخاً بدمائها . . وطبيعي أن يخضل الجبين بالدم لأن أداة القتل هي القرن . . وقد أصبح منظره بهذه الدماء يشبه البعير الفحل الذي خصص للفحلة فهو أبداً مصاب بعضات من أفتاء الإبل . . أجل لقد ساقتهن حتوفهن إلى هذا المكان فميت معطوب ومنكب على وجهه مطروح في التراب .

ونجد زهيراً في موضع آخر يصف بقرا لوحش بأنها ذات عيون حلوة واسعة تسوق جآذرها مع الظباء فيقول :[1]

تعتاده عين ملمعة تزجى جآذرها مع الأدم[2]

وقال كعب :[3]

وإذا ما أشاءُ أبعثُ مِنْهَا مَطْلِعَ الشمسِ ناشطاً مذعورَا
ذا وُشُوم كأنَّ جِلْدَ شَوَاهُ في ديابيجَ أوكسينَ نُمُورَا
أخرجتْه من الليالي رَجُوسٌ ليلةً هاجَها السِّماكُ دَرُورَا
غَسَلَتْهُ حتَّى تَخَالَ فريداً وجُماناً عن متنِه مَحْدُورَا
في أصولِ الأَرْطَى ويُبْدي عُرُوقاً ثَئِداتٍ مثلَ الأعِنَّةِ خُوَرا

= قرنه . المجرب : الذي جرب . خضل : ندى مبتل . القرم : الفحل من الإبل يترك من الركوب والعمل ويودع للفحلة الكدم : العض . البكارة : جمع بكر وهي الفتى من الإبل . المصعب : الذي ترك لم يركب ولم يمسه حبل أمصار صعباً . ابتز : ساق وسلب . الفائظ : الميت . الكابي : المنكب . المترب : المطرق في التراب .

(١) ديوان زهير ٣٨٢ .

(٢) العين : جمع عيناء ، وهي البقرة الواسعة العين . ومشهورة عيون المها . الملعة : التي قوائمها مخططة . تزجى : تسوق . الجآذر : أولاد البقرة . الأدم : الظباء البيض البطون السمر الظهور .

(٣) ديوان كعب ١٦١ .

واشـجـاتٍ خُـمْـراً كأن بأظلا ف يـديـهِ مـن مائهـنَّ عَبِيرَا
كمُـطيفِ الـدَّوَارِ حـتَّـى إذا مـا سـاطعُ الفجـرِ نبَّـه العصفـورَا
رابَـه نبأةٌ ، وأضمـرَ منهـا في الصمـاخينَ والفـؤادِ ضـميرَا
مـن خفـي الطمـريْنِ يَسْعَـى بِغُضْفٍ لـم يُؤَيِّهْ بِهِـنَّ إلا صفيرَا[1]

هذا الوصف الجميل للثور جاء خلال حديث كعب عن ناقته . وسماه ناشطاً لنشاطه ، وذكر أن لون قوائمه مخطط ، فكأنه ذو وشوم ، ويذكر هذا بقول أوس المتقدم الذي وصف الثور فيه بأنه ذو وشوم . أو كأن قوائمه لبست نماراً وهي ثياب مخططة .

وشارك أوسا في أن وصف الثور في ليلة مطيرة شديدة الرعد مظلمة وقد تعرض الثور لهذا كله فأزعجه . . وما زالت الأمطار تنهمر من السماء انهماراً حتى غسلته . . . وشبه تحدر القطر عن بياض جلده بالفرائد والجمان المتحدر من سلكه . ويبدو أنه ضاق بالطين والماء ، ورغب في كن يؤويه فصادفته شجرة أرطى فظل يطيف حولها إلى الصباح كما يطيف الوثني بصنمه يدور حوله . وكان يحفر الأرض بأظلاف يديه حتى بدت عروقها المتشابكة في الأرض والتي تشبه الأعنة واحمرت يداه من ماء عروقها حتى كأن عليها العبير وهو الزعفران .

وهناك رابه صوت خفي من صياد مختف بالأرض يسعى بكلاب . . . واستمر في وصف الصياد وكلابه والمعركة بين الكلاب والثور . . . وانتهت بمصرع الكلاب .

---

(١) الشوى : القوائم . الوشوم : سواد في الذراع . نمور : ثياب من صوف فيها سواد وبياض مخططة وهو جمع نمرة ، وهذا الجمع غريب ، والجمع المعروف نمار ، ومنه حديث مسلم (فجاءه قوم عراة مجتابي النمار) رجوس : ذات صوت بالرعد . وليلة : مظلمة ، ونصبت على الحال هاجها السماك : مطرت بنوئه ، والسماك من نجوم الصيف تكون أمطاره غزيرة . درور دائمة القطر . الفريدة : الدرة . الجمانة : من الفضة . الأرطى : شجر عروقه حمر ينبت في الرمل . ثئدات : نديات . خوراً : ضعافاً . واشجات : مشتبكات . العبير : الزعفران . من مائهن : أي من ماء العروق . الدوار : صنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله يدورون فيه ، وقد ذكره امرؤ القيس وغيره . النبأة : الصوت الخفي . الصماخ : داخل ثقب الأذن مما يلي الرأس والحلق . خفي الطمرين : الصياد .

هذا ونجد الحطيئة قد تأثر بنصّ كعب فيذكر أن ثوره ناشط وأن أمطاراً غزيرة نزلت عليه في الليل فالتجأ إلى كناس وبقي يتردد حوله كأنه متطوف بصنم ويشبه الماء المنحدر بالفضة المجلوة . . . كل ذلك ذكره الحطيئة . . بل لقد تأثر به في الروى أيضاً . . فلنقر أوصف الثور عند الحطيئة . يقول :[1]

أو فوقَ أخنسَ ناشطٍ بشقيقةٍ ... لَهَقٌ بغايطِ قفرةٍ محبورُ
باتتْ له بكثيب حربةَ ليلةً ... وَطْفَاءَ بينَ جُماديَيْنْ درورُ
حَرِجاً يُلاوذُ بالكِناس كأنهُ ... متطوِّف حتى الصباحِ يدورُ
فالماء يركب جانبيه كأنَّهُ ... قُشْبُ الجَمانِ وطرفُه مقصورُ
حتّى إذا ما الصبحُ شقَّ عَمُودَهُ ... وعلاهُ أسطعُ لا يُرَدُّ منيرُ
أوفى على عَقَدِ الكثيبِ كأنَّه ... وَسْطَ القِداحِ مَعَقَّبَ مشهورُ
وحصى الكثيبِ بصفحَتيهِ كأنهُ ... خبثُ الحديدِ أطارَهنّ الكيرُ[2]

ومن الصور الجميلة أن سرعة هذا الثور تشبه سرعة السهم الطائر وأن الحصى الذي يصيب خديه كأنه خبث الحديد يطيره كير الحداد.

ومن الأوصاف التي ذكرها كعب لثور الوحش أنه ضامر، وعبر عن ذلك بقوله (طاوي المصران) .[3]

ووصف القرنين بقوله :[4]

---

(١) ديوان الحطيئة ٣٧٧ .

(٢) الأخنس ما كان فيه ميل في الأنف . الناشط : الثور النشيط . الشقيقة : غلظ بين رملتين . الغايط : المنخفض من الأرض . محبور : مسرور . كثيب حربة : موضع . ليلة : مظلمة . وطفاء : سحابة قريبة . والجماديان : إما أن يريد بهما الشهرين أو مكانين . حرجا : ملتجئا . يلاوذ : يراوغ ويتردد لائذا . والكناس (بكسر الكاف) مولج في الشجر يأوى إليه الظبي ليستتر فيه . القشب : الصقل والجلاء . الجمان : الفضة . ضوء أسطع : منتشر ساطع . أوفى : أشرف . عقد الكثيب : ما تراكم من الرمل . والمعقب من الأقداح : الفائز الذي شد بالعقب ، والعقب : العصب تتخذ منه الأوتار .

(٣) ديوان كعب ٢٢٢ .

(٤) ديوان كعب ٢٢٢ و ٢٢٣ .

فغدا بمعتـدلـين لـم يُسْلَبْهُمَـا لا فيهمـا عِوَجٌ ولا نَقِـدَانِ
وكِلاهُمـا تحـتَ الضـبـابِ كأنَّمـا دَهَـنَ المثقَّـفُ لِيطَـهُ بِدِهَـانِ[1]

إنهما قرنان حادان معتدلان لا فيهما عِوج ولا هما متآكلان وقد غسلهما المطر فأصبحا يلمعان كأنما دهن المثقف ظاهرهما بدهان .

وكذلك فإنه يخص الاذن بيت من هذه المقطوعة فيقول : إن الله أعطى أذني هذا الثور سمعا وحذرا :

وغـدا بسامِعَتـي وَأَىً أعطـاهُمَـا حَـذَراً وَسَـمْعـاً خالـقُ الآذانِ[2]

(١) المعتدلان : القرنان . النقد : المتآكل . المثقف : مقوم الرماح . ليطه : قشره .
(٢) ديوان كعب ٢٢٣ .

وصف حمار الوحش :

وهو من الحيوانات التي أكثر شعراؤنا من وصفها ، كما فعل معاصروهم ولذلك دلالة لا شك فيها ، وهي كثرة هذا النوع من الحيوان في ذلك الوقت .

ويشابه الحمار الوحشي الثور الذي تعرضنا له آنفاً في أن كلا منهما يرد وصفه خلال حديث الشاعر عن سرعة الناقة غالباً أو الفرس أحياناً .

ويبدو أنهم في مطاردتهم لهذا الحيوان ابتغاء صيده وإخفاقهم في كثير من الأحيان في صيده كانوا يحسون بسرعته الفائقة . . . فقد كان يصيبهم الكلال في اقتفائه ولحاقه ، وكذلك كانت سرعته ـ في نظرهم ـ هي السرعة القصوى .

وقد استفاد بعضهم من بعض في وصف حمار الوحش ، فكان المتأخر يستعير من سابقه الألفاظ والمعاني والصور ، وهذا يؤكد رابطتهم الشعرية الوثيقة وإليك بعض الأمثلة : ـ

يقول أوس : [1] كأني كسوتُ الرحلَ أحقبَ قارباً .

ويقول كعب : [2] كأنِّي كسوتُ الرحلَ جَوْناً رَبَاعياً .

ويقول الحطيئة : [3] كأني كسوتُ الرحلَ جَوناً رَبَاعياً .

ويقول أوس : [4]

---

(١) انظر « ديوان أوس » ٦٧ .
(٢) انظر « ديوان كعب » ١٤٠ ، ٢٤٣ .
(٣) انظر « ديوان الحطيئة » ١٩ .
(٤) انظر ديوان أوس » ٧٣ .

كـــلا منخـــريهِ سائفاً أو مُعَشِّراً بمـــا انفضَّ من ماءِ الخياشيمِ راعفُ

ويقول كعب : (١)

كـــلا منخـــريـه سائفاً ومعشِّراً بمـــا انصـــبَّ من ماءِ الخياشيم راذمُ

ويقول أوس : (٢)

يُصـرِّف لـلأصـواتِ والـريحِ هـادياً تميمَ الـنَّضـي كَدَّحَتْـهُ المناسفُ

ويقول كعب : (٣)

يَقلـــبُ لـلأصـــواتِ والـريحِ هاديـاً تميـمَ الـنَّضـيِّ برَّصتْهُ المكـادمُ

يقول أوس : (٤)

ورأســاً كَـدَنٌ التَّجْـرِ جأبـا كأنَّما رَمَـى حـاجبيهِ بالحجـارةِ قاذفُ

ويقول كعب : (٥)

ورأســاً كَدَنٌ التَّجْـر جأبَـاً كأنَّما رَمَى حاجبيهِ بالجلاميد راجـمُ

ويقول أوس : (٦)

فعضَّ بإبهـامِ اليمـينِ نـدامةً ولهـفَ سراً أمـه وهـو لاهفُ

---

(١) انظر ديوان كعب ١٤٤ .
(٢) انظر ديوان أوس ٧٣ .
(٣) انظر « ديوان كعب » ١٤١ .
(٤) ديوان أوس ٧٣ .
(٥) ديوان كعب ١٤٣ .
(٦) ديوان أوس ٧٢ .

ويقول كعب: [1]

يعـــضُّ بإبهـــامِ اليدينِ تَنَدُّماً ولهَّـــفَ ســـراً أمـــهُ وهو نادمُ

وتحدثوا عن النسور وهي ما شخص من باطن حافر الحمار .

فقال زهير : [2]

صلب النسور على الصخور مراجم .

وقال كعب : [3]

يظـل جبينُـــه غرضـــاً لِسُمْرٍ كأنَّ نسورَهـــا حُشِيَتْ نِصَالا.

وقال كعب أيضاً : [4]

وصـــاح بهـــا جأب كـأنَّ نسوره نـــوىً عضَّـــه مِنْ تمـر قُرَّانَ عاجم

ويقول أوس : [5] يقلب حقباء العجيزة سمحجا . . .

ويقول الحطيئة : [6] جون يطارد سمحجا حملت له . . .

وكأنهم التزموا في وصفه أن يعرضوا للصياد فيصفوه . . وهنا تواجهنا مشاهد الصيد الرائعة التي يأتي فيها ذكر أدوات الصيد من أسلحة وكلاب وما إلى ذلك وقد أسرفوا في ذكر علاقة الحمار بالأتان ، فقد قرروا أنها ودية للغاية وذكروا كيف يشمها ويعضها ؟ وكيف ترمحه بظلفها حتى يؤثر ذلك في جبينه تأثيراً واضحاً .

---

(١) ديوان كعب ١٥٠ .
(٢) ديوان زهير ٣٧٣ .
(٣) ديوان كعب ٢٠٣ .
(٤) ديوان كعب ١٥١ .
(٥) ديوان أوس ٦٧ .
(٦) ديوان الحطيئة ٣٧٦ .

وحددوا الأماكن التي يوجد فيها حمار الوحش الموصوف فقال أوس :إنه بجنوب الشيطين[1] وقال الحطيئة : إنه بالشيطين .[2] وقال كعب :إنه وادي الرجا فالأفايح[3] وقال كعب :[4]

جعلـن القَنَـانَ بإبطِ الشِّمَالِ ومـاءَ العُنَـابِ جعلـن اليمينَـا
وبَصْـبَصْـنَ بـينَ أدانـي الغَضَـا وبين عُنـيزة شَـاواً بـطينَـا

وقد وصفوا أعضاءه وصفاً دقيقاً كالعين والعنق والـرأس واليدين والرجلـين والظهر والبطن ووصفوا حركته وسرعته وصوته وذكروا أنه أجش وقال كعب : حتى إنك لتحسب أنه عندما كان يشرب دخلت في حلقه علقة فصار أجش من ذلك .[5]

وذكروا وروده الماء وتذكره ماءاً بعينه وذهابه إليه . كل هذا مما اشترك فيه الشعراء :

فأوس يقول :[6] تَذَكَّر عينا من غمازَة ماؤُها .

وزهير يقول :[7] ارتاع يذكر مشرباً بشماده .

وكعب يقول :[8] ذَكَرَ الوِرْدَ فاستمرَّ إليهِ .

وقد وجدت كعبا أكثرهم وصفا للحمار ، ويتميز وصفه بالطول والدقة ولننظر في هذين النصين :

---

(١) ديوان أوس ٦٧ .
(٢) ديوان الحطيئة ٣٧٦ .
(٣) ديوان كعب ٢٤٣ .
(٤) ديوان كعب ١٠٢ .
(٥) ديوان كعب ٢٠٣ .
(٦) ديوان أوس ٦٩ .
(٧) ديوان زهير ٣٧٥ .
(٨) ديوان كعب ١٨١ .

١) قال أوس :[١]

كأني كسوتُ الرحلَ أحقبَ قارباً ... لَهُ بجنوبِ الشَّيْطَيْنِ مساوفُ
يقلِّبُ قيدوداً كأن سراتَها ... صَفا مُدهنٍ قد زحلفته الزحالفُ
يقلبُ حَقباءَ العجيزةِ سمحجاً ... بها ندبٌ من زره ومناسفُ
وحلأها حتى إذا هي أحنقتْ ... وأشرفَ فوق الحالبين الشراسفُ
وخبَّ سفا قريانه وتوقّدت ... عليه من الصَّحَّانتين الأصالفُ
فأضحى بقاراتِ الستار كأنه ... ربيئةُ جيشٍ فهو ظمآنُ خائفُ
يقول له الراؤون هذاك راكبٌ ... يؤبن شخصاً فوقَ علياءَ واقفُ
إذا استقبلتْهُ الشمس صدَّ بوجهِهِ ... كما صدَّ عن نارِ المُهَوِّل حالفُ
تذكّر عيناً من غُمازة ماؤُها ... له حَبَبٌ تستن فيه الزخارفُ
وجالَ ولم يَعْكِمْ وشيَّعَ إلفَهُ ... بمُنْقَطَعِ الغضراءِ شدٌّ مؤالفُ
فما زال يَفْرِي الشدَّ حتَّى كأنما ... قوائمُه في جانبيهِ الزعانفُ
كأن بجنبيه جنابين من حَصَى ... إذا عَدْوه مَرًّا به متضايفُ
تُوَاهِقُ رجلاها يَدَيْهِ ورأسُه ... لها قتبٌ فوقَ الحقيبةِ رادفُ
يصرفُ للأصواتِ والريحِ هادياً ... تميمَ النضي كدحَتْهُ المَناسفُ
ورأساً كَدَنَّ التجرجأبا كأنما ... رَمَى حاجبيه بالحجارةِ قاذفُ
كلا منخريهِ سائفاً أو معشّراً ... بما انفضَّ من ماءِ الخياشيمِ راعفُ[٢]

يبدأ أوس وصفه للحمار بتشبيه ناقته به . . ثم يفيض في ذكر أوصاف المشبه به فيحدد مكانه ويذكر أن لونه أبيض وأنه مولع بشم أبوال الحمر وأن علاقته بالأتان قوية ، ويصف خلال ذلك هذه الأتان يقول إنه يصرف أتاناً طويلة كيف يشاء ، وأن ظهرها أملس كأنه صفا مدهن طال احتكاكه بالماء وقد أثرت عليه الزحالف التي يتزحلق الأولاد عليها فأورثه ذلك كله نعومة ولمعاناً .

---

(١) ديوان أوس ٦٧ .

(٢) الأحقب : الحمار الوحشي الذي في بطنه بياض . القارب : الحمار يعجل ليلة الورود . الشيطين=

إنه يصرف أتاناً حقباء العجيزة بها آثار من عضه وأسنانه ، وقد منعها من الشرب وطردها وما زال بها حتى ضمرت ولزق بطنها بظهرها ، وأصابها الهزال الشديد ، وعبر عن ذلك بصورة جميلة وساذجة فقال : إن شراسفها أشرفت فوق الحالبين ، ولا تشرف الأضلاع مثل هذا الإشراف إلا في الهزال البين البالغ . وقد نضبت مسايل الماء وعلاها التراب وتوقدت الأراضي الصلبة واشتعلت حجارتها . . وأضحى حمارنا في هذه البقاع الوعرة المقفرة الملتهبة كأنه ربيئة جيش ظمآن خائف . . وهو في مكان مرتفع مشرف إذا رآه الرائي حسبه راكباً واقفاً فوق علياء كأنه يؤبن شخصاً . فإذا ما واجهته الشمس صد عنها كما يصد حالف عن النار التي يحلفون بها .[1]

وفجأة تذكر عيناً عذبة تدعى غمازة ، يصفها ببيتين ثم عاد إلى قصة الحمار الذي تابع سيره حتى بلغها وسار ألواناً من السرعة من الشد والتقريب . . وساق أتانه

= موضع . السوف : الشم . قيدود : طويلة يقلبها : يصرفها يميناً وشمالاً . الزحلوفة : مكان منحدر ممس لأنهم يتزحلقون عليه . المدهن : نقرة في الجبل يستنقع فيها الماء . حقباء : أي عجيزتها مثل الحقب . الزر : العض . ندب : أثر . مناسف : آثار الأسنان . حلأها : طردها ومنعها عن الماء . أحنقت : ضمرت ولزق بطنها بظهرها . والشراسف : أطراف الأضلاع . وإشراف الشراسف فوق الحالبين كناية عن الضمور والهزال . خب : ارتفع وطال . والسفا التراب . والقريان : جمع قرى وهو مسيل الماء . الأصالف : جمع أصلف وهو المكان الذي لا ينبت . الصهانة : أرض صلبة ذات حجارة إلى جنب رمل . القارات : جمع قارة وهي جبل مستدق . والستار جبل . الربيئة : الطليعة الذي يتقدم الجيش ليعرف الخبر . التأبين اتباع الأثر في الأرض بنظر واتباع آثار الميت لمحاسنه . غمازة : بئر معروفة بين البصرة والبحرين . الزخارف . ذباب صغير يطير فوق الماء . العكم : الانتظار أي هرب ولم يكر . الفه : انثاه . شيعها : أعانها على الجري . الغضراء : الأرض الطيبة الخضراء . شد مؤالف : أي جرى يجمع بين الألاف ولا يدعها تتفرّق . يفري الشد : يعجل الجري . كأن قوائمه زعانف أي معلقة لا تمس الأرض من سرعته . الجناب : الصف ومعنى البيت : أن النقع فوق هذين الجنابين ينعقد ويتطاير كأنه بحر تتقاذف أمواجه . تواهق : تبارى . والقتب : الرحل الصغير . الهادي : العنق . النضي : ما بين الرأس والكاهل من العنق . كدمته : عضضته . المناسف : الأفواه . الدن (بفتح الدال) وعاء ضخم للخمر . التجر : باعة الخمر . الجأب : الغليظ . عشر الحمار : تابع النهيق عشر نهقات ووالى بين عشر ترجيعات في نهيقه فهو معشر . راعف : سائل .

(١) وفي ذلك إشارة إلى النار التي كانوا يحلفون بها وزعموا أنها كانت في اليمن ، وكان المريب عندما يهيب من الحلف بها يصد عنها وينكل ، والبريء كان يحلف .

حتى أوردها هذا المنهل ثم شرع في حديث مطول عن الصياد ومطاردته للحمار وانتهى إلى أن الحمار نجا من سهام الصياد . . فجال وهرب ولم يعد إلى هذا المكان . . وأعان أتانه على الجري بسرعة تجمع بين الألاف وخص بحديثه الحمار ووصفه بالسرعة وعبر عن ذلك بهذه الصورة الرائعة فقال : كأن قوائمه زعانف معلقة لا تمس الأرض من سرعته ثم تحدث عن الحصى والغبار الذي ينعقد ويتطاير من جانبيه وقد تفنن الشعراء في تشبيه الغبار ومن أجمل هذه الصور قول الحطيئة :[1]

وَكأنَّ نقعَهُمَا بِبُرقَةِ ثادقٍ وَلِوى الكثيبِ سَرَادِقٌ منشورُ

ثم ذكر أن مباراة قامت بين يديه ورجليها (أي رجلي الأتان) فهما في تسابق مستمر وهي تتقدمه ، وهو يسوقها ورأسه كالقتب لها رادف . . . . وأخيراً فقد وصف عنقه ورأسه ومنخريه فذكر أن عنقه متماسك قوى ، وأن أفواه الحمير قد ملأته عضا . . . وأنه إذا سمع صوتاً خاف والتفت بهذا العنق ونظر . . وكلما هب الريح تطلع نحوها : هل هناك من خطر ؟ . . ويشبه رأسه بدن الحمار في كبره وضخامته . . وهو غليظ وكأنما رمى قاذفون حاجبيه بالحجارة وأما منخراه فإنهما أبداً سائلان سواء كان ناهقاً أو شاماً .

ويقول كعب :[2]

كأنِّي شددتُ بأنساعها قُوَيْرِحَ عامينِ جأباً شنوناً
يُقَلِّبُ حقْباً تَرى كُلَّهُنْ قَدْ حَمَلَتْ وأسرَّت جنينَا
وحلأهنَّ وخَبَّ السَّفَا وهيَّجَهنَّ فلما صَدِينَا
وأخلفهنَّ ثمادَ الغمارِ وما كنَّا من ثادق يحتسينَا
جعلن القَنَانَ بابطِ الشمالِ وماءَ العُنَابِ جعلنَ اليمينا

(١) ديوان الحطيئة ٣٧٦ .
(٢) ديوان كعب ١٠٠ .

وبصبَصنَ بين أدانى الغَضَا ... وبَيْنَ عنيزةَ شَأواً بطينَا
فأبقينَ منهُ وأبقى الطِرا ... دُ بطناً خميصاً وصُلباً سمينَا
وعُوجاً خِفافاً سِلاَم الشظى ... وميظب أكمٍ صليباً رزينَا
إذا ما انتحاهُنَّ شؤبوبُه ... رأيتَ لجاعريتهِ غُضُونَا
يعضضهن عضيض الثقا ... فِ بالسمهريّةِ حتّى تَلينَا
وَيكدِمُ أكفالُها عابساً ... فبالشِدَ من شَرَّهِ يتقينَا
إذا ما انتحتْ ذاتُ ضِغْنٍ لَهُ ... أصرَّ فقد سل منهَا ضغُوناً
له خَلْفَ أدبارِها أَزْمَلٌ ... مكانَ الرقيبِ من الياسرينَا
يُحشرحُ منهنَ قيد الذراع ... ويضربن خيشومه والجبينا
فأوردها طاميات الجمام ... وقد كُنَّ يَأْجُنَّ أوكُنَّ جونا
يثرن الغبار على وجهه ... كلون الدواجن فوق الإرينا
ويشربن من بارد قد علمـ ... ـن أن لا دخال وأن لا عطونا
وتنفى الضفادع أنفاسها ... فهن فُوَيق الرجا يرتقينا
... ...[1]
فلهف من حسرة أمه ... وولين من رهج يكتسينا
تهادى حوافرهن الحصى ... وصم الصخور بها يَرْتَمِينَا
فقلقلهن سراة العشا ... ءِ أسرع من صدر المصدرينا
يزر ويلفظ أوبارها ... ويقروبهن حزونا حزونا
وتحسب في البحر تعشيره ... تغرد أهوج في منتشينا
فأصبح بالجزع مستجذلا ... وأصبحن مجتمعات سكونا[2]

***

(١) هنا ١٢ بيتاً في وصف الصياد .
(٢) قويرح عامين : عيره سنتان . جأب : غليظ . الشنون : بين المهزول والسمين . الحقباء : الأتان . حلأهن : منعهن الورد . خب : جرى وعلا وارتفع . السفا : التراب . الثماد : الحفر يكون فيها=

نجد في نص كعب هذا ما وجدناه عند أوس من الرغبة في إضفاء صفة الواقعية على هذا الوصف فليس خيالاً يتخيل ، وإنما هو واقع يحكى . فالصبغة المحلية بادية في هذه الأبيات من خلال ألفاظ تحدد أمكنة خاصة من مثل (الغمار) و (ثادق) و (القنان) و (عنيزة) ونجد فيه تكراراً لمعان وردت عند أوس وغيره . إذ هذه الأمور لا يختص بها فريق دون فريق . . بل هي ملك للعصر وشعرائه ، ولو نظرت في قصيدة ربيعة بن مقروم[1] وهو شاعر معاصر لكعب لوجدت بينهما تقاربا وتشابها .

يقول : كأن هذه الناقة حمار فتى لم يتجاوز السنتين ولكنه غليظ شنون يقلب قطيعاً من الأتن الحوامل ويقودها من مكان إلى مكان ، ويمنعها من الماء ، ويسير هذا الموكب بقضه وقضيضه ، ويرتفع التراب وراءهن ويعضهن العطش ، ويأتي ماء لكنه يخلفه ، ولا يستطيع أحد أن يروي ظمأه ، ذلك لأن سلطانه عليهنّ عظيم لا يقوى أحد على مخالفته .

ويظل مستمراً في الطراد الذي جعل بطنه ضامراً وعضلاته مفتولة ، ولم يُبْقِ

= الماء القليل وتطلق على الماء مجازاً الغمار : موضع . ثادق : ماء معين . القنان : جبل . العناب : ماء بصبصن بأذنابهن : حركنها . الغضا وعنيزة : موضعان . شأوا : شوطا . بطين : بعيد . الطرد : مصدر طارد . خميصاً : ضامراً . الصلب : الظهر . عوجاً : قوائم طوالاً . الشظى : جمع شظاة ، وهي عظم لازق بالركبة . الميظب : نوع من الحجارة وإنما يعنى الحافر . صليب : صلب . رزين : ثقيل . شؤبوبه : حدته ودفعته . الجاعرتان : حرفا الوركين المشرفان على الفخذين . غضون : آثار من عضهن . الثقاف : آلة من خشب تسوى بها الرماح . السمهرية : رماح منسوبة إلى سمهر ، يكدم : يعض . الشد : العدو . أصر الفرس : إذا جمع أذنيه وعزم على الشد . الضغن : الحقد . الأزمل : الصوت المختلط . الرقيب : المراقب للمقامر كيلا يخون . الياسرون : المتقامرون الحشرجة : صوت في الصدر لا يخرجه . قيد الذراع : مقداره . طاميات مرتفعات .
الجمام : جمع جمه وهي معظم الماء . أجن الماء : إذا تغير . الأرون : حفر النار واحدها أرة . الدخال : أن يشرب البعير ثم يرد إلى الحوض ويدخل بين بعيرين عطشانين ليشرب مرة ثانية . لاعطون : لا بروك . الرجا : جانب البئر . الرهج : الغبار . المصدرون : الراجعون عن الماء . يزر : يعض يلفظ : يقذف ما في فيه من أوبارها . يقرو : يتبع : الحزن : ما غلظ من الأرض . عشر الحمار : إذا نهق . البحر ـ هنا : الريف . المنتشون : السكارى . الجزع : ما انحنى من الوادي . مستجذل : فرح .

(١) انظرها في المفضليات ص ١٨١ .

منه إلاّ قوائم خفافاً سليمة العظم ، قوية الحوافر :

فـأبقَيْنَ منـه وأبْقَـى الطَّـرا ... دُ بَطْنـاً خَميصـاً وصـلْباً سَمينَا
وعُـوجـاً خِفَـافـاً سِلاَمَ الشَّظَى ... ومِيظَـبَ أَكْـمٍ صَليبـاً رَزِينَا

ثم يتعرض كعب إلى موضوع العض ، وهو أمر لا يكاد يخلو منه وصف للحمار فهذا الحمار يشترك معهن في عض متبادل ، ولذلك فإن لجاعريته غضوناً وهو لا يقصر عنهن في ذلك فإنه :

يُعَضِّضُهُنَّ عَضيضَ الثُّقا ... فِ بالسَّمْهَـرِيَّةِ حتَّـى تَلِينَا
وَيكْدُمُ أكفَـالَهَـا عابِساً ... فبالشَّـدِّ من شَرِّه يَتَّقِينَا

إنهن لا يجدن وسيلة لاتقاء عضه المؤذي إلا بالشد والإسراع ، وإنه ليسرع إذا انتحت له ذات ضغن ويلحق بها ولا يدعها تقاربه ، ويصوت جزعاً إذا قاربها وأضحى منها مكان الرقيب من الياسر ، وعندما يسمعن حشرجته وهو منهن قيد الذراع يضربن جبينه وأنفه ويلطمنه على وجهه ، وما يزال كذلك حتى يوردها الماء الغزير المرتفع ويتحدث عن الماء بعض الحديث . وفي الطريق كن يثرن الغبار على وجهه كما يثور الدخان فوق حفر النار.

ووصلن إلى الماء جميعاً ، وشرعن يشربن منه مطمئنات إلى أنهن مختصات بهذا الماء ، وبالغن في الشرب لأنهن قد عانين من الظمأ شيئاً كثيراً . . حتى إذا تنفسن في الماء ارتاعت الضفادع وانحازت إلى جانب البئر .

ثم بعد ذلك يتعرض لوصف الصياد في اثنى عشر بيتاً . . ويخفق الصياد في محاولته فلا يصيب واحداً من هذا القطيع .

فَلَهَّفَ مـن حَسْـرةِ أُمِّه ... وَوَلَّينَ مـن رَهَـجٍ يكتسينَا

إن هذه الأتن بعد أن شعرت بالخطر يحدق بها ، وارتوت من الماء ولت مسرعة واكتست من الغبار الذي تثيره بعدوها ثياباً ، وحوافرهن تتهادى الحصى ، فتقذف بها نحو اليمين ونحو الشمال ويرتمين بالصخور الصلاب . وحمارنا ما زال يقودهن . .

وجاء وقت العشاء وارتفع . . ويعضهن ، وعندما كان يعضهن كان يعلق في فمه شيء من أوبارهن فهو يلفظه . . ويتتبع بهن كل حزن في الأرض وإذا نهق في الريف فكأنه أهوج يغرد بين قوم سكارى . وأصبح بالجزع فرحاً مسرور لنجاته من الموت المحقق . . . وأصبحت أتنه مجتمعات ساكنات .

هذا الوصف أشبه ما يكون بقصة . ومعظم ما ورد من معان يتكرر عند زملائه من عبيد الشعر .

***

وصف النعامة والظليم

أجاد زهير وابنه في وصف النعامة ، وقد جاء وصفها في شعرهما لتشبيه سرعة الناقة بسرعتها . وكانت النعامة في النصوص الوصفية مقرونة إلى الظليم وقد وصفوا لنا علاقتهما المتينة وملازمة أحدهما للآخر .

يقول زهير :[1]

كأنّي وردْ في والفِتَان ونُمْرقي ... على خاضبِ الساقَيْنِ أزْعَرَ نقنَقِ
تَرَاخَى به حُبُّ الضحاءِ وقد رأى ... سَمَاوةَ قَشْراءِ الوَظِيفَيْنِ عَوْهَقِ
تَحِنُّ إلى مِثْلِ الحَبَابِيرِ جُثَّمٍ ... لَدَى سكَنٍ من قَيْضِها المتفلِّقِ
تَحَطَّمَ عنها قَيْضُها عن خَرَاطِمٍ ... وعن حَدَقٍ كالنَّبْخِ لم تَتَفتَقِ[2]

يشبه ناقته بالظليم ، ويطيب لزهير أن يعبر عن ذلك بصورة حلوة وذلك في قوله :

---

(١) ديوان زهير ٢٤٨ .

(٢) الردف : الحقيبة . الفتان : غشاء للرحل من أدم . النمرق : الوسادة أو الطنفسة التي فوق الرحل . الخاضب : الظليم خضب البقل ساقيه . الأزعر : القليل الريش . النقنق : الذي ينقنق في صوته ، والنقيق صوت الظليم . تراخى به : تطاول به وتباعد . الضحاء للابل : بمنزلة الغداء للناس . سماوة الشيء : أعلى شخصه . والقشراء : النعامة لا ريش على ساقيها . الوظيف : عظم الساق . عوهق : طويلة العنق تحن : تشتاق . الحبابير : فراخها وهي جمع حبارى وهي طائر على شكل الأوزة ، توجد غبره برأسه وبطنه ، ويضرب به المثل في الحمق . جثم : جاثمة أقامت في موضعها . السكن : الموضع الذي تسكن إليه وهو الموضع الذي باضت فيه .
القيض : قشر البيض . الخراطم : المناقر ويريد بها خراطم أولاد النعام . حدق : عيون . النبخ : الجدري . لم تتفتق : لم تتفتح .

كأني أنا والرحل وما فوقه وما تحته من متاع على ظليم . . . ثم شرع يصفه إنه ظليم يعيش في روضة خضراء يتنقل بين أعشابها وبقلها وحشائشها حتى تخضبت ساقاه . . . ويورثه هذا الغذاء شيئاً من قوة ونشاط ، وهو غريد لا يكف عن النقيق أزعر قليل الريش ، وهو من زمن بعيد ـ يحب الضحاء .

رأى نعامة جميلة طويلة العنق ، قشراء الوظيفين ، وهذه صفة موجودة في كل نعامة . . . لقد رآها تحن إلى فراخها التي كالحبارى . . . هذه الأفراخ مقيمة عند قشر بيضها المتفلق . . . لقد تحطم عنها قيضها عن مناقير وعن حدق لم تتفتح كأنها الجدري. وإذا حنت إلى فراخها أسرعت إليها . ويطوي النص ماذا صنع خاضب الساقين .

***

وأما كعب فقد كان أطول نفساً من أبيه فقد وجدت له نصين في وصف النعامة والظليم ولم يطو الكلام عنهما . . . وإنما فصل القول تفصيلاً ، فذكر لونهما الأربد ، وذكر أنها عارية النسا وأنها سريعة العدو ، وقد دعاهما واد خصب بهيج يستمتع ساكنوه ويكثرون ، غزير المياه ، وهي تراعي زوجها وهو إلف ودود لا يفارقها . ويشبهها بنوبيين .

يقول :[1]

أفتِلْكَ أمْ ربْداءُ عاريةُ النَّسَا ... زَجَّاءُ صادقَةُ الرَّواحِ نَسُوفُ
خَرَجَاءُ ، جَوَّفَهَا بياضٌ داخِلٌ ... لِعِضَائِها لونان فَهو خَصِيفُ
ظَلَّتْ تَرَاعِي زَوْجَهَا ، وطَبَاهُما ... جِزْعٌ ، قَدْ آمَرَعَ سَرَبُهُ ، مَصْيُوفُ
ينجو بها خرب المشاش كأنه ... بخزامه وزمامه مشنوف

(١) ديوان كعب ١١٩ .

قـرع القـذال يطير عـن حيزومه زغـب تفيئـه الـريـاح سخيـف
وكأنهـا نوبيـة ، وكأنـه زوج لهـا مـن قومهـا مشعوف[1]

***

وفي نص آخر بلغ اثني عشر بيتاً يتحدث كعب عن الظليم ويذكر لونه ، وهو اللون الذي ذكر في النصين السابقين لكعب وزهير . . . ويذكر أنه سريع يطوى الأرض طياً ، يجتاز أرض فلاة خالية ، فيها من آثار الجن الكثير.

وفي هذه الفلاة تعرض له هقلة خرجاء ريشها كأنه قطيفة ويبدو أن أواصر الصلة والصداقة قد انعقدت بينهما . . . واتخذا موضعاً يقال له النفاخ مستقراً لهما ، وقد بقيا في مسايل الماء ، يحتفران أصول نباتات ذكرها الشاعر . . .[2]

وبعد أن اخضرت أنوفهما من معاناة هذه النباتات راحا يطيران في سرعة فائقة حتى هبطا جنة أنفا . . . وكأنهما حبشيّان خافا من مليكهما بعض العذاب ونلاحظ أنّه زاد على الصورة التي تقدمت ولم يكتف بذلك . . . بل زاد فقال كأنهما كانا مكتوفين ثم أطلق سراحهما واعتراهما خوف الظلم .

ويبدو أن استعدادهما للعدو وضمهما جناحهما وتقاصرهما للأرض يشبه حالة

---

(١) الربداء : النعامة لونها أغبر إلى سواد . عارية النسا : عارية موضع النسا لا ريش عليه . الزجاء : واسعة الخطى . نسوف : أي تنسف الأرض برجلها فتثير التراب ، وقيل : النسوف التي لا تكاد قوائمها تقع على الأرض ، وذلك أجود لها . خرجاء : ذات لونين أبيض وأسود . جوفها : أي بلغ البياض إلى جوفها . العفاء : الوبر . الخصف : لون مركب من أبيض وأسود .
زوجها : أي الظليم . طباها : دعاها . الجزع : ما انثنى من الوادي أمرع : كثر نبتة . السرب من المال : ما قد رعى . المصيوف : الذي أصابه مطر الصيف . الخرب : الذي لا مخ له . المشاش : المفاصل ، أوكل عظم لامخ فيه أوهو رؤوس العظام . والخزامة والخزام : حلقة من شعر تشد في وترة أنف البعير ويشد فيها الزمام . مشنوف : رافع رأسه . قرع القذال : أي لا ريش على قذاله . والقذال مؤخر الرأس .
وخيزومه : جؤجؤه . الزغب : الريش الصغير . تفيئه : تذهب به وتجيء والسخيف : الرقيق الذي ليس بغليظ . المشعوف : الإلف الذي لا يفارق .
(٢) وهي المغد واللصف والشري والتنوم وانظر معاينها في شرح مفردات الأبيات .

الحبشيين المكتوفين. وهما في عدوهما يرفعان رأسيهما ويخفضانهما فكأنهما خاليان يقطعان الخلى ، وفي ذلك تصوير دقيق لحركة الركض .

إن من ينظر إلى من يقوم بقطع الحشيش بالمنجل يتبين دقة التشبية الذي أتى به شاعرنا .

واغتنم الظليم غفلة الهقلة فسبقها إلى شرف من الأرض ، وما إن رأته حتى شمرت عن ساقيها ، وانطلقت تعدو وراءه . . . وساقاها كأنهما عمودان قد زال عنهما قشرهما ودنوا لليبس . . . ولقد قاربت ما بين صدرها وجناحيها وهي تثني إليها عنقاً ليناً خالط بياضه سواد فأضحى خصفا . كانت في هذا الشوط ممنعة وإن الذي قامت به لا يستطيع الظليم أن يأتي بمثله إلا بمشقة وعسر .

يقول كعب :[1]

كأن رَحْلِي وقد لانتْ عَرِيكتُها ... كَسوتُه جَوْرَفاً أقْرَابُه خَصِفَا
يَجتازُ أرضَ فَلاةٍ غيرَ أنَّ بها ... آثارَ جِنٍّ ، وَوَسْماً بينهم سلفَا
تَبري له هِقْلةٌ خَرْجاءُ تُحسَبُها ... في الآلِ مَخْلولةً في قَرْطَفٍ شَرَفَا
ظَلاَّ بأقْرِيةِ النَّفَّاخِ يومَهما ... يَحْتَفِرَانِ أُصُولَ المغدِ واللَّصَفَا
والشَّري حتى إذا اخضرَّت أنُوفُهما ... لا يَأْلوانِ من التَّوُّمِ ما نَقَفَا
راحَا يَطيرانِ معوجينِ في سرعٍ ... ولا يريعانِ حتَّى يهبطَا أنفَا
كالحبشيينَ خافَا من مَليكهما ... بعضَ العَذاب فجالاَ بعدَ ما كُتِفَا
كالخالِيينِ إذا ما صَوَّبا ارتفعا ... لا يحقرانِ من الخطبانِ ما نَقَفَا
فاغتَرَّها فشآها وهي غافلةٌ ... حتَّى رأتْه وقد أوْفَى لها شَرَفَا
فشمَّرت عن عمودي بانةٍ ذبلا ... كأنَّ ضاحيَ قشرٍ عنهما انقرفَا
وقاربتْ من جناحيها وجؤجئِها ... سكاء تثني إليها ليناً خصفَا
كانت كذلك في شأوٍ ممنعة ... ولو تكلف منها مثله كلفَا[2]

(١) ديوان كعب ٨٢ ـ ٨٨ .
(٢) العريكة : السنام . الجورق ، الظليم الذي فيه بياض وسواد . الوسم :البقية والأثر . سلف : =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وصف الذئب :

كعب من الشعراء الذين وصفوا الذئب وصفاً جميلاً . . . والذئب يذكر في الشعر العربي ، وأبيات المرقّش الأكبر فيه مشهورة[1] وكذلك أبيات الشنفرى .[2] قال أبو سعيد السكري : والعرب تتشاءم بالغراب وتتيامن بالذئب لأنه كسوب[3] ويبدو أن الذئب مما كان يصادفه الشعراء في طرقهم وذكر بعضهم أنه كان يقاسمه طعامه كالفرزدق و المرقّش . وأما كعب الذي كان حظه سيئاً والذي كان مملقاً فقد ذكر أن الذئب والغراب حضرا لينالا شيئاً من طعامه ، ولم يعلما أنه من الزاد مرمل . . . فقد أخلفهما ما كان يأملان منه .

قال كعب :[4]

قطعتُ يُماشيني بها متضائلٌ ... من الطُّلسِ أحياناً يخبُّ ويعسيلُ
يحبُّ دنوَّ الإنس منه وما به ... إلى أحدٍ يوماً من الإنس منزلُ
تفرَّبَ حتى قلتُ لم يدنُ هكذا ... من الإنس إلاّ جاهلٌ أو مضللُ

= ذهب وتقدم . الهقلة : الفتاة من النعام . تبري : تعرض . خرجاء : التي فيها بياض وسواد . مخلولة : قد خلت عليها قطيفة . القرطف : كساء له خمل بنمزلة القطيفة . الأقرية : مسايل الماء إلى الرياض . النفاخ : موضع . المغد : نبات مثل القثاء . اللصف : نبات يشبه الخيار . الشري : شجر الحنظل . التنوم : نبات ترعاه النعامة . ونقف الشيء : نقبه . معوجين : منحرفين . لا يريعان : لا يرجعان ولا ينعطفان . الأنف : الروضة التي لم يرعها أحد . جالا : هربا . الخاليان : اللذان يقطعان الخلي . صوبا : ما لا بفؤوسهما للقطع .
الخطبان : الحنظل . اغتر الهقلة : طلب غرتها وغفلتها . شآها : سبقها . أوفى لها : ارتفع لها على شرف من الأرض . السكك : صغر الآذان ولصوقها بالرأس . الشأو : الشوط . كلف الأمر . تجشمه على مشقة وعسرة .

(١) انظرها في « المفضليات » ٢٢٧ .
(٢) انظرها في لامية العرب . وانظر أيضاً وصف الطرماح للذئب في ديوانه صـ ١٦٧ ووصف ذي الرمة له في ديوانه ٣٨٢ طبع المكتب الإسلامي و ٣ / ١٦٨٦ طبع مجمع اللغة العربية بدمشق .
(٣) شرح ديوان كعب ٤٩ .
(٤) ديوان كعب ٤٦ ـ ٥٢ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مَدَى النبلِ ، تغشانِي إذا ما زجرتُه ... قُشعريرةٌ من وجهه وهو مقبلُ
إذا ما عَوَى مستقبِلَ الريحِ جاوبتْ ... مسامِعُه فاهُ على الزَّادِ معولُ
كسوبٌ لدن أن شبَّ من كسب واحدٍ ... محالِفُه الإقتار لا يتمولُ
كأنَّ دخانَ الرمثِ خالطَ لونَه ... يغلُ به من باطنٍ ويجللُ
بصير بأدغالِ الضراء إذا خدَا ... يعيلُ ويَخفَى بالجَهادِ ويمثلُ
تراهُ سَميناً ما شتَا وكأنه ... حمىٌّ إذا ما صافَ أو هو أهزلُ
كأنَّ نَسَاه شِرعةٌ وكأنَّه ... إذا ما تَمطى وجهة الريح محملُ
وحَمشٌ بصيرُ المقلتينِ كأنَّهُ ... إذا ما مشَى مستَكرِهَ الريحِ أقزَلُ
يكاد يرىَ ما لا ترىَ عينٌ واحدٍ ... يُثيرُ له ما غيَّبَ التربُ مِعْوَلُ
إذا حَضَراني قلت : لو تعلمانهِ ... ألم تعلَما أنِّي من الزاد مُرمِلُ
غرابٌ وذئبٌ ينظرانِ متى أرَى ... مُناخَ مبيت أو مقيلاً فأنزِلُ
أغارَ على ما خيلتْ وكَلاهُما ... سيخلِفُه منِّي الذي كان يَأمُلُ[1]

يقول إن الطريق التي قطعتها طريق مخوفة ، وكان يما شيني بها ذئب أطلس اللون يسير أنواعاً من الجرى فهو يخب حيناً ويعسل حيناً . إن أمره لغريب حقاً فهو يحب دنو الانس منه ، وليس به نزول يوماً إلى أحد من الإنس . وإذا ما أبصر إنساناً عدا نحوه ورافقه . فقد اقترب مني حتى قلت لم يدن هكذا من الإنس إلا وهو جاهل أو مضلل ، كيف غامر ؟ ألا يخشى على نفسه الموت ؟ وما زال يقترب حتى لم يكن بيني وبينه إلا قدر رمية السهم وإذا زجرته وهو مقبل اعترتني قشعريرة من وجهه . إنه جائع لا زاد لديه ، وهو شديد العويل لذلك ، فإذا ما عوى مستقبل الريح ردت الريح الصوت إليه فيسمع طنيناً وصدى ، ووصفه بأنه كسوب منذ أن

(١) المتضائل : النحيف . الأطلس : أغبر اللون . العسلان : نوع من الجري للذئب . الخبب : نوع من السير . منزل : نزول . معول : مصوت . الرمث : شجر يشبه الغضا لا يطول ، ولكنه ينبسط ورقه وهو شبيه بالأشنان . يغل به : يدخل به . يجلل : يظهر على متنه . الدغل : الشجر الكثيف الملتف . الضراء : ما واراك من شجر وغيره . خدا : أسرع . يعيل : يضرب في الأرض . الجهاد : الأرض الغليظة الصلبة لا نبات بها . يمثل : يظهر . النسا : عرق في الساق ينحدر من الورك . الشرعة : الوتر . المحمل : محمل السيف . حمشي : غراب ـ القزل : أسوأ العرج . المرمل : الذي لا زاد معه . على ما خيلت : على ما شبه لهما .

شب وأطاق المشي فقال :

كسـوبٌ لدن شب من كسـبِ واحدٍ محالِفُـه الإقتـارُ لا يتمـولُ

إنه يعتمد في كسبه الذي بدأ مبكراً على نفسه لا يعينه أحد ، ومع ذلك فإنه فقير بينه وبين الإقتار حلف ، ولا يتمول .

وذكر شارح الديوان كلاماً يوجه المعنى وجهاً آخر فقال : (وزعموا أن كعبا كان في غنيمات له فأولع الذئب بها حتى أتى على أكثرها وأفناها فقال : (من كسب واحد) أي مما اكتسبت أنا ، ثم وصف نفسه بالإقتار ومحالفة الفقر له) .

وهو أبيض اللون ، كأن دخان الرمث قد جلله بطبقات منه فشمله كله .

وما أشد خبرته بالأرض صلبها ولينها ، وإذا ضرب فيها ظهر عندما يعلو شرفاً من الأرض ، واختفى عندما يهبط . وهو في الشتاء سمين ، ولكنه في الصيف هزيل جداً ، لأنه يتيسر له الطعام في الشتاء أكثر مما يتيسر له في الصيف .

وقال الأصمعي : كل السباع تهزل في الصيف .

وذكر كعب أن هزال الذئب وضموره أورثاه خفة ونشاطاً فهو لدقته كمحمل السيف ، إذا ما تمطى وجهة الريح ، وشبه نساه بالوتر ولا يظهر عرق النسا إلا في حالة الهزال الشديد والنحافة البالغة . ثم يصف كعب الغراب ببيتين[1] ثم يقول : إن الذئب والغراب كليهما إنما رافقاه ليحصلا على بعض الطعام ولكنهما لم يعلما أنهما يرافقان رجلاً فقيراً معدماً .

. . . وهكذا فقد عرض علينا كعب وصفاً مطولاً للذئب ذكر فيه لونه وهزاله ومرافقته للإنس ووجهه وعواءه وكسبه ومعرفته الأرض وسيره وسمنه في الشتاء ونشاطه وخفته وقصته معه وخيبة أمله في مرافقته .

---

(١) سنورد دراستهما في باب وصف الغراب .

ويقول كعب أيضاً :[1]

يقـول حيَّايَ من عوفٍ ومـن جُشَمٍ ... يا كعبُ ! ويحكَ هلاَّ تشتَري غَنَمَا
مَالِـيَ منهـا إذا ما أزمةٌ أزمتْ ... ومـن أُويسٍ إذا ما أنفُـهُ رَذَمَا
أخشـى عليهـا كسوبـا غير مدخر ... عاري الأشاجع لا يشوي إذا ضغما
إذا تلـوى بلحـم الشـاة تبرها ... أشلاء برد ولـم يجعـل لهـا وضما
أن يغـد في شيعـة لم يثنـه نهر ... وإن غدا واحـدا لا يتقـى الظلما
وإن أطـاف ولم يظفـر بضائنة ... فـي ليلـة ساور الأقـوام والنعما
وإن أغـار ولـم يحـل بطائلة ... في ظلمـة ابـن جمير ساور الفطما
إذ لا تزال فريس أو مغيبة ... صيداء تنشـج من دون الدمـاغ دما[2]

أول ما نلاحظ أن وصف الذئب كان في هذا النص للذئب المفترس وكيف يمزق لحم الشاة ، يقول : قال لي قوم من عوف وجشم : هل لك في أن تشتري غنماً ؟ فقلت لهم : أي شيء لي فيها إذا جاءت سنة شديدة لا أجد فيها مرعى أو تسلط عليها ذئب ؟ إنني أخشى عليها ذئباً كسوباً لا يدخر شيئاً مما يفترسه لغد . . . إنما هو في عدوان متصل وافتراس مستمر . . . له في كل يوم شاة . وهو إذا عضَّ فريسته أصاب مقتلها ولا يخطىء أبداً . وإذا انعطف بلحم شاة مزقها تمزيقاً كما يمزق البرد قطعاً وهو جرىء مقدام ، لا يثنيه عن مراده زجر ولا ضوء ولا ماء . . . ولا يتقى الظلمة ولا يخشاها بل تراه لا يلوى على شيء .

وإن أطاف ولم يظفر واثب الناس والأنعام ، وإن أغار ولم يصب شيئاً طائلاً واثب السخال التي فطمت وكانت بين فريس أو مغيبة أكل منها الذئب وتركها وبها شيء من حياة أو صيداء ترمى بالدم وله صوت . والملاحظة أن وصف افتراس الذئب هذا ورد في مقطوعة مستقلة ، وقد أوردناها بتمامها . وإنها لتكمل الوصف السابق للذئب في الطريق .

---

(١) « ديوان كعب » ٢٢٤ ـ ٢٢٦ .

(٢) الأزمة : السنة الشديدة . أويس : ذئب . رذم : سال . الأشاجع : العروق والأعصاب المتصلة بالأصابع وأصولها ، وجعله عاري الأشاجع لشدة هزاله . أشوى : أخطأ ولم يصب المقتل . =

وصف الأسد :

من الحيوانات الوحشية التي وصفها عبيد الشعر الأسد ، وهذا يدل على أن الأسد من الحيوانات التي كانوا يواجهونها . . بل لقد عرفوا المآسد وحددوها كما سبق أن ذكرنا . يقول زهير :[1]

لدَىَ أسـدٍ شاكِي السِـلاح مُقذَّفٍ ... لـه لَبَـدٌ أظفـارُه لم تُقَلَّـم
جريءٍ متَـى يُظلَـمْ يُعاقـبْ بظلمِهِ ... سرِيعـاً ، وإلاَّ يُبـدَ بالظلـمِ يَظلِمِ[2]

يذكر الأسد عرضاً وهو في صدد تشبيه الممدوح فيذكر لبدته وأظفاره وسمنه وجرأته وأنه يعاقب من يظلمه سريعاً ، وبه شرة تجعله يظلم إن لم يظلم أيضاً. ويقول كعب :[3]

لذاكَ أهيبُ عنـدي إذ أكلمهُ ... وقيل : إنك منسـوبٌ ومسؤولُ
من ضيغـمٍ من ضراءِ الاسـدِ مخدرهُ ... ببطـنِ عثَّـر ، غيلٌ دونَـه غيلُ
يغـدُو فيلحـمُ ضِرغـامينِ عيشُهما ... لحـمٌ من القـومِ معفـورٌ خراذيلُ
إذا يسـاورُ قرنـاً لا يحـلُّ له ... أنْ يتـركَ القِـرن ألا وهـو مفلولُ

= الضغم : العض . تلوي : انعطف . تبرها : مزقها . الوضم : الخشبة التي يكسر الجزار عليها اللحم . الاشلاء : القطع . النهر : إما الزجر والانتهار ، وإما النهر من الماء ، وإما من النهار . الظلم : من الظلمة . الضائنة : النعجة . ساور : واثب . ابن جمير : الليل وظلمة ابن جمير : أظلم ليلة في الشهر . لم يحل بطائلة : لم يصب شيئاً طائلاً . الفطم : السخال التي فطمت . الفريس : التي دق عنقها . المغبة : التي أكلها الذئب وافلتت وبها شيء من الحياة . والصيداء : التي شجت شجة جعلتها مائلة العنق . تنشج : ترمى بالدم وله صوت .

(١) ديوان زهير ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢) شاكي السلاح : أي سلاحه ذو شوكة . وأراد شائك فقدم وأخر . قال الأعلم : وأول من كنى بالأخطار عن السلاح أوس بن حجر في قوله (أظفارها لم تقلم) . المقذف : الغليظ اللحم ، أو أنه يقذف به كثيراً إلى الوقائع والغارات . واللبدة : الشعر المتراكب بين كتفي الأسد وجمعها لبد .

(٣) ديوان كعب ٢١ ـ ٢٣ .

منــه تظــلُّ حَميرُ الــوحشِ ضامزةً ولا تُمشِّــي بواديه الأراجيلُ
ولا يزالُ بواديه أخــو ثِقةٍ مُطــرَّحُ البَــزِّ والدَّرســانِ مأكولُ[1]

جاءت هذه الأبيات في وصف الأسد خلال تصويره هيبة النبي الكريم ﷺ فهو يقول : إن الرسول أهيب عندي من هذا الأسد، ووصف الأسد وصفاً يلح على الناحية التي تثير الذعر عند السامع .

إنه أسد ضيغم من ضراء الأسد ، مسكنه ببطن عثر في مكان مخيف . . إنه شديد الافتراس لأنه يعول ضرغامين عودهما على أكل لحوم البشر . من أجل ذلك ترى اللحم لديه مقطعاً معفراً بالتراب .

إنه إذا واثب قرناً له لا يتركه حتى يطرحه أرضاً ، ويفل عزمه ويصرعه . . وإذا رأته حمر الوحش سكتت وحبست أنفاسها فرقاً منه ولم تتحرك . ولا تمشي بواديه الرجالة خوفاً منها على أنفسها ، ولا يمر بواديه شجاع إلا ويكون مصيره معروفاً.

ولا يــزالُ بواديه أخــو ثِقةٍ مُطــرَّحُ البَــزِّ والــدَّرســانِ مأكولُ

***

(١) لذاك : يعود على رسول الله ﷺ منسوب : مسؤول عن نسبك . الضيغم : الأسد . ضراء : جمع ضار . مخدره : مكمنه . عثر : مأسدة معروفة . الغيل : الشجر الملتف . يلحم : يطعم اللحم . الضرغام : الشبل الشديد . المعفور : المطروح في التراب . خراذيل : قطع . يساور : يواثب . ضامزة : ساكتة . الأراجيل : الرجالة . الدرسان : ثياب خلقان . البز : السلاح (وتأتي في غير هذا المكان بمعنى الثياب) .

وصف الطيور

وصفوا القطا والصقر والغراب والبازي والحمام . قال زهير يصف صقراً يطارد قطاة :[1]

كأنَّها من قَطَا الأجبابِ حلاها ... وِرْدٌ وأفْرَدَ عنها أختَها الشَّرَكُ
جونيةٌ كحصاةِ القَسْمِ مَرْتعُها ... بالسِّيِّ ما تُنبتُ القفعاءُ والحَسَكُ
أهوى لها أسفُعُ الخدين مُطَرِقٌ ... رِيشَ القوادمِ لَمْ تُنْصَبْ له الشَّرَكُ
لا شيء أجودُ منها وهي طيبةٌ ... نَفْساً بما سوف يُنْجيها وتَتَّرِكُ
دُونَ السماءِ وفَوْقَ الأرضِ قَدْرُهما ... عند الذُّنابَى ، فلا فَوتٌ ولا دَرَكُ
عند الذنابَى لها صوتٌ وأزمَلةٌ ... يكادُ يَخْطَفُها طَوْراً وتَهتَلِكُ
حتَّى إذا ما هوتْ كَفُّ الغلام لَهَا ... طارتْ وفي كَفِّهِ من ريشها بِتَكُ
ثم استمرتْ إلى الوادي فألْجَأها ... مِنْهُ وقَدْ طَمِعَ الأظفارُ والحَنَكُ
حتَّى استغاثت بماءٍ لا رِشاء له ... من الأباطِحِ في حافاتِهِ البُرَكُ
مكللٌ بأصولِ النجم تنسِجُهُ ... ريحٌ خريقٌ لضَاحي مائه حُبُكُ
كما استغاثَ بسَيءٍ فَزٌّ غيطلة ... خاف العيونَ فلم يُنْظَرْ به الحَشَكُ
فزلَّ عنها ووافى رأسَ مَرْقَبَةٍ ... كمنصب العِتْرِ دَمَّى رأسَه النسكُ[2]

---

(١) ديوان زهير ١٧١ ـ ١٧٨ .

(٢) الأجباب : جمع جب . الورد : القوم يردون الماء . الجون : الأسود . حصاة القسم : الحصاة التي يقدر بها الماء في القدح ، يقسم عليها إذا كانوا مسافرين وقل عليهم الماء . وشبهها بها لأنها مستوية . السي : ما استوى من الأرض . والحسك : ثمر النفل . أسفع الخدين : الصقر . والسفع : سواد تعلوه حمرة . مطرق : مجتمع الريش . تترك : أي تدع بعض طيرانها ولا تخرج أقصى ما عندها . الذنابى : الذنب . الأزملة : اختلاط الصوت . تهتلك : تسرع وتجتهد . بتك : قطع الحنك (هنا) : المنقار . الأظفار : المخالب . البرك : طيور بيض . النجم : نبات ليس له ساق ينبت حول الماء . . الريح الخريق : الريح الشديدة . حبك : طرائق الماء . السيء : اللبن الذي في الضرع قبل أن يدر . الفز : ولد البقرة . الغيطلة : البقرة . خاف العيون : خاف الناس . الحشك : احتفال الضرع باللبن . زل : سقط . أوفى : بلغ . المرقبة : المكان المرتفع ينظر منه الرقيب .

هذا وصف لكل من القطاة والصقر ورد خلال وصفه الفرس ، ووصف للمطاردة التي تقوم بينهما . فهذه قطاة ملأها إحساسها بقدوم جماعة يشربون الماء ، فانطلقت مسرعة ومما زاد في سرعتها أن أختها وقعت في شرك الصياد . وتحدث عن لونها ، وذكر أن خلقها مستو كحصاة القسم ، وهي تقيم في مكان مخصب ، وترتع في أرض مستوية . . . بينما هي كذلك انقض عليها صقر أسفع الخدين ، وانضم ريش قوادمه بعضه على بعض وهو صقر كاسر حذر قوي لم يستطع قانص أن يأسره ، وبدأت المعركة . . ليس هناك أجود منها سرعة . . وهي عندما تقع في مثل هذه الأزمة واثقة بنفسها ، تسرع ولكنها تدع بعض طيرانها ، ولا تخرج أقصى ما عندها من الجري.

وهي الآن في معركة جوية . . وإنه قريب من ذنبها . . فلا تفوته ولا يدركها واستطاعت أن تفلت منه ، وذلك باللجوء إلى واد متكاثف الأشجار . . فاختفت. ويذكر استغاثتها بماء لارشاء له تتجمع حول حافاته البرك . . وهذا الماء يكلله النجم . . والريح تنسج ظهر الماء . . وكانت استغاثتها بذلك الماء كما استغاث ابن بقرة بضرع لم يدر بعد . . وهو مع ذلك يخاف الناس .

وهكذا تنتهي هذه المعركة بسقوط الصقر وإجهاده واختفاء القطاة عن عينه ولكنه مع ذلك وقف على رأس مرقبة ينظر لعلها تلوح له مرة أخرى .

***

وقد تكرر هذا المشهد عند زهير فوصف معركة تدور بين صقر وقطاة . . . . وليس بين النصين كبير اختلاف . . وكذلك فقد ورد هذا النص الثاني خلال وصف الفرس . يقول زهير :[1]

كأنَّها من قَطَا مَرَّانَ جانئةٌ ... فالجِدُّ منها أمامَ السِّربِ والسَّرَعُ
تَهْوِي كذلكَ والأعدادُ وجهتُها ... إذ راعَها لحفيفٍ خَلْفَها فَزَعُ
من عاقصٍ أمغرِ الساقينِ منصِلتٍ ... في الخدِّ منه إذا استقبلتهُ سَفَعُ

(١) ديوان زهير ٢٣٩ - ٢٤٥ .

مستجمعٍ قلبُه ، طُرْقٍ قوادِمُه ... يَدْنُو من الأرضِ طوراً ثم يرتفعُ
أهوى لها فانتحتْ كالطرفِ جانحةً ... ثم استمرَّ عليها وهو مختضِعُ
من مَرْغَبٍ في ذُرَى خَلْقَاءَ راسيةٍ ... حُجْنُ المخالبِ لا يَغْتالُه الشِّبَعُ
جُونيةٌ كَقَرِيِّ السَّلْمِ واثقةً ... نَفْساً بما سوفَ تُوليهِ وتَتَّدِعُ
ما الطرفُ أسرعُ منها حين يَرْعَبُها ... جِدُّ المرجي ، فلا يأسٌ ولا طَمَعُ
حتى إذا قَبَضَتْ أولى أظافِرِهِ ... منها ، وأوشكْ لما لم تَخْشَهُ يَقَعُ
حثَّ عليها بصكٍّ ليسَ مؤتلياً ... بل هُو لأمثالِها من مثلِهِ يَدَعُ[1]

إن هذا النص مشابه للنص السابق في أفكاره وصوره . . وإن كان يخالفه في نهاية القطاة . . فهذه القطاة من قطا مران . . وهي جادة سرعة تتقدم السرب لحيويتها ونشاطها . . تنطلق مسرعة قصدها الماء الذي يطمئن مجاوره لعدم نضوبه . . وإذا هي تروع بحفيف صقر خلفها ، ففزعت ويشرع في وصف الصقر :

إنه صقر يلوي عنقه ، أحمر الساقين ، ماضٍ في سرعته ، أسفع الخدين ، شديد القلب ، قوادمه كثيرة الريش ، يدنو من الأرض طوراً ، ويرتفع طوراً .

أسرع نحوها يريد صيدها ، فانتحت بسرعة الطرف مائلة . . واستمر في طلبها ودنا منها ، ومد رأسه لأخذها . . وانقض عليها من ذرى صخرة ملساء ومخالبه قوية ، وهو جائع لا يغتاله الشبع .

---

(١) مران : موضع . جانئة : تدني صدرها من الأرض منعطفة للماء . السرب : جماعة القطا . السرع : السرعة . تهوي : تسرع في طيرانها . الأعداد : جمع عد ، والماء العد : الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها مثل ماء العين والبئر . حفيف : صوت جناحي الصقر . عاقص : صقر يلوى عنقه . أمغر : أحمر ، ورويت بالمهملة ومعناها لا ريش عليها . منصلت : ماضي . والسفع : سواد في حمرة . مستجمع قلبه : شديد القلب . طرق قوادمه : قوادمه كثيرة الريش . انتحت : أقبلت طائرة وأخذت ناحية تريد الهرب . استمر : مضى في طلبها . مختضع : أي دنا وهو ماد رأسه وعنقه لأخذها . المرقب : الموضع المشرف يرتفع عليه الرقيب . الخلقاء : الصخرة الملساء . راسية : ثابتة . حجن المخالب : فيها اعوجاج بمنزلة المحجن . جونية : قطاة فيها سواد . قري : ماء يقرى في الحوض . والسلم : شجر ، أو موضع ، أو دلو لها عروة واحدة . المرجى : الصقر . الصك : ضرب الجناح . وقوله (لا مثالها من مثله يدع) يريد أنه يدخر بعض جهده لمطاردة أمثال هذه القطاة .

ثم وصف القطاة فقال : إنها جونية يشبه لونها لون قري السلم . . وإنها سريعة وعبر عن ذلك بأن الطرف ليس أسرع منها عندما أفزعها جد الصقر ولحقها وقارب بها فلم ييأس منها ولم يمسك بها ولكنه بعد ذلك حث عليها بضرب بجناح . . .

وقد أشار الشاعر إلى نهاية القطاة بقوله :

حتَّى إذا قَبَضَتْ أولى أظافِرِهِ ... منها ، وأَوشَكْ بما لم تَخْشَهُ يقعُ
حثَّ عليها بصكٍ ليس مؤتلياً ... بل هو لأمثالِها مِنْ مِثْلِه يدعُ

وقال كعب في وصف البازي والقطاة :(١)

تَنْجُو نجاء قطاةِ الجوِّ أفزعَها ... بذي العِضَاهِ أحسَّتْ بازياً طَرَقا
شهمٌ يكُبُّ القَطَا الكُدْرِيَّ مختضب الـ ... أظفار حر ترى في عينه زَرَقَا
باتَتْ له ليلةً جَمَّ أهاضبها ... وبات يَنفضُ عنه الطل واللثقَا
حتَّى إذا ما انجلتْ ظلماءُ ليلتِه ... وانجابَ عنهُ بياضُ الصُبحِ فانفلقا
غدا على قَدَرٍ يَهْوِي فَفَاجَأَهَا ... فانقضَّ وهو بوشكِ الصيدِ قد وَثِقَا
لا شيء أجود منها وهي طيبةً ... نفساً بما سوف يُنجيها وإن لَحِقَا
نفرها عن حياضِ الموتِ فانتجعتْ ... ببطنِ لينةَ ماءً لم يكن رَنِقَا(٢)

استفاد كعب من أبيه استفادة واضحة في بناء أبياته على أساس المطاردة . . بل لقد استعار منه حتى الألفاظ فهو يقول :

لا شيء أجود منها وهي طيبة ... نفسا بما سوف ينجيها وإن لحقا

وزهير يقول :

لا شيء أجود منها وهي طيبة ... نفسا بما سوف ينجيها وتترك

(١) ديوان كعب ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

(٢) تنجو : تسرع . شهم : حديد الفؤاد . يكب القطا : يسرعها . جم : كثير . الأهاضب : جمع هضبة وهي دفعة شديدة من المطر . اللثق : الندى والبلل . انجاب : انخرق وصار إلى بياض الفجر . انفلق : أنار وضح الصباح . قدر : مقدار ووقت . يهوى : يقصد نحو ما يريد من صيده . الوشك : السرعة . بطن لينة : بئر من أعذب الآبار بطريق مكة . : الرنق : الكدر .

وهذا الوصف الجميل جاء في ثنايا وصف كعب للناقة فهو يشبهها بالقطاة في هذا الظرف الذي يقتضيها السرعة الكبرى .

قطاة آمنة مطمئنة مقيمة بذي العضاه أفزعها أنها أحست بازيا طرق تلك البقعة إنه باز حديد الفؤاد يصرع القطا الكدري . . ولكثرة ما صاد وافترس تخضبت أظفاره بالدماء . . إنه باز حر كريم الأصل ، وفي عينيه ذلك اللون الذي يدل على أنه متعطش للصيد والإيقاع بالفريسة .

وفي ليلة مطيرة فتحت فيها أبواب السماء بماء منهمر كان هذا البازي يفر من مكان إلى مكان ينفض عن جسمه بلل المطر ، ويعدو مسارعاً الريح ليجد فريسة يقضم عظمها . . بات ليلته كلها على هذه الشاكلة ، وما إن انجلت الظلمة وطلع الفجر فأضاء له الطريق حتى رأى تلك القطاة . ففاجأها وانقض عليها ، وحسب أنه وصل إلى بغيته ، ولكن القطاة كانت في قرارة نفسها مطمئنة إلى أن النجاة ستكون النهاية التي ستصير إليها ، فلم يكن أجود منها في العدو ، ولا أسرع منها في الفرار . . لقد نفرت عن حياض الموت وانتجعت ماء صافياً ببطن لينة .

***

كانت النصوص السابقة مشاهد مطاردة بين طير جارح مفترس هو الصقر أو البازي وبين القطاة ، وقد رأينا القطاة فيه موصوفة باستواء الخلق وبالسرعة التي تنجيها غالباً من الأزمات وباللون الأغبر المائل إلى السواد . وهناك أوصاف أخرى للقطاة منها وصف صوتها الذي يحكى اسمها وذلك في قول كعب :(١)

بحافته من لا يصيح بما سرى ولا يدعي إلا بما هو صادقه

يقول : بحافة الماء القطا وهو لا يصيح بمن أتاه ليلاً ولا يصيح إلا بالصدق إذ يقول (قطا قطا) ومن ذلك المثل : « أصدق من قطاة » .

---

(١) ديوان كعب ١٩٦ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد وصفوا فراخها فقال زهير: [1]

بها من فراخ الكدر زغب كأنها جنى حنظل في محصن متفلق [2]

يصف فراخها بأنها زغب لم ينبت الريش عليها . . ثم يشبهها بالحنظل الذي تفلق ووضع في وعاء .

وقال زهير يذكر صغار القطا في وصفه الطريق ويشبهها بشجر الأفاني : [3]

أفا حيصُ القطا نسقٌ عليه كأن فِراخها فيهِ الأفاني [4]

ويعرض كعب لوصف فراخها ويذكر تراطنها ، ويستعير من أبيه تشبيهها بالأفاني فيقول : [5]

يجتازُ فيه القَطا الكدري ضاحيةً حتى يؤوبَ سِمالاً قد خلت خلفا
يسقينَ طُلْساً خفياتٍ ، تراطُنُها كما تَرَاطَنُ عُجْمٌ تقرأ الصحُفَا
جوانحٌ كالأفاني في أفاحصها ينظرن خلف روايا تستقي نطفا
حمرٌ حواصلها كالمغد قد كسيت فوق الحواجب مما سبَّدت شعفا [6]

يقطع القطا الكدري الطريق في أول اليوم حتى يرد الماء ليلاً وقد خلا من

---

(١) ديوان زهير ٢٤٧ .
(٢) بها : أي بالبيداء . الكدر : القطا في لونه كدرة . الزغب : جمع أزغب وهو فرخ القطا . الجنى : ما يجنى . الحنظل : نبات . المحصن : وعاء يقال له الزبيل
(٣) ديوان زهير ٣٥٠ .
(٤) أفاحيص القطا : مواضع بيضها والواحد أفحوص . نسق : مستويات والضمير في عليه يعود على الطريق . الأفاني : جمع أفانية وهو شجر صغار .
(٥) ديوان كعب ٧٦ ـ ٧٩ .
(٦) الكدري : نوع من القطا ، وهذا اللفظ يدل على اللون . السمال : جمع سملة وهي الماء القليل . ضاحية : أول النهار . الخليف : الطريق في الجبل . الطلس : يريد الأفراخ . والأطلس : الأغبر يميل إلى السواد . التراطن : الأصوات الخفية . الجوانح : الموائل . الخلف والأخلاف : الاستقاء . الراوية : البعير الذي يحمل الماء ، وهنا الروايا بمعنى أمهاتها لأنها تحمل لها الماء . النطفة والنطف : الماء الصافي قل أو كثر . المغد : شجر شبيه بالباذنجان . سبدت : التسبيد أول نبات الشعر . الشعف : أول ما ينبت من ريشها .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الأنبس والمستقى ، فيشرب ويسقي أفراخه الصغار التي يشبه صوتها صوت الأعاجم يقرؤون الصحف . وهذه الطلس مائلة كالأفاني في أفاحصها تنتظر الماء الذي تحملها أمهاتها لها ، وحواصلها حمر كالمغد ، كسيت شعراً خفيفاً .

***

الغراب :

لا يكاد يذكر الغراب إلا مقروناً بالذئب ، وجدت ذلك عند كعب والحطيئة . يقول كعب خلال حديثة عن الذئب :[1]

وحَمْشٌ بصيرُ المقلتينِ كأنَّهُ ... إذا ما مشى مستكرهَ الريحِ أقزلُ
يكادُ يرى ما لا ترى عينُ واحدٍ ... يثير له ما غيَّبَ الترب معولُ[2]

وصف في هذين البيتين ساقيه وبصره ومشيته ومنقاره .

أما ساقاه فدقيقتان ، وأما بصره فقوي ، إنه حديد النظر يكاد يرى ما لا تراه عين أحد ، وأما مشيته فإنه إذا مشى مستقبل الريح بدا للناظر أنه أعرج لأن الريح تصده وترده وهو يعالجها ، وله منقار يشبه المعول يخرج له الحب الذي غيبه التراب .

ويعقب هذا الوصف بخطاب يوجهه إلى الذئب والغراب فيقول :

إذا حضراني قلتُ لو تعلمانه ... ألم تَعْلَما أني من الزاد مُرْمِلُ
غرابٌ وذئبٌ ينتظران متى أرى ... مُناخَ مبيتٍ أو مقيلاً فأنزلُ
أغاراً على ما خلَّتْ وكلاهما ... سيُخلفُه مني الذي كان يأملُ

---

(١) ديوان كعب ٥٠ .

(٢) حمش : غراب دقيق الساقين . مستكره الريح : يستقبل الريح ، أي يعالجها باستقباله فترده لأنه يضعف عنها . الأقزل : الأعرج .

ويقول الحطيئة :[1]

ويُمْسي الغـرابُ الأعـورُ العينِ واقعاً مـع الذئـبِ يعتسّـانِ نَارِي ومفأدي[2]

يذكر الحطيئة الغراب والذئب وأنهما جاءا يطلبان الـزاد ، ويصف الغـراب بحدة البصر ، أو يصف كيفية إبصاره وأنه ينظر بمؤخرة عينه .

***

وأختم هذا الفصل ببيت طفيل في وصف غناء الحمام :[3]

يُغَنِّـي الحمـامُ فوقَهـا كُلَّ شارقٍ غنـاءَ السُّـكارَى في عريشٍ مظلّلِ

شبه غناء الحمام بغناء السكارى .

(١) ديوان الحطيئة ١٥٥ .

(٢) الغراب ليس بأعور ، ودعاه أعور لأحد أمرين : إما أنه أراد أنه شديد النظر فلقبه بالأعور ، وإما جعله أعور لأنه يتشاوس أي ينظر بمؤخرة عينه . يعتسان : أصل العس الطلب ، أي يطلبان ما يأكلانه . المفأد : الموضع الذي يخبز فيه ويشوى وأصله في الشي .

(٣) ديوان طفيل ٦٤ .

البَابُ الثّانِي

وَصفُ مَظاهِرِ الطبيعَة السّاكنة

أودُّ أن أعرض في هذا الباب ما دبجته أنامل شعرائنا الخمسة من وصف لمظاهر الطبيعة الساكنة ، ويكون بحثنا في فصلين :

أولهما في الأطلال والطريق والصحراء ، وثانيهما في الحروب وأدواتها وأشياء أخرى .

الفصل الأول

وصف الأطلال والطريق والصحراء

١ ـ وصف الأطلال :

موضوع فرضته طبيعة الحياة الصحراوية القائمة على الارتحال والانتجاع . . فالشاعر الذي قضى حقبة من الزمن في أرض . . كانت ديار محبوبته مألوفة يزورها ويأنس بها يتألم عندما يرتحل القوم وتبقى آثار خيامهم ، فيقف عليها ويستعيد ذكرياته السابقة فتهيجه ، ويبحث عن المحبوبة فلا يجد أحداً إلا الآثار . . مثل أثافي الكانون ، وبقايا الخيمة وبعض النباتات اليابسة والحيوانات فيصف ذلك كله وصفاً نستشف منه العاطفة الفياضة ، والتعلق الشديد بالمحبوبة ، وقد يذكر أن هذه المغاني عمرتها الوحوش .

وقد يستبد به الحنين والشوق ويتصاعد فتفيض عيناه .

ووصف الأطلال والإسراف في تحديد إطارها المكاني أمر نلاحظه ونقف عليه من دراستنا لشعر هؤلاء الشعراء ، وليس ذلك خاصاً بعبيد الشعر . . ولكنها سمة عامة في شعراء الجاهلية .

وقد رأينا من خلال دراسة نصوص وصف الأطلال تعاور هؤلاء الشعراء بعض الصور والتعابير والألفاظ ، شأنهم فيه شأنهم في الأغراض الأخرى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد أترعت أوصافهم للأطلال بأسماء الأمكنة وأوضح مثال على ذلك قول زهير :[1]

قِفْ بالـديارِ التـي لم يَعْفُهـا القِدَمُ ... بَلَـى وغيَّرهـا الأرواحُ والدِّيَمُ
لا الـدارُ غيَّرهـا بعـدي الأنيس ، ولا ... بالدار ، لو كلمت ذا حاجةٍ ، صَمَمُ
دارٌ لأسمـاءَ ، بالغَمْـرَيْنِ ، ماثلةٌ ... كالوحـي ليسَ بهـا من أهلهـا أرمُ
وقـد أراهـا حديثـاً غيرَ مُقْوِيةٍ ... السـرُّ منهـا فوادي الحَفْـر فالهِدَمُ
ولا لُكَانُ ولا وادي الغمـارِ ولا ... شرقـيُّ سلمـى ولا فَيْدٌ ولا رقمُ[2]
شَطَّـتْ بهـم قَرْقَـرى بِرْكٌ بأيمُنِهِمْ ... فالعـالياتُ وعـن أيسارِهـم خِيمُ
عَوْمَ السـفينِ فلمَّـا حالَ دونَهُمُ ... فِنْـدُ القُـريَّاتِ فالعِتْـكانُ فالكَرَمُ
كأنَّ عينـي وقـد سال السـليلُ بهم ... وَعْبَـرَةٌ ما هَمُ ، لو أنَّهـم أمَمُ
غرب علـى بكرة أو لؤلـؤ فلق ... في السـلكِ خانَ بهِ ، رباتِـه النُّظُمُ

والمعاني التي طرقوها هي : وصف بقايا الدار ، ووصف ما حل بها من حيوان ونبات وذكر المحبوبة وقد يورد بعضهم شيئاً من ذكرياتهم . . ثم وصف البكاء .

وغالباً ما يحددون مدة تركهم هذه الربوع .

يقول طفيل :[3]

غشيتُ بقُرَّ فَرْطَ حولٍ مكمَّلٍ ... مَغَانِـيَ دَار مِن سُعـادَ وَمنزل
تَرى جُلَّ ما أبقـى السَّـوارِي كأنَهُ ... بُعيدَ السَّوافِـي أثـرُ سيفٍ مفللِ[4]

استطاعت الأمطار والرياح أن تغير معالم مغاني دار سعاد بعد سنة واحدة من رحيلها ، ولم يبق منها إلاّ آثار تشبه السيف القديم الذي أتت عليه الفلول .

---

(١) « شعر زهير » للأعلم الشنتمري ١٠٠ ـ ١٠٣ وانظر « ديوان زهير » ١٤٥ .
(٢) أثبت هذا البيت من رواية «الديوان» ورواية الأعلم تخالفه .
(٣) « ديوان طفيل » ٦٢ .
(٤) غشيت : أتيت وحللت . قرا : موضع . فرط حول : بعد حول مضى . المغاني : المنازل . السوارى : الأمطار تأتي بالليل وتسري . السوافي : الرياح . مفلل : سيف قديم فيه فلول .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وشبه طفيل الطلل في موضع آخر بالوشم فقال :(١)

لِمَـن طَلَل بِذي خيَمٍ قديمُ يَلُـوح كـأنَّ باقِيَه وُشـومُ

ونجد هذا التشبيه مفصلاً عند زهير في قوله :(٢)

ديَارٌ لَهَـا بالـرقمتيْنِ كـأنَّهَـا مَرَاجِعُ وشْـمٍ فـي نَوَاشِـرِ مِعصَمِ

وقوله :(٣)

لِمـنُ طَلَلٌ بِرَامَـةَ لا يَرِيمُ عَفَـا وخَـلاَ له عَهـدٌ قَديمُ
يَلَـوحُ كَأنَّـه كَفـا فَتَاةٍ تُرجِّـع في مَعَاصِمِهـا الوُشُومُ

وشبه زهير الطلل بالكتابة في نص حشد فيه أسماء الأمكنة حشداً كبيراً فقال :(٤)

لِمـنْ طَلَلٌ كَالوحْـيِ عافٍ مَنَازِلُه عَفَـا الـرَّسُّ مِنـهُ فالـرُّسيسُ فَعَاقِلهْ
فَقُفٌ فَصـاراتٌ فَأكْنَـافُ مُنْعجٍ فشَرقِـي سَلمـى حَوْضُـه فأجَاوِلُهْ
فَهَضَـبٌ فَرقـدٌ فَالطَّـوِيُّ فثَادِقٌ فَـوادِي القَنَـانِ حَزنُهُ فَمداخِلُهْ

وأخذ هذا المعنى كعب فقال :(٥)

أتَعـرِفُ رَسْمـاً بينَ رَهمَـانَ فَالرَّقَمْ إلـى ذِي مَراهِيطٍ كما خُطَّ بالقلمِ
عَفتـه رِياحُ الصَيفِ بَعـدِي بِمُورِهَا وأنـديَةُ الجَـوْزَاءِ بِالوَبـلِ والدَّيمْ

واستفاد الحطيئة منهما فقال :(٦)

لِمَـن الـدِّيار كأنَّهُـنَّ سُطُورُ بِلـوَى زرودَ سَفَـى عَليهـا المُورُ

(١) ديوان طفيل ١١١ .
(٢) ديوان زهير ٥ .
(٣) ديوان زهير ٢٠٦ .
(٤) ديوان زهير ١٢٦ .
(٥) ديوان كعب ٦١ .
(٦) ديوان الحطيئة ٣٧٦ .

وشبه زهير الأطلال بالبرد الحميري الذي يقطع ويجعل في جفون السيوف فقال :[1]

لِسَلْمى بِشَرقيِّ القَنانِ مَنازِلُ ... وَرَسْمٌ بِصَحْراءِ اللُّبَيِّنْ حائِلُ
عفا عامَ حلت صيفه وربيعه ... وعامٌ وعامٌ يتبَعُ العامَ قابلُ
تَحَمَّل منها أَهلُها وخَلت لَها ... سِنونَ فَمِنْها مُستَبِينٌ وماثِلُ
كأَنَّ عَلَيْهَا نقبة حميريَّةَ ... يَقطَعُها بَيْنَ الجُفُونِ الصَّياقِلُ

وألم كعب بهذا المعنى فقال :[2]

أَلما عَلَى رَبْعٍ بذَات المَزَهِرِ ... مُقيمٍ كأَخْلاقِ العَبَاءَة داثِرِ
تُرَاوِحَه الأَرواحُ قَد سَارَ أَهلُه ... وما هُو عن حيِّ القَنانِ بِسَائِرِ

وشبه الحطيئة بقايا الأطلال ببرد قد بلي مستفيداً من زهير وكعب فقال :[3]

جَرَتْ عَلَيها بِأذيالٍ لَهَا عُصُفٍ ... فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ سَحْقِ البُردِ عافيهَا

وكان تأثر الحطيئة ببيت زهير واضحاً في قوله :[4]

تَرَاهَا بَعْدَ دَعْسِ الحيِّ فِيهَا ... كَحَاشِيَةِ الرِّداءِ الحِمْيَرِيِّ

***

ومن أكثر بقايا الدار وأطلالها ذكراً أثافي الكانون . قال طفيل يذكرها[5]

وسُفْعٍ صُلِينَ النَّار حَولا كَأَنَّمَا ... طُلين بِقَارٍ أَوْ بِزِفْتٍ مُلَمَّعِ

---

(١) ديوان زهير ٢٩٢ .
(٢) ديوان كعب ١٨٥ .
(٣) ديوان الحطيئة ٢٠١ .
(٤) ديوان الحطيئة ٣٥ .
(٥) ديوان طفيل ١٠٤ .

وقال زهير :[1]

أَثَافِيٌّ سُفْعاً فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلِ ... وَنُؤْياً كَجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ

وذكر زهير الأثافي وشبهها بالحمام لأنها سود وتضرب إلى الغبرة فقال :[2]

وغَيْرَ ثلاثٍ كالحَمَامِ خَوَالِدٍ ... وهابٍ مُحِيلٍ هامِدٍ مُتَلَبِّدِ[3]

ويقول كعب : إنه لم يبق من هذه الأثافي إلا المتين . قال :[4]

فَلَمْ يَبْقَ مِنهَا غَيرَ أُسٍّ مُذَعْذَعٍ ... وَلاَ مِنْ أثافي الدَّارِ إلاَّ صَلِيبُهَا[5]

وقريب من هذا ما ذكره الحطيئة حيث قال :[6]

يَا دارَ هِنْدٍ عَفَت إلاَّ أَثَافِيهَا ... بَينَ الطويِّ فَصاراتٍ فَوادِيهَا

***

وذكروا أن هاتيك المرابع عمرت بالوحش بعد أن كانت عامرة بالمحبوبة ، فقال أوس : إن النعام الربد سكنها . يقول :[7]

شَبَهتُ آيَاتٍ بقينَ لَهَا ... في الأوَّلِينَ زَخَارِفاً قُشُبَا
تَمْشِي بِهَا رُبْدُ النَّعَامِ كَمَا ... تَمْشِي إمَاءٌ سُرْبِلَتْ جُبَبَا

---

(١) ديوان زهير ٧ .
(٢) ديوان زهير ٢٢٠ .
(٣) خوالد : مقيمات بواق . هاب : رماد عليه هبوة أي غبرة . محيل : أتى عليه الحول . هامد : خامد . متلبد : من الأمطار .
(٤) ديوان كعب ٢٠٨ .
(٥) الأس (هنا) : حفر النؤي . مذعذع : قد تهدم وتفرق . الصليب : المتين القوي.
(٦) ديوان الحطيئة ٢٠١ .
(٧) ديوان أوس ١ .

وذكر زهير أن الثيران الوحشية عمرتها فقال :[1]

تَحَمَّـلَ أَهلُهـا عَنَهـا فَبَانُـوا عَلـى آثـارِ مِـنَ ذهَـب العَفَاءُ
كأنَّ أَوابِـدَ الثيرانِ فيهَـا هجَـائـنُ في مَغَانيهَـا الظِّلاءُ

وأضاف الظباء إلى بقر الوحش فقرر أنها يسكنان هذه الديار وذلك في معلقته فقال :[2]

بِهـا العـينُ والآرامُ يَمْشِـينَ خلْفَةً وأَطلاؤهـا ينهض مِن كلِّ مجْثَم

وقال كعب :[3]

فَلمْ تَزَلْ كُلُّ غَنَّـاءِ البُغَـامِ بِه مِـن الظِّبـاءِ تُراعِي عاقِـداً خَرِقَا[4]

***

وذكروا أن الأمطار الغزيرة أنبتت نباتات عدة منها الفغور وهو نبت له ورد يشبه ورد الحناء ، والريحان وهو معروف ، والأيهقان وهو الجرجير البري وله نور أصفر ، والمكنان وهو نبت إذا أكلته الإبل حسن حالها ، والذرق . يقول كعب :[5]

فَأَنْبَـت الفَغو والـرَّيحـانَ وابلُه والأيهقَـانَ مَعْ المُكنَـانِ والذُّرَقا

وذكروا أن الرياح والأمطار ما زالت تغير معالمها وتكون سبباً في قيام نباتات فيها ، وأن أنواعاً من الحيوان حلت فيها . . وأن كل أولئك جعل التعرف على هذه الديار أمراً عسيراً . قال زهير :[6]

(١) ديوان زهير ٥٨ .
(٢) ديوان زهير ٥ .
(٣) ديوان كعب ٢٣٥ .
(٤) البغام : حنين الظبية إلى ولدها . العاقد : الظبي الذي عقد عنقه ونام . الخرق : الضعيف القيام لصغره .
(٥) ديوان كعب ٢٣٤ .
(٦) ديوان زهير ٧ .

وَقفت بِها مِن بعدِ عِشْرِينَ حِجَّةً فَلأيا عرفتَ الدَّارَ بَعدَ تَوهُّمِ
فلما عرفتَ الدارَ قلت لربعِها أَلا انعِم صَباحاً أيُّها الرَّبعُ واسْلَمِ

ونجد في البيت الثاني شحنة عاطفية عارمة وذلك عندما يحيي هذا الربع ويدعو له بالسلامة .

***

وأما البكاء فإنه عنصر مهم من عناصر حديث الأطلال ، فإنك ترى الواحد منهم بعد أن يصف هذه الأطلال ويستعيد تلك الذكريات العذبة المتصلة بروحه تفيض عيناه بالدمع ، وقد يقطع البكاء الحار حديثه مع الأطلال . قال كعب : (١)

أَمِنْ نَوارَ عَرَفتَ المنزِلَ الخَلَقَا إذْ لا تُفارِقُ بَطنَ الجَوِّ فالبُرقَا
وقفتُ فِيهَا قليلاً ريث أسأَلُهَا فانهَلَ دَمْعِي عَلى الخَدَّينِ مُنْسَحقَا

ونجدهم أحياناً يناقشون أنفسهم قائلين : ما فائدة هذا البكاء أمام دمن لا تعى ولا تفهم ؟

ولماذا الكآبة والحزن ؟ وينتهي بعضهم إلى أن البكاء سفاهة لا تليق فيعصي دموعه ويركب قلوصه ويمضي ، كما قال كعب : (٢)

أمن دِمنةِ الدارِ أقوت سِنِينَا بكيتُ فَظَلْت كَئيباً حَزِينَا
بها جَرتِ الريح أذيَالُها فلم تُبْقِ مِن رَسْمِها مُسْتَبِينَا
وذكرينِها على نأيها خَيَالٌ لَها طارِقٌ يَعْتَرِينَا
فَلَّما رأيتُ بِأنَ البُكاءَ سَفاهٌ لَدَى دِمَنٍ قد بَلِينَا
زَجرْتُ على ما لَدَيَّ القَلُو صَ مِن حَزَنٍ وَعَصَيْتُ الشُّؤونَا

وقال كعب أيضاً : (٣)

أَمِنْ دِمنَة قَفْرٍ تَعاوَرَها البِلَى لِعَيْنَيْكَ أَسرابٌ تَفِيضُ غُرُوبُهَا

(١) ديوان كعب ٢٣٣ .
(٢) ديوان كعب ٩٩ .
(٣) ديوان كعب ٢٠٨ .

ونرى أن بعضهم يضفي على هذه الأطلال والديار صفات الأحياء ، فيسألها وينتظر الجواب . . ولكن لا مجيب . . فيتركها إلى الناقة ماضياً في سيره .

يقول زهير :[1]

وَقَفْتُ بِهَا رَأدَ الضَّحَاءِ مِطِيَّتي ... أُسائِلَ أعلاما بِبَيداءَ قَرْدَدِ
فَلمَّا رَأيتُ أنَّها لا تُجِيبني ... نهضتُ إلى وَجْناءَ كالفَحلِ جلعد[2]

ويأتي الحطيئة بمعنى قريب مما رأينا عند زهير ولكنه يزيد عليه صورة رائعة تعبر عن ألمه لخلو ديار محبوبته ، يقول : إنه سأل دار هند فأحس عندئذ كأن حية رقشاء قديمة لا تصغي لراق قد ساروته وأخذت برأسه يقول[3]

كأنني سَاورَتْني يَوم أَسْأَلُهَا ... عَوْدٌ مِن الرُّقش ما تُصغِي لِرَاقِيهَا
حتَّى إذا ما انْجلتْ عَنِّي قَعدت عَلَى ... حَرْفٍ تَهَالَكَ في بيدٍ تُقَاسِيهَا

يقول ما إن خفت عنه حدة الألم ، وانجلت عنه تلك الحية الرقشاء حتى قام إلى ناقته يمضي لشأنه . ويقول كعب : إنني وقفت أسأل هذه الأطلال والديار فغلبني البكاء ، وكادت هذه المنازل الدارسة أن تبين بعض حاجتنا عن طريق الإشارة والكلام الخفي لو كانت تقدر على النطق قال :[4]

وَقَفْتُ فِيهَا قَلِيلاً رَيثَ أَسْأَلُهَا ... فانْهَلَّ دَمْعِي عَلى الخَدَّين منسحِقَا
كادَتْ تُبَيِّنُ وَحياً بَعْضَ حاجَتِنَا ... لَوْ أنَّ مَنزِلَ حَيٍّ دارِساً نَطقَا[5]

***

(١) ديوان زهير ٢٢٠ .
(٢) رأدالضحاء : وقت ارتفاع الشمس وانبساط ضوئها. القردد: ما ارتفع وغلظ من الأرض. الوجناء. الناقة العظيمة الوجنات .الجلعد: الشديد .
(٣) ديوان الحطيئة ٢٠٢ .
(٤) ديوان كعب ٢٣٤ .
(٥) الوحي : الإشارة والكلام الخفي .

ويحدثنا هؤلاء الشعراء في وصفهم الأطلال أن خيال المحبوبة النائية يظهر عند وقوفهم أمام الأطلال فيثير فيهم هذا الخيال لواعج الألم ومشاعر الحزن .

قال زهير :[1]

تُطالِعُنا خَيالاتٌ لِسَلمَى كَما يَتَطَلَّعُ الدَيْنَ الغَرِيمُ

وقال كعب :[2]

وذكَّرنيها على نَأيِهَا خَيَالٌ لَهَا طَارقٌ يَعْتَرِينَا

***

٢ ـ وصف الطريق والصحراء :

حياة العرب قائمة على الانتجاع والارتحال ، ولذا فالسفر عندهم أمر أساسي من أمور حياتهم . . لا يكادون ينزلون حتى يرتحلوا . . وكانت هذه الرحلات ممتعة ومتعبة يقطعون شطراً منها على أرجلهم ، وكانوا يستخدمون عدداً من الدواب . . وكانوا مضطرين إلى أن ينزلوا بين مرحلة وأخرى . . يلتمسون وإبلهم الراحة والظل والنوم . . ثم يستأنفون السفر . . وكانت هذه البقاع التي يمرون عليها معروفة لديهم ، وإذا كانت هذه الأماكن صعبة التحديد عندنا ، فإنها عند معاصريهم واضحة كل الوضوح .[3]

---

(١) ديوان زهير ٢٠٩ .

(٢) ديوان كعب ١٠٠ .

(٣) بذل العلماء القدماء والمحدثون جهوداً في تحديد هذه المواضع من أمثال ياقوت الحموي في « معجم البلدان» والبكري في كتابه «معجم ما استعجم» تحقيق مصطفى السقا والزمخشري في « الجبال والأمكنة والمياه » وكنت أقف على شرح وتحديدات في منتهى الغرابة ، كأن يحددوا موضع ماء بقولهم : بين البصرة واليمامة ، وهذه مسافة طويلة قطعت معظمها بالسيارة ، وهي تقرب من ألفي كيلو متر . أو قولهم بين البصرة والمدينة . . وما إلى ذلك .
وقد بذل علماء محدثون جهوداً مشكورة في هذا المجال . ومن أهمهم الشيخ حمد الجاسر والشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد والشيخ عبد الله بن خميس وما زلنا نحتاج إلى عمل حديث جامع يماثل عمل ياقوت فيظهر معجم للمواضع في الجزيرة العربية ، تبين فيه هذه الموضع على الخارطة .

ويكاد يكون شعراء العصر متقاربين في معرفة أسماء المواضع . . أما شعراؤنا فهم لتقاربهم في النسب والمكان والصنعة واتصال بعضهم ببعض اتصال رواية أكثر معرفة لهذه الأماكن . وقد رأينا أن المكان الواحد يرد في شعر أكثر من شاعر .

والطريق مخوف وملتهب الحرارة ، ومترع بالمفاجآت والمخاوف . . وكل هذه الأمور من المثيرات المشوقات التي تجعل الحديث عن الطريق حديثاً ممتعاً ترغب النفس في الوقوف على خبره .

إن لذة الاستمتاع بجمال الطريق ، والتغلب على صعابه ، والتملي من مظاهر الروعة فيه لم نعد نعرفها نحن اليوم ، والطريق مهما كان طويلاً لا يستغرق من حياتنا إلا يوماً أو بعض يوم ، أما أولئك الناس المعاصرون لشعرائنا فإن قسماً كبيراً من حياتهم يقضونه في الطريق صادرين أو واردين ومنتجعين ومرتحلين .

والأمور التي طرقوها في وصف الطريق كثيرة أهمها : معرفة الطريق وصعوبة الاهتداء إليه للتشابه في منعطفاته ، فبعضها لا يهتدي بها إلا الخبير وبعضها سهل واضح ، ومنها الطريق في النهار واشتداد الظهيرة ، والطريق في الليل ، ومنها النبات المستأسد الذي كثر وطال ، ومنها الابل التي أعياها المسير فسقطت على حافتيه وفي وسطه ، ومنها الجن وعريفها ، والثعالب ، وتطلعاتها ، والذئاب وأصواتها ، والجيف التي تملأ جوانبه والطيور والقطا والبوم والحيات وبقر الوحش التي تحفر ما تصادفه من شجر وما إلى ذلك .

وقد شبهو الطريق تشبيهات عدة ، منها هذا التشبيه الذي نجده عند أوس في قوله :[1]

تَضَمَّنَهَا وَهْمٌ ركوبٌ كَأَنَّهُ إذا ضَمَّ جَنْبَيْهِ المَخَارِمُ رَزْدَقُ[2]

---

(١) ديوان أوس ٧٧ .

(٢) الوهم : الطريق الواضح . الركوب : الذي قد ذلله كثرة الوطء مرة بعد مرة . المخارم : جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل . الرزدق : السطر من النخيل (معرب رستة) .

إن الطريق المستوي الممتد يشبه السطر من النخل الذي غرس بترتيب وتناسق وهذا التشبيه يدل على أن بيئة أوس عرفت مزارع النخيل الممتدة التي تكون أشجار النخيل فيها صفوفاً صفوفاً .

ومنها تشبيه الطريق بالثوب الأبيض الطويل ، وذلك في قول زهير :[1]

وأبْيَضَ عادِيٍّ ، تَلُوحُ مُتُونُه ... على البِيدِ كالسَّحْلِ اليَماني المُبَلَّجِ
لَهُ خُلُجٌ تَهْوِي بِهِ مُتْلَئِبَّةٌ ... إلى مَنْهَلٍ قَاوٍ جَدِيبِ المُعَرَّجِ
مَخُوفٍ كأنَّ الطَّيْرَ في مَنْزِلاتِهِ ... على جِيَفِ الحَسْرَى مَجَالِسُ تَنتَجِي
زجَرتُ عليه حُرَّةً أرحَبِيَّةً ... وقدْ كان لونُ الليلِ مثلَ اليَرَنْدَجِ[2]

سار في طريق واضح ، وإن كان قديماً مهجوراً ، وهو في الصحراء شبيه بالثوب الأبيض المجلو . وتتفرع من جانبيه طرق صغار ، وقد ألقيت جيف النوق هنا وهناك وتجمع الطير عليها . ويشبه تجمعات الطيور العديدة بالمجالس التي يتناجى فيها حاضروها .

ويتحدث زهير في نص آخر عن طريق بأنه مخيف فالرياح الشديدة تهلك فيه لسعته ، ودعوته طريقاً مع أن علماء اللغة يقولون في شرح كلمة (الخرق) (الفلاة الواسعة ، سميت بذلك لانخراق الريح فيها ، وانخراق الريح شدتها وهبوبها على غير استقامة) يقول زهير :[3]

وخَرقٍ تَهْلِكُ الأرْواحُ فِيهِ ... بَعِيدَ الغَمْرِ مشْتَبِهِ المتَانِ
أفاحيصُ القَطَا نَسَقٌ عليه ... كَأنَّ فِراخَهَا فيه الأفَانِي

---

(١) ديوان زهير ٣٢٢

(٢) الأبيض : الطريق الواضح . العادي : القديم المهجور . السحل : الثوب الأبيض النقي . المبلج : المحسن المبيض المجلو . الخليج : طريق صغير تفرع من طريق واسع . تهوي : تمضي . المتلئبة : المتتابعة . المنهل : الماء . قاو : قفر . المعرج : الموضع الذي تنزل فيه وتقيم الحسرى : المعيية . تنتجي : تتناجى . اليرندج : الجلد الأسود .

(٣) ديوان زهير ٣٤٩ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

زَجَـرْتُ عليـه والحَيَّـات مَذلَـى نَبِيـلَ الجَـوْز أَتْلَـعَ تيَّحَان[1]

في هذا الخرق قطا وحيات ضجرة من التهاب حرارته ، وقد زجرت عليه جملاً نبيل الجوز أتلع تيحان .

ويصف الحطيئة طرقاً فيقول :[2]

وخَرْقٍ يَجـرُّ القَـوْم أَنْ يَنطِقُـوا به وتمشـي بهِ الوَجْنَـاءُ وهْـيَ لَهِيدُ

هذا الخرق يمنع سالكيه من النطق فيه مخافة عدو أو عظش ، وتمشي به الناقة العظيمة مثقلة مجهدة .

وفي نص تنازعه زهير[3] وكعب[4] وهـو مذكور في ديوانهما حديث واف عن الطريق وما فيه ونستعرضه فيما يأتي ، يقول الشاعر :

وَخـرْقٍ يَعـجُّ العوْدُ أن يَسْتبينَه إذَا أورَد المَجْهُولـةَ القـومُ أَصْدَرَا
تَرى بِحفَـافَيـه الـرِّذَايَا ومَتْنِه قِيامـاً يُقَطِّعـن[5] الصَّـرِيـفَ المُفَتَّرَا
تركتُ بِهِ من آخـرِ الليلِ موضعي فِراشي[6] ومُلقَـايَ النَّقيشَ المُشَمَّرَا[7]
وَمِثْنَـى نَـواجٍ ضُمِّـرٍ جَدَلِيَّةٍ كَجَفْـنِ اليَمَاني نيهُّا قد تَحَسَّرَا
ومَرْقَبَـةٍ عَرْفَـاءَ[8] أَوْفَيْتُ[9] مُقْصِراً لأستـأنِسَ الأشـبـاحَ مِنهَـا وأَنظرا[10]

---

(١) المتان : ما نشز منه وصلب . مشتبه (هنا) : مختلف . الأفاني : شجر صغير . مذلى : ضجرة . نبيل : جسيم . الجوز : الوسط . أتلع : طويل العنق . التيحان : النشيط المتصرف .
(٢) ديوان الحطيئة ٣٦٢ .
(٣) ديوان زهير ٢٦١ .
(٤) ديوان كعب ١٢٤ .
(٥) في ديوان كعب : (يفترن) .
(٦) كعب : (لديه) .
(٧) كعب : (المسحرا) .
(٨) كعب : (عيطاء) .
(٩) كعب : (بادرت) .
(١٠) كعب : (الاشباح أو أتنورا) .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

على عَجَلٍ منِّي غِشَاشاً وقد دَنا[1] ذُرَى النَّخلِ[2] واحمرَ النهارُ وأدبَرَا
ومُسْتأسِدٍ يَنْدَى كأنَّ ذُبَابَه أخو الخمرِ هاجتْ حُزْنَه[3] فتذكَّرَا
قطعتُ بمَلْبُونٍ كأنَّ جِلالَه نَضَتْ عنْ أديمٍ مَسَّهُ[4] الطل أحمرَا[5]

وقد أوردت النص من ديوان زهير مقارناً بما جاء في ديوان كعب لأقرر أن تشابه نسج شعريهما هو الذي سهل هذا الاختلاط .

وفي هذه المقارنة أمر بالغ الأهمية وهو أثر اختلاف النساخ وتحريفهم ومهما يكن من أمر فإن هذا النص يصور لنا الطريق المخوف الطويل الذي يعين سالكيه فالرذايا على الجانبين وفي الوسط والأشباح والنباتات التي يكثر فيها الذباب المغنى .

وقد يدعونه باللاحب ، وهو الطريق الواضح ، وقد شبهه زهير بالمجرة وإذا ما علا الطريق نشزا من الأرض ثم نزل مهرقاً أي صحيفة بيضاء .

يقول زهير : [6]

على لاحِبٍ مثلِ المَجَرَّةِ خِلتَه إذا ما عَلاَ نَشْزاً منَ الأرضِ مُهْرَقُ
منيرٌ هُدَاهُ ، ليلُه كنهَارِه جَميعٌ إذَا يَعلُو الحُزُونةَ أفْرَقُ[7]

والظلال التي يلقيها هذا الوصف ظلال محببة وهذا الطباق العفوي الذي نجده في البيت الثاني زاد النص جمالاً وموسيقى (الليل والنهار) (الجميع الأفرق) .

---

(١) كعب : (بدا) .
(٢) أثبت رواية كعب لأنها أصح وفي ديوان زهير (الليل) .
(٣) كعب (شوقه) .
(٤) كعب (ليله) .
(٥) العود : البعير المسن . الرذايا : الإبل أعياها المسير فتخلفت وسقطت والجدلية : المنسوبة إلى جديلة . الأشباح : الشخوص . غشاش : عجلة . المستأسد : النبات الذي كثر وطال . الملبون : الفرس يسقى اللبن . الجلال . ما يوضع عليه . نضت : سقطت . الطل : المطر .
(٦) ديوان زهير ٢٥٧ .
(٧) المهرق : الصحيفة البيضاء (فارس معرب) .

وشبه كعب الطريق اللاحب بحصير الراملات وبالثوب الأبيض ولكنه لبعده وطوله وقلة رعيه ومائه كثر موت المطي فيه ، فأنت ترى على حافاته جيفاً . . إن هذا الطريق جمع الوضوح والخوف والترويع . . وإن لم يكن موت كان سقوط من الإعياء . . وتعمد الطير إلى هذه الساقطات من النوق فتنقرها تحسبها ميتة وهو على الرغم من سهولته واستقامته وتغلبه على ما يتكاءده فإن فيه عزيفاً للجن والعزف صوت الجن وذلك أن الحر إذا اشتد وحميت الأرض صار للحر صوت من التوهج يظن عزفاً وليس هناك عزف وهذا مما يخاف. يقول كعب:[1]

ولا حِبٍ كحَصِير الراملات تَرَى ... من المَطِيِّ على حافاته جِيَفَا
والمُرْذِيات عليها الطَّيْر تَنْقُرها ... إمَّا لَهِيداً وإمَّا زاحِفَا نَطِفَا
قد ترك العاملاتُ الراسماتُ بِهِ ... من الاحِزَّةِ في حافاته خُنُفَا
يَهدِي الضَّلُولَ ، ذَلُولٍ غيرِ مُعْتَرِفٍ ... إذا تَكَاءدَه دَوِّيهُ عَسَفَا
سَمْحٌ دَرِيرٌ إذا ماصُوَّةٌ عرضتْ ... له قَرِيباً لسَهْلٍ مال فانحرَفا
. . . . . [2]
يوماً قطَعتُ ومَوْماةٍ سَرَيْتُ إذا ... ما ضاربُ الدُّفِّ من جِنَّانِها عَزَفا[3]

وتشبيه الطريق بالحصير معنى تعاوره الشعراء ، فمن ذلك ما يرويه الأصمعي في صفة الطريق .

إذ لا أزال على طريق لا حب ... وكأن صفحته حصير مرمل[4]

---

(١) ديوان كعب ٧٣ .
(٢) هنا وصف للقطا طويل . ثم يعود إلى وصف الطريق بالبيت الآتي .
(٣) الراملات : الناسجات . المرذيات : التي قد أرذاها السفر وأعياها وهي بمعنى الرذايا وواحدها رذية وغالباً ما تكون هزيلة . اللهيد : الناقة التي أصاب جنبها ضغطة من حمل ثقيل فأورثه داء . النطف : البعير الذي أصابه الدبر . والزاحف : المعى الذي لا يقدر على المشي . العاملات : الدائبات في السير . الراسمات : اللاتي تسير فتخط بمناسمها في الأرض فتؤثر فيها . الأحزة : ما اشتد من الأرض وغلظ . الخنيف : الثوب الأبيض . سمح : سهل . درير : مستقيم . الصورة : (هنا) : النشز والغلظ .
(٤) شرح ديوان كعب ٧٣ .

وكذلك ما ورد في شعر المخبل السعدي[1] وقد ذكر كعب نفسه هذا التشبيه أكثر من مرة فقال : [2]

ومُسْتَهْلِكٍ يَهدِي الضَّلُولَ كأنَّه حَصيرُ صَنَاعٍ بين أيدِي الرَّوامِلِ

وقال أيضاً : [3]

تَتَأوَّى إلى الثَّنايَا كما شكَّ تْ صَنَاعٌ من العَسيب حصيرا

وقوله إن النوق السائرات فيه والراسمات قد عبدته وذللت صعبه وجعلته كالثوب الأبيض ذكر كعب هذا المعنى في موضع آخر فقال : [4]

نَصَبتُ لَهَا وجهِي على ظهرِ لاحبٍ طَحِينِ الحَصَى قد سَهَّلَتْه المَنَاسِمُ

والشيء الجميل في هذا النص هو شبه الصراع الذي نلمحه بين الطريق والصحراء والذي صوره كعب فألقى على الطريق صفات الأحياء فإذا ما أثقلت عليه الصحراء أو اعترضه نشز من الأرض فإنه يميل منحرفاً إلى السهل ويمضي لشأنه .

وأما ذكره الجن فهذا معنى أكثر من إيراده الشعراء الجاهليون وعبيد الشعر ، فالأعشى يقول في معلقته : [5]

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل في حافاتها زجل

ويقول زهير : [6]

وبَلْدةٍ لا تُرامُ خائفةٍ زَوْراءَ مُغْبَرَّةٍ جَوانبُها
تَسْمَعُ للجِنِّ عازِفين بِها تَضْبَحُ من رَهبةٍ ثَعَالِبُها
يصعد من خوفها الفؤاد ولا يَرْقَدُ بعض الرُّقَادِ صاحبُها

(١) أنظر المفضليات ١١٦ .
(٢) ديوان كعب ٩٢ .
(٣) ديوان كعب ١٥٦ .
(٤) ديوان كعب ١٣٧ .
(٥) ديوان الأعشى الكبير ١٠٩ .
(٦) ديوان زهير ٢٦٥ .

فزهير هنا قد ذكر أثر عزف الجن على نفوس الإنس والحيوان . . فالثعالب تضبح لاهثة من رهبة عزف الجن ، والقلب يصعد إلى أعلى وتتوالى دقاته ولا يستطيع الرجل أن ينام ولو شيئاً قليلاً ويقول كعب نفسه : (١)

وخرْقٍ يَخَافُ الرَكْبَ أن يُدْلِجُوا به ... يعَضُّونَ من أهْوالِه بالأَنَامِلِ
مَخُوفٍ ، به الجِنَّانُ ، تَعْوِي ذِئابُه ... قَطَعْتُ بفَتْلاءِ الذِّراعَيْن بازِلِ(٢)

فقد أضاف إلى الجن الذئاب العاوية . . من أجل ذلك كان الركب يعضون أناملهم من أهواله الشديدة .

ويضيف كعب في نص آخر إلى أصوات الذئاب والجن أصوات البوم التي تقصد القبور في ظلام الليل فيقول : (٣)

واضِحِ اللَوْنِ كالمَجَرَّةِ لا يَعْـ ... ـدُمُ يوماً من الأهَابِيِّ مُورَا
وذِئاباً تَعْوِي وأَصْواتَ هامٍ ... مُوفِياتٍ مع الظَّلامِ قُبورَا(٤)

ويصف زهير الخوف الذي يخلع القلب من اجتياز هذه الطريق التي دعاها بالتنوفة العمياء وذهاب النوم عمن يمر فيها أو يجتازها فيقول : (٥)

وَتَنوفةٍ عَمْياءَ لا يَجْتَازُها ... إلا المُشَيَّعُ ذو الفؤادِ الهَادِي
قَفْرٍ هَجَعْتُ بها ، ولستُ بنائمٍ ... وذِرَاعُ مُلقِيةِ الجِرَان وسادِي
وعرفتُ أنْ ليستْ بدارِ تَئِيَّةٍ ... فَكَصفْقَةٍ بالكفِّ كان رُقَادِي

لا يستطيع أن يجتاز هذه الطريق إلا الشجاع ولا يقوى على النوم فيها أحد ويذكر أنه توسد ذراع ناقته قليلاً بمقدار صفقة الكف .

---

(١) ديوان كعب ٩٤ .
(٢) بازل : انتهى شبابها .
(٣) ديوان كعب ١٥٨ ـ ١٥٩ .
(٤) الهام : ذكور البوم .
(٥) ديوان زهير ٣٣٠ .

ومن الأوصاف التي ذكروها للطريق أنها مضلة قفر يخاف الناس شرها قال كعب : [1]

ومضلة قَفْرٍ ، يُحَاذَرُ شرُّهَا مِنْ هَولِهَا ، قَمَنٍ مِنَ الحَدَثَانِ

ومن الأمور التي تعرض للمسافر للسراب الذي يتراءى له في الصحراء حيناً ويختفي حيناً آخر وقد وصفوه فمن ذلك قول زهير : [2]

وبَيْداءَ تيهٍ تَحْرَجُ العينُ وَسْطَهَا مُخَفَّقَةٍ غَبْرَاءَ صَرْمَاءَ سَمْلَقِ
بها من فراخِ الكُدْرِ زُغْبٌ كأنَّها جَنَى حَنظَلٍ في مَحْصَنٍ متفلِّقِ
قطعتُ إذا ما الآل آض كأنَّه سُيُوفٌ تَنَحَّى نَسْفَةٌ ثم تَلْتَقِي [3]

يقول إن هذه البيداء مضلة يتيه فيها الإنسان إذا نظرت إليها عين المرء اندهشت وأخذت ، وهي مخفقة تلمع في خفقان مستمر بسبب السراب . . إنها مقفرة لا ماء فيها ولا نبات ، وبها قطا ويشبه فراخه بجنى الحنظل . .

إن السراب يبدو كأنه سيوف تتنحى خطوة ثم تلتقي . . إنه يغيب تارة ويلمع أخرى .

***

(١) ديوان كعب ٢١٦ .
(٢) ديوان زهير ٢٤٧ .
(٣) تحرج : تدهش . صرماء : لا ماء فيها . سملق : لا نبات فيها ـ آض : صار .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفصل الثاني

الحرب وأدواتها وأشياء أخرى

كانت الحرب في حياة العرب أمراً ضرورياً ، تقوم عليها حياتهم ،فالغزو مصدر رئيسي من مصادر ثروتهم . وكانوا يستطيلون الأشهر الحرم المتتابعة[1] فيعمدون إلى النسيء ، وكانوا يضيقون ذرعا بالأنثى لأنها لا تستطيع أن تسد مسد الرجل في حروبهم .

ومن صفات الرجل المحترم المثلى في المجتمع الجاهلي الفروسية وإتقان الرماية والطعن والضرب ، دل على ذلك ما وصل إلينا من شعرهم وما نطقت به قصص أيامهم وحروبهم ، وما جاء في السيرة .

وكانت القاعدة التي تقوم عليها حياتهم قول زهير :[2]

ومَنْ لا يَذُدْ عن حوْضِه بسلاحِهِ

يُهَدَّمْ ومَنْ لا يَظْلِم النَّاسَ يُظْلِم

وقول الحماسّي :[3]

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

---

(١) وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم .
(٢) ديوان زهير ٣٠ .
(٣) ديوان الحماسة لأبي تمام ١ / ٥ طبع محمد سعيد الرافعي .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكان وصف الحرب على نوعين :

١) وصف يأتي في معرض الفخر ، وكان يأتي غالباً مقروناً بوصف الخيل .

وقد وردت في أشعارهم من ذلك مشاهد رائعة صورت فيها الحرب تصويراً دقيقاً ، وفصلت فيها مراحل المعارك تفصيلاً وافياً . وكانوا يذهبون إلى تضخيم شأن العدو ليبدو الانتصار كبيراً .

٢) وصف يأتي في معرض الحكمة ، وكان يأتي في ذمها والتنفير منها، يمليه تأمل عميق لأضرار الحرب وآثارها .

ـ أما النوع الأول فقد أكثر منه وأجاد طفيل الذي غلب عليه وصف الخيل حتى عرف بطفيل الخيل . فمن ذلك ما ذكره في معرض الافتخار بما قدمت غني لجعفر ونفيل القبيلتين المعروفتين ، فقال :(١)

فَنَحْنُ مَنَعْنَا يَوْمَ حرْسٍ نِساءَكُمْ ... غَدَاةَ دَعَانا عَامِرٌ غَيْرَ مؤتَلِي
دَعَا دَعْوةً يا للجليحاء(٢) بَعْدَمَا ... رَأَى عُرْضَ دَهْمٍ صرَّعَ السِّرْبُ مُثْعَلِ
فَقَالَ : ارْكَبُوا أَنْتُم حُمَاةٌ لِمِثْلِهَا ... فَطِرْنَا إِلَى مَقْصُورَةٍ لم تُعبَّلِ
فَجَاءَتْ بِفُرسَانِ الصَّباحِ عَوابِساً ... سِرَاعاً إِلى الهَيْجَا مَعاً غير عُزَّلِ
فَحَامَى مُحَامِينَا وَطرَّف عَنْهُمُ ... عَصَائِبُ مِنَّا في الوَغَى لم تُهَلَّلِ
رَدَدْنَا السَّبَايَا مِنْ نُفَيْلٍ وَجَعْفَرٍ ... وهُنَّ حُبَالَى مِنْ مخفٍّ ومُثْقَلِ(٣)

يفخر بأن قومه عندما استغاث بهم بنو جعفر ونفيل ودعاهم عامر إلى النصرة طاروا إلى خيولهم وأغاروا على المعتدين وجاؤوا بفرسانهم مقرنين بالأصفاد ، وردوا السبايا من نفيل وجعفر .

---

(١) ديوان طفيل ٦٦ .

(٢) كُتبت هذه الكلمة في الديوان كما يأتي: يال الجليحاء ، ولا أرى لذلك داعياً والجليحاء شعار لهم كانوا يعرفون به . وانظر مبحث الاستغاثة في «جامع الدروس العربية» ٢/ ١٥٨ . وحاشية الصبان على الأشموني ٣/ ١٢٤ .

(٣) المثعل : الكثير . صرع السرب . فرق الإبل . مقصورة : محبوسة لم تثقل . لم تطرح .

ومن ذلك قول أوس : [1]

تكنفنَا الأعْدَاءُ مِنْ كلِّ جانبٍ ... لِينتَزِعوا عَرقاتِنَا ثم يَرْتَعُوا
فما جَبُنوا أنَّا نسُدُّ عَلَيْهِمُ ... ولَكِن لَقوا ناراً تَحُسُّ وتَسْفَعُ
وَجَاءتْ سُلَيْم قضها وَقَضِيضُها ... بأكثرِ ما كانوا عَديداً وأوْكَعوا
وَجئنَا بِهَا شَهْبَاءَ ذاتَ أشِلةٍ ... لها عَارِضٌ فيهِ المنيَّةُ تَلْمَعُ
فَوَدَّ أبو لَيْلى طُفَيلُ بن مالِكٍ ... بمُنْعَرَجِ السُّوبَانِ لو يَتَقَصعُ[2]

هذه أبيات من قصيدة يصف فيها الحرب التي انتهت بالظفر لقوم الشاعر ويقص علينا أن الأعداء جاؤوا من كل جانب ، وهم أقوياء شجعان لم يصدهم عن قصدهم عددنا الكبير ولا بلاؤنا الذي يشبه النار تحرق وتميت واشتدوا في القتال ولكننا جئناهم بالموت ، وتمنى زعماؤهم لو يختفون .

ومن الصور الرائعة التي ذكرها أوس للحرب أنه رآها ذات ناب من الشر أعوج يقول : [3]

وإنِّي امرؤٌ أعْدَدْتُ للحرْبِ بَعدما ... رَأيْتُ لها نابـاً مِن الشَّرِّ أعْصَلا

يقول : إنها حيوان مفترس كشر عن ناب أعوج يخلع القلوب .

***

ـ وأما النوع الثاني فقد دفع إليه التأمل الواعي والرغبة في السلم والنفور من سفك الدماء ، وكان زهير صاحبه . . ومن أروع ما جاء من هذا النوع أبيات زهير المشهورة وهي من معلقته : [4]

---

(١) ديوان أوس ٥٧ .
(٢) العرقاة : أصل كل شيء . أوكعوا : اشتدوا في القتال . الشهباء الكتيبة العظيمة الكثيرة السلاح . الأشلة : مفردها شليل وهي الدرع القصيرة . عارض : سحاب . يتقصع : يختفي .
(٣) ديوان أوس ٨٣ .
(٤) ديوان زهير ١٨ ـ ٢١ .

وما الحربُ إلا ما علمتُمْ وذُقْتُمْ ... وما هُوَ عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ
متى تَبعثُوهَا تَبْعثُوهَا ذَميمةً ... وَتضرَ إذا ضَرَّيْتُموها فَتَضْرَمِ
فَتَعْرُككُم عَرْكَ الرَّحَى بِثفالِها ... وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم
فَتنتجْ لكم غِلمان أشْأَم كلُّهم ... كأحمرِ عادٍ ثم تُرضِعْ فَتفْطِمِ
فتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأهلها ... قُرىً بالعِراقِ من قَفيزٍ ودِرْهَم

هذه الأبيات في التنفير من الحرب ، وهي حافلة بعدد من الصور وقد أملتها نزعته إلى السلام .

يخاطب قومه قائلاً : إن الحديث عن الحرب ليس حديثاً مظنوناً ولا مفترضاً نستقيه من الخيال ونقوله رجماً بالغيب . . إنه ما علمتوه وذقتموه . . . . إن مبعثها يكون يسيراً . . ولكنها سرعان ما تكبر . . . وتكون نتائجها كثيرة ضخمة ويشبهها بعدد من الصور الرائعة :

يشبهها بالنار التي تبدأ من مستصغر الشرر ثم تضرى وتضرم وتصبح مدمرة ويشبهها بالطاحون التي تطحن البشر وتفنيهم .

ويشبهها بالناقة التي تلد كثيراً ولكن أولادها مشؤومون كأحمر عاد وقد أخطأ زهير فهو أحمر ثمود[1] الذي كان شؤمه سبباً في هلاك قبيلته ومدينته .

ويقول زهير في وصف الحرب منفراً :[2]

إذا لَقَحَتْ حَرْبٌ عَوانٌ مُضِرَّةٌ ... ضَرُوسٌ تُهِرُّ الناسَ ، أنيابُها عُصْلُ
قُضَاعِيَّةٌ أو أختُها مضريَّةٌ ... يُحَرَّقُ في حافاتِها الحَطَبُ الجَزْلُ
تجِدْهم على ما خَلَّلَتْ هم إزاءَها ... وإن أفْسد المالَ الجَمَاعاتُ الجَزْلُ
يحشُّونَها بالمَشْرَفِيَّةِ والقَنَا ... وفِتيَانِ صِدقٍ لا ضِعافٌ ولا نُكْلُ

* * *

(١) وقصة عقر الناقة وردت في القرآن في السور الآتية : الأعراف وهود والشعراء والقمر والشمس .
(٢) ديوان زهير ١٠٣ .

أدوات الحرب :

أما أدوات الحرب فكثيرة وقد وصف شعراؤنا منها الخيل والرماح والسيوف والدروع والقوس والسهام .

أما الخيل فقد عقدنا لها فصلاً خاصاً وهي لا شك أداة مهمة من أدوات الحرب وسنذكر الأدوات الأخرى وما قالوا في وصفها .

يقول الحطيئة ذاكراً بعض هذه الأدوات : (١)

حَوَانَا مِنْهمُ يَوْمَ التَقَينَا ... رِمَاحٌ فِي مَرَاكِزِهَا رِمَاحُ
وَجُرْدٌ فِي الاعِنَّةِ مُلْجَمَاتٌ ... خِفَافُ الطَرْفِ كلُّهَا السِّلاحُ
إذَا ثَارَ الغُبَارُ خَرَجْنَ مِنْهُ ... كما خَرَجَتْ مِنِ الغُدُرِ السِّرَاحُ

السيف :

سلاح ماض ، وهو الأداة الأساسية في القتال ، وهو من أسلحة التلاحم والقتال القريب .

وقد وصفوا السيف باللمعان والصلابة والمضاء وحسن البلاء في الأعداء وبالاهتزاز إذا هز .

وشبهوه بتشبيهات عديدة . فأوس وكعب يشبهانه بالبرق .

ويقول أوس : (٢)

وأَبْيَضَ هِنْدِياً كَأَنَّ غِرَارَهُ ... تَلألُؤ برْقٍ فِي حَبِيٍّ تكلّلا
إذا سُلَّ مِن جَفْنٍ تَأَكَّلَ أثْرُهُ ... على مِثْلِ مِصحَاةِ اللُّجَيْنِ تأكّلا
كَأَنَّ مَدَبَّ النَمْلِ يَتبعُ الرُّبى ... ومَدْرج ذرٍّ خافَ بَرْداً فأَسْهَلاَ

(١) ديوان الحطيئة ٣٢٤ .
(٢) ديوان أوس ٨٤ .

على صَفْحَتَيهِ منْ مُتُونِ جِلائِهِ كفى بالذِّي أُبْلِي وأنعَتُ مُنْصُلا[1]

هذه الأبيات من قصيدة طويلة لأوس ذكر فيها أسلحته ، ووصفها وصفاً رائعاً وقد أورد فيها كل الأسلحة المعروفة وقال في نهاية ذكره الأسلحة :

فذاكَ عَتَادي في الحروب إذا التظتْ وأردفَ بأسٌ من حروبٍ وأعْجلا

يصف أوس لمعانه فيشبه بريقه بتلألؤ برق في سحاب متراكم ، وإذا سل من غمده توهج ولمع كما تلمع الفضة . ثم أتى بصورة تنبىء عن معرفة لعادات الحشرات وهي صورة استقاها من البيئة التي يحيا فيها ، وهذه الصورة هي أنه شبه لمعان السيف وتموج توهجه بتموج هذا القطيع من النمل ينحدر من أعلى إلى أسفل . وقص علينا قصة صعود النمل فقال : إن النمل يتبع الربى ، وقالوا في تعليل ذلك أنه يهرب من الندى فإذا اشتد عليه البرد نزل فاستبان تحركه وأثره .

هذه الصورة تكررت عند أوس نفسه ، ولكن عن الجراد فقال :[2]

وذا شُطُبَاتٍ قَدَّهُ ابنُ مُجَدَّعٍ له رونقٌ ذَرِيَّهُ يتأكلُ
وأخرجَ منه القينُ أثراً كأنه مَدَبٌّ دباً سودٍ سرى وهو مُسْهِلُ[3]

وفي هذين البيتين ذكر لصانع مشهور من صانعي السيوف وهو ابن مجدع

وقال كعب :[4]

بالمرهفاتِ ، كأن لمعَ ظُبَاتِها لمعُ السواري في الصبيرِ الساري[5]

---

(١) الغرار : حد السيف . الحبى : السحاب المرتفع . تكلل الحساب صار بعضه فوق بعض وهو أشد لإضاءة البرق . تأكل : توهج . أثر السيف: جوهره . مصحاه : إناء من فضة . اللجين : الفضة المدب : الموضع الذي يدب فيه . المدرج : المدب . الجلاء : الصقل . المنصل : السيف .

(٢) ديوان أوس ٩٥ .

(٣) الشطبة : الطريقة من طرائق السيف . قده : قطعه وصنعه . ابن مجدع : قين مشهور بصنع السيوف . الرونق : ماء السيف وصفاؤه . الذرى : التلألؤ . واللمعان . الدبا : الجراد . المدب : الموضع الذي يدب فيه .

(٤) ديوان كعب ٣٠ .

(٥) المرهفات : السيوف . الظبة : مقدمة السيف . الصبير : سحاب أبيض وفي رواية الأحول البوارق عوضاً عن السواري .

شبه لمعان السيف بلمعان البرق في السحاب الليلي وإنما اشترط سحاب الليل لأنه أشد للمع البرق فيه .

ووصف زهير السيف بالصلابة وبأنه معها إذا هز اضطرب اضطراب ذئب يريد الماء فقال :(١)

صَدْقٍ ، إذا ما هُزَّ أُرعِشَ متنُه عَسَلاَنَ ذئبِ الرَّدْهَةِ المستوردِ(٢)

***

الرمح :

وجدت لأوس نصين رائعين في وصف الرمح ، وقد وصفه فيهما بصلابة القناة واستوائها وعدم اختلافها ، فكأن عقدها عقدة واحدة .

ووصفه باللدونة واللين فإذا هززت الرمح اهتز كله ، وشبه لمعان سنانه بالسراج الموقد الذي يتوهج ضياء فقال :(٣)

وإني امرؤٌ أعددتُ للحربِ بعدَما رأيتُ لها نابـاً من الشرأ عصَلا
أصمَّ ردينياً كأن كعوبَهُ نَوَى القَسْبِ عرَّاصاً مُزَجَّاً منصَّلا
عليهِ كمصباحِ العزيزِ يَشبهُ لفصحٍ ويحشوهُ الذبالَ المفتَّلا(٤)

هذه الأبيات من قصيدته الجميلة الطويلة التي وصف أسلحته بها وقد نعت رمحه بأنه رديني ، وردينة امرأة كانت تقوم الرماح وإليها تنسب الجيدة منها ، ووصفه بأن عقده صلبة متينة وشبهها بنوى القسب ، وبأنه لدن لين يهتز كله إذا حركته ،

---

(١) ديوان زهير ٢٧٨ .
(٢) الردهة : النقرة فيها ماء . المستورد : الذي يريد الماء .
(٣) ديوان أوس ٨٣ .
(٤) أعصل : أعوج . الأصم : الذي لا جوف له . الكعب : العقدة . القسب : تمر نواه صلب يابس . العراص : الشديد الاضطراب . المزج : الذي جعل له زج : والزج : حديدة في أسفل الرمح تغرز في الأرض . المنصل : الذي جعل له نصال وهو السنان . الذبال : الفتائل .

وبأن عليه سناناً يلمع كلمعان مصباح الملك الذي يوقده في عيد النصارى ، وفي أسفله زج يغرز في الأرض .

وفي نص آخر يقول أوس :[1]

معي مارنٌ لدْنٌ يخلِّي طريقَه ... سِنَانٌ كنبراسِ النَّهاميِّ مِنْجَلُ
تَقَاك بكعبٍ واحدٍ ، وتَلَذُّهُ ... يداكَ ، إذا ما هُزَّ بالكفِ يعسِلُ[2]

فهو يصفه بأنه لدن مارن لين ، عليه سنان كمصباح النجار ، ويضفي على هذا السنان صفات الأحياء ، فيذكر بأنه يخلي طريق الرمح ، فهو يتقدمه فلا يقدر أحد أن يدنو منه وهو واسع الجراح كأنه منجل يحصد النفوس حصداً ، ويصفه بأنه ليس فيه تفاوت ولا اختلاف ، فإذا هززته اهتز كله فكأن كعوبه كعب واحد ويعسل إذا ما هز ويلذ لليدين أن تحمله فلا يثقلها وهو في هذا الموضع يكرر ما ذكره في النص السابق من لمعان السنان ولين الرمح .

الدرع :

شبهوا يريقها وتجعدها ببريق ماء الغدير وتجعده إذا هبت الريح على سطحه أو بضوء الشمس عندما تنعكس عليه ، فما أحسن أن يتسربل المرء بها وما أزينه .

قال أوس :[3]

وأملسَ صُولياً كَنِهْيِ قَرَارةٍ ... أحسَّ بقاعٍ نَفْحَ ريحٍ فأَجْفَلاَ
كأنَّ قرونَ الشمسِ عندَ ارتفاعِها ... وقد صادفتْ طلْقاً من النجمِ أعزَلا
تردَّدَ فيهِ ضوءُها وشُعَاعُها ... فأَحْسِنْ وأَزْيِنْ بامرىءٍ أنْ تَسَرْبَلاَ[4]

(١) ديوان أوس ٩٦ .
(٢) المارن : اللين . النهامى : النجار . تقاك : أتقاك . تلذه يداك : لا يثقلها حمله .
(٣) ديوان أوس ٨٤ .
(٤) الأملس : الدرع الناعم الشديد . الصولى : نسبة إلى صول . الأعزل : أحد السماكين ، والثاني هو الرامح وهو من منازل القمر به ينزل ، وسمى أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب فهو كالأعزل من السلاح .

وذكر أوس في نص آخر الدرع وقال : إنها بيضاء لم يعلها الصدأ ، لينة مستفيضة واسعة ، طويلة سابغة تغطى الأنامل ، وهي من صنع سليمان بن داود عليهما السلام وجاء بالتشبيه الذي رأيناه في النص السابق وهو تشبيه الدرع بغدير جرت الريح في متنه حتى غدا كالسلسلة . يقول أوس :(١)

وبيضاءَ زَغْفٍ نَثْلةٍ سُلَمِيَّةٍ ... لها رَفْرَفٌ فَوْقَ الأنامِلِ مُرْسَلُ
وأَشْبَرنيهِ الهالكيُّ كأنَّه ... غديرٌ جَرَتْ في متنِه الريحُ سَلْسَلُ(٢)

وقد أخذ هذا المعنى زهير فشبهها بالغدير تنسجه الريح وذكر أنها فضفاضة واسعة رفع زيادتها بحمائل سيفه المهند قال :(٣)

ومفاضةٍ كالنَّهْيِ تَنْسُجُهُ الصَّبَا ... بيضاءَ كَفَّتَ فَضْلَها بمهنَّدِ

وفي موضع آخر ذكر زهير أن هذه الدرع مضاعفة أي نسجت حلقتين حلقتين وأنها سابغة تغشي على قدمي لابسها وشبهها أيضاً بالغدير وذكر أن صاحبها ضاعف من فوقها أخرى ترد السيوف عنها فلولا فقال :(٤)

فلمَّا تَبَلَّجَ ما حولَهُ ... أَناخَ فشنَّ عليه الشليلاَ
وضاعفَ من فوقها نَثْرَةً ... تَرُدُّ القواضِبَ عَنْها فلولاَ
مُضَاعَفَةً كأضاةِ المسيـ ... ـلِ تُغْشِي على قَدَمَيْهِ فُضُولاَ(٥)

وذكر كعب في قصيدته اللامية الرائعة أنها من نسج داود وأنها بيضاء سابغة قد أحكمت حلقاتها ، وأدخلت كل حلقة في أختها حتى أشبهت حلق القفعاء وهي شجرة من أشجار البادية . فقال :(٦)

---

(١) ديوان أوس ٩٦ .
(٢) الزغف : اللينة . النثلة : الواسعة . السلمية : منسوبة إلى سليمان أشبرني : أعطاني . الهالكي : الحداد .
(٣) ديوان زهير ٢٧٨ .
(٤) ديوان زهير ١٩٨ .
(٥) الشليل : الدرع . النثرة : الدرع . الأضاة: الغدير.
(٦) ديوان كعب ٢٣ ـ ٢٤ .

شُمُّ العرانينِ أبطالٌ لَبوسُهمُ ... من نسجِ دوادَ في الهَيْجَا سرابيلُ
بيضٌ سوابغُ قد شُكَّتْ لها حَلَقٌ ... كأنها حَلَقُ القفعاءِ مجدولُ[1]

وشبهها بالغدير تصفقه هوج الرياح وتعقبها الأمطار ، فسطحه مجعد لامع . . . يقول :[2]

وبيضٍ من النسجِ القديمِ كأنَّها ... نِهَاءٌ بقاعٍ ماؤُها مُتَرايعُ
تُصَفِّقُها هُوجُ الرياحِ إذا صَفَتْ ... وتَعْقُبُها الأمطارُ فالماءُ راجعُ[3]

قال أبو عبيدة في هذين البيتين : إنهما أحسن ما قيل في الدرع .

ونجد في شعر كعب هذا زيادة عماً رأينا عند أوس وزهير ذكر الأمطار تأتي عقب الرياح فتكون صفحة الغدير أشبه بالدرع .

والملاحظ أن المعاني التي أوردها شعراؤنا معان متداولة عند شعراء الجاهلية يتعاورونها ويعرضها كل منهم بطريقته الذاتية .[4]

***

القوس والسهام :

كان وصف هذا السلاح أوفر الأسلحة نصيباً من القول ، وكان أوس أكثر الشعراء وصفاً له .

وصف طفيل هذا السلاح فذكر أمرين انفرد بهما وهي تسمية الرجل الذي اشتهر بصنع القسى وهو (الماسخي) وتسمية المدينة التي اشتهرت بصنع النبال وهي (مدينة يثرب) . وشبه منحنى القوس بعراقيب القطا وأن النبال كسيت بريش

---

(١) العرانين : الأنوف .
(٢) ديوان كعب ٢٥٨ .
(٣) النهاء : جمع نهى وهو الغدير . مترايع : متردد .
(٤) أنظر « المفضليات » ٩٨ ، ٢٨٢ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الطيور الصغيرة والكبيرة . يقول طفيل :[1]

رَمَتْ عن قِسِيٍّ الماسخيِّ رجالُنا ... بأجودَ ما يبْتاعُ من نبلِ يثربِ
كأن عراقيبَ القَطَا أُطرٌ لها ... حديث نواحيها بوقعٍ وصُلَّبِ
كُسينَ ظُهارَ الريشِ من كل ناهضٍ ... إلى وكرهِ وكلِّ جَونٍ مُقشَّبِ[2]

ويتحدث طفيل في قصيدة أخرى عن السهم حديثاً يضفي فيه عليه من صفات الأحياء الشيء الكثير ، حتى لو قرأ قارىء هذه الأبيات مقطوعة عن سياقها لما ظن إلا أنه يتحدث عن إنسان . يقول :[3]

وأصفَرَ مشهومِ الفؤاد كأنَّهُ ... غداةَ الندى بالزعفرانِ مطيبُ
تَفَلَّتُ عليه تفلة ومسحته ... بثوبيَ حتى جلدُهُ متقوِّبُ
يراقبُ إيحاءَ الرقيبِ كأنَّهُ ... لِمَا وتروني آخرَ اليومِ مُغْضَبُ[4]

فهو يشبه السهم لاصفراره بالرجل المطيب بالزعفران ، ويحكي لنا صنيعه بالسهم فهو يبصق عليه ويمسحه بثوبه فكان ذلك سبباً لذهاب بعض الريش العالق به . . وذكر أن السهم يراقب إيماء الرقيب كأنه مغضب لما صنع هؤلاء الأعداء بالشاعر !!!

وأما أوس فإنه يتحدث عن القوس والسهام حديثاً مطولاً يزيد على ستة وعشرين بيتاً ، تحدث عن القوس بعشرين بيتاً ذكر فيها الشجرة التي قطعت منها القوس ، ومكان وجودها وهو جبل مجلل بالسحاب ، فقد نبتت على ظهر صفوان أملس ، كأن متونه سقيت من الدهن مرة بعد مرة ، وكان يطيف بهذه القوس المبضوعة راع لها يحافظ عليها ، وقد لاقى امرءاً من ميدعان وأخبره بهذه القوس وأغراه بها قائلاً إنها من أحسن البضاعة لملتمس بيعا أو اقتناء . . فقفز الرجل وخاطر

---

(١) ديوان طفيل ٣١ .
(٢) الأطر من القوس : منحناها . ناهض : الطائر الذي بدأ المشي . الجون المقشب : الطائر المسن .
(٣) ديوان طفيل ٥٠ .
(٤) أصفر : سهم أصفر . مشهوم : مذعور . يقال : قوب الجرب جلد البعير إذا ترك فيه مواضع قد انجردت من الوبر .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بنفسه حتى صعد إلى منبتها ، فأكلت الصخر أظفاره . . . وما زال حتى نالها وهو مشفق على نفسه من السقوط، والحق إنه لو زلت قدمه لتقطع إرباً . فلما نجا من ذلك الكرب وظفر بالقوس لم يزل يسقيها ماء لحائها ليكون أجود لها ، ولو قشر اللحاء عنها لأفسدها . وانتظرها تذبل . . ثم براها رفيقاً بها . . حتى أصبحت صالحة للاستعمال صفراء معتدلة لا يعيبها طول ولا يزري بها قصر . . . وصوتها مرتفع وهي ملء الكف .

ثم تحدث عن السهام بستة أبيات فذكر أنها مصنوعة من الغرب وهو نوع من الشجر يصلح لصناعة السهام ، وركبت لها نصال تتوهج كجمر الغضا في يوم ريح عاصف . ثم سنهن وصقلهن وكساهن ريشاً ليناً أغبر .

قال أوس : (١)

ومبضوعةٌ مِنْ رأسِ فرعٍ شظيةً ... بطَوْدٍ تراهُ بالسحابِ مجلّلاَ
على ظهرِ صفوانٍ كأنَّ متونَهُ ... عُلِلْنَ بدُهنٍ يُزْلِقُ المتنزلا
يُطيفَ بها راعٍ يُجَشِّمُ نَفْسَهُ ... لِيُكْلِيء فيها طَرْفَهُ متأمِّلاَ
فلاقى امرءاً من ميدعانَ وأسمحتْ ... قَرُونَتُه باليأسِ منها فعجّلا
فقال له : هل تذكُرَنَّ مُخَبِّراً ... يَدُلُّ على غُنْمٍ ويُقْصِرُ مُعْمِلاَ
على خيرِ ما أبصرْتَها من بضاعةٍ ... لملتمسٍ بيعاً بها أو تبكُّلاَ
فَوَيْقَ جبيلٍ شامخِ الرأسِ لم تكنْ ... لِتبلُغَهُ حتَّى تِكِلَّ وتَعْمَلا
فأبصرَ ألهاباً من الطَوْدِ دُونَها ... تَرى بينَ رأسي كلِّ نِيَقينِ مَهْبِلاَ
فأشرطَ فيها نَفْسَهُ وهو مُعصِمٌ ... وألقى بأسبابٍ له وتوكَّلاَ
وقد أكلتْ أظفارَهُ الصخرُ كُلَّما ... تعايا عليه طُولَ مرقى تَوَصَّلاَ
فما زالَ حتَّى نالَها وهو مُعصِمٌ ... على موطنٍ لوزلَّ عنه تفصَّلا
فأقبلَ لا يرجُو التي صَعَدَتْ بِهِ ... ولا نَفْسَهُ إلا رجاءً مُؤَمَّلاَ
فلمَّا نَجَا من ذلكَ الكربِ لم يَزَلْ ... يمظّعُها ماءَ اللحاءِ لتَذْبُلاَ

(١) ديوان أوس ٨٥ - ٩٠ .

فأنحى عليها ذات حد دعا لها ... رفيقاً بأخذ بالمداوس صيقلا
على فخذيه من براية عودها ... شبيه سفى البهمى إذا ما تفتلا
فجردها صفراء لا الطول عابها ... ولا قصر أزرى بها فتعطلا
كتوم طِلاعُ الكفِّ لا دون مَلئِها ... ولا عَجْسُها عن موضعِ الكفِّ أفضلا
إذا ما تَعاطَوْها سَمِعْتَ لصوتها ... إذا أنبضُوا عنها نئيماً وأزْمَلا
وإن شدَّ فيها النزْعَ أدبَر سهمُها ... إلى منتهىً من عَجْسِها ثم أقبلا
فلما قَضى مما يريدُ قضاءَهُ ... وصلَّبها حرصاً عليها فأطْوَلا
وحشوَ جفير من فروع غرائب ... تنطع فيها صانع وَتَنبَّلا
تُخَيِّرْنَ أنضاءً وركِّبْنَ أنْصُلاً ... كجمر الغَضَا في يوم ريحٍ تزيَّلا
فلما قَضَى في الصنعِ منهنَّ فهمَهُ ... فلم يبقَ إلا أن تُسَنَّ وتُصْقَلا
كساهُنَّ من ريشٍ يمانٍ ظواهراً ... سُخَاماً لُؤامًا لَيِّنَ المَسِّ أطحَلا
يَخُرْنَ إذا أُنْفِزْنَ في ساقطِ النَّدَى ... وإن كان يوماً ذا أهاضيبَ مُخْضِلاَ
خُوَارَ المطافيلِ الملمَّعَةِ الشَّوَى ... وأطلائِها صادفْنَ عِرْنَانَ مُبْقِلا[1]

ولأوس قطعة أخرى في وصف القوس رائعة تقع في تسعة أبيات يقول في أول وصفه لها :[2]

وصفراءَ من نبعٍ كأنَ نَذيرهَا ... إذا لم تُخفِّضه عن الوحشِ أفكلُ

وقد وصف زهير القوس والسهام خلال وصفه للصياد وصفاً متحركاً فذكر أن

---

(١) المبضوعة: المقطوعة . الشظية: الفلقة . الطود: الجبل . ميدعان: قبيلة . قرونته: نفسه . التبكل: التغنم . لهب: فرجة تكون بين الجبلين . المعصم: المعتصم . تفصل: تقطع . يمظها: يشربها . المداوس: المصاقل واحدها مدوس وهو الذي يصقل به . السفي: الشوك واحدته سفاة كتوم: مرتفعة الصوت . طلاع الكف: أي ملء الكف . الجفير: الكنانة . وحشوها السهام . الغرب: نوع من الشجر تصنع منه السهام . تنطع الصانع وتنبل: أي تأنق في صناعته وتحذق . النضي: السهم الذي لم يبر بعد . تزيل: تطاير . السخام من الريش: اللين الحسن . الريش اللؤام: ما يلائم بعضه بعضاً . الطحلة: لون بين الغبرة والبياض والسواد . يخرن: من الخوار . المطافيل: ذات الأطفال . الشوى: الأطراف . أطلاؤها . : أولادها . عرنان: واد واسع يوصف بكثرة الوحش . مبقل: طلعت فيه البقلة .

(٢) ديوان أوس: ٩٦ .

الصياد لاطىء مختبىء ينظر إلى الطريدة ومعه قوس ملساء إذا هو شدها بالوتر لانت له وتحدبت ، وكأن صوتها نواحة توقد نار الحزن على الكرام . . . محدودبة سمراء في موضع التقويس ، من شجرة النبع مثل السبيكة ، عولجت بالنار ،طويلة صلبة كحاشية الإزار . والسهم قوي متماسك شديد ، يقول زهير :(١)

وعلى الشَّرِيعةِ رابىءٌ ، مُتَحِلِّسٌ ... رامٍ بعينَيهِ الحَظِيرَةَ شَيزَبُ
معه متابِعَةٌ ، إذا هو شَدَّها ... بالشرعِ يَستَشْزِي له وتَحدَّبُ
مَلْساءُ مُحدلة ، كأنَّ عدادها ... نَوَّاحةٌ نَعَتِ الكرامَ ، مُشَبَّبُ
قَنواءُ خَلْساءُ المُقَوَّسِ نَبْعَةٌ ... مِثلُ السَّبيكَةِ إذ تُمِلُّ وتَشْسَبُ
عرش كحاشيةِ الإزارِ شَرِيجةٌ ... صفراءُ لا سِدِرٌ ولا هي تَأْلَبُ
ومُثَقَّفٌ مما بَرَى مُتَمالِكٌ ... بالسَّيرِ ذو أُطُرٍ عليه ومَنْكِبُ(٢)

وكذلك كعب فإنه وصف القوس والسهام عندما وصف الصياد فقال : إن الصياد مقيم يقلب سهاماً أصلحها القين ، فبدت للعيون زرقا لا عيب فيها ، قد ألصق بها الريش ، وقد شرقت بالسم من المسن الذي كانت تسن عليه . ويقلب قوساً ركوضاً تدفع السهم وتبعده ، وهي متخذة من شجر السراء . . ملساء لها صوت وعزف كأنه نذير للخميس يقول :(٣)

ثَاوِياً ماثِلاً يُقلِّبُ زُرقاً ... رَمَّها القَينُ بالعُيونِ حُشورَا
شَرِقاتٍ بالسُّمِّ من صُلَّبِي ... وَركُوضاً من السَّرَاءِ طَحُورا
ذاتَ حِنوٍ مَلْسَاءَ تَسمعُ مِنْها ... تَحتَ ما تَقبِضُ الشِّمالُ زَفِيرَا
يَبْعَثُ العَزفُ والترنمُ مِنْهَا ... ونَذيرٌ إلى الخميسِ نَذِيرَا(٤)

وقال كعب أيضاً وهو يتحدث عن الصياد إنه يقلب سهاماً كساهن صانع من

(١) ديوان زهير ٣٧٦ .
(٢) متابعة : قوس . الشرع : مفرده شرعة وهي الوتر . تستشزي : تلين مشبب : من تشبب النار أي تأريثها . خلساء : أي سمراء في مواضع التقويس (وقد أثبت مارجحه محقق الديوان) تحل : تعالج بالنار تشسب : تيبس . عرش : طويلة . شريجة : خلقة العود . إذا شق فلقتين .
(٣) ديوان كعب ١٨٢ .
(٤) الثاوي : المقيم . الحشر : الملصق ريش السهم . طحور : دفوع لسهمها . العزف : صوت الوتر .

الريش ما يجعلهن أكثر مضاء ونفاذاً ، وقد أكثر من سنهن حتى أصبحن يقطرن سماً . ويقلب قوساً صفراء ذات خطوط ، وإذا كانت القوس كذلك كان أحسن لعودها ، إذا عطف وترها المربوع صوتت كما تصوت الناقة العاطفة على البو . يقول كعب :[1]

يُقَلِّبُ حَشَراتٍ كَساهُنَّ نابِلٌ ... من الرِّيشِ ما التَفَت عليه القَوَادِمُ
صَدَرن رِواءً عن أسِنَّة صُلَّبٍ ... يقِئْنَ ويَقْطُرنَ السِمامَ سَلاَجِمُ
وَصفْراء شكَّتْهَا الاسرة عودُها ... على الطَّل والانْداءِ أَحْمَرُ كَاتِمُ
إذا أُطِرَ المَرْبوعُ مِنْهَا تَرنَّمَتْ ... كَما أَرْزَمتْ بكْرٌ على البَورائِمُ[2]

وتلاحظ أن الجار تحدث عن السهام وكأنها كائنات حية يقئن ويصدرن ويرتوين .

***

وصف أمور متفرقة :

هذه أمور لم يطيلوا في وصفها ، ولا تندرج في باب واحد ، ولا تدخل فيما سبق وهي على كل حال من الطبيعة الساكنة .

الماء والغدير والسحاب والمطر والبرق :

قال زهير يصف الماء بالعذوبة والبرودة ، وبأنه يستمد من عين تسيل وآبار تفيض . قال :[3]

---

(١) ديوان كعب ١٤٧ .
(٢) الحشرات : السهام الملصقات القذذ . النابل الحاذق بعمل النبل السلاجم : السهام الطوال . شكتها : دخلتها . الأسرة الخطوط . أطر : عطف . أرزمت الناقة : حنت باكية . البكر : الناقة . البو : جلد يحشى تبناً ثم يعلق عند الناقة بعد ذبح ابنها . رائم : عاطف .
(٣) ديوان زهير ٣٧٥ .

إرْتَـاعَ يذكُرُ مَشْـرِبـاً بِثَمادِهِ ... مـن دونِـهِ خشُـعٌ دَنَـوْنَ وأنْقُبُ
عزَم الـورود فآبَ عَذْبـاً بارِداً ... مـن فَوقِـه سَدٌ يَسيلُ وأَلْهبُ
جُفَـرٌ تفيضُ ولا تَغيضُ ، طَوَاميا ... يَزْخُـرْنَ فوقَ جِمَامِهِـنَّ الطُّحلُـبُ[1]

ويبدو أن التفاصيل المذكورة تفيد العذوبة والصفاء والغزارة والبرودة لكون الجبال تحجز هذه المياه .

وقال الطفيل يذكر الغدير عليه طحلب ، والضفادع السود تعقد مجالسها فوق صفحته ، ولا يرد ناهله ، ووصفه بأنه صاف تنفي التراب مجاوله . قال[2]

فبـاكـرن جونـاً للعـلاجيم فوقَـهُ ... مجـالسُ غَرْقَـي لا يُحـلأ ناهِلَـه
إذا ما أتَتْـهُ مـن شطـرِ جانب ... إلـى جانـبٍ حاز التـرابَ مجاوله[3]

وقال كعب :[4]

وبـاكرنَ جَوْنـاً تنسـجُ الـريحُ مَتْنَهُ ... تَنَـاءَمُ تكليمَ المجـوسِ غرانِقُـه
إذا ما أتتْـهُ الـريحُ من شطـر جانبٍ ... إلـى جانـبٍ حازَ التـرابَ مهارقُه
بحافتـه من لا يصيحُ بِمَـنْ سَرَى ... ولا يدَّعـي إلا بمـا هو صادقه[5]

من الواضح استفادة كعب من أبيات طفيل فبداية البيت الأول من النصين واحد (باكرن جونا) . وقد أخذ كعب البيت الثاني بتمامه فلم يغير إلا كلمة (مجاوله) بـ (مهارقه) .

---

(١) ارتاع : رجع (الفاعل ضمير يعود على حمار الوحش) . خشع : جبال . آب الماء : ورده ليلاً . الهب : جمع لهب وهو الشق في الجبل . الجفر : الآبار الواسعة تفيض لكثرة مائها ولا تغيض . طوام : ملاء . يزخرن : تسمع صوت أمواجهن واضطرابها . والطحلب : ما علا الماء من خضر ونحوه . جمام الماء . معظمه .

(٢) ديوان طفيل ٨٤ .

(٣) الجون : الغدير عليه الطحلب . العلاجيم : الضفادع السود . لا يحلأ : لا يرد .

(٤) ديوان كعب ١٩٤ .

(٥) التناؤم : صوت ضعيف . الغرنوق : طائر يشبه الكركي . المهارق : جمع مهرق وهو الطريق التي تصير إلى الماء .

وقال طفيل يصف البرق والسحاب: (١)

أصاحِ تَرَى برقاً أُريكَ وميضَهُ ... يُضيء سَناهُ سُوقَ أثْلٍ مُرَكَّمِ
أَسفَّ على الأفلاجِ أيمنُ صوبِهِ ... وأيسرُهُ يَعْلُو مخارمَ سَمْسَمِ
لَهُ هَيْدَبٌ دانٍ كأن فروجَهُ ... فُوَيْقَ الحصى والأرضِ أرفاضُ حُنتم
أَبسَّتْ به ريحُ الجنوب فأسعَدَتْ ... روايا لَهُ بالماءِ لما تصرَّمِ

يصف في البيت الأول شدة ضياء البرق ، إذ يستطيع سناه أن يضيء سوق الشجر المركم بعضه على بعض .

والمعروف أن مثل هذا الشجر المتشابك الذي تعاطفت أغصانه وغطت أوراقه يكون حاجباً نور الشمس فلا يسمح له أن يدخل في ظلاله . وهذا المكان في الليل شديد الظلمة غير أن هذا البرق يخترق هذه الظلمات ويبددها ويضيء سوق هذا الأثل المركم . وفي البيت الثاني حديث عن السحاب الذي أسف أيمن صوبه على الأفلاج ، أما أيسره فيعلو جبلاً هو سمسم .

وفي البيتين الثالث والرابع صورتان جميلتان أما الأولى فقد ذكر أن أطراف السحاب التي تشبه الهدب عندما دنت كأنها فوق الحصى كسر جرار سود وخضر . وأما الثانية فهي صورة متأثرة بالبادية إلى حد بعيد ، فالسحاب هنا ناقة ذات ضرع ، وريح الجنوب إنسان يبس بالسحاب ويستدره وتنهمر الأمطار .

وقال أوس يصف البرق والسحاب والمطر: (٢)

إني أرقت ولم تأرق معي صاحي ... لمستكفٍّ بعيد النوم لواح
قد نمت عني ، وبات البَرق يسهرني ... كما استضاء يهودي بمصباح
يا من لبرق أبيت الليل أرقبه ... في عارض كمضيء الصبح لماح
دان مسف فويق الأرض هيدبه ... يكاد يدفعه من قام بالراح
كأن ريِّقه لما علا شطبا ... أقراب أبلق ينفي الخيل رماح

(١) ديوان طفيل ٧٥
(٢) ديوان أوس ١٥ - ١٧ .

هبت جنوبٌ بأعلاه ومال به ... أعجاز مزن يسحُّ الماء دلاَّح
فالتجَّ أعلاه ثم ارتجَّ أسفله ... وضاق ذرعاً بحمل الماء منصاح
كأنما بين أعلاه وأسفله ... ريطٌ منشرةٌ أو ضوء مصباح
ينزع جلدَ الحَصى أجشٌّ مبترِكٌ ... كأنَّه فاحِصٌ أو لاعبٌ داحي
فَمَنْ بنجوتِه كَمَنْ بمحفِلِهِ ... والمستكِنُّ كَمَنْ يَمْشِي بِقَرْواحِ
كأن فيه عشارا جِلَّة شُرُفاً ... شُعْثاً لها ميمَ قد همَّت بارشاحِ

هُدْلاً مشافِرُها ، بحّاً حناجرُها ... تُزْجي مرابيعَها في صَحْصَحٍ ضَاحي
فأصبح الروضُ والقيعانُ ممرعةً ... من بين مرتَفَقٍ منها ومُنْطَاحِ

وصف رائع للبرق والسحاب والمطر ، فهو يشبه البرق الذي أسهره بمصباح اليهودي ، وبالصبح المضيء ، وبأقراب الحصان الذي فيه سواد وبياض يطرد الخيل أمامه .

والسحاب دان من الأرض يكاد من قام أن يمسه ويدفعه براحته لقربه من الأرض . وقال النقاد القدامى : إنه أحسن ما وصف به السحاب .

والمطر يسح سحا من المزن المثقلة بالماء ، فصوت أعلاه وارتج أسفله وضاق ذرعاً بحمل الماء فأنزله كأن بين أسفله وأعلاه ملاءة منشرة لشدة انهمار الماء وتواصله . وكأن هذا المطر يسوق أمامه كل ما يعترضه على وجه الأرض كما تسوق المدحاة ما يعترضها . والمدحاة خشبة يدحى بها الصبى فتمر على وجه الأرض ، لا تأتي على شيء إلا أزالته . وإنَّهُ لغزارته استوى من كان في مرتفع من الأرض ومن كان في مستقر الماء ، واستوى من كان في بيته ومن كان يمشي في أرض مستوية (وقد شهدت يوماً في برية نجد تحققت فيه قول أوس إذ كان الذي في الخيمة لا يطمئن إلى النجاة من بلل المطر) وشبه السحاب الممطر بالنوق التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها والتي مشافرها هدل ، وحناجرها مبحوحة . ثم يقول : فأصبح الروض بعد هذه الأمطار ممرعاً ، والماء بين سائل يروي الأرض أو مرتفق محبوس يشرب الناس منه .

وصف الهاجرة :

ومما يواجههم في أسفارهم عبر الصحراء الهاجرة ، وهي ظرف شديد لا يستطيع أن يتصور ضراوته من لم يقاسه بنفسه وهذا كعب يصور لنا شدتها بقوله : إنها هاجرة قاتلة أسكنت الظباء كناسها ، ولم تتركها تذهب وتجيء ، بل أخلدت إلى بيوتها واضعة أذنابها بين أفخاذها تعاني الحر الشديد الذي يشبهه بموقد من النار يشويها، ويقول كأن لهذه الجبال التي تغمرها الهاجرة عمائم من السراب. قال كعب: (١)

وهاجرةٍ لا تستريدُ ظِباؤها ... لأعلامِها من السَّراب عمائمُ
تَرى الكاسعاتِ العُفْرَ فيها كأنَّما ... شَوَاها مضلاها من النارِ جَاحِمُ (٢)

***

وصف الليلة المؤلة :

قال أوس عندما كسرت رجله : (٣)

خُذِلْتُ على ليلةٍ ساهِرَهْ ... بصحراءِ شرجٍ إلى ناظِرَهْ
تُزادُ ليالِيَّ في طولِها ... فليستْ بطلقٍ ولا ساكِرَهْ
كأنَّ أطاولَ شوكِ السيال ... تَشُكّ بها مَضْجعي شَاجِرَهْ (٤)

يحدد المكان الذي كانت ليلته فيه ليلة ساهرة لا ينام صاحبها ، وهو صحراء شرج إلى ناظرة . يقول : هناك خذلت وأصابني ما أصابني . . تطول ليالي بسبب ما

---

(١) ديوان كعب ١٣٦ .
(٢) الكاسعات : التي تجعل أذنابها بين أفخاذها من الحر . العفر : اللواتي ألوانها على لون العفر وهو التراب . شواها : أنضجها . صلاها : أحرقها . الجاحم : الموقد . والجحيم : النار.
(٣) ديوان أوس ٣٤ .
(٤) الطلقة : ليلة طيبة لا حر فيها ولا برد . ساكرة : ساكنة الريح . السيال: نبت له شوك أبيض. شاجرة : امرأة طاعنة (من الطعن) .

ألقى من الألم والشدة ، وليست ليلتي بطلقة لا حر فيها ولا برد ، وليست بساكنة الريح كنت متألماً أعظم الألم فكأن امرأة تطعنني بشوك السيال .

***

ويصف الحطيئة نجوم آخر الليل فيشبه نجوم الثريا إذا انقضت للمغيب بالخزر قد انتشر فيقول :[1]

إذا ما الثريا آخرَ الليلِ أعنقَتْ كواكبُها كالجِزْعِ منحدراتِ

***

وصف النبات :

ذكرت في شعر هؤلاء الشعراء أسماء نباتات عدة ، وسنذكر بعضها في دراستنا للألفاظ. ولم يرد وصف مفصل، ومن أجل ذلك لم أستطع أن أفرد لها وصفاً مفصلاً، غير أن الحطيئة وصفه في بيتين فقال .[2]

بمستأسد القُرْيانِ حُوٍّ تِلاعُهُ فَنُوَّارُهُ ميلٌ إلى الشمسِ زاهرُه
كأنَّ سليحاً نشَّرتْ فيه بَزَّهَا بُروداً ورقماً فاتكَ البيعَ تاجرُه[3]

يقول : إن مستأسد القريان مكان طال فيه النبات وتكاثف واشتدت خضرته حتى ضربت إلى السواد ، وزهره مائل نحو الشمس . وقد شبه ألوان الزهر الأحمر منه والأصفر والأبيض بالبرود والرقم التي نشرها تجار يوم نشروا بزهم ليعرضوها للبيع . . . وقد جدّوا في بيعها.

***

(١) ديوان الحطيئة ٣٣٢ .
(٢) ديوان الحطيئة ١٨٠ .
(٣) استأسد النبات : إذا طال وتمّ . القريان : مجاري الماء إلى الرياض. الحو : التي قد اشتدت خضرتها حتى ضربت إلى السواد . والتلاع : مسيل الماء إلى الوادي . النوار : الزهر . سليح : حي من قضاعة . فاتك البيع : جد في البيع واستكثر من التجارة .

وصف النار :

قال طفيل : [1]

ومُشْعَلَةٍ تخالُ الشمسَ فيها بُعَيْدَ طلوعِها تحتَ الحِجابِ

يشبه النار بالشمس بعيد طلوعها وهي صورة رآها في أفق البادية الصافي .

***

وصف الهودج :

قال الحطيئة : [2]

يُعالينَ رَقْماً فوقَ عَقْمٍ كأنه دمُ الجوفِ يجري في المزارع واشلِه[3]

يريد أن الهوادج أسدلت على الإبل حتى بلغت المذارع فكأنها دم يسيل عليها .

***

وصف بيت :

ونختم هذه الأمور المتفرقة بوصف البيت لطفيل الذي أثنى عليه النقاد يقول : [4]

وبيتٍ تَهُبُّ الريحُ في حجراتِهِ بأرضِ فضاءٍ بابُه لم يُحَجَّبِ
سَمَاوتُه أسمالُ بُرْدٍ محبَّرٍ وصهوتُهُ من أتحميٍّ معصّبِ
وأطنابُهُ أرسانُ جُرْدٍ كأنها صدورُ القَنا من بادىءٍ ومعقّبِ

(١) ديوان طفيل ١١٣ .
(٢) ديوان الحطيئة ٢٣٩ .
(٣) العقم : المرط الأحمر أو ضرب من ثياب الهودج موشى . المذارع : جمع مذرعة وهي ما فوق ركبة البعير . الواشل : القاطر (فوق القطر ودون السيلان) .
(٤) ديوان طفيل ١٩ .

البَابُ الثّالِث

الصّورَة الفنّية فى الوَصف

الفصل الأول

الألفاظ

لا نستطيع أن ندرس الألفاظ في شعر الوصف عند عبيد الشعر دون أن نشير إلى أنّ لغة أدبية عامة كانت قد شاعت في العصر الجاهلي ، وقد تغلبت على اللهجات الكثيرة التي كانت في بعض القبائل العربية ، ويبحث الدارسون اليوم(١) بقايا هذه اللهجات ، ويعنون بالاستدلال بما في اللهجات العامية المستعملة في بعض مناطق الجزيرة على هاتيك اللهجات لتحديد نسبتها إلى القبائل التي تتكلم بها وتقعيدها . لن نعرج ههنا على شيء من ذلك ، ويكفينا أن نقرر أنّ اللغة التي طالعتنا في دواوين هؤلاء الشعراء من اللغة الأدبية التي سادت أواخر العصر الجاهلي .

ولا عجب أن يكون ذلك وشعراؤنا هؤلاء قوم صنعة انصرفوا إلى الشعر وتعبّدوا له . وأودّ أن أشير إلى أن دراستي للألفاظ محصورة في موضوع الرسالة وهو الوصف . وسأبحث الموضوعات الآتية :

الغرابة ، والطاقة الموسيقية للكلمة والجملة والبيت وقد أشير إلى بعض ما واجهت في شعرهم من زحافات قبيحة أثّرت بعض التأثير في موسيقى البيت ، ودلالة الألفاظ على البيئة واتصالهم بالحضارة ، والألفاظ الدخيلة ، والإكثار من أسماء الأمكنة وعلاقاتهم اللغوية فيما بينهم .

أما الغرابة فمن المستحسن أن نقف على ما قرره علماء البلاغة في هذا

(١) ويهتم بذلك كثيراً مستشرقون يفرضون على بعض طلاب الدراسات العليا الذين يؤمونهم دراسة جوانب من هذا الموضوع ، وأنني لارتاب من كثير من هذه الجهود . هذا وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى بعض البحوث في ذلك في كتابه « العصر الجاهلي » ١٢١ .

الموضوع ، فقد ذكروا أنه ليس كل غريب قبيحاً ، وإنما القبيح هو ما جمع مع الغرابة قبح التأليف .

قال ابن سنان تعليقاً على كلمتي (تكأكأ وافرنقع) : « وقد جمع لعمري العلتين قبح التأليف الذي يمجه السمع والتوعر ، وما أكثر ما تجتمع العلتان في هذا الجنس » .[1]

وقال : « ويوجد هذا الجنس في شعر العجاج وابنه رؤبة كثيراً ، ومنه قول بعضهم : فشحا جحافله جراف هبلع » .[1]

ونقل كلمة أبي العتاهية لمحمد بن مناذر : « إن كنت أردت بشعرك شعر العجاج ورؤبة فما صنعت شيئاً ، وإن كنت أردت أهل زمانك فما أخذت مأخذنا ، أرأيت قولك : ومن عاداك لاقى المرمريسا .

أيّ شيء المرمريس : »[2]

ثم جاء ابن الأثير فزاد هذا الموضوع وضوحاً فقال :

« وقد خفي الوحشي على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر وظنوه المستقبح من الألفاظ . بل الوحشي ينقسم إلى قسمين :

أحدهما غريب حسن ، والآخر غريب قبيح .

وذلك أنه منسوب إلى اسم الوحش الذي يسكن القفار وليس بأنيس ، وكذلك الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال . وليس من شرط الوحش أن يكون مستقبحاً بل أن يكون نافراً لا يألف الانس ، فتاره يكون حسناً وتارة يكون قبيحاً .

وعلى هذا فإن أحد قسمي الوحشي ـ وهو الغريب الحسن ـ يختلف باختلاف النسب والإضافات . وأما القسم الآخر من الوحشي الذي هو قبيح فإنّ الناس في استقباحه سواء ، ولا يختلف فيه عربيّ باد ولا قروي متحضر . وأحسن الألفاظ ما

(١) سرّ الفصاحة : ٧٠
(٢) سرّ الفصحة : ٧٢ .

كان مألوفاً متداولاً لأنه لم يكن مألوفاً متداولاً إلا لمكان حسنه . . .

فالألفاظ إذن ثلاثة أقسام : قسمان حسنان وقسم قبيح .

فالقسمان الحسنان : أحدهما ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زمننا هذا ولا يطلق عليه أنه وحشي . والآخر ما تداول استعماله الأول دون الآخر ، ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله ، وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب لأنه لم يكن عندهم وحشياً ، وهو عندنا وحشي » .[1]

فالغريب إذن نادر في شعر هؤلاء ، لأننا قلما نجد في شعرهم ذاك الغريب الذي خالفوا فيه أهل زمانهم وكان فيه قبح التأليف .

وهناك أمر آخر يشترك فيه شعراؤنا مع غيرهم وهو أن الموضوع يفرض لغة معينة ، فيقل الغريب في الغزل والحكمة ، وحكم زهير المستفيضة مثال واضح على ذلك ، وإليك بيتاً له لم يشتهر شهرة حكم معلقته يقول فيه :[2]

فقرِّي في بلادك إن قوما متى يدعوا بلادهم يهونوا

وكذلك قول أوس :[3]

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا أصبت حليماً أو أصابك جاهل

أما الوصف ـ وهو موضوع بحثنا ـ فكأنه يقتضي لغة يكثر فيها الغريب .

ولعلّ بعدنا عن بعض الموصوفات يجعلنا نحس غرابة الكلمات المستعملة في وصفها ، ذلك لأن استخدام الشيء والاتصال به يشيع أسماء أجزائه وأذكر أنني شكوت من غرابة بعض أسماء الأسلحة وأجزائها وكلها عربية منتقاة عندما درستها ، ولكنها عند الذين يستعملونها ويألفونها معروفة شائعة .

---

(١) المثل السائر ١ / ١٥٥ ـ ١٥٦ .
(٢) ديوان زهير ١٩٢ .
(٣) ديوان أوس ٩٩ .

والغرابة أمر نسبي ، ولا يكون الحكم سليماً إذا جعلنا المقياس ما هو شائع اليوم في لغتنا الفصحى .

وقد وجدت أكثرهم غريباً بالمفهوم الذي ذكرنا أوس بن حجر فهو يقول : (١)

جمالية للرحل فيها مقدم ... أمون وملقى للزميل ورادف
يشيعها في كل هضب ورملة ... قوائم عوج مجمرات مقاذف
توائم ألاف توال لواحق ... سواه لواه مربذات خوانفُ
يزل قتود الرحل عن دأياتها ... كما زلّ عن رأس الشجيج المحارف

وكذلك نجد في شعر زهير الوصفي كثيراً من الغريب المستحسن، فمن ذلك قوله : (٢)

معصوصبات يبادرن النجاء بنا ... إذا ترامت بها الديمومة الجدد
عوم القوادس قفى الأردمون بها ... إذا ترامى بها المغلولب الزبد

والحق أنه لا تكاد تخلو قصيدة وصفية عندهم من غريب ، ولو تأملنا أبيات أوس لرأينا أنها زاخرة بإيقاع موسيقيّ محبب.

وقد يكون للتعمل والصنعة دخل في وجود هذا الغريب وحسنه ، فلم يكن يروقهم أن يخلو شعرهم من أثر الصنعة حتى في الغريب .

وكذلك قول زهير في وصف المرأة : (٣)

بردية في الغيل يغذو أصلها ... ظل إذا تلع النهار وماء
أو بيضة الأدحيّ بات شعارها ... كنفا النعامة جؤجؤ وعفاء

---

(١) ديوان أوس ٦٥ .
(٢) ديوان زهير ٢٨٠ .
(٣) ديوان زهير ٣٤٠ .

وكذلك قول طفيل : [1]

كأن الرعاث والسلوس تصلصلت على خششاوى جأية القرن مغزل

ولاحظت أن هناك كلمات غريبة إذا قسناها بالفصيح المستعمل اليوم . . ولكنّها ما تزال مستعملة في بعض اللهجات العامية في البلاد العربية . فمن ذلك كلمة (فنّك) الواردة في قول أوس : [2]

ودع لميس وداع الصارم اللاحى إذ فنكت في فساد بعد إصلاح

فقوله (فنكت) أي لجت في الشر وألحت . وهذه الكلمة مستعملة بهذا المعنى في عامية بلدي دمشق .

ومن ذلك كلمة (الشراسف) الواردة في قول أوس : [3]

وحلأها حتى إذا هي أحنقت وأشرف فوق الحالبين الشراسف

فقوله (الشراسف) أي أطراف الأضلاع . وهي مستعملة بهذا المعنى في عامية دمشق غير أنهم يقلبون الشين سيناً ، وهذا عندهم كثير ، حتى إنهم ليفعلون ذلك في كلمتي (الشمس) و (الشجرة) .

ولهذا دلالة لغوية ليس الموضوع محل بسطها .

***

والموسيقى الحلوة الموفقة صفة أساسية من صفات الجودة في الأسلوب وهي أمر يرتبط بالموهبة والأذن المرهفة ، والذوق السليم .

فاختيار الكلمات موهبة ، واستحسان الحسن منها واستنكار القبيح منها متصل بالأذن الموسيقية الحساسة .

(١) ديوان طفيل ٦٣ .
(٢) ديوان أوس ١٣ .
(٣) ديوان أوس ٦٨ .

وموسيقى البيت والقصيدة تعود إلى أمور عدة ، منها ما يتعلق بالكلمة وبالجملة وبالبيت . . ثم بالقصيدة .

فالموسيقى الداخلية للكلمة أصل يعتمد على حروف الكلمة الواحدة ، فإذا كان هناك انسجام في أصوات الحروف وإيقاعها وتعاطف بين اللفظ والمعنى بلغت الموسيقى الداخلية للكلمة ذروتها .

ولننظر إلى كلمة (تستبيك) في قول زهير يصف عنق سلمى :(١)

إذ تستبيك بجيد آدم عاقد يقرو طلوح الأنعمين فثهمد

أكاد أحسب أن موسيقى هذه الكلمة تساعد على تصوير المعنى وتقريبه أو كلمات بيت كعب :(٢)

أرجو وآمل أن تدنو مودتها وما إخال لدينا منك تنويل

وتبدو هذه الموسيقى المحببة حتى في الكلمة التي يظن أن في حروفها بعداً عن الإيقاع الموسيقي الموفق مثل كلمة (جآذر) انظر إليها في بيت زهير كيف بدت :(٣)

تعتاده عين ملمعة تزجي جآذرها مع الأدم

وموضوع انسجام الحروف وعدم تنافرها موضوع استلفت أنظار علماء البلاغة الأقدمين ، وقد ذكروا أسباباً عدة للانسجام وردّ بعضهم على بعض .(٤)

والأمر النصف الذي لا شك فيه أن تمتّع الكلمة بجرس موسيقى رائع يجعلها تنساب حروفها على اللسان انسياباً وترتاح الأذن لسماعها وهو أمر ذوقي يحكم به الذوق والحساسية .

وليس من ريب في أن لاجتماع الحروف بعضها إلى بعض دخلا في ذلك ولكنه

---

(١) ديوان زهير ٢٦٩ .
(٢) ديوان كعب ٩ .
(٣) ديوان زهير ٣٨٢ .
(٤) انظر سرّ الفصاحة لابن سنان ٦٦ و « المثل السائر » لابن الأثير ١ / ١٥٢ الذي ردّ عليه .

ليس تقارب مخارج الحروف ولا تباعدها كما بينّ ذلك بتفصيل ابن الأثير .[1]

أما الموسيقى الداخلية للجملة والبيت فتبدو لك من ترديد هذه الجملة أو البيت أكثر من مرة ، ومن انسجام إيقاع الكلمات مجتمعة ، ومن توزيع المدود على وجه يورث الكلام نغماً محبباً .

ذلك لأن الكلمة قد تكون مقبولة في ذاتها ولكنها عندما تجتمع مع كلمات أخر يحصل تنافر بينها ، ونبولها عن الأذن واستثقال للنطق بها . وقد ضربوا لذلك مثلاً مشهوراً وهو البيت :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

وشعراؤنا في قصائدهم الوصفية التي درسناها بل في شعرهم عامة كانوا يمتازون بقدرة كبيرة على الإتيان بشعر موسيقي جميل . ولو قرأنا هذه الأبيات لطفيل لأحسسنا بروعة موسيقاها التي تجعل الكلمات تتراقص على أطراف ألسنتنا :[2]

وبيت تهب الريح في حجراته بأرض فضاء بابه لم يحجب
سماوته أسمال برد محبّر وصهوته من أتحمّى معصب
وأطنابه أرسان جرد كأنها صدور القنا من بادىء ومعقب

فأنت لا ترى ازدحاماً بحرف ثقيل فيها ، ولا انتقالاً من إيقاع إلى إيقاع وتوزيعاً للنفس متوازناً .

وليس من شك في أن لبعض البحور إيقاعاً أكثر غنى بالطاقة الموسيقية من الأخرى . كما أننا نجد في بعض الأحيان ترصيعاً وتقسيماً للجمل في البيت يساعد على توزيع الانسان نفسه وإلقاءه مما يجعل قراءة البيت تؤدي لحناً معيناً . فمن ذلك قول كعب :[3]

هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول

(١) انظر « المثل السائر » ١ / ١٥٣ .
(٢) ديوان طفيل ١٩ .
(٣) ديوان كعب ٩ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقول أوس :[1]

توائم ألاف ، توال لواحق سواه لواه ، مربذات خوانف

وعناية شعرائنا بالتهذيب والتنقيح صانت شعرهم عن عيوب تفسد موسيقاه ، فلا نجد عندهم الإقواء الذي نجده عند النابغة .

وقد تعرض زهير في بيت لقريب من الإقواء ، ولكنّ حسّه الموسيقى جعله يرتكب مخالفة نحوية ، وجاء اللغويون والنحويون فذكروا المسوغ قال زهير :[2]

على لاحب مثل المجرة خلته إذا ما علا نشزا من الأرض مهرق
منير هداه ، ليله كنهاره جميع إذا يعلو الحزونة أفرق

فكلمة (مهرق) في البيت الأول مفعول ثان لخلت ، وجاء النحويون فقالوا : أنه حرك بالضم لضرورة القافية ، وقالوا : وسوغ له ركوب هذه الضرورة البعد بين العامل والمعمول .

ووجدت أوسا ارتكب زحافاً قبيحاً أثر في موسيقى البيت تأثيراً يجعل المرء يحسب بادى الرأي أنه مكسور ، وذلك في قوله :[3]

ولا محالة من قبر بمحنية وكفن كسراة الثور وضّاح

ففي هذا البيت زحاف قبيح وهو تغيير (مستفعلن) إلى (فعلتن) في البحر البسيط .[4] وهذا ما حصل في قوله (وكفن) ووزنها (فعلتن) .

***

وللألفاظ التي استعملوها دلالات على البيئة والوسط الذي كانوا يعيشون

(١) ديوان أوس ٦٤ .
(٢) ديوان زهير ٢٥٧ .
(٣) ديوان أوس ١٤ .
(٤) انظر « الثريا المضية » لمصطفى الغلاييني ٢٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فيه، ومن النظر في هذه الألفاظ نستنتج أن شعراءنا كانوا بداة ، وأن البادية عميقة التأثير فيهم .

وقد رأينا أن أحدهم ذكر بأن سكنى القرى والبعد عن البادية أمرض دابته ،[1] وهو بهذا يصور ما في أعماق نفسه .

وتصوير الانتجاع والارتحال في سبيل الكلأ ووصف الخيمة والأمطار والحيوان الأهلي من ناقة وفرس والوحشي من مها ونعام وما إلى ذلك . . كل أولئك يصور لنا البيئة البدوية التي كان يحيا في كنفها هؤلاء الشعراء والاستشهاد بها ميسور لأن كل صفحة من أي ديوان فيها أكثر من بيت ينبىء عن هذه الحقيقة .

وهذه الحياة البدوية التي تقوم على الرمال وفي الفيافي موصولة الأسباب بأنواع الحضارة ، ففي ألفاظ شعرهم وجمله تصوير للعادات الاجتماعية ولصنوف الملابس والزينة .

ففي الزينة ذكر طفيل الرعاث والسلوس[2] وذكر أن الحليّ مصنوع من الخرز[3] وأن صاحبة الشعر تتعهد شعرها يومياً بالدهان .[4]

وذكر زهير من الحلي الدملج[5] واللؤلؤ .[6]

وذكر كعب الجمان[7] والمرآة واستخدامها في الزينة وأن المرأة الحاذقة تتعهد هذه المرآة بالمسح والتنظيف لترى فيها ما تخفي عن زوجها من العيوب وما تبرزه من المحاسن[8] والعباءة .[9]

---

(١) ديوان أوس ٤١ .
(٢) ديوان طفيل ٦٣ .
(٣) ديوان طفيل ٦٤ .
(٤) ديوان طفيل ٦٥ .
(٥) ديوان زهير ٣٢١ .
(٦) ديوان زهير ١٤٨ .
(٧) ديوان كعب ١٦٤ .
(٨) ديوان كعب ٤٠ ـ ٤١ .
(٩) ديوان كعب ١٨٥ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتحدث الحطيئة عن المرآة[1] والحلي والطيب[2] واللؤلؤ والشنوف[3] والانتقاب[4] والمجاسد ـ وهي الثياب المشبعة من الزعفران ـ[5] والخمار وأن المرأة كانت تلبسه[5]

***

ومن العادات التي دلتنا عليها الألفاظ والجمل أنهم كانوا يعمدون إلى تجفيف الأقط فيضعونه على نطع وأن الملح يجف عليه كما ذكر طفيل .[6]

ومن العادات التي وقفنا عليها من النظر في ألفاظهم أنهم كانوا إذا قلّ الماء في بئر نزل رجل يستقى منه ويسمى المائح ويكون ثوبه مبللاً دائماً .[7] ومن هذه العادات صنيعهم بالناقة البلية التي ذكرها كعب[8] وهي الناقة التي تعقل على قبر صاحبها ولا تعلف ولا تسقى حتى تموت ويعكس رأسها إلى ذنبها وتربط يداها ورجلاها .

وأورد الحطيئة تشبيهاً ينبىء أن القبر كان عندهم بارزاً[9] ويؤيد وجود هذه العادة الحديث الآمر بتسوية القبور .[10]

ومن هذه العادات ما يتخذونه من ألعاب لأولادهم فقد ذكروا طائفة من هذه

---

(١) ديوان الحطيئة ٢١٦ .
(٢) ديوان الحطيئة ٣٠٠ .
(٣) ديوان الحطيئة ٢٥٦ و ٣٦٣ .
(٤) ديوان الحطيئة ١٢١ .
(٥) ديوان الحطيئة ٣٠٠ .
(٦) ديوان طفيل ٢٤ .
(٧) ديوان طفيل ٢٧ .
(٨) ديوان كعب ١٨٨ .
(٩) ديوان الحطيئة ٣٦٦ .
(١٠) صحيح مسلم طبعة عبد الباقي ٢ / ٦٦٦ ـ ٦٦٧ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الألعاب كالخذاريف[1] والزحاليف[2] والمريخ[3] والدمى .[4]

ومن ذلك ما جاء في قول زهير :[5]

حونية كحصاة القسم مرتعها بالسّى ما تنبت القفعاء والحسك

ففيه تسجيل لعادة اجتماعية ، فقد كانوا إذا قل مع المسافرين الماء عمدوا إلى حصاة تدعى (حصاة القسم) فوضعوها في إناء ثم صبوا عليها الماء حتى يغطيها ، ولا تكون إلاّ ملساء مجتمعة ، فيشربه الواحد ، ثم يصب أيضاً كذلك فيشرب الآخر وهلم جراً ، فالحصاة يقسم عليها الماء ولا يكون فيها غبن لأحد ، بل ينال كل واحد منهم بقدر صاحبه .

ومن العادات التي تدل عليها ألفاظ شعرهم الوصفي أنهم كانوا يأتون بالقطران المعقود على قدر ، وقد يخلطونه بالبول ، ويطلون به الإبل الجرباء[6] ومن عاداتهم في معالجة الخيل أن يقطعوا أباجلها للمداواة أو يخرقوا صفاقها بمنقبة .[7]

ومن عاداتهم أنهم كانوا يمتارون لأهليهم ، فقد ذكر الحطيئة الميار .[8]

ومما تدل عليه ألفاظهم ما كان يسود عندهم من اعتقادات كإيمانهم بالجن[9] .

وما ينتاب بلادهم من كوارث وأحوال كغزو الجراد .[10]

ومن عاداتهم ما جاء في شعر أوس :[11]

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهول حالف

---

(١) ديوان طفيل ٢١ ـ ٢٢ .
(٢) ديوان طفيل ٢٤ .
(٣) ديوان أوس ٦١ .
(٤) ديوان الحطيئة ٣٠٠ .
(٥) ديوان زهير ١٧١ .
(٦) ديوان أوس ٦٤ .
(٧) ديوان زهير ١٢٧ .
(٨) ديوان الحطيئة ٣٣٣ .
(٩) ديوان كعب ١١٣ .
(١٠) ديوان الحطيئة ٣٠٢ .
(١١) ديوان أوس ٦٩ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وجاء في المعاني الكبير : (كانوا يحلفون بالنار ، وكانت لهم نار يقال إنها كانت بأشراف اليمن لها سدنة ، فإذا تفاقم الأمر بين القوم فحلف بها انقطع بينهم . وكان اسمها هوله والمهوله ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيَّبه من الحلف بها ، ولها قيم يطرح فيها الملح والكبريت فإذا وقع فيها استشاطت وتنقضت فيقول : هذه النار قد تهددتك . فإن كان مريباً نكل ، وإن كان بريئاً حلف) .

ونجد في ألفاظهم مايدلنا على أشياء مهمة في شؤون الزراعة والمياه عندهم : فمن ذلك ما ذكر طفيل من أن الفسيل يكمكم عادة ليوقى من الحر والبرد والجراد .[1]

وذكر أوس القطن المحلوج .[2]

وذكر زهير طريقة السقي على الناقة التي تسير وخلفها سائق ،[3] وذكر أيضاً الآبار وتعرضها للنضوب .[4]

ووردت في أشعارهم أسماء كثير من الشجر ولاسيما النخيل[5] والدوم .[6]

وقد ذكر بعض النباتات من أمثال المغد[7] وهو نبات يشبه القثاء ، واللصق [8] وهو نبات يشبه الخيار والشري[9] وهو شجر الحنظل ، والتنوم[10] وهو نبات ترعاه الإبل . والأرطى[11] والقفعاء[12] وهي بقلة من أحرار البقل .

وذكروا العرار والخلى وهو الرطب من الحشيش .

---

(١) ديوان طفيل ٧٢ .
(٢) ديوان أوس ٦٤ .
(٣) ديوان زهير ٣٧ .
(٤) ديوان زهير ٣٦٩ .
(٥) ديوان زهير ٢٩٤ وديوان كعب ١٩١ .
(٦) ديوان زهير ١١٨ .
(٧) ديوان كعب ٨٤ .
(٨) ديوان كعب ٨٤ .
(٩) ديوان كعب ٨٤ .
(١٠) ديوان كعب ٨٤ .
(١١) ديوان كعب ١٦٤ .
(١٢) ديوان زهير ١٧١ .

وذكروا عادة تشذيب السعف[1] وهو مما ينفع شجر النخيل . كما تحدث كعب عن مجاري الماء[2] وفي استعمالهم لبعض الألفاظ ما ينبىء عن معرفتهم لألوان من العمران ، فزهير يذكر الفدن[3] وهو القصر المشيد ، وبنيان القرئي[4] وكعب يذكر القصر يطين من خارجه[5] والحطيئة يورد في تشبيه له سواري القصر .[6]

وفي استعمالهم لبعض الألفاظ تعديد لبعض أنواع اللهو كالطرب[7] وغناء السكارى .[8]

- وفي ألفاظهم ما يدل على معرفتهم لأمور تتصل باليهودية والنصرانية والمجوسية : فأوس يذكر اليهود ويقول :[9]

قد نمت عني وبات البرق يسهرني كما استضاء يهودي بمصباح

ويذكر عيد الفصح عند النصارى وبأنهم يوقدون فيه النيران وبأن الملك ذاته يوقد المصباح وأن ناره تكون شديدة التوقد ، ذكر ذلك عندما أراد أن يشبه لمعان السنان بالمصباح فقال :[10]

عليه كمصباح العزيز يشبّه لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

والحطيئة يذكر النصارى وصلاتهم فيقول :[11] :

بها العين يحفرن الرخامى كأنها نصارى على حين الصلاة سجود

---

(١) ديوان كعب ٨٠ و ٢١٧ .
(٢) ديوان كعب ١٩٤ .
(٣) ديوان زهير ٣٧١ .
(٤) ديوان زهير ٢٥٧ .
(٥) ديوان كعب ٥٢ .
(٦) ديوان الحطيئة ٣٦٦ .
(٧) ديوان طفيل ٤٣ .
(٨) ديوان طفيل ٦٤ وديوان الحطيئة ١٥٥ .
(٩) ديوان أوس ١٥ .
(١٠) ديوان أوس ٨٤ .
(١١) ديوان الحطيئة ٣٦٣ .

وكعب يذكر المجوس ويشبه صوت الطيور بكلام المجوس الذي لا يكون إلا زمزمة لا تفهم .[1]

ويذكر كعب العجم والنوبي والحبشي فقال يذكر العجم وقراءتها :[2]

يسقين طلسا خفيات تراطنها كما تراطن عجم تقرأ الصحفا

ومن ظلال هذا البيت أنّ القراءة في العجم أما العرب فأميون .

وذكر الحبشيين[3] والنوبية .[4]

أما الألفاظ الإسلامية في شعرهم فهذا موضوع يستحق أن يفرد بالبحث ، وذكره بالتفصيل قد يخرج بنا عن حدود البحث المرسومة . وتعليل وجود ألفاظ إسلامية في شعر طفيل وأوس وزهير ـ على فرض صحة هذا الشعر ـ أن ذلك من بقايا الحنيفية التي كانت في العرب .

وأما كعب والحطيئة فقد أسلما وعايشا الإسلام حيناً من الدهر فلا يستغرب أن نجد في شعرهم ألفاظاً إسلامية ، بل المستغرب عكس ذلك . وإن كانت البداوة وطبيعة الألفاظ الجاهلية هي الغالبة عليهما .

ومن الألفاظ الاسلامية ما جاء في قول الحطيئة .[5]

أنا بت إلى جنات عدن نفوسهم وما بعدها للصالحين حتوف

وفي شعر كعب من ذلك الكثير ولاسيما في قصيدته اللامية[6] ومدحه للأنصار[7] وفي حكمه .[8]

---

(١) ديوان كعب ١٩٤ .
(٢) ديوان كعب ٧٧ .
(٣) ديوان كعب ٨٦ .
(٤) ديوان كعب ١١٩ .
(٥) ديوان الحطيئة ٢٥٧ .
(٦) وهي بانت سعاد وانظرها في الديوان ٦ ـ ٢٥ .
(٧) ديوان كعب ٢٥ ـ ٤١ .
(٨) ديوان كعب ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٥٧ .

وهناك في شعرهم ألفاظ تدل على معرفتهم لأمور تتصل بالبحر ، ففي شعر زهير كلمات بحرية كالسفين والنوتي ،[1] وكذلك فإن كعبا يشبه الظعائن بالسفن [2] وفي شعرهم ألفاظ تدل على معرفتهم لبعض الصناعات . فقد ذكر كعب الجلد المدبوغ[3] وذكر زهير الإبر[4] والحطيئة كير الحداد .[5]

وذكروا مثقف الرماح وآلته التي يستخدمها وهي الثقاف وهي الة من خشب تسوى بها الرماح فقال كعب :[6]

يعضضهنّ عضيض الثقا ف بالسمهرية حتى تلينا

وذكر زهير مرض الجدري ودعاه بالنبخ .[7]

***

ومما يتصل بالألفاظ أننا رأينا هؤلاء الشعراء يكثرون من ذكر أسماء الأمكنة ، وهذه الظاهرة ليست خاصة بشعراء مدرستنا غير أنهم يتميزون بالإكثار من ذكرها .

وتدل هذه الظاهرة على واقعية أشعارهم فعندما يتحدث الشاعر عن أطلال وقف عليها ويحددها ويسميها فكأنه يقيم دليلاً على أن حديثه هذا واقعي .

هذا وقد لمست من دراستي أن عدداً من هذه الأماكن ورد في شعر غير واحد من هذه المدرسة .

---

(١) ديوان زهير ١١٨ .
(٢) ديوان كعب ١٩١ .
(٣) ديوان كعب ٢٣٦ .
(٤) ديوان زهير ٣١٣ .
(٥) الحطيئة ٣٧٧ .
(٦) ديوان كعب ١٠٤ .
(٧) ديوان زهير ٢٤٩ .

وذكر هذه الأماكن يتيح لمن شاء أن يقوم بدراسة جغرافية تحدد أمكنة هؤلاء الشعراء بدقة .

ووجدت أوسا أكثرهم إيراداً لها فمثلاً في الصفحة الأولى من الديوان تطالعنا وفرة من أسماء الأمكنة : (ربب ـ الغمر ـ المرين ـ الشعب ـ قسا) .

ولا تكاد تقلب الديوان على صغره دون أن تقع عينك على اسم موضع .

ومن المواضع التي ذكرها أوس القرنتان[١] ووادي تبالة[٢] وكبكب واللبين[٣] وأنبط[٤] ومأفقة والقطقطانة والبرعوم[٥] والشيطين.[٦] .

وطفيل يذكر أسماء أمكنة منها :

جفن ينبنم[٧] والال[٨] وعكّاش الهبابيد[٩] والأحفى ودمخ[١٠] والبردى[١١] .

وأريك ووائل[١٢] وما وان وذا عاج[١٣] ووقط[١٤] وضلفع[١٥] ويلملم[١٦] وسميحة.[١٧] وزهير يذكر أسماء كثيرة منها:

---

(١) ديوان أوس ٦ .
(٢) ديوان أوس ٧ .
(٣) ديوان أوس ٧ .
(٤) ديوان أوس ٢ .
(٥) ديوان أوس ٤٢ ـ ٤٣ .
(٦) ديوان أوس ٦٧ .
(٧) ديوان طفيل ٧٢ .
(٨) ديوان طفيل ٧٤ .
(٩) ديوان طفيل ٨٣ .
(١٠) ديوان طفيل ٨٣ .
(١١) ديوان طفيل ٨٤ .
(١٢) ديوان طفيل ٤٣ .
(١٣) ديوان طفيل ٤٣ .
(١٤) ديوان طفيل ١٠٣ .
(١٥) ديوان طفيل ١٠٣ .
(١٦) ديوان طفيل ٧٩ .
(١٧) ديوان طفيل ٢٤ .

جرثم[١] والعليا[٢] ووادي الرس[٣] والقنان[٤] والسوبان[٥] والدهناء[٦]وأبان .[٧]

والاشراف[٨] وقطن[٩] وفيد[١٠] والغمرين[١١] والرقمتين[١٢] وقنة الحجر[١٣] والرس والرسيس[١٤] ولينة .[١٥].

وكعب يذكر الحزن[١٦] ولية[١٧] وسيحان[١٨] والأخداديد[١٩] واللوى[٢٠] وسميحة[٢١] وحفير[٢٢] والقنان[٢٣] والذناب[٢٤] والسعد[٢٥] وتثليث[٢٦] ورهمان[٢٧] والرقمتين[٢٨] والرجا والأفاريح[٢٩] وأمها دعامر [٣٠].

والحطيئة يذكر ذا مرخ[٣١] ووجرة[٣٢] وناظرة[٣٣] وذا طوالة[٣٤] والشيطين[٣٥]

---

(١) ديوان زهير ٩ .
(٢) ديوان زهير ٩ .
(٣) ديوان زهير ١٠ .
(٤) ديوان زهير ١٢٦ و ٢٩٢ .
(٥) ديوان زهير ١٢ .
(٦) ديوان زهير ٥ .
(٧) ديوان زهير ٣٥٥ .
(٨) ديوان زهير ١١٩ .
(٩) ديوان زهير ١١٩ .
(١٠) ديوان زهير ٣٦٩ .
(١١) ديوان زهير ١٤٥ .
(١٢) ديوان زهير ٤
(١٣) ديوان زهير ٨٦ .
(١٤) ديوان زهير ١٢٦ .
(١٥) ديوان زهير ٣٥ .
(١٦) و (١٧) و (١٨) ديوان كعب ١٩١ .
(١٩) و(٢٠) ديوان كعب ١٩٣ .
(٢١) ديوان كعب ٥٢ .
(٢٢) و (٢٣) و (٢٤) و(٢٥) ديوان كعب ١٨١ .
(٢٦) ديوان كعب ٢٠٧ .
(٢٧) و (٢٨) ديوان كعب ٦١ .
(٢٩) ديوان كعب ٢٤٣ .
(٣٠) ديوان كعب ٢٤٤ .
(٣١) ديوان الحطيئة ٢٠٨ .
(٣٢) ديوان الحطيئة ١٦٦ .
(٣٣) ديوان الحطيئة ١٦٦
(٣٤) ديوان الحطيئة ١٤٨ .
(٣٥) ديوان الحطيئة ٣٧٦ .

وقرابين[1] ولوى زرود[2] والجريب[2].

***

أما الألفاظ الدخيلة في شعرهم الوصفي فهي في حدود مفردات لغة عصرهم ، فلا نجد عندهم شيئاً خاصاً بهم .

فقد دخلت اللغة العربية مفردات من اللغات الأجنبية المجاورة كالفارسية والرومية والحبشية واستعملها العرب ، فهي معربة من حيث أصلها ، لكنها عربية من حيث الاستعمال كما قرر ذلك علماء اللغة[3] ولكنهم عندما عربوها نفخوا فيها من روحهم العربية فما أكثر ما نجد في أشعارهم من كلمات معربة من أمثال (الدينار والدرهم والمرزبان والخوان . .) وما إلى ذلك .

ومن الكلمات المعربة التي وردت في شعر أوس (رزدق)[4] ومعناها السطر من النخيل (وهي معرب رسته) ومما ورد في شعر زهير (المهرق)[5] ومعناها الصحيفة البيضاء .

***

وأما علاقاتهم اللغوية فيما بينهم فقد كانت على أتم ما تكون توثقاً وتشابهاً وقد انتبه إلى مثل هذه العلاقة طه حسين الذي يقول :

(على أنهم لم يكونوا يكتفون بتقليد أوس واقتفاء أثره ، بل استعاروا منه طائفة من المعاني والألفاظ استعارة ظاهرة لا تحتمل شكا ، وحتى لكأن هذه المعاني

(١) ديوان الحطيئة ٣١٦ .
(٢) ديوان الحطيئة ٣٧٦ .
(٣) المزهر للسيوطي ١ / ٣٦٨ - ٢٩٤ وانظر في ذلك الاشتقاق والتعريب لعبد القادر المغربي . والمعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم للجواليقي تحقيق أحمد شاكر . وفقه اللغة وعلم اللغة لعلي عبد الواحد وافي . وفصول في فقة العربية رمضان عبد التواب . وشفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجي .
(٤) ديوان أوس ٧٧ .
(٥) ديوان زهير ٢٥٧ .

والألفاظ كانت قد أصبحت حظاً شائعاً للمدرسة كلها) .[1]

وهذه الملاحظة صحيحة لكنها ليست خاصة بأوس ، بل بكل شاعر من شعراء هذه المدرسة ، فطفيل وزهير مثل أوس بالنسبة لكعب . والجميع مثل أوس بالنسبة للحطيئة ، ولقد سبق أن مرّ بنا في دراستنا التفصيلية كثير من الأمثلة على هذه الاستفادة التي تؤكد اجتماعهم على نهج واحد وانضمامهم إلى مدرسة واحدة .

فقد يستعير أحدهم من الآخر جملة كما فعل الحطيئة[2] عندما استعار (تخدى على يسرات) من كعب .[3]

وقد يستعير أحدهم أكثر من جملة كما فعل الحطيئة أيضاً عندما استعار قول أوس :[4]

كأني كسوت الرحل أحقب قاربا له بجنوب الشيطين مساوف

فقال الحطيئة :[5]

وكأن رحلي فوق أحقب قارح بالشيطين نهاقه تعشير

وقد يستعير أحدهم شطراً كما فعل كل من زهير[6] وكعب[7] عندما استعار كل منهما شطر طفيل[8] وهو : تبصر خليلي هل ترى من ظعائن .

وقد يستعير أحدهم بيتاً بكامله ممن تقدمه ولا يغير فيه إلا قليلاً وربما كان التغيير من أجل القافية . وإليك هذا المثال :

---

(١) في الأدب الجاهلي ٢٨١ .
(٢) ديوان الحطيئة ٣٨٤ .
(٣) ديوان كعب ١٥ .
(٤) ديوان أوس ٦٧ .
(٥) ديوان الحطيئة ٣٧٦ .
(٦) ديوان زهير ٨ و ٢٩٤ .
(٧) ديوان كعب ١٩١ .
(٨) ديوان طفيل ٨٢ .

قال أوس :[1]

ورأســا كــدن التجــر جأبــاً كأنما رمـى حاجبيـه بالحجــارة قـاذف

وقال كعب :[2]

ورأسـا كدن التجــر جـأبــا كأنمـا رمـى حاجبيـه بالجــلاميـد راجم

وقال أوس :[3]

كـلا منخــريـه سائفـا أو معشراً بمــا انفضّ من ماء الخياشيم راعف

وقال كعب :[4]

كـلا منخــريه سائفـاً ومعشــراً بمــا انصــب من ماء الخياشيم راذم

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة لأنها وضحت أتمَّ توضيح هذه العلاقة اللغوية المشتركة بين عبيد الشعر .

***

(١) ديوان أوس ٧٣ .
(٢) ديوان كعب ١٤٣ .
(٣) ديوان أوس ٧٣ .
(٤) ديوان كعب ١٤٤ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفصل الثاني

الصورة الشعرية

في شعر هذه المدرسة الوصفي الذي درسناه فيما مضى من الصفحات صور وافرة رائعة ولا ريب في أنها ـ في معظمها ـ تعتمد على الحس أكبر اعتماد. وهذا غير خاص بهم ، بل يشاركهم فيه شعراء الجاهلية عامة .

والشيء الذي يلاحظه الدارس لشعرهم هو الإكثار من الصورة والتأنق فيها . أما الإكثار منها فيدلك عليه أمران في غاية الوضوح والوفرة .

١) أولهما أن الموصوف الواحد يصور بأكثر من صورة في النص الواحد ، والمثال على ذلك ـ وما أكثر الأمثلة ـ وصف الحرب لزهير[١] الذي صورها فيه عدة صور متلاحقة .

٢) ثانيهما أنك إذا نظرت في قصيدة من شعرهم راعتك الوفرة في الصور ، بل كثيراً ما ترى أداة التشبيه مكررة في كل بيت كما في قول الحطيئة :[٢]

حرجا يلاوذ بالكناس كأنه ... متطوف حتى الصباح يدور
فالماء يركب جانبيه كأنه ... قشب الجمان وطرفه مقصور
حتى إذا ما الصبح شق عموده ... وعلاه أسطع لا يرد منير
أوفى على عقد الكثيب كأنه ... وسط القداح معقب مشهور
وحصى الكثيب بصفحتيه كأنه ... خبث الحديد أطارهن الكير

(١) ديوان زهير ١٨ ـ ٢١ .
(٢) ديوان الحطيئة ٣٧٧ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أما التأنق في الصور فقد جلا جانباً منه الدكتور شوقي ضيف وذلك في حديثه عن زهير قال :

(ولعلّ أول ما يسترعى الباحث في عمل زهير أنه يعنى بتحقيق صوره فهو لا يأتي بها متراكمة كما كان يصنع امرؤ القيس بل يعمد إلى تفصيلها وتمثيلها بجميع شعبها وتفاريعها وكأنه يبحثها ويحققها . انظر إلى قوله في وصف بعض النسوة : [1]

تنازعها المهاشبها ، ودرّ النـ ـحور ، وشاكهت فيها الظباء
فأما ما فويق العقد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء
وأما المقلتان فمن مهاة وللدر الملاحة والصفاء

فإنك تلاحظ أن زهيراً لم يكتف بأن يشبه صاحبته بالظباء والمها والدر جملة ، بل رجع إلى تفصيل ذلك وتحقيقه ، فجعل للظباء ما فويق العقد ، وجعل للمهاة عينيها وللدر الملاحة والصفاء وهذا هو معنى ما نقوله من أن زهيراً كان يحقق صوره . ولم يكن يعتمد قبل كل شيء على أن تكون الصور واسعة هذه السعة التي تتضمن التفصيل والتفريع ، وكأنه يريد أن يحملها أكثر طاقة ممكنة في التعبير والتمثيل ، وكان لزهير مهارة خاصة في استخدام الألفاظ والعبارات المثيرة التي تجعل المنظر كأنه يتحرك أمام أعيننا ، وانظر إلى قوله في وصف صيد وحكايته للغلام الذي أنبأه به : [2]

إذا ما عدونا نبتغي الصيد مرة متى نره فإننا لا نخاتله
فبينا نبغي الصيد جاء غلامنا يدب ويخفي شخصه ويضائله
فقال : شياه رائعات بقفرة بمستأسد القريان حوّ مسايله
ثلاث كأقواس السراء ومسحل قد اخضرّ من لسّ الغمير جحافله)[3]

ويمضي الدكتور شوقي يحلل هذا النص ويلفت النظر إلى نواحي الإبداع فيه ويذكر أنه استطاع أن يبث الحياة والحركة في تصويره بنفس صياغته وتعبيره . ويذكر

(١) ديوان زهير ٦١ .
(٢) ديوان زهير ١٣٠ - ١٣١ .
(٣) الفن ومذاهبه في الشعر ٢٤ .

الدكتور شوقي أن زهيراً كان يعنى بتصويره عناية شديدة ويحكم هذا التصوير تارة بتفصيله وتارة بتلوينه وأخرى باستخدام العبارات التي تعطيه قوة المنظور ، وكان يعينه على ذلك معرفة بدقة الكلمة التي تلائم الوصف .[1]

وهذا الكلام ينطبق على بقية أعضاء مدرسة عبيد الشعر . وما أكثر ما نجد عندهم الصور المتأنقة الممتعة كتشبيه النعام حين يمشي بالجواري المسربلة بالجبب وذلك في قول أوس :[2]

تمشى بها ربد النعام كما تمشى إماء سربلت جببا

وفي هذه الصورة أيضاً النظرة الرفيعة إلى الحيوان .

وقريب من هذا ما نجده عند طفيل الذي يشبه النوق بعذارى قريش ويقول : إنه لا فرق بينهما إلا أن هذه العذارى لم توشم . يقول :[3]

تسوف الأوابي منكبيه كأنها عذارى قريش غير أن لم توشم

ومن الصور التي يبدو فيها التأنق تشبيه الحطيئة جرع البعير للماء بالصوت الذي يحصل عند اصطدام الجدول بالساقية وذلك في قوله :[4]

وإن عبّ في ماء سمعت لجرعه خواة كتثليم الجداول في الدبر

وتقرر هذه الصورة أيضاً معرفة القوم لأنماط من توزيع المياه الجارية والجدول والساقية . . .

***

وللصورة في الوصف شأن وأي شأن ، فقد تغنيك الصورة عن كلام طويل . . بل إنها الدعامة الأولى في الوصف في كل عصر .

(١) انظر الفصل « زهير ومذهب الصنعة » من ٢٤ - ٣٢ من كتاب الفن ومذاهبه في الشعر .
(٢) ديوان أوس ١ .
(٣) ديوان طفيل ٧٨ .
(٤) ديوان الحطيئة ٣٦٦ .

إن الصورة تستطيع أن تعبر عن المشهد المنظور كما تستطيع أن تعبر عن المعنى المجرد والحالة النفسية على وجه دقيق وموضح يؤثر في نفس السامع والقارىء تأثيراً كبيراً . ولأضرب على ذلك مثلاً قول زهير في تبيان مخاطر الحرب ، إن إدراك مخاطرها أمر معنوي يحتاج إلى تجريد ربما لا يتيسر لعدد كبير من الناس لو أنها عرضت بأسلوب فكري يعتمد المحاكمة المنطقية والاستنتاج العقلي ، ولكن تصوير الحرب بالنار التي يشاهدها كل إنسان يجعل المعنى الذهني أكثر وضوحاً ، فهو يعلم أن معظم النار يكون من مستصغر الشرر . . وكذلك الشأن في الصور الأخرى التي أوردها زهير لتبيان مخاطر الحرب وأضرارها .

وقد قرر الإمام عبد القاهر الجرجاني أن الصورة تزيد في قيمة الأثر الأدبي لأنها تكسو المعاني أبهة وترفع من أقدارها ، وتضاعف قواها في تحريك النفس فقال : (فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهزّ للعطف ، وأسرع للالف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح وأوجب شفاعة للمادح وأقضى له بغر المواهب والمنائح . . . وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر . .)[1]

وذكر عبد القاهر السبب في استحسان النفوس للتشبيه أن (أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكني وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعماً يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام) .[2]

وهكذا يتحول المعنى الذهني بالصورة إلى حركة ملموسة محسّة مشاهدة وتتحول الحالة النفسية إلى مشهد حيّ متحرك كما رأينا في دراسة نص الخوف لكعب .[3]

---

(١) أسرار البلاغة ١٢٩ .
(٢) أسرار البلاغة من ١٢٩ - ١٣٧ .
(٣) انظر دراستنا له صفحة ١٠٩ من هذه الرسالة والنص في ديوان كعب ٢٠ - ٢٣ .

والدراسة الحديثة للصورة لا تقتصر في فهمها على ما كان عليه الأولون من حصرها في الاستعارة والمجاز والتشبيه ، وإنما يجاوزون ذلك إلى التصوير بالايقاع وجرس الكلمات وموسيقى الجمل ، وكثيراً ما تكون القصة والحوار وسيلة فعالة تساعد في إبراز معالم الصورة .

لو ذهبنا نفصل القول في كل صورة وردت في دواوين عبيد الشعر لاستغرقت دراستها حيزاً كبيراً جداً ، لأن عدد الصور التي جمعتها كثير . . من أجل ذلك سنقتصر على دراسة بعض النماذج لتوضح الأمور الآتية :

التقليد والإبداع في الصور الواردة في شعرهم ، ودلالة الصورة على الوسط الذي نشأ فيه هؤلاء الشعراء ، والصور المتحركة والتشخيص والكناية والإيقاع والقصص .

***

في موضوع الاقتباس والإبداع تبرز عدد من القضايا الأدبية الكبيرة منها موضوع السرقات ، فقد رفض القاضي الجرجاني أن يتابع النقاد الآخرين في ادعاء السرقة على الشعراء الذين يتناولون صورة واحدة هي نتاج بيئتهم الطبيعية أو تكون متعلقة بعاداتهم الاجتماعية ، ويضرب القاضي لذلك مثلاً خاصاً بتشبيه الأطلال بالخط الدارس .

وشعراؤنا أبناء بيئة طبيعية واحدة ، وأعضاء مدرسة واحدة ، فلا عجب أن تتكرر الصورة عندهم . يقول الدكتور هدارة :

(وإن كان الفنانون في الغالب الأعمّ ينسون محاولاتهم السابقة ويغفلون قراءتهم وتأملاتهم ومشاهداتهم تلك التي تدور حول الفكرة التي تراود أذهانهم . وهذه التربة التي تهيأ للإلهام لينبت فيها عبارة عن إشباع الذهن بكل ما يدور حول الفكرة وقد ترجع مراحل الإشباع إلى سنوات عديدة قبل أن يهبط الإلهام) .[1]

(١) مشكلة السرقات ٢٧٤ .

إلى أن يقول :

(ومن هذا كله يتبين لنا أن عملية الإبداع الفني ليست في الواقع عملية مفاجئة بالنسبة للشاعر ، بل إنه يكون مستعداً لها نفسياً وذهنياً بطريقة شعورية أو لا شعورية وأن المادة التي يجرى الإلهام بها قلمه هي نتاج قراءاته القديمة وتأملاته ، والصور التي يتضمنهاإنتاجه الفني لا بدّ أن تكون مختزنة في ذاكرته) .[1]

وبناء على هذا فليس كل تشابه نجده في نتاج هؤلاء الشعراء اقتباساً وشعراؤنا كان بعضهم راوية لبعض ، وكانوا يديمون النظر في أشعار من تقدمهم ويحفظونها ويروونها ، فلصقت معانيها وصورها بنفوسهم وترسخت في حوافظهم .

ووجدت في دراستي أن الصور المتشابهة في شعرهم أنواع فمنها ما هو مقتبس مسروق كالأمثلة التي ذكرتها في آخر الفصل السابق ، ومنها ما أخذه المتأخر منهم كالحطيئة وكعب وأضاف عليها زيادة وتحسيناً ، ومنها ما هو حق مشاع وهو ما كان نتاج البيئة .

إن مادة الصور التي يمدهم بها خيالهم مستقاة من : بيئتهم البدوية ، ومن اتصالهم بألوان من الحضارة ، ومن بعض الخرافات ، ومن محفوظاتهم لشعر الذين تقدموهم .

● ويبدو أن أكثر صورهم مستقى من البيئة البدوية التي نشؤوا فيها ، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة .

- في البادية شجر قوي يدعى المران ، وهو صلب متين تتخذ منه قناة الرمح ، وقد شبه زهير رأس فرسه بأسفل القناة المتخذة من شجر المران فقال :[2]

صعل كسافلة القناة من الـ مرّان ينفى الخيل بالعذم

وإيقاع كلمة (صعل) القاسي يساعد في رسم معنى الصلابة والشدة .

---

(١) مشكلة السرقات ٢٧٥ .

(٢) ديوان زهير ٢٥٥ .

- وعندهم في بيئتهم تمر يدعى القسب ، اشتهر نواه بالقسوة والصلابة فعندما أراد أوس أن يصف كعوب رمحه بالصلابة شبهها بنوى هذا التمر فقال : (١)

أصمّ ردينياً كأنّ كعوبه نوى القسب عرّاصا مُزَجًّا منّصلاً

- وفي أشجار باديتهم شجر له حلق يقال له القفعاء ، فشبه كعب حلقات الدرع المتداخلة بها فقال : (٢)

بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق القفعاء مجدول

- وكان لدى صبيانهم ألعاب معروفة كالخذروف والمريخ ، وقد كانت مادة يستقون منها صورهم ، فهذا طفيل يقول : (٣)

يذيق الذي يعلو على ظهر متنه ظلال خذاريف من الشد ملهب

وهذا أوس يقول : (٤)

وودّع اخوان الصفاء بقرزل يمر كمريخ الوليد المقزع

- ومن الصور التي أملتها البيئة هذه الصورة التي نجدها عند شعرائنا وغيرهم وهي أنهم عندما يريدون أن يقرروا سمن الدابة يعبرون عن ذلك بأن القراد لا يستطيع أن يثبت عليها ولا أن يرتقى لملاستها لأن جسمها لامتلائه أصبح كالصفوان .

قال زهير : (٥)

غيظ على مجذى القراد كأنما بجانب صفوان يزل ويرتقي

وقال كعب : (٦)

زهراء مقلتها تردد فوقها عند المعرس مدلج القردان

(١) ديوان أوس ٨٣ .
(٢) ديوان كعب ٢٤ .
(٣) ديوان طفيل ٢١ .
(٤) ديوان أوس ٦١ .
(٥) ديوان زهير ٢٤٦ .
(٦) ديوان كعب ٢١٩ .

أعيت مذارعها عليه كأنما تنمي أكارعه على صفوان

وقال الحطيئة :[1]

يسرى القراد عليها ثم تزلقه منها مغابن مسودّ بها العرق

- ومن الصور التي يظهر فيها أثر البيئة تشبيه الحطيئة العين بعين الصقر .[2] وتشبيه طفيل النساء بالأشجار التي ليست سواء ، فمنها الحلو ومنها المر فقال :[3]

إن النساء كأشجار نبتن معاً منها المرار وبعض المر مأكول

- ومن الصور التي يظهر أثر البيئة واضحاً فيها صورة الغرابيل يصب فيها الماء . . فماذا تمسك من ذلك ؟ إنها لا تمسك شيئاً . يقول كعب : وهكذا سعاد لا تستمسك بالوصل إلا كما تمسك الغرابيل الماء :[4]

وما تمسك بالوصل الذي زعمت إلا كما تمسك الماء الغرابيل

إن من يصدق زعمها مضلل . ويذهب خيالنا ليتصور أحمق مضللاً يرجو أن تمسك له الغرابيل ماء مصفى يقول :

فلا يغرنك ما منت وما وعدت إن الأماني والأحلام تضليل

● ومنها تشبيه جرع الأتن بشكل متواتر بقاذفين يرمون بئراً بحصى . . . فما أكثر ما شهدوا هذا المنظر . قال كعب :[5]

يبادرن جرعاً يواترنه كقرع القليب حصى القاذفينا

● ومنها تصوير المنية بالناقة العشواء التي تؤذي من يصادفها ، ومن تخطئه ينجو

---

(١) ديوان الحطيئة ٣٨٤ .
(٢) ديوان الحطيئة ٧٠ .
(٣) ديوان طفيل ٦٠ .
(٤) ديوان كعب ١٩ .
(٥) ديوان كعب ١٠٨ .

يقول زهير :[1]

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمِتْهُ ومن تخطىء يعمر فيهرم

● ومما يتصل بالبيئة الصحراوية تشبيه فراخ القطا بجنى الحنظل في قول زهير :[2]

بها من فراخ الكدر زغب كأنها جنى حنظل في محصن متفلّق

وكذلك فقد شبه زهير[3] أفاحيص القطا بالأفاني ومادة الصورة كلها بدوية .

● وشبّه الحطيئة ألمه بالألم الذي يحسه من لدغته حية فقال :[4]

كأنني ساورتني يوم أسألها عود من الرقش ما تصغي لراقيها

وهو حتى يكمل الصورة وصف الحية بأنها رقشاء قديمة لا تصغي للرقاة .

***

هذا وتنبئنا الصور الجميلة التي وقفنا عليها أن القوم عرفوا ألواناً ومظاهر عديدة للحضارة ، فمن ذلك ما اجتمع عليه زهير[5] وكعب[6] والحطيئة[7] من تشبيه الأطلال بالكتابة .

وقد شبهوا الأطلال أيضاً تشبيهاً أقرب إلى البداوة وعاداتها عندما شبهوها بباقي الوشم ، ذكر ذلك طفيل[8] وزهير .[9]

---

(١) ديوان زهير ٢٩ .
(٢) ديوان زهير ٢٤٧ .
(٣) ديوان زهير ٢٤٩ .
(٤) ديوان الحطيئة ٢٠٢ .
(٥) ديوان زهير ١٢٦ .
(٦) ديوان كعب ٦١ .
(٧) ديوان الحطيئة ٣٧٦ .
(٨) ديوان طفيل ١١١ .
(٩) ديوان زهير ٤ و ٢٠٦ .

وازدواج المصدر يدل على أن هؤلاء الشعراء البداة اتصلوا بالحضارة وعرفوا كثيراً من مظاهرها .

***

وهناك صور مستقاة من أحوال عامة يشترك الناس فيها ، فهي تنبثق من الواقع ومن الأمثلة على ذلك الصورة التي نجدها في قول كعب .[1]

وخرق يخاف الركب أن يدلجوا به يعضون من أهواله بالأنامل

فالناس عندما يخافون ويهولهم الشيء تراهم يعضون أصابعهم

ومن ذلك قول الحطيئة[2]

ولما رأت من في الرحال تعرضت حياء وصدت تتقي القوم باليد

والنساء عندما يستحين يضعن أيديهنّ على وجوههن .

***

ونجد في شعرهم صوراً أملتها خرافات يعتقدونها فمن ذلك أن العرب تزعم أن الغول تتراءى لهم في الفلوات وتتلون لهم بألوان شتى فتضلهم عن الطريق ،[3] فاعتمد كعب هذه الأسطورة ليعبر عن عدم دوام المحبوبة على حال فقال :[4]

فما تدوم على حال تكون بها كما تلون في أثوابها الغول

***

(١) ديوان كعب ٩٤ وانظر صفحة ١٥٠ من الديوان .
(٢) ديوان الحطيئة ١٤٧ .
(٣) وقد جاء عن النبيﷺ ما ينفي هذه الأسطورة وذلك في الحديث الصحيح : « لا غول » انظر صحيح مسلم ٤ / ١٧٤٤ .
(٤) ديوان كعب : ٨ .

وأما الصور التي استقوها من محفوظاتهم فإنها كثيرة لأن العلاقة اللغوية والفنية بين أعضاء هذه المدرسة وثيقة كما قررنا ذلك آنفاً ، وقد تقدمت أمثلة كثيرة ، واكتفى بالمثل الآتي :

قال أوس يشبه عرق الناقة بالقطران : [1] (كأن كحيلاً معقداً أو عنية) .

وقال زهير : [2]

وتنضح ذفراها بجون كأنه عصيم كحيل في المراجل معقد

وقال كعب : [3]

أخرج السير والهواجر منها قطراناً ولون رب عصيراً

***

مما أتقنه شعراء هذه المدرسة الصورة المتحركة التي تفيض بحيوية تستحوذ على الإعجاب وتملك القلب .

● فمن ذلك قول طفيل يقرر سمن النوق الحوامل : [4]

وقد سمنت حتى كأنَّ مخاضها تفشغها ظلع وليست بظلَّع

يعنى أن هذه النوق الحوامل قد سمنت حتى بدت في مشيتها أنها عرجاء ، لأنها لا تقوى على المشي وتميل ميلاً شديداً ، وما هي بعرجاء .

● ومن ذلك قول كعب يصف الغراب : [5]

وحمش بصير المقلتين كأنه إذا ما مشى مستكره الريح أقزل

(١) ديوان أوس ٦٤ .
(٢) ديوان زهير ٢٢٢ .
(٣) ديوان كعب ١٦٠ .
(٤) ديوان طفيل ٥٢ .
(٥) ديوان كعب ٥٠ .

يصف الغراب الذي يمشي مستقبل الريح فيبدو للناظر كأنه أعرج ، لأن الريح تصده وترده وهو يعالجها .

ومن ذلك صورة لمعان السيف وتردد توهجه كما يتردد النمل يهبط من ربوة إلى سهل أخافه البرد فأسرع المسير يقول أوس :(١)

كأنّ مدب النمـل يتبـع الربى ومـدرج ذر خاف بردا فأسهلا

● ومن ذلك حديث زهير عن السراب الذي يتراءى للمسافر تارة ويختفى تارة أخرى ، فقد شبهه بالسيوف التي تتلاقى حيناً فتبدو . . ثم تتراجع حيناً فتختفى . إنها صورة موفقة جداً وقد جمعت اللون والحركة . فالسيوف تلمع والسراب يلمع ، وهذه يقترب بعضها من بعض وتتباعد . . وكذلك السراب يقول :(٢)

قطعـت إذا ما الآل آض كأنه سيوف تنحـى نسفـة ، ثم تلتقى

● ومن هذه الصور المتحركة الحية هذه الكناية الرائعة التي جاءت في شعر الحطيئة ، فهو يقرر شرف محبوبته وعزها وعلو شأنها ووجود من يقوم بخدمتها . . فعبر عن ذلك بقوله : إنها لا تقوم بأعلى الفجر تنتطق .(٣)

● ومنها هذه الصورة التي عبر بها زهير عن علوّ الفرس فذكر أن ملجمه لا يستطيع أن يمسك برأسه إلا إذا وقف على أنامله وأمشاط رجليه فقال :(٤)

وملجمنـا مـا إن ينـال قذاله ولا قدمـاه الأرض إلا أنـاملـه

***

وقد صور شعراؤنا كل ما أرادوا وصفه سواء أكان شيئاً محسّاً أم كان أمراً معنوياً فكرياً .

---

(١) ديوان أوس ٨٥ .
(٢) ديوان زهير ٢٤٨
(٣) ديوان الحطيئة ٣٨٤ .
(٤) ديوان زهير ١٣٣

وصف كعب العقل أنه راجح كبير فقال إن عقولهم تزن الجبال رجاحة ورزانة :[1]

تـزن الجبـال رجاحـة أحـلامهم وأكفهـم خلـف مـن الأمطار

ووصف أوس الألمعي فعرضه بهذه الصورة الرائعة الجامعة فقرر أنه الذي إذا ظنّ أصاب الحقيقة وكأنه قد رأى وقد سمع . يقول[2] :

الألمعـيّ الـذي يظـنّ لـك الظـ ـنّ كـأن قـد رأى وقـد سمعا

ويعبر الحطيئة عن قدرة الممدوح على تذليل الصعوبات فأتى بهذه الصورة الرائعة قال :[3]

لا يصعـب الأمـر إلاّ ريـث يركبـه ولا يبيـت علـى مال لـه قسم

يزيد : لا يكاد ينظر في أمر فيجده صعباً وعراً فيتوقف فه إلا بقدر ساعة ركوبه من شدة بأسه وقدرته على تخطي العقبات .

● ويأتي أوس ليصف البخيل فيشبهه بالصخرة وأنه عندما جاء يمدحه أحسّ كأنه يلقى شعره على صخرة صماء لا يرتجى خيرها قال :[4]

كأنـي حلـوت الشعـر حين مدحته صفـا صخـرة صمـاء يبس بلالها

● ويعمد الحطيئة لتصوير الجليس الثقيل فيختار الكانون تلقى على المتحدثين فيقول :[5]

أغـر بالا إذا استـودعـت سـراً وكـانـونـا علـى المتحدثينـا

● ويعبر زهير عن القصر في الزمن بصفقة الكف ، فيقول : إنني لم أستطع أن أنام

---

(١) ديوان كعب ٢٦ .
(٢) ديوان أوس ٥٣ .
(٣) ديوان الحطيئة ١٦ .
(٤) ديوان أوس ١٠٠ .
(٥) ديوان الحطيئة ٢٧٧ .

في الطريق المخيفة إلا مدة يسيرة : [1]

فكصفقة بالكف كان رقادي

● من ذلك أن زهيراً صور لوم زوجته إياه بالإبر في الصدر تدخل تحت الجلد وصور تحمله لذلك بأنه لم يبد عليه أي أثر لأنه يكظم غيظه ولا يظهر عليه انفعال يقول : [2]

فيم لحت؟ إن لومها ذعر أحميت لوما كأنه الإبر
حتى إذا أدخلت ملامتها من تحت جلدي ولا يرى أثر

***

ومن التشخيص الرائع الموفق قول كعب يتحدث عن السهام بأنها سنّت كثيراً حتى أصبحت ممتلئة بالسم فشرقت يقول : [3]

شرقات بالسم من صلبيٍّ .

ومنه قوله : [4]

فلما رأين الجزء ودع أهله وحرّق نيران الصفيح ودائقه

والجزء أن تجتزىء بالرطب من الكلأ عن الماء ، ولكنه هنا شخص يودع أهله ويرحل . ومن ذلك قول طفيل يصور هزال الناقة بسبب السفر يقول : [5]

وحملت كورى خلف ناجية يقتات شحم سنامها الرحل

فالرحل ههنا حيوان يأكل وطعامه شحم السنام .

---

(١) ديوان زهير ٣٣٠ .
(٢) ديوان زهير ٣١٣ .
(٣) ديوان كعب ١٨٣ .
(٤) ديوان كعب ١٩٢ .
(٥) ديوان طفيل ١٠٨ .

ومن أجمل الكنايات قول زهير يصف الخوف الشديد من اجتياز طريق مخيفة صعبة :[1]

يصعد من خوفها الفؤاد ولا يرقد بعض الرقاد صاحبها

ومن الكنايات الشائعة المتداولة بين الشعراء قول كعب يصف الكرم السخي والقوة البالغة :[2]

والمنعمون المفضلون إذا شتوا والضاربون علاوة الجبار

ومن الكنايات الجميلة قول زهير يصف العناء الشديد الذي لاقته الخيل في السرعة والجلاد :[3]

غزت سمانا فآبت ضمّرا خُدُجا من بعد ما جنبوها بدّنا عُقُقا

يقول : إن القوم قادوا خيولهم سمينة حوامل ولم يرجعوا بها إلا هزيلة قد ألقت ما في أرحامها لغير تمام . وقد كرر إيراد هذه الكناية بأساليب أخرى في غير موضع .[4]

***

ومن طرائق التصوير الرائعة أن تعرض الفكرة من خلال قصة . كما نرى في النصّ الآتي . يقول الحطيئة :[5]

كدحت بأظفاري وأعملت معولي فصا دفت جلموداً من الصخر أملسا

وتشبيه البخيل بالحجر وارد وقد رأيناه عند أوس[6] ولنستمع إلى الحطيئة يقصّ

(١) ديوان زهير ٢٦٥ .
(٢) ديوان كعب ٢٩ .
(٣) ديوان زهير ٥٠ .
(٤) ديوان زهير ١٩٥ .
(٥) ديوان الحطيئة ٢٨٢ .
(٦) ديوان أوس ١٠٠ .

علينا ما اعترى هذا البخيل عندما أى الشاعر :

تشاغل لما جئت في وجه حاجتي وأطرق ، حتى قلت : قدمات أو عسى
وأجمعت أن أنعاه حين رأيته يفوق فواق الموت حتى تنفسا
فقلت له : لا بأس ، لست بعائد فأفرخ تعلوه السمادير مبلسا

إن هذه القصة تنتهي بسامعها إلى تصورللبخل الشديد مقرون بالازدراء والسخرية تعجز عنها ريشة الفنان الكاريكاتوري .

عندما أقبل الشاعر عليه تشاغل عنه أولاً ، لعله يغير قصده ، ولكنه عندما تأكد أنه متجه إليه أطرق ولم يعد يتحرك حتى ظنّ أنه قد مات أو قارب الموت . . فقد علاه شحوب المحتضر ، وجحظت عيناه ، وشرع يفوق فواق الموت ، ويشهق شهيقاً عالياً ، فأجمع عندئذٍ أن ينعاه . . حتى تنفس . . فعرف أن هذا قد حصل بسبب مجيئه . . فأشفق عليه من الهلاك وقال له :

مهلاً يا هذا . . هون عليك . . لا بأس عليك . . أنا ذاهب . . ولست بعائد . فردت هذه الكلمات الحياة إليه ، وهزّه الفرح حتى زاغت منه النظرات وعلته السمادير .

***

أما الإيقاع فقد تحدثت عنه في الفصل السابق وأكتفى بإيراد مثالين :

يقول زهير :[1]

صعل كسافلة القناة من الـ مران ينفى الخيل بالعذم

فالايقاع الشديد الصلب لكلمة (صعل) يشارك في رسم الصورة الشديدة الصلبة التي أرادها لرأس فرسه .

---

(١) ديوان زهير ٢٥٥ .

ومن ذلك كلمة (سملق) التي تعنى الأرض لا نبات فيها التي وردت في قول زهير :[1]

وبيداء تيه تحـرج العين وسطها مخفقـة غبـراء صرمـاء سملق

***

وقد يكرر أحدهم الصورة الواحدة في أكثر من موضع ، وربما لونها شيئاً من التلوين ، وأضاف إليها بعض الإضافات .

فالحطيئة شبه الأطفال الصغار بالأفراخ الزغب الحواصل فقال :[2]

ماذا تقـول لأفـراخ بذي مرخ زغـب الحواصـل لا ماء ولا شجر

وكرر الصورة ولكنه أدخل عليها بعض الزيادات ممّا جعلها تبدو كأنها صورة أخرى فقال :[3]

لزغـب كـأولاد القطـا راث خلقها على عاجـزات النهض حمـر حواصله

فقد شبه الأطفال الزغب بأولاد القطا التي تأخر نموها وأبطأ شبابها لسوء تغذيتها ، فأضحت عاجزة عن النهوض وهي حمر الحواصل .

وهناك رواية أخرى للبيت وهي (راث خلفها) بالفاء وتكون الصورة كما يأتي : إن هؤلاء الأطفال كأولاد القطا تأخرت أمهاتها في العودة إليها حاملة لها الماء وهي عاجزة عن النهوض ، حمر الحواصل .

● وقد يعدد الصورة فيعرض المعنى كل مرة بصورة جديدة مستقلة كما فعل كعب عندما وصف الشيب ، فقد شبهه مرة بالسهام النصل فقال :[4]

كـلانـا علتـه كبـرة فكأنمـا رمتـه سهـام فـي المفـارق نصّل

(١) ديوان زهير ٢٤٧ .
(٢) ديوان الحطيئة ٢٠٨ .
(٣) ديوان الحطيئة ٢٣٩ .
(٤) ديوان كعب ٤٢ .

والنصل : السهام التي ذهبت نصالها ، أي أن المشيب ألبسه خماراً ، فذهب السواد وبقي البياض .

وشبهه مرة أخرى برادف يركب خلف الشعر الأسود وهي صورة رائعة فقال :[1]

عاد السواد بياضاً في مفارقه لا مرحبا هابذا اللون الذي ردفا

وكما فعل طفيل في تصوير عرق الفرس ، فقد ذكر أن العرق بل جلدها حتى صار مثل ثوب المائح فقال :[2]

كأن على أعطافه ثوب مائح وإن يلق كلب بين لحييه يذهب

وشبه الفرس بالسبد وهو طائر إذا أصابه الماء جرى عنه سريعاً فقال :[3]

تقريبها المرطى والجوز معتدل كأنها سبد بالماء مغسول

وشبه الفرس في موضع آخر بالذئب الذي تعرض للمطر بالليل فأصبح مبلولاً فقال :[4]

كأنه بعد ما صَدَّرْنَ من عرق سيد تمطَّر جنح الليل مبلول

***

هذا ونجد بعض الصور التي لا تخلو من مبالغة ، ولكنها تبقى مبالغة ساذجة مقبولة فمن ذلك أن طفيلاً يصور كبر فم فرسه واتساعه بقوله لو ألقي كلب في فمه لذهب :[5]

كأن على أعطافه ثوب مائح وإن يلق كلب بين لحييه يذهب

(١) ديوان كعب ٧٠ .
(٢) ديوان طفيل ٢٧ .
(٣) ديوان طفيل ٥٧ .
(٤) ديوان طفيل ٦٠ .
(٥) ديوان طفيل ٢٧ .

ومن ذلك أن الحطيئة لمّا أراد أن يصور دقة الخصر كنى عن ذلك بأنها تخاف انبتات الخصر ما لم تشدّه . يقول :[1]

إذا ارتفقت فوق الفراش حسبتها تخاف انبتات الخصر ما لم تشدد

ومن ذلك أن زهيراً شبه عين الناقة الغائرة بسبب تعبها المتواصل بالبئر العميقة البعيدة الغور القليلة الماء فقال :[2]

وكأن أعينهن من طول السرى قلب نواكز ماؤهنّ منضب

ومن ذلك تشبيه كعب حاجب العين بالكهف في قوله :[3]

تنفي الظهيرة والغبار بحاجب كالكهف صينت دونه بصيان

***

(١) ديوان الحطيئة ١٤٧ .
(٢) ديوان زهير ٣٦٩ .
(٣) ديوان كعب ٢١٧ .

الخاتمة

درست الوصف عند عبيد الشعر ، فاقتضاني هذا أن أعرف بهم وأن أذكر زمن مدرستهم وأستعرض كلام النقدة القدامى فيهم ، فبينت أن أول من أطلق عليهم هذه التسمية هو الأصمعي المتوفى ٢١٦ ثم استعرضت كلام الباحثين المحدثين فيهم .

وذكرت أنسابهم وقررت أنهم جميعاً من مضر ، وحددت بقدر طاقتي أماكن سكناهم وذكرت أنها نجد وما حولها وقد يبلغون البحرين والحيرة ثم ذكرت خصائص مدرستهم وعرفت بكل واحد من الشعراء الخمسة الذين قصرت دراستي على شعرهم الوصفي وهم طفيل الغنوى وأوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى ، وكعب والحطيئة . . . واستطعت أن أكشف عن روابط محلية وقبلية كانت تربط أعضاء المدرسة بعضهم ببعض .

كانت هذه البحوث مقدمة الرسالة .

ثم شرعت في دراسة النصوص الوصفية فكان الباب الأول في وصف مظاهر الطبيعة الحية وتتمثل في الإنسان والحيوان ، وعقدت لكل منهما فصلاً .

أما الإنسان فقد وصفوه وصفاً واقعياً من حيث هو وكانوا يأبون المبالغة الممقوتة . وعنوا بوصف عناصر الشكل وظواهر الخلقة وبوصف المشاعر والأحاسيس والعواطف أثبت ذلك من خلال دراسة نصوصهم وانتهيت إلى أنه كان في وجدان الشاعر مثال للبطل . . وكان يحاول أن ينتقل بموصوفه إليه ، ولكن هذا الوصف كان يبقى في إطار الواقع الذي تسمح به الحياة العربية في عصرهم . وقد

عرضت نصوصاً في هذا المجال تعد من عيون الشعر العربي كمدح كعب للأنصار وكوصف البخيل للحطيئة .

وأوردت ما قالوه في أعضاء الإنسان ودرست ما جاء في شعرهم من وصف الحالات المتصلة بالإنسان .

ورأيت أنهم أكثروا من وصف الصياد والمرأة فخصصتهما بمزيد من التفصيل وأوردت وصفهم للظعائن وربطت ذلك بالواقع البدوى القائم على الارتحال وبالحياة الاجتماعية والاقتصادية للعرب .

وكان الفصل الثاني للحيوان ، وهو أحفل بحوث الرسالة مادة ، وقد استنتجت أن حيوانات وحشية كثيرة كانت توجد في أنحاء من الجزيرة كالأسود وحمر الوحش وبقره والغزلان وما إلى ذلك .

ودرست ما جاء من نصوص في وصف الحيوان الأهلي والوحشي والطيور ، وتبينّ جلياً أن العربي كان يتعاطف مع الحيوان عامة ومع الأهلي منه خاصة بل قد أوردت نصوصاً فيها تجارب بين الإنسان والحيوان الضاري .

وكانت الناقة أكثر الحيوان نصيباً من الوصف ، وقد عللت ذلك بأنها كانت أنس الشاعر في الفلوات ، تحمله ومتاعه ، وتصبر على الظمأ والتعب ، وتجود عليه بالوبر واللبن واللحم ، وهي ذلول لا تعصيه في رغبة .

وقد تحدثت في وصف الناقة عن أنواع النوق التي عني عبيد الشعر بوصفها وذكرت أنها أربعة : الناقة المركوبة ، وناقة السقاية ، والناقة الذبيحة والناقة البلية . ثم تحدثت عن أوصافها التفصيلية من حيث مظهرها فأوردت أوصافهم لأعضائها عضواً عضواً . ثم تحدثت عن أوصافها التفصيلية من حيث خصائصها فأوردت أوصافهم لسرعتها وصبرها وما إلى ذلك .

وقد وقفت من استعراضي لنصوص وصف الناقة على البراعة المتناهية والدقة البالغة والأناة المبدعة التي تميز بها عبيد الشعر .

وكانت الخيل الحيوان الثاني الذي حظي بعناية شعرائنا وذكرت أنهم كانوا في الارتحال والانتقال يستخدمون الإبل ولا يركبون الخيل وإنما يقودونها ويربطونها بالإبل ، وهذا يدل على مدى اهتمامهم بها ورغبتهم في ادخار جهدها وطاقتها ليوم الحرب أو الصيد أو السبق ورأيت دليلاً آخر على إكرامها وهو أنهم كانوا يسقونها اللبن وقد أوردت ما وجدت في شعرهم من أوصافها التفصيلية من حيث مظهرها ، ورأيت أن هذه الأوصاف تمثل الصفات المثلى للفرس . وقد درست وصفهم لأعضائها عضواً عضواً .

ثم أوردت ما وجدت في شعرهم من أوصافها التفصيلية من حيث خصائصها فذكرت نسبها وسرعتها وصبرها وبلاءها وترويضها .

وقد وجدت طفيلاً أكثر شعرائنا وصفاً للخيل ، ومعروف أنه كان يدعى طفيل الخيل .

ثم درست وصفهم للكلاب الذي ورد خلال وصف الصياد ، ومن هنا كانت الكلاب الموصوفة كلاب صيد .

وفي وصفهم لها لوحات تصويرية رائعة لمعارك عنيفة قامت بين الكلاب والثيران الوحشية ، وغالباً ما كانت هذه المشاهد تنتهي بمصرع الكلاب ، ورأيت مصداق ما قرر - الجاحظ من أن نهاية الكلب هي القتل في قصائد المديح . أما في الرثاء فله النجاة ويصرع الثور .

ثم شرعت بدراسة وصفهم للحيوان الوحشي وبدأت بثور الوحش وحماره وقد أتى وصفهما في ثنايا وصف الناقة وأبرز ما يواجهك في وصفهما هذه المعارك الضارية التي تقوم بين الصياد وكلابه من جهة وبين الثور أو الحمار .

ثم درست وصفهم للنعامة والظليم ثم وصفهم للذئب والأسد ثم استعرضت وصف الطيور عندهم ، وقد وصفوا القطا والصقر والغراب والبازي والحمام ، وكانت مشاهد حلوة من مطاردة الصقر أو البازي للقطاة .

***

أما الباب الثاني فهو وصف مظاهر الطبيعة الساكنة . وجعلته في فصلين .

الفصل الأول في دراسة وصف الأطلال والطريق والصحراء .

والفصل الثاني في دراسة وصف الحرب وأدواتها كالرمح والسيف والقوس والسهام والدرع .

وألحقت بهذا الفصل وصفهم لأمور متفرقة كالماء والغدير والسحاب والمطر والبرق والهاجرة والنار . . وما إلى ذلك . .

***

وخصصت الباب الثالث لدراسة الصورة الفنية في الوصف وجعلته في فصلين . أما الفصل الأول فدرست فيه الألفاظ وبحثت في غرابتها وحققت القول في الغرابة المعيبة ووقفت على أن هناك كلمات يظن المرء لأول وهلة أنها من الغريب المتروك ، لكنها ما تزال مستعملة في بعض اللهجات العامية . وبحثت في موسيقى الكلمة والجملة والبيت وأشرت إلى ما واجهت في شعرهم من زحافات قبيحة أثرت في موسيقى البيت . وبحثت أيضا في دلالة الألفاظ على البيئة التي كانوا يعيشون فيها . ثم أشرت إلى ظاهرة الإكثار من أسماء الأمكنة وأوردت طائفة من هذه الأسماء ثم تحدثت عن الألفاظ الدخيلة في شعرهم وعن علاقاتهم اللغوية فيما بينهم .

وأما الفصل الثاني فقد بحثت فيه الصورة الفنية وناقشت موضوع الإبداع والتقليد في الصور ودلالة الصورة على الوسط الذي تقلب فيه هؤلاء الشعراء وألمت بالصور المتحركة التي أكثروا منها وتحدثت عن التشخيص والتصوير بالإيقاع الموسيقى واستخدام القصة وسيلة من وسائل التصوير .

***

هذه أهم الموضوعات التي تضمنتها هذه الدراسة ، ولم أقصد في هذه الخاتمة إلى الاستقصاء خشية الإطالة .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

***

مَراجِع البحث

- ابن الأثير (علي بن محمد - عز الدين)
. الكامل في التاريخ - المطبعة المنيرية بمصر ١٣٤٨ .

- ابن الأثير (نصر الله بن محمد - ضياء الدين)
. المثل السائر - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحمد
مصطفى البابي الحلبي - مصر ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩

- ابن الأثير (المبارك بن محمد - مجد الدين)
. النهاية في غريب الحديث والأثر - تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد
الطناحي - إحياء الكتب العربية ١٣٨٣ .

- ابن بليهد (محمد بن عبد الله بن بليهد)
صحيح الأخبار عماّ في بلاد العرب من الآثار
الجزء الأول والثاني - مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٠ - ١٩٥١
الجزء الثالث - مطبعة الإمام - الجزء الرابع والخامس السعادة ١٩٥٣ .

- ابن حجر (أحمد بن علي) .
. الإصابة في تمييز الصحابة . مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨ - ١٩٣٩

- ابن خميس (عبد الله بن خميس)
. المجاز بين اليمامة والحجاز - دار اليمامة - الرياض ١٣٩٠ - ١٩٧٠

- ابن رشيق القيرواني (الحسن بن رشيق)
. العمدة في محاسن الشعر وآدابه - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة

حجازي بمصر ١٣٥٣ ـ ١٩٣٤ .

ـ ابن سلام (محمد بن سلاّم الجمحي)
. طبقات فحول الشعراء ـ تحقيق محمود محمد شاكر
دار المعارف بمصر ١٩٥٢ .

ـ ابن سنان (عبد الله بن محمد)
. سرّ الفصاحة ـ تحقيق عبد المتعال الصعيدي
مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٣٧٢ ـ ١٩٥٣

ـ ابن سيد الناس (محمد بن محمد)
. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير
مكتبة القدسى بمصر ١٣٥٦ .

ـ ابن سيده (علي بن اسماعيل)
. المخصّص . طبعة بولاق المصورة بالأوفست في بيروت .

ـ ابن الشجري (هبة الله بن علي أبو السعادات)
. حماسة ابن الشجري ـ تحقيق كرنكو ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ١٣٤٥ .

ـ ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله)
. الاستيعاب في أسماء الأصحاب
مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨ ـ ١٩٣٩

ـ ابن عبد ربه (أحمد بن محمد)
. العقد الفريد ـ تحقيق محمد سعيد العريان ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٤٠ .

ـ ابن الفارض (عمر بن أبي الحسن)
. ديوان ابن الفارض ـ دار صادر ودار بيروت
بيروت ١٣٨٢ ـ ١٩٦٢

- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)
. الشعر والشعراء . تحقيق أحمد شاكر ـ إحياء الكتب العربية بمصر ١٣٦٤ .
. عيون الأخبار طبعة دار الكتب المصورة بالأوفست .

- ابن كثير (اسماعيل بن عمر)
. البداية والنهاية ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١ ـ ١٣٥٨

- ابن الكلبى (هشام بن محمدى السائب الكلبي)
. الأصنام ـ تحقيق أحمد زكي ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٤ .

- ابن منظور (محمد بن مكرم)
. لسان العرب ـ دار صادر ودار بيروت ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦
. مختار الأغاني ـ المكتب الاسلامي بدمشق ١٣٨٣ ـ ١٩٦٤

- ابن هشام (عبد الملك بن هشام)
. سيرة ابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥ .

- ابن هشام (عبد الله بن يوسف) .
. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر دون تاريخ .

- أبو تمام (حبيب بن أوس)
. ديوان الحماسة طبع محمد سعيد الرافعي ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٦ ـ ١٩٢٧
. الحماسة الصغرى أو (كتاب الوحشيات) تحقيق الميمني تعليق محمود محمد شاكر دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .

- أبو زيد القرشي (محمد بن أبي الخطاب) .
. جمهرة أشعار العرب ـ مطبعة بولاق ١٣٠٨ .

- أبو عبيدة (معمر بن المثنى) .

. كتاب الخيل تحقيق سالم الكرنكوى ـ حيدر آباد ١٣٥٨ هـ .
. مجاز القرآن ـ محمد فؤاد سزكين ـ مكتبة الخانجي ١٩٥٤ م .

ـ إسماعيل الأنصاري .
. سند بانت سعاد والبحث العلمي . مطابع القصيم بالرياض ١٣٩٢ .

ـ الأعشى .
. ديوان الأعشى ـ تحقيق محمد محمد حسين ـ دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٢ .

ـ الأعلم الشنتمري (يوسف بن سليمان)
. شعر زهير بن أبي سلمى تحقيق فخر الدين قباوة . مطبعة الشرق لحلوح ـ حلب .

ـ الأصفهاني (حسن بن عبد الله)
. بلاد العرب ـ تحقيق حمد الجاسر ـ منشورات دار اليمامة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

ـ الأصفهاني (الراغب ـ الحسين بن محمد) .
. محاضرات الأدباء ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦١ .
. المفردات في غريب القرآن ـ تحقيق محمد سيد الكيلاني مطبعة مصطفى البابي الحلبى بمصر ١٩٦١ .

ـ الأصفهاني (علي بن الحسين)
. الأغاني ـ طبع دار الكتب بمصر .

ـ الأصمعي (عبد الملك بن قريب)
. الخيل ـ فينا ١٨٩٥ .
. الأصمعيات ـ تحقيق أحمد محمد شاكر عبد السلام هارون دار المعارف بمصر ١٣٧٥ ـ ١٩٥٥

ـ أوس بن حجر .
. ديوان أوس بن حجر ـ تحقيق محمد يوسف نجم . دار صادر بيروت ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧

- البحتري (الوليد بن عبيد الله)
. الحماسة ـ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ .

- بروكلمان
. تاريخ الأدب العربي ـ ترجمة عبد الحليم النجار دار المعارف بمصر .

- البستاني .
. مجموعة الروائع .

- البغدادي (عبد القادر بن عمر) .
. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ـ بولاق ١٢٩٩ هـ .

- البكري (عبد الله بن عبد العزيز) .
. معجم ما استعجم تحقيق مصطفى السقا ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٥ .

- بلاشير .
. تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ ترجمة إبراهيم الكيلاني دار الفكر ـ بيروت ١٩٥٦ .

- البهبيتي (نجيب محمد البهبيتي) .
. تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث ـ مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٧ .

- ثعلب (احمد بن يحيى) .
. شرح ديوان زهير ـ نسخة مصورة عن دار الكتب .

- الجاحظ (عمرو بن بحر) .
. البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعة الجنة التأليف والترجمة بمصر ١٣٦٧ ـ ١٩٤٨

. الحيوان ـ تحقيق عبد السلام هارون مكتبة مصطفى البابي الحلبي .

- جاد المولى (محمد أحمد جاد المولى - ومعه محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوي) .
. أيام العرب في الجاهلية - دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٢ .

- الجرجاني (عبد القاهر) .
. أسرار البلاغة - بتعليق أحمد مصطفى المراغي - مطبعة الاستقامة بمصر ١٣٦٧ .
. دلائل الإعجاز - دار المنار ١٣٧٢ .

- الجرجاني (علي بن عبد العزيز) .
. الوساطة بين المتنبي وخصومه - تصحيح أحمد عارف الزين مطبعة محمد علي صبيح ١٣٦٨ - ١٩٤٨ .

- جرجي زيدان .
. تاريخ الأدب العربي - تعليق شوقي ضيف .
مطابع دار الهلال بمصر ١٩٥٧ .

- جميل بن معمر .
. ديوان جميل . تحقيق حسين نصار دار مصر للطباعة .

- الحصري (إبراهيم بن علي) .
. زهر الآداب - تحقيق البجاوي - دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٥٣ .

- الحطيئة (جرول بن أوس) .
. ديوان الحطيئة - شرح ابن السكيت والسكري والسجستاني .
تحقيق نعمان أمين طه - مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٨ - ١٩٥٨ .

- دائرة المعارف الإسلامية .

- ذو الرمة (غيلان بن عقبة) .
. ديوان ذي الرمة - المكتب الإسلامي بدمشق ١٣٨٤ - ١٩٦٤ .
. ديوان ذي الرمة شرح أحمد بن حاتم الباهلي .

مطبوعات مجمع اللغة بدمشق ـ تحقيق عبد القدوس أبو صالح ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢ .

ـ رمضان عبد التواب .

. فصول في فقه العربية ـ دار الحمامي للطباعة بمصر ١٩٧٣ .

ـ الزبيدي (محمد مرتضى بن محمد) .

. تاج العروس في شرح القاموس ـ المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ .

ـ الزركلي (خير الدين الزركلي) .

. الأعلام . مطبعة كوستاتسوماس بمصر ـ ١٣٧٣ ـ ١٣٧٨ .

ـ الزمخشري (محمود بن عمر) .

. أساس البلاغة ـ تحقيق عبد الرحيم محمود ـ مطبعة أولاد أورفاند بمصر ١٣٧٢ ـ ١٩٥٣ .

. الجبال والأمكنة والمياه ـ تحقيق إبراهيم السامرائي .

مطبعة السعدون ـ بغداد ١٩٦٨ .

ـ الزنجاني (عبيد الله بن عبد الكافي) .

. شرح المضنون به على غير أهله مطبعة السعادة بمصر ١٣٣١ ـ ١٩١٣

ـ سركيس (يوسف اليان سركيس) .

. معجم المطبوعات العربية والمعربة ـ مطبعة سركيس ١٣٤٦ ـ ١٩٢٨

ـ السكري (الحسن بن الحسين أبو سعيد) .

. شرح ديوان كعب ـ دار الكتب بمصر ١٣٦٩ ـ ١٩٥٠ .

ـ سلام (محمد زغلول سلام) .

. تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري . دار المعارف بمصر ١٩٦٤ .

ـ السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله) .

. الروض الأنف ـ طبع طه عبد الرؤوف ـ شركة الطباعة الفنية بمصر ١٣٩١ ـ ١٩٧١ .

- سيبويه (عمرو بن عثمان) .
. الكتاب - بولاق بمصر ١٣١٧ .

- سيد حنفي .
. الشعر الجاهلي - مراحله واتجاهاته - المطبعة الثقافية بمصر ١٩٧١ .

- السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر - جلال الدين) .
. شرح شواهد المغني - مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٢٢ .
. المزهر - تحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوي - عيسى البابي الحلبى بمصر .

- شوقي ضيف .
. العصر الإسلامي - دار المعارف بمصر .
. العصر الجاهلي - دار المعارف بمصر .
. الفن ومذاهبه في الشعر .

- الصبان (محمد بن علي) .
. حاشية الصبان على شرح الأشموني مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

- الصفدي (خليل بن أيبك - صلاح الدين) .
. تشنيف السمع بانسكاب الدمع - مطبعة الموسوعات بمصر ١٣٢١ هـ .

- الطالبي (محمد الطالبي) .
. المخصص دراسة ودليل - المطبعة العصرية بتونس ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م .

- طه إبراهيم .
. تاريخ النقد الأدبي عند العرب - دار الحكمة بيروت .

- طه حسين .
. حديث الأربعاء - دار المعارف بمصر .
في الأدب الجاهلي - دار المعارف بمصر - الطبعة الرابعة .

- الطبري (محمد بن جرير) .
. تاريخ الطبري . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر .

- طفيل الغنوي.
. ديوان الطفيل الغنوي - تحقيق محمد عبد القادر أحمد - مطابع معتوق بيروت ١٩٦٨م.

- عبد الله بن الحسين (الملك) .
. جواب السائل عن الخيل الأصائل - المكتب الاسلامي بدمشق .

- العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله) .
. ديوان المعاني نشر مكتبة القدسي بمصر ١٣٥٣ .
. كتاب الصناعتين تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٥٢ .

- الغزالي (محمد بن محمد) .
. إحياء علوم الدين - مطبعة مصطفى البابي ١٣٥٨ .

- الغلاييني (مصطفى الغلاييني) .
. الثريا المضية في الدروس العروضية - بيروت ١٣٤٩ - ١٩٤٠
. جامع الدروس العربية بيروت ١٣٥٧ - ١٩٣٩

- الفيروزبادي (محمد بن يعقوب) .
. القاموس . مطبعة دار المأمون بمصر ١٣٥٧ .

- القالي (إسماعيل بن القاسم أبو علي) .
. الأمالي . الطبعة الأميرية بمصر .

- القلقشندي (أحمد بن علي) .
. صبح الأعشى - طبعة مصورة بالأوفست عن الطبعة الأميرية .

- القناوي (عبد العظيم علي القناوي) .

. الوصف في الشعر العربي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٦٨ ـ ١٩٤٩

ـ المباركفوري (محمد بن عبد الرحمن) .
. تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ـ طبع الهند ١٣٤٣ .

ـ المبرد (محمد بن يزيد) .
. الكامل في اللغة والأدب ـ مطبعة الاستقامة بمصر .
. نسب عدنان وقحطان ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٣٥٤ ـ ١٩٣٦

ـ مجلة الأديب البيروتية .

ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

ـ المرتضى (علي بن الحسين) .
. أمالي المرتضى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ نشر دار الكتاب العربي بيروت ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧ .

ـ المرزباني (محمد بن عمران) .
الموشح ـ تحقيق علي البجاوي ـ دار نهضة مصر ١٩٦٥ .

ـ المرزوقي (أبو علي بن حسن المرزوقي) .
. شرح ديوان الحماسة تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٥٣ .

ـ مسلم .
. صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ عيسى البابي الحلبي بمصر ١٣٧٤ ـ ١٩٥٥ .

ـ المفضل الضبي .
. المفضليات تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون .
دار المعارف بمصر ١٣٧١ ـ ١٩٥٢ .

- محمد أمين بغدادي .
. سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب - المكتبة التجارية بمصر .

- محمد بن عبد القادر الجزائري .
. عقد الأجياد في الصافنات الجياد - المكتب الإسلامي بدمشق ١٣٨٣ - ١٩٦٣
- محمد مندور .
. النقد المنهجي عند العرب - مطبعة الفكرة بمصر. ملتزم الطبع مكتبة النهضة المصرية - دون تاريخ
- الميداني (أحمد بن محمد) .
. مجمع الأمثال - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة ١٩٥٩م.

- نالينو (كارلو نالينو) .
. تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية .
دار المعارف بمصر ١٩٥٤ .

- نورى القيسي .
. الطبيعة في الشعر الجاهلي - دار الارشاد بيروت ١٩٧٥ .

- النويري (أحمد بن عبد الوهاب) .
. نهاية الأرب في فنون الأدب . مصورة بالأوفست عن طبعة دار الكتب بمصر .

- هدارة (محمد مصطفى هدارة) .
. مشكلة السرقات . المكتب الاسلامي بدمشق ١٣٩٥ - ١٩٧٥

- وافي (علي عبد الواحد وافي) .
. علم اللغة الطبعة الثالثة ١٣٦٩ - ١٩٥٠ مطبعة أحمد مخيمر بمصر .
. فقه اللغة الطبعة الثالثة ١٣٦٩ - ١٩٥٠ مطبعة لجنة البيان العربي .

- ياقوت الحموي .
. معجم البلدان - مطبعة صادر في بيروت .

- اليغموري (يوسف بن احمد) .
. نور القبس لمختصر المقتبس - تحقيق رودلف زلهايم .
المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٤ .

***

آثارُ المؤلّف المطبوعَة

١ ـ الحديث النبوي .

٢ ـ لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير .

٣ ـ من صفات الداعية .

٤ ـ التشريع الاسلامي وحاجتنا إليه .

٥ ـ سعيد بن العاص بطل الفتوح وكاتب المصحف .

٦ ـ أبو داود : حياته وسننه .

٧ ـ أبو نعيم وكتابه الحلية .

٨ ـ الابتعاث ومخاطره .

٩ ـ تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية .

١٠ ـ أم سليم .

١١ ـ أسماء بنت أبي بكر .

١٢ ـ الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القاري (تحقيق) .

١٣ ـ تحذير الخواص من أكاذيب القصاص للسيوطي (تحقيق) .

١٤ ـ أحاديث القصاص لابن تيمية (تحقيق) .

١٥ ـ الباعث على الخلاص من حوادث القصاص للعراقي (تحقيق).

١٦ ـ رسالة أبي داوود إلى أهل مكة (تحقيق) .

١٧ ـ الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة للكرمي (تحقيق) .

١٨ ـ مختصر المقاصد الحسنة للزرقاني (تحقيق) .

١٩ ـ القرامطة لابن الجوزي (تحقيق) .

٢٠ ـ الدرر المنتثرة للسيوطي (تحقيق) .

٢١ ـ كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزي (تحقيق).

٢٢ ـ التصوير الفني في الحديث النبوي.

٢٣ ـ فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر.

فهرس الموضوعات

خطة البحث ٣
مقدمة ٥
تمهيد ٧
من هم عبيد الشعر ٧
عبيد الشعر عند المتقدمين ١٢
عبيد الشعر عند المحدثين ١٤
١ ـ طفيل الغنوي ٢١
٢ ـ أوس بن حجر التميمي ٢٥
٣ ـ زهير بن أبي سلمى المزني ٢٨
٤ ـ كعب بن زهير ٣١
٥ ـ الحطيئة ٣٤

الباب الأول
وصف مظاهر الطبيعة الحيّة ٣٧

الفصل الأول : وصف الانسان ٣٨
ـ الأوصاف الداخلية المحمودة ٤٥
ـ الأوصاف الداخلية المذمومة ٥٠
ـ وصف الطفولة ٥٣
ـ وصف الشيخوخة ٥٥
ـ وصف اعضاء من الانسان ٦٠
ـ وصف الصياد ٦٤
ـ وصف المرأة ٦٩
ـ وصف الظعائن ٩٦
ـ وصف ظواهر أخرى متعلقة بالإنسان ١٠٣

الفصل الثاني : وصف الحيوان ١١٣

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- وصف الناقة ١١٦
أولا : أنواع النوق التي وصفوها ١١٨
ثانياً : أوصاف الناقة التفصيلية من حيث مظهرها ١٢١
تشبيه الناقة ١٤٤
ثالثاً : أوصاف الناقة التفصيلية من حيث خصائصها ١٤٩
- وصف الخيل ١٧٥
١ - أوصافها التفصيلية من حيث مظهرها ١٧٧
٢ - أوصافها التفصيلية من حيث خصائصها ١٩٨
- وصف الكلاب ٢١١
- وصف ثور الوحش ٢١٣
- وصف حمار الوحش ٢٢١
- وصف النعامة والظليم ٢٣٢
- وصف الذئب ٢٣٦
- وصف الأسد ٢٤٠
- وصف الطيور ٢٤٢

الباب الثاني
وصف مظاهر الطبيعة الساكنة ٢٥١

الفصل الأول : وصف الأطلال والطريق والصحراء ٢٥٢
١ - وصف الأطلال ٢٥٢
٢ - وصف الطريق والصحراء ٢٦٠

الفصل الثاني : الحرب وأدواتها وأشياء أخرى ٢٦٩
- أدوات الحرب ٢٧٣
- وصف أمور متفرقة ٢٨٣

الباب الثالث
الصورة الفنية في الوصف ٢٩١

الفصل الأول : الألفاظ ٢٩٢
الفصل الثاني : الصورة الشعرية ٣١٢
خاتمة ٣٣١
مراجع البحث ٣٣٧
فهرس الموضوعات ٣٥١

شبكة الألوكة - قسم الكتب